عالم الجاسوسية



إنقلاب
الكي. جي. بي.
الفاشل:
٣ أيام هزت العالم
(المقدمات والأسباب والمصير)

أجهزة الاستخبارات
العالميّة:
- نشأتها
- تطورها
- أبرز عملياتها

تأليف
مجموعة من المؤلفين

دار الحسام
للطباعة والنشر والتوزيع

عَالَمُ الجَاسُوسِيَّة

مصادر الكتاب

— Le Nouvel Observateur

— Saab — Moscow

— New York Times

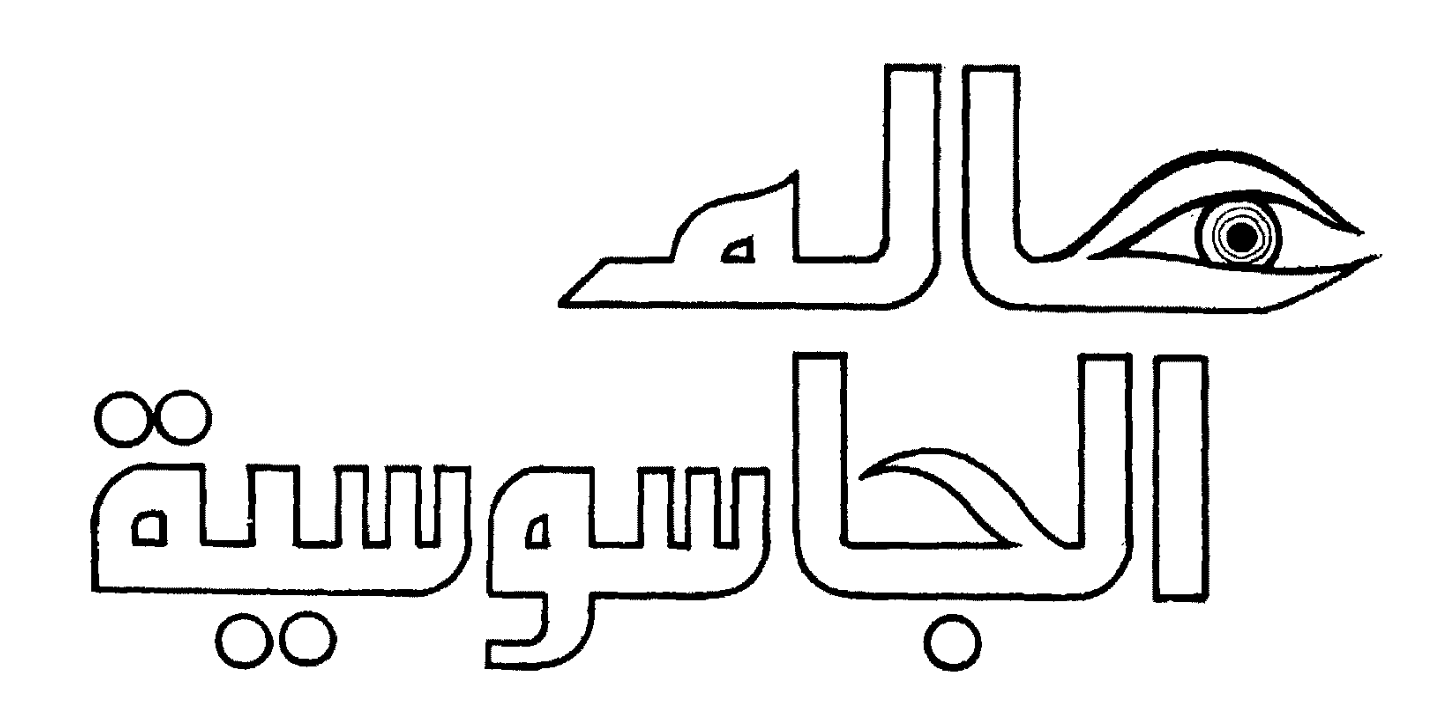
ـ وكالات الأنباء العالمية وصحف ومجلات عربية وعالمية .

— L'Evenement du Jeudi

ـ كتاب : الجاسوسية في العالم ـ دار الحسام ـ بيروت .

ـ كتاب : Spies For Sale «جواسيس للبيع»

ترجمة وإصدار دار الحسام ـ بيروت .



تأليف

مجموعة من المؤلفين



ص ب ١٤/٥٣٩٢

● عالم الجاسوسية.

● مجموعة من المؤلفين

● الطبعة الأولى: أيلول ١٩٩١

دار الحسام
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان
ص ب ١٤/٥٣٩٢

المحتويات

هذا الكتاب

تمهيد

... في البدء كان الحصان و الجمل ومن ثم أضحت الحمامة وسيلة جديدة للاتصال ونقل الشيفرة والرسائل.. وفي البدء أيضاً كان ـ الكشّاف ـ الجندي المتقدِّم العين الساهرة لدرء الأخطار ولتحديد حجم العدو، عدداً وعدّة، وكشف مخططاته ونواياه.

حروب نابليون وكذلك كل الحروب ما قبل القرن الماضي اعتمدت، بشكل أو بآخر، على هذه الحيوانات من أجل ممارسة عمليات التجسس حتى أضحى حصان طروادة المثال الصارخ على الخديعة والتمويه من أجل دحر الخصم في عقر داره.

في النصف الثاني من القرن التاسع عشر بدأت وسائل التجسس تتطوّر فاكتُشف البرق والبريد والقطار والمنطاد لتتبوّأ هذه الوسائل مراكزها في مهام التجسس المتطوِّرة.

مع بداية هذا القرن حلّت السيارة والطائرة وعمليات التصوير الجوي واستعمال الآلات الالكترونية واستخدام الأجرام الاصطناعية التي تدور حالياً في الأجواء العليا ناقلة كل حركة وكل همس، أضحت كل هذه الوسائل بديلة بل مكملة لما سبقها.

على الحدود الإيرانية ـ الروسية، وعلى ذمة وكالات الأنباء، كانت المخابرات الأميركية قد ركّزت راداراً متطوّراً جداً، رغم صغر حجمه، في الأراضي الإيرانية أيام حكم شاه إيران. مهمة هذا الرادار المرتبط بأجرام اصطناعية نقل ما يدور في كل الأراضي السوفياتية الشاسعة، وبلغت دقّة معلوماته حدّاً استطاع بمقدرته

الفائقة أن يصوِّر أرقام السيارات المتجوِّلة في شوارع موسكو وتمييز لوحاتها وألوانها.

قبل سقوط حكم الشاه استطاعت المخابرات المركزية الأميركية تفكيكه ونقله إلى مكان آمن كي لا يقع في أيدٍ غير أمينة!!

في الماضي كان الجاسوس مجرماً وخائناً حتى في نظر أبناء شعبه، ثم أضحى اليوم مثالاً للافتخار وللإعتزاز وللتكريم من قبل الدولة، وباتت الأفلام والروايات عن مغامرات الجواسيس وبطولاتهم أكثر من أن تعدّ وتحصى.

عالم الجاسوسية. . عالم مخيف مفزع تتصارع فيه كل القوى المتواجدة على هذه الأرض الشاسعة في كل زاوية. . في كل شارع. . في كل مدينة وقرية هناك قوى خارجية تتطاحن من أجل الوصول لمعلومة هنا أو شمّ رائحة هناك قد لا تعجبها فتعمل على كشفها وفضحها طالما هي تهدِّد مصالح دولها، وبالمقابل تغذّي وتمدّ كل القوى المتمرِّدة على نظام أو حكم أو سلطة في حالة عداء أو عدم اطمئنان مع دولها.

ومع بداية الانفراج الدولي الحالي الذي نشهده مع أفول هذا القرن أضحت عمليات التجسس لا ترتكز فقط على كشف القوى المعادية أو دعم القوى الحليفة أو تمرير المعلومات العسكرية عن قوة الخصم وكشف مخططاته بل أضيفت إليها مهام كشف وسرقة نقاط التقدم والتطور التكنولوجي عند الخصم للاستفادة منها في مجال التطور العلمي والاقتصادي.

وهكذا تطوَّر التجسس بشكل آلي، فتحوَّل من عمل عسكري تفرضه ضرورات الحرب، إلى عمل سياسي يرتبط بالإدارة، إلى عمل اقتصادي يدور حول الصناعة.

وهنا بدأ يبرز في العالم شيء جديد إسمه «التجسس الصناعي» وبرز لقب «الجاسوس الصناعي» حتى قيل إن «مارتا هاري» لو

عاشت حتى اليوم، لما اهتمَّت بمغازلة رئيس أركان جيش كاهتمامها بمغازلة مدير. . . مصنع!

وقد بدأ هذا النوع الجديد من الجاسوسية ينغِّص العيش على أصحاب المصانع بعد أن نغَّصت الجاسوسية العسكرية والسياسية العيش على كل من العسكريين والسياسيين. ويعرف أرشيف العالم المعاصر الآن آلاف القصص عن الأدمغة في صراعاتها من أجل الحصول على الأسرار الصناعية، وآلاف القصص عن العلماء ـ اللصوص.

حتى إن مؤسسة مشهورة في الولايات المتحدة قد اقترحت على أصحاب المصانع ـ وتبلغ ميزانية مكافحة الجاسوسية الصناعية فيها مليار دولار في السنة، تنفقها المصانع والمختبرات على حماية الاستكشاف العلمي الذي لا يتعدَّى رقمه ٢٢ ملياراً من الدولارات ـ بناء قاعة للاجتماعات مركَّبة يمكن فحص جميع أجزائها بالمجهر قبل تركيبها، حتى يكون المؤتمرون في مأمن من جواسيس الصناعة وكانت مؤسسة ثانية قد قدَّمت جهازاً الكترونياً عازلاً يخلق «قطاع صمت» حول مائدة الاجتماعات، وهكذا تطوَّرت الاختراعات في ميادين مكافحة الجاسوسية الصناعية وأصبحت منتجاتها الغريبة الهائلة تبدو وكأنها وليدة قصة وهمية من خيال ريشة فلمنغ، ولكن ما الجدوى طالما أن للجدران أو النوافذ آذاناً؟

أمَّا بعد. . .

. . . هذا العمل المتواضع يسلِّط الضوء على كل المخابرات العاملة في العالم: نشأتها، تطورها، أبرز عملياتها، علَّنا نضيف بذلك جهداً إضافياً هدفه أن نعرف كيف يفكِّر ويتصرَّف الآخرون، لعل ذلك بمثابة إنذار، من أجل أن يكون لنا، نحن العرب، مكان مرموق ومؤثر ضمن تصارع هذه القوى ومن أجل حماية حياتنا وأرضنا ومستقبلنا كي لا تقتلع آمالنا وتطلعاتنا مطامع الآخرين في أرضنا وخيراتنا.

الناشر

ثورة الاستخبارات

ثورة الاستخبارات

أثورة في الاستخبارات؟.

الثورة كلمة أطلقت بسخاء وفير على أمور كثيرة. العمال كانت لهم ثورة والفلاحون لهم ثورة والطلاب لهم ثورة والشعوب المكبوتة لها ثورة والمشردون لهم ثورة والعسكر لهم ثورة. قلائل هي الفئات التي لم تتحرك والتي لم تجد لها «عبقرياً» يفلسف لها ثورتها.

وماذا عن الاستخبارات؟ أليست لها ثورتها هي الأخرى؟

بلى. حتى الاستخبارات صارت فيها، ولها، ثورة.

جاء في الشرق والغرب من يعطي البراهين على أن الثورة في هذا العالم الخاص حاصلة فعلاً ومنذ منتصف الخمسينات. هذه الثورة ليست في طريقة القتال أو الرماية بل في حقول متعددة من نوع آخر: في الوسائل والأساليب وفي التطوير والاستحداث وحتى في النظرة الشاملة الى الجاسوس أو العميل وكذلك في نظرة الدولة الى الجاسوس الذي تقبض عليه والى عميلها الذي قبض عليه خصمها.

التجسس قديم قديم ولا يزال مستمراً وعلى تطور رهيب دون انقطاع.

التجسس كان أمراً اهتم به الانسان عبر كل تاريخه المسجل.

في توراة اليهود أن الله أمر موسى بأن يرسل أشخاصاً «للتجسس في أرض الكنعانيين» وتقدير مدى المقاومة التي يمكن أن تشكل عند محاولة الاسرائيليين تأسيس بلاد جديدة لهم.

في القرن الخامس قبل الميلاد تحدث الفيلسوف الصيني سون تزو في فصل كبير

عن «استخدام العملاء المسريين» في كتابه «فن الحرب». والفيلسوف استعمل منذ تلك الأيام تعبير «العميل المزدوج» في وصفه أنواع التجسس.

جنكيزخان كان لا يحارب الا اذا عرف مقدماً كل الاخبار المتعلقة بجيش العدو وبالأرض التي يرابط عليها وبأحوال تسلحه وتغذيته.

في كل القرون الماضية مارست الأمم والشعوب الكبيرة مهنة التجسس للدفاع عن مصالحها أو لدعم تلك المصالح. لكن التجسس كان محصوراً آنذاك بفترات الحرب، باستثناء بعض الدول التي حرصت على المحافظة على دوائر استخبارات واسعة في جميع الظروف.

وعبر العصور، قلما تغيرت فنون التجسس الأساسية، كما بقي الجاسوس «القاعدة التحتية» للمجتمع.

مونتيسكيو قال: «من الجائز القبول بالتجسس اذا ما قام به رجال ذوو شرف وشهامة لكن العار الذي يلتصق بالعميل هو جزء من عار الممارسة».

والنظرة التقليدية الى الجواسيس نابعة من التحقق من أن التجسس هو الظل المظلم لبعض ما فطر عليه الانسان في الأساس، أي المحافظة على النفس وعدم الثقة بمن يحيطون به.

واذا كان التجسس قديماً فان جهاز الاستخبارات الحديث والمنظم والممول يعتبر ظاهرة فريدة في أيامنا الحاضرة. والظاهرة الفريدة الأخرى كذلك هو أن الجاسوس المعاصر يعيش مرتاحاً في منزل لائق في ضاحية لندن أو باريس أو موسكو أو واشنطن، ناهيك ببيروت.

العصر الحديث يعيشه انساننا معلقاً بين الحرب والسلم. هذا الانسان المعاصر، كلما انفق من المال من أجل سلامته وجد نفسه أقل اطمئناناً على مصيره. الدول المعاصرة تسعى الى الحصول على السلاح من أجل حماية نفسها، لكنها تسعى أكثر فأكثر الى الحصول على المعلومات السرية حتى تطمئن الى أن حمايتها مؤمنة.

من هذا المنطلق يمكن القول أن الأجهزة الواسعة للاستخبارات التي تطورت بصفة خاصة خلال الحرب العالمية الثانية، استمرت قائمة وأدخلت عليها التعديلات والتطويرات اللازمة لتبقى جاهزة للعمل خلال الحرب الباردة.

الاستخبارات الحديثة تستطيع أن تقول عن نفسها انها الخط الدفاعي الأول في العصر الذري. انها، حسب كيفية تفسيراتها للمصالح الوطنية، تؤكد عن نفسها انها العنصر الأساسي في المحافظة على السلم والهدوء لأنها هي التي تموّن حكوماتها بالمعرفة المسبقة عن نوايا العدو أو على الأقل عن استعداداته.

ثورة في المهنة

تقليد تبادل الجواسيس الذي بدأ في أوائل الستينات، يبدو أنه سيستمر في المستقبل.

الخطوط الكبيرة في عالم الاستخبارات هي أن الجواسيس والعملاء الذين كانت حكوماتهم تسعى في الماضي الى تجاهل وجودهم رسمياً، صاروا الآن موضع تكريم وتعظيم، بل صاروا أبطالاً تنشر صورهم في المجلات وتؤخذ منهم الأحاديث والتصريحات ويقلدون الأوسمة الرفيعة ويشجعون على كتابة مذكراتهم. على الاجمال، صاروا يلقون معاملة لم تكن حتى في الحلم في الماضي القريب.

هذا الاتجاه نحو الاطراء على الجواسيس في الشرق والغرب كان تقدماً منطقياً في ثورة الاستخبارات. في البدء انطلقت المسألة من الاعتراف بوجود الجواسيس ثم تطورت الى مرحلة تبادلهم. مع هذه القفزات الى أمام، أدركت الحكومات انها، بانطلاقها الى هذا المدى، تستطيع في الوقت نفسه أن تكمل الطريق في هذا الاتجاه الى النهاية وان تقطف ثمار الفائدة الدعائية التي جنتها من منجزات عملائها السريين.

الثورة هي في هذه التفاصيل التي ورد سردها، وهي في تقدم «المهنة» الى حد فرض الاعتراف بها بل واحترامها وجعل الحكومات والدول المتخاصمة تسعى جهدها الى المحافظة على معنويات أجهزتها وعملائها بل وفتح المعاهد الخاصة والمتخصصة لتوفير التدريب اللازم.

الجاسوس عند بعض الدول قد يوفر ألف أو مليون جندي من الموت، وقد يؤدي عمله الى مقتل ألف أو مليون أو الى تغيير حكومة أو سقوط عهد وقيام عهد. الجاسوس الجيد قد يغني عن فعل عشرات الطائرات النفاثة وعشرات الصواريخ.

الجاسوس، في قمة «الثورة» التي حققها في مهنته، خفض حكم الاعدام عليه الى سنتين أو أربع من السجن يخرج بعدها طليقاً بعدما تبادله دولته بجاسوس سجين آخر.

هل يعني ذلك دعوة الى الناس للتجسس. كلا والف كلا. انه يعني التنبه والتيقظ الى كل ما يجري حول وتحت ووراء الأحداث اليومية في البلاد.

والثورة في عالم الاستخبارات هي في الوقت نفسه ثورة في عالم مكافحة الاستخبارات.

لا الاعدام ولا السجن يردعان ذلك الذي يريد أن يبيع بلاده.

عميل الاستخبارات الأجنبي يفشل في تحقيق أي نجاح حيث تقوم في البلاد جبهة اسمها محبة المواطنين لبلادهم. ولا يحب وطنه من كان مظلوماً، ممعوساً، مجرداً من حقوق أساسية، جائعاً، مرغماً على الاستعطاء وعلى الاستزلام.

الحر لا يمكن أن يصبح جاسوساً، مهما كثرت أمامه الاغراءات.

أما وان بلدان العالم ليست مؤلفة من الأحرار وحدهم، فان الجاسوسية والعمالة تنمو ان في مستنقعات وبؤرات كثيرة لا تخلو منها أية بلاد.

الناس أحرار في أن يقولوا ان هذا الزمن هو عصر الذرة. ولكن أليس هذا العصر أيضاً عصر الاستخبارات الذهبي والماسي والبلاتيني؟

من يتحكم بمن
الدولة أم الاستخبارات؟

اذا صارت الاستخبارات، كتعبير شامل، جزءاً أساسياً ضرورياً من الادارة الحكومية العامة لأى بلد، فما هو مبلغ فعلها وتفاعلها مع التخطيط العام المرسوم دستورياً لهذا البلد؟

عند هذه النقطة تكثر الخلامات في الرأى وتتوسع آفاق المناقشات.

المفروض أن تكون الاستخبارات واحدة من أجهزة الدولة واداراتها والمفروض أن تعمل هذه الاستخبارات بموجب التخطيط أو الهيكل العام الذي وضعته الدولة لعملها.

هذا الشيء يجري تنفيذه بالطبع. لكن ما يجري هو النقيض أيضاً.

الاستخبارات، برجالها، جزء من المجتمع. فالى أي حد تعتبر هذه القوة السرية نفسها قادرة على لجم نفسها، وهي على ما هي عليه من حرية في التصرف، حسبما كفل لها القانون ذلك؟

في أكبر الدولة الغربية أمثال متكاثرة على مدى الفضيحة التي يغرق فيها النظام بسبب حرية التصرف عند استخباراتها التي فاقت المعقول في تفسر مدى مسؤولياتها.

في الدول الشرقية أمثال على حالات كثيرة كانت فيها الاستخبارات أشبه بالهيئة الحاكمة، بل وكذلك المتحكمة، بسائر المواطنين.

وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية رتبت مؤامرات على عدد وفير من دول العالم الى حد أن البيت الأبيض وجد نفسه ملزماً في عدد وفير من المرات باصدار بيانات متناقضة حول مدى معرفته بهذه المؤامرات وتبنيه لها. الاستخبارات البريطانية

كانت لها فضائح مماثلة وكذلك الاستخبارات الفرنسية.

الاستخبارات السوفياتية التي كانت ذات يوم جهازاً واحداً مع الشرطة السرية الداخلية، كانت هي العنصر الأول في التنكيل والذبح والسحل خلال عمليات ترسيخ النظام وفي القضاء على الخصوم الداخليين أو في عمليات التطهير التي ذهب ضحيتها ملايين البشر في أواسط الثلاثينات.

عود على بدء: هل كانت هذه التصرفات في الغرب والشرق من تخطيط الاستخبارات وحدها أم أن الاستخبارات كانت تتلقى الأوامر للقيام بما كانت تقوم به.

الأوامر، ولا شك، أعطيت بشكل من الأشكال. الاستخبارات راحت تتصرف بما لها من قوة سرية رهيبة، وتضيف تفسيراتها ووسائلها هي في السر على خط لم يرسمه لها الآمر الأول أو المسؤول الأول في الدولة.

الأمثال على ذلك كثيرة.

الملف الخاص الذي هو عن وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية يفرد مجالاً خاصاً للحديث بالتفصيل عن مدى ارتداد هذه الوكالة للعمل ضمن أراضي الولايات المتحدة مع أن مهمتها الأساسية قانوناً وحكماً هي العمل خارج الأراضي الأميركية.

الملف الخاص الذي هو عن الاستخبارات السوفياتية سيشرح كيف أن هذا الجهاز يشرف قانوناً وحكماً على عدد وفير من المؤسسات الحكومية ضمن الأراضي السوفياتية كحراس الحدود وحراس الكرملين ودائرة جوازات السفر.

من يحكم من؟ ومن يتحكم بمن بعد تطور الصلاحيات وتوسع مجالات العمل والتدخل والتداخل؟

هذا السؤال مطروح، ليس في الدول الكبرى من شرقية وغربية فحسب، بل كذلك في دول العالم الثالث حيث تأخذ المسألة ابعاداً رهيبة.

في ٩٩، ٩٩ بالمئة من دول العالم الثالث يعتبر السؤال مطروحاً. هل الحاكم هو الذي يأمر الاستخبارات أم أن الاستخبارات هي التي تتحكم بالحاكم، أو بالحكم أو

بالنظام من وراء الحاكم؟ كثيرون من مفكري هذه الدول طرحوا هذا السؤال وعرفوا له جواباً لكنهم كانوا عاجزين عن التحرك وطرح المسألة للنقاش العام.

ليس أسهل على الاستخبارات في الكثرة الساحقة من دول العالم الثالث من أن تسيطر على وسائل الاعلام من تلفزيونية واذاعية وصحافية وليس أسهل عليها من شراء أصحاب العلاقة كباراً وصغاراً وليس أسهل عليها من اقناع هؤلاء بأن ما يفعلونه لمصلحتها انما هو العمل المفيد لمصلحة البلاد ككل.

هذا الارتداد الى داخل كان بالنسبة الى الاستخبارات القائمه في بعض دول العالم الثالث بمثابة متنفس لها لاثبات وجودها. أكثر دول العالم الثالث ليست قادرة، لا مالياً ولا أدبياً، على ملاحقة شؤون غيرها مهما بلغت بها الحاجة الى ذلك. استخباراتها في هذه الحال تتحول من عنصر يلاحق العدو الخارجي الى عنصر ينكل بالخصم الداخلي.

وتتطور الأمور وتتحول الاستخبارات من عنصر تنكيل لحساب غيرها الى هيئة شبه مستقلة تفتح دكانها على حساباتها من أجل التنكيل والتحكم الى الحد الذي يصبح فيه «أعيان البلاد ووجهاؤها» كلاباً عندها يأتمرون باوامرها وينفذون ما تريده منهم وينبحون باسمها كلما هزت لهم العصا.

الحصول على المعلومات الاستخبارية:
آلات الكترونية وتنويم مغناطيسي

للحصول على المعلومات الاستخبارية وسائل لا تحصى.

أولاً الأمور البديهية هو أن يفتح العميل اذنيه وعينيه. الكلمة الشاردة من هنا والرؤية العفوية من هناك تؤديان في النهاية الى تجميع عناصر مهمة للخير ـ المسألة.

(١) السمع والنظر المجردان باتا في العصر الحديث غير كافيين.

(٢) هذه الأيام صارت الحاستان مدعومتين بالآلات الدقيقة.

من أراد أن يسمع ما يجري في مبنى مغلق فما عليه هذه الأيام الا الوقوف في مبنى بعيد حوالي المئتي متر وان يصوب آلات السمع الخاصة الى المكان المقصود ليسمع كل شاردة وواردة فيه.

من كان بامكانه الدخول الى المكان الذي سيجري فيه الحديث بعد قليل فما عليه الا أن يترك فيه جهازاً بحجم حبة الفاصوليا ثم يخرج. من سيارته الواقفة على بعد مئة وخمسين متراً عن المكان، يستطيع أن يلتقط الكلام الذي ينقله اليه هذا الجهاز.

هذه الأجهزة الصغيرة يمكن تركيبها في الحيطان وفي قطع الاثاث وحتى تحت البلاط وفي قلب سماعة الهاتف بل كذلك دحشها في أحد الكتب أو حتى في الزر الذي يضاء به المصباح الكهربائي أو حتى في منفضة السجائر. الاستعمالات كثيرة جداً وكلها ممكنة بسبب صغر حجم الجهاز ونوعه.

وهناك كذلك أجهزة أصغر. انها على شكل زر الجاكيت أو الخاتم أو مركبة في في ساعات اليد أو موضوعة في كعب الحذاء أو في قلم الحبر أو في ولاعة السجائر

الصغيرة. انها تلتقط الحديث وتبثه الى أمكنة ترواح في بعدها بين المئة والمئتي متر حيث يكون الجهاز اللاقط الموصول بآلة التسجيل.

طبعاً هنالك ما هو أعظم.

كلنا بات يعلم أن أكثر مقرات رئاسة الجمهورية أو رئاسة الحكومة أو وزارة الدفاع أو وزارة الخارجية أو السفارة صارت فيها غرف خاصة يقال لها غرفة المداولات السرية التي لا تخرقها الآلات القوية. هذه الغرف تكون بلا شبابيك ومصفحة بحيطان سميكة من الأسمنت ومحاطة كذلك بآلات خاصة تمنع الذبذبات الغريبة من الوصول الى داخلها والذبذبات الداخلية من الوصول الى الخارج.

لماذا كل هذه الاحتياطات؟

انها ضرورية لأن الاجرام الاصطناعية تدور في الفضاء الخارجي حول الأرض وتسترق السمع على أفضل حال بحسب التوجيه الأرضي الذي تفرضه عليها الدول التي أطلقتها الى أمكنتها.

ثمة من يقول أن الفلك «تقلعط» من كثرة اجرام التجسس التي فيه وان بعض هذه الاجرام يعارك الاجرام الأخرى في الأجواء العليا، بمعنى أنه يحاول أن يقطع على «خصومه» امكانيات التسمع الى ما يجري تحته.

لا يستطيع احد، ممن هو خارج مؤسسات الاستخبارات الكبرى، التحدث بالتمام عما تفعله هذه الاجرام. ثمة معلومات صحافية في الغرب قالت ان أجرام التجسس الأميركية فوق موسكو كانت قادرة على أن تنقل بوضوح تام كل مخابرة هاتفية يجريها زعماء الكرملين. جائز أن تكون الاجرام السوفياتية فوق واشنطن بالمقدرة ذاتها

ذات مرة نشرت وكالة الفضاء الاميركية صورة التقطها جرم اصطناعي أميركي فوق أوستراليا. الجرم كان على علو ١٢٠ كيلومتراً فوق مدينة سيدني والتقط ألوف الصور من ذلك العلو. في المختبرات الأميركية كبرت احدى الصور مليوناً وثلاثمئة ألف ضعف بمكروسكوب الكتروني فظهرت فها لوحات نمر السيارات بالأرقام الواضحة.

بعد هذا، من حق الناس العاديين أن يتساءلوا: لماذا، اذن، استخدام البشر بعد كل هذا وتعريضهم للمؤبد أو الاعدام؟

ومع ذلك، وفوق ذلك، والأغرب من ذلك كله.

الـذين عندهم والـذين ليس عندهم اجـرام اصطنـاعيـة تتمخـطر في الفلك، لم ينسـوا التنويم المغنـاطيسي. هذا العلم القـائم بذاتـه، المتطلب قـدرات خـارقـة تـأتي بالممارسة والاختبار، كان ولا يزال من أفضل الوسائل المستثمرة في الاستخبارات.

بعض الحديث عن هذا الحقل قد يبدو قريباً من الخرافة أو المبالغـة، الثابت هـو أن التنويم المغناطيسي مستخـدم في الاستخبارات عنـد بعض الدول عـلى نطاق واسـع وان أحسن الأسرار في بعض الأحيـان «يستحضر» عن طريق تنـويم شخص والـطلب اليه الاتيان بالجواب.

كيف؟ بأية وسيلة؟ العلم اليقين هو عند من يفهمون بهذا العلم القائم بذاته.

يقـال، والكلام مفتـوح للموافقـة والاعـتراض، ان من أشـطر الـذين اعتمـدوا التنـويم المغنـاطيسي لكشف الأسرار كـان وزيـر الـداخلية ورئيس الشرطـة السريـة والاستخبارات في الاتحاد السوفياتي لافرنتي بيريا حصل عـلى أسرار ذرية رئيسيـة كثيرة بواسطة التنويم المغناطيسي.

المشكلة: من يستطيع تكذيب ذلك؟ ومن يستطيع تأييد ذلك؟

بعض العارفين يؤكد: التنويم المغنـاطيسي فاعـل جداً عن طـريق «الاستحضار» خاصة بالنسبة الى البحث عما هو في الماضي والحاضر. والشيء الجـازم: «الاستحضار» في التنويم المغناطيسي لا علاقة له بالمستقبل اطلاقاً. المستقبل هو من عالم النبوءة.

استـطراداً، هل يـدخل في هـذا الحقل كـل ما هـو معـروف في الشرق الأوسط بالضرب بالمندل أو الضرب بالكعاب أو حتى اللجوء الى العـرافين ذوي فنجـان الزيت أمـامهم؟ لم يشتهر بعـد عن أي جهاز لـلاستخبارات جنى أي شيء من هـذه «العلوم» الشرقية.



فوشيه
أبو المخابرات الحديثة!

المخابرات الحديثة بدأت بالدكتاتوريات الحديثة، ونابليون أحد أوائل الحكام الدكتاتوريين بالمعنى الحديث للكلمة. وفوشيه، وزير شرطته، هو أول من أدار جهاز مخابرات شامل وواسع واخطبوطي والذي أصبح نموذجاً لأجهزة المخابرات بعد ذلك، حتى يمكن القول أنه مؤسس صناعة المخابرات بمفاهيمها وأشكالها الحديثة.

نابليون يشكو

يروى أن نابليون شكا إلى أخيه بمرارة، وهو في نوبة غضب شديد، من وزير الشرطة الذي كان يستطيع أن يكون حاضراً في كل مكان، بقوله: «اليوم يدس أنفه في سريري، وفي اليوم التالي يتجسس على أوراقي الخاصة». التهمتان صحيحتان. والواقع أن جوزيف فوشيه، دوق أوترانتو، وزير الشرطة، كان يعلم من شؤون نابليون المالية والغرامية ما يعرفه الأمبراطور نفسه. وفي إحدى المناسبات وجه نابليون خطأ بعض التأنيب إلى فوشيه على ما اعتبره تقصيراً منه في التيقظ والرقابة ولكن قائد شرطته سرعان ما بادر إلى عرض وصف مفصل للزيارات الليلية التي كان يقوم بها «رجل قوي: بدين الجسم، لمغنية الأوبرا الإيطالية الشهيرة، غراسيني الحسناء. ولم يكن ذلك الرجل الصغير غيرك أنت. أما تلك المغنية المتقلبة الأطوار فكانت غير مخلصة لك. كانت تفضل عازف الكمان رود عليك». ولم يعش فوشيه ليروي هذه الحكاية فحسب، ولكنه عين في المنصب المهم ذاته في وقت لاحق أثناء الأيام المئة التي

عاد فيها نابليون إلى تولي السلطة بعد عودته من المنفى الأول. لقد كان فوشيه محتقراً ومرهوباً في حياته، وقد أخذ على نفسه أن يكون ضرورياً لأية حكومة، ولا مجال لها للاستغناء عنه. «أنه ولا ريب أبرع الجميع وأكثرهم مكراً». هكذا وصفه نابليون قبل أن عينه قائداً للشرطة والأمن للمرة الثالثة. وليس لنا أن نغالط نابليون في رأيه بفوشيه وامتداحه له، حتى بالمقارنة مع مواهب وزير خارجيته الداهية تاليران، منافسه وخصمه.

مذكرات مزورة

وكالكثيرين من الرجال الذين يملكون السلطة والنفوذ في زمن التغيرات العميقة كان فوشيه يؤثر أن يعمل في الظل بدلاً من وضع النهار. كان بحاثة خبيراً ينقب في أكداس المعلومات التي يأتيه بها أفراد شبكته التجسسية الواسعة، ويرفض مظاهر السلطة الخارجية في سبيل السلطة الحقيقية الدائمة. وفيما كان معاصروه يسعون لجمع أمجاد القنصلية والامبراطورية وامتيازاتها. كان هم فوشيه الوحيد أن يجمع المعلومات التفصيلية التي تمكنه من لعب الدور البارز في الدولة. صحيح أنه لم يكن غير مكترث بالألقاب والثروة، ولكن ذلك كان عرضياً إذا قيس بالرضى الذي يناله من السيطرة على حياة الملايين. كان تبريره لأعماله بسيطاً «كل حكومة تتطلب شرطة يقظة خاضعة لرؤساء حازمين، أصحاب رؤية واضحة ونافذة كضمانة رئيسية لسلامتها». هكذا كتب في مذكراته التي يقال فيها أنه، وهو الرجل الذي نعرف، لم يكتبها، وقد قال الشاعر هايني بسخرية أن فوشيه «بلغ به الخداع والتضليل إلى حد نشر مذكرات مزورة بعد موته». تلك عملية مدهشة حتى بالنسبة لفوشيه. غير أن ملاحظة تاليران الجارحة جاءت أكثر دقة إذ قال «إن مدير الشرطة رجل يهتم بشؤونه، ويعمل على الاهتمام بشؤون الآخرين». ولكن ما بالنا نتحدث عنه وهو في الذروة، وقد كانت بداياته متواضعة جداً؟

إعـدام الملك

ولد جوزيف فوشيه بجوار ميناء «نانت» على المحيط الأطلسي، سنة ١٧٥٩، في قول، أو في سنة ١٧٦٠ في قول آخر. وسرعان ما اتضح أن الشاب النحيل البنية لن يتحمل حياة البحر، ولذلك عهد بتربيته إلى جماعة دينية معنية بالتعليم بالدرجة الأولى

معروفة «بالخطباء». وفي المدرسة في باريس تلقن جوزف أصول التنظيم العقلي وضبط النفس، متحاشياً الأنغماس في اللهو والرذيلة. وقد بقيت معه هذه الخصائص طيلة حياته، وأضاف إليها شعوراً داخلياً عميقاً بالحذر والشك. على أن فوشيه لم ينتسب إلى هذه الجماعة الدينية ولم ينذر نفسه لها ولو أنه ظل معها يدرس العلوم والرياضيات في أراس. هناك تعرف إلى كارنو الذي أصبح جنرالاً فيما بعد، وإلى المحامي الناشيء ماكسيميليان روبسبيير أحد قادة الثورة الفرنسية الرهيبين فيما بعد أيضاً، حتى أنه أعاره مبلغاً من المال كفاه لرحلته إلى باريس بعد أن صادق شقيقته لفترة قصيرة. غير أن هذه المغامرة لم تسفر عن شيء. وبعد اندلاع الثورة الفرنسية بوقت قصير، عاد فوشيه إلى بلدته.

كانت جماعة «الخطباء» الدينية مؤيدة لإصلاح. ولكن فوشيه استطاع في شباط/فبراير، أي بعد الثورة الفرنسية بسنتين، أن يضمن انتخابه رئيساً لجمعية أصدقاء الدستور المحلية. ثم نجح بنشاطه واعتداله، وهو ليس بالخطيب المفوه، أن يقنع مواطنيه في «نانت» المؤيدين للملكية بأن ينتخبوه عضواً في «المجلس الوطني» (أي البرلمان أيامها) في باريس. وهنا التقى «بون جان كواكند»، التي أصبحت زوجته فيما بعد، ثم ظل وفياً ومخلصاً لها مدى حياته ولو أنها لم تكن تلك المرأة الجميلة اللبقة.

كان فوشيه ليبرالياً بشكل عام ولكنه لم يلتزم بتنظيم أو حزب ولكنه مال إلى التعاون مع إحدى الفئات السياسية في تلك الفترة وهي الجيرونديون أو الجناح المعتدل منهم بكلمة أدق.

وراح يعمل بنشاط وجهد من وراء الستار في مختلف اللجان والقيام ببعض المهمات الخاصة. غير أن مثل هذه السرية لم تكن لتدوم إلى ما لا نهاية في زمن كان لاستقطاب والعنف الثوري والتعصب يتزايد ويشتد، وكان إصرار روبسبيير على الاستفتاء العام بشأن مصير الملك لويس السادس عشر الذي كانت تحتجزه الثورة والآراء في مصيره متضاربة، يجعل مواصلة التهرب مستحيلة. ولعل فوشيه كان يفضل التصويت للإبقاء على حياة الملك، ولكنه لاحظ الحماس الراديكالي المتزايد فأيد إعدام الملك. وكان هذا الانقلاب غير المبدئي في موقف كافياً لتأمين الصوت/الواحد للأكثرية المطلوبة. وبعد ذلك ظل فوشيه حتى مماته يوسم بأنه: «قاتل الملك».

الاشتراكي الثوري

بعد نجاته من المصير الذي انتهى إليه الجيروندیون الذين صفتهم إحدى تطورات الثورة الرهيبة، أدرك فوشيه أن صديقه السابق روبسبير ينظر إلى تقلباته بحذر وريبة. وحين أرسله المجلس الوطني إلى «نانت» لتنظيم الميليشيا لضرب الانتفاضة الملكية في منطقة «الفانديه» سر فوشيه بهذه المناسبة التي أتاحت له الفرار من الإرهاب. وفي هذه الأونة كان هذا المدرس الذي تربى على أيدي جماعة «الخطباء» الدينية قد أصبح ملحداً متحمساً واشتراكياً ثورياً. وفي «نيفير» و«ترويس» معاً صادر الأملاك الخاصة واستولى على الذهب والفضة في الكنائس لدعم الوضع المالي للحكومة في باريس وللفت انتباه ذوي السلطة إليه. وبمبادرة منه حث رجال الدين على الزواج أو تبني الأبناء، وأنكر في الوقت ذاته وجود حياة أخرى معلناً «أن الموت نوم أبدي». وفي فرنسا الثورة مثل هذا الحماس الثوري يستحق المكافأة. ولما ثارت ليون، كما فعلت مدن أخرى كثيرة، على سلطة حكومة باريس، كان لا بد من يد حديدية لإخضاع الثورة. وبعد استسلام المدينة التي سميت بالمدينة المحررة، أرسل فوشيه وكولو ديربوا، الممثل سابقاً، من قبل المجلس الوطني لتدمير المدينة، لتلقينها درساً وجعلها مثالاً لبقية المدن، ولإعدام جميع المواطنين الذين اشتركوا بالانتفاضة. وفي بضعة أسابيع لقي على الأقل ١٦٠٠ شخص من معارضي الثورة، حتفهم على أيدي فوشيه ودفنوا في مدفن جماعي أو القوا في نهر الرون.

وفي السادس من شباط/ فبراير ١٧٩٤، أصدر فوشيه أمراً بوقف عمليات الإعدام الجماعية بالرصاص ولكن ذلك لم يعن وقف الإرهاب فقد لقي عدد من الناس حتفهم بعد ذلك على المقصلة. أدرك فوشيه أن عمليات الإعدام لم تعد تحقق الهدف المطلوب إذ خلقت جواً من الاتهام والعداء قضى على المذنب والبريء معاً. وكان لهذا الدرس أثره العميق على سيرته في وقت لاحق. أصبح يرى أنه من الأفضل من جميع النواحي أن يعدم زعيم أو أثنان ثم يترك اتباعهما يتأملون مصائرهم. ومما له مغزاه أن آخر اثنين أمر فوشيه باعدامهما في ليون هما الجلاد ومساعده. ولكن المجلس الوطني لم يقتنع بذلك بل طلب عودة فوشيه إلى باريس لتفسير «اعتداله». كانت التهمة الخطيرة الموجهة إليه إلحاده الصارم، لأن إلحاده يخالف إلحاد قادة الثورة في باريس فقد أعلن روبسبير عندئذ إلحاده الخاص القائم على مبدأ الكائن الأسمي،

مشيراً بذلك إلى عصمته، ثم دعا فوشيه لشرح موقفه أمام لجنة السلامة العامة الرهيبة، وهي دعوة تعادل الحكم بالإعدام.

حياة بائسة

وجد فوشيه نفسه في وضع حرج للغاية. وبصفته مندوباً عن المجلس الوطني طلب أن يرفع تقريره أمام المجلس لا أمام الهيئة التي اختارها روبسبيير. لم يكن فوشيه يبقى أكثر من ليلة أو ليلتين في بيت واحد تجنباً لاعتقاله، ثم عمل على زعزعة مركز منافسه الخطر ببث روح الشجاعة والوحدة بين الأعضاء حتى أنه انتخب رئيساً لنادي اليعاقبة، مما أغاظ روبسبيير أشد الإغاظة. والواقع أن الكثيرين من أنصار هذا الرجل المعصوم كانوا قد أخذوا يبدون استياء متزايداً من عجرفته واستبداده. حتى أن المقاعد الفارغة في المجلس كانت دليلاً بليغاً على هذه الأشياء عوض عن ضعف بلاغة فوشيه الخطابية. وجاءت نهاية روبسبيير سريعة وأكيدة. فشل في إقناع أعضاء المؤتمر بسلامة اتهاماته، فهتفوا بسقوطه، ثم اعتقل واعدم. بذلك انتهى عهد الإرهاب لكن فوشيه، نفسه، هو الإرهابي السابق، واجه خطر النفي والموت في مستعمرات «غيانا». أصر على إلقاء اللوم على الآخرين، بمن فيهم زميله كولو، وانكر أن يكون مسؤولاً عن أعمال الإرهاب، فاستطاع أن ينجو من الموت. لكنه كان قد فقد كل شيء: منصبه، ثروته وسمعته، إلا حياته وزوجته الوفية.

قليلة هي معلوماتنا عن تحركات فوشية بين ١٧٩٣ و١٧٩٧. ولكنه وجد نفسه، على ما يبدو، مضطراً بأن يحيا حياة بائسة في غرفة زرية. والظاهر أنه تورط في هذه الفترة بأعمال مصرفية مشبوهة وبالتهريب قبل أن يعمل جاسوساً في خدمة باراس أحد رجال الإدارة الخمسة الذين كانوا يحكمون فرنسا آنذاك. والظاهر أنه بدأ عمله ذاك في المناطق النائية ثم عاد إلى باريس لمساعدة باراس على القضاء على ثورة بابيف التي توخت المحافظة على طهر الثورة ونقاوتها، ليعمل بعد ذاك في الأعداد لانقلاب استهدف هيئة المديرين بالذات. وكان باراس يود أن يكافىء هذا الرجل الذي خدمه اعترافاً له بجميله. ولكن فوشيه، كما يقول بنفسه، ثابر على رفض المكافآت الصغيرة التي كانت تعرض عليه. «كنت مصمماً على القبول بالمهمات الكبيرة فقط، المهمات التي تدفعني على طريق الأعمال السياسية الكبيرة. تحليت بالصبر. صبرت طويلاً، ولم

يذهب صبري سدى». وفي وقت لاحق عين سفيراً إلى جمهورية سفوح الألب التي أنشأها نابليون في شمالي إيطاليا، سنة ١٧٩٧، ثم إلى هولندا. وفي المنصبين حققت سياساته الليبرالية المستنيرة نجاحاً ملحوظاً مما ترك انطباعاً جيداً على باراس الذي كان يواجه وضعاً قلقاً في الوطن، فاستدعاه إلى باريس وعينه مديراً للشرطة؟

كانت إدارة الشرطة التي تسلمها فوشيه موبوءة بالفساد والعجز في مجتمع منشغل، بمضاربات وبالحياة المترفة. ولكنه سرعان ما نجح في تركيز السلطة بيديه ثم عمد، لتأمين تمويل شبكة الجواسيس الآخذة بالاتساع، إلى فرض الضرائب على القمار والبغاء، وهما مصدران لا ينفدان. «كانت الخزينة فارغة. بدون المال يستحيل قيام أية شرطة. وسرعان ما توفر المال في الخزينة إذ جعلت الموبقات والرذائل الملازمة للمدن الكبيرة، مورداً لتمويل الشرطة». ولتوفير حرية أوسع للعمل ولتجنب نقد الرأي العام، أوقف عدداً من الصحف، ثم قام بنفسه باغلاق أبواب نادي اليعاقبة ـ المعروفين بتطرفهم وتطهرهم ـ الذي يدين إليه بالكثير. وواصل مراقبة النشاطات الملكية، باستمرار، لكنه سمح للكثيرين من صغار النبلاء المهاجرين بأن يعودوا إلى البلاد وحجته في ذلك أن اعتماد سياسة التساهل أكثر جدوى وفعالية إذ يجعل الكثيرين من النبلاء مدينين له. وقد استطاع أن يبرر إنشاء شبكة التجسس الواسعة، وحفظ الملفات الضخمة عن ألوف المواطنين بقوله أن فرنسا ستعرف بنتيجة ذلك استقراراً داخلياً لم تعرف من قبل. والواقع أن ذلك تحقق بحدوث انقلاب ١٨ كانون الثاني الذي أوصل نابليون إلى السلطة.

جوزفين المرتشية

بصفته مديراً للشرطة كان فوشيه على علم بأن هنالك انقلاباً آخر يعده نابليون نفسه في جه باراس المتواطىء ورجال الإدارة. كان باراس قد عين فوشيه في هذا المنصب بغية الحؤول دون نجاح هذه المؤامرة ولكن فوشيه كان يخلص للجهة التي تبدو مضمونة النجاح. وبواسطة جوزفين التي قدم لها رشوة كبيرة، عرف فوشيه بعودة نابليون الباكرة من مصر وبمخططاته للمستقبل، وتصرف بالتالي على هذا الأساس. وحين وجه المتآمرون ضربتهم، كان باراس محجوزاً في حمامه على يدي مدام تاليان، في وضع محرج في كل حال، بينما كان الانقلاب يأخذ مجراه في سانت كلود، على

مسافة قصيرة من العاصمة. كان فوشيه قد حمل المجلسين التشريعيين لعقد الاجتماع هنا بحجة الأمن، ثم عمد إلى سد جميع المداخل إلى باريس بعدد من رجال الفرق الخاصة لتأمين مزيد من السيطرة والسلامة، فشل الانقلاب، وهو الأمر الذي كاد أن يحدث بسبب تصرفات نابليون الحمقاء نظم فوشيه جيشاً من المخبرين ينقلون إليه تطورات الوضع كل نصف ساعة. هكذا أصبح في وسع «وزير الشرطة» أن يرحب بالانقلاب إذا نجح أو ينقض عليه بكل قوة إذا فشل. فقد تعلم دون شك درساً من مغامري سباق الجياد بضرورة الرهان على كل الجياد لئلا يفلت واحد منه!

هكذا قام تحالف مصلحي ورخيص ولكنه لم ينته إلا بانتهاء سلطة نابليون السياسية بعد ١٥ سنة. كان في أحد طرفيه ذلك الرجل نابليون الذي وسم نفسه بالعبقرية وانطلق إلى الأعمال والمغامرات البطولية والمزاجية والعاطفية، وكان في طرفه الآخر، فوشيه، رجل الشرطة والأمن الذي لا يستسلم للعاطفة، بل يجمع بجد ونشاط معلومات عن جميع الناس والأمور، بتحفظ وحذر، ولو أنه كسيده راغب كل الرغبة في ممارسة السلطة. ولولا كفاءة فوشيه ومعرفته الدائمة لجميع الأحداث في فرنسا، لكان من المشكوك به أن يستطيع نابليون التغيب تلك الفترات الطويلة لشن حروبه في الخارج. والواقع أن وجود فوشيه، على رغم العداء الشخصي بينهما، كان عاملاً حيوياً في تنفيذ سياسات نابليون في الداخل والخارج على السواء.

ولو أن القنصل الأول، ثم الأمبراطور بعد ذلك، اكتفى بالاعتماد على وزير شرطته للحصول على المعلومات السرية، لكان بالإمكان، على ما يظن، تجنب الكثير من الأخطاء اللاحقة. ولكن فوشيه وجد نفسه في صراع مع مجموعات أخرى كثيرة من الجواسيس، منها من يعمل لنابليون مباشرة، ومنها من يعمل لتاليران أو للوسيان بونابرت، بالإضافة إلى جواسيس آخرين للعسكريين وللوزراء. ثم أن الكثيرين من هؤلاء الجواسيس والمخبرين كانوا يعملون في خدمة أكثر من سيد واحد. كما أن الكثيرين من الموظفين الكبار كانوا يؤمنون مداخيل إضافية لهم بإفشاء بعض المعلومات. وقد اعترف فوشيه فيما بعد أنه كان يدفع إلى ديروك، السكرتير الشخصي لنابليون، مبلغ ٢٥٠٠٠ فرنك شهرياً للتجسس له على سيده. ولقاء مبلغ آخر محترم كان طباخ لويس الثامن عشر في انكلترا يعمل لحساب وزير الشرطة. مثل هذه

الشبكة الواسعة من أجهزة المخابرات المتنافسة كانت مصدر أربعة تقارير مستقلة ومتناقضة أحياناً، أو غير دقيقة أحيّاناً أخرى، يتلقاها نابليون صباح كل يوم!

أما أوضاع المسرح والصحافة فلم تكن أفضل. وكثيراً ما نشرت صحيفة «المونيتير» مقالات موضوعة ومؤلفة وأنباء مشوهة وتقارير مضخمة عن حملات نابليون، والروايات المسرحية والروايات الطويلة كانت خاضعة للمراقبة أيضاً. حتى الأوبرا لم تكن بمنجى من التزوير أو الخداع. وأثناء عرض أوبرا «هوراتي» اصطنع فوشيه نقداً وهجوماً على نابليون في الصالة. وقد اعترف بذلك بصراحة حين قال: «إن كل حكومة تستغل في بداية قيامها خطراً من صنعها، أما لترسيخ سلطتها أو لتوسيعها. وأية مؤامرة ننجو منها هي فرصة للحصول على المزيد من السلطة والنفوذ».

وفي سنته الأولى كوزير للشرطة في ظل نابليون واجه فوشيه أزمتين صعبتين. بعد الاطمئنان إلى أن كل شيء في الداخل على ما يرام، انطلق القنصل الأول باعتباره القائد العسكري عبر ممر سانت برنارد لضرب النمسا التي استعادت شمالي إيطاليا. كانت باريس تنتظر أنباء المعركة الحاسمة ساعة فساعة. وكانت التقارير الأولى تشير إلى أن الفرنسيين لاقوا هزيمة ستؤدي بالتالي إلى القضاء على مطامح نابليون السياسية. تردد فوشيه وتريث، هل يبقى على ولائه لنابليون أم يقفز إلى عربة المعارضة، فهو لا يعرف حقيقة الموقف العسكري في الجبهة، ولم يتخذ موقفه النهائي ولم يعد إلى تولي مقاليد السلطة إلا حين اتضح له أن معركة مارينغو كانت نصراً رائعاً لنابليون، غير أن القنصل الأول لم يعد بعد ذلك يثق بمدير شرطته. وقد أقر فوشيه بنفسه أن معركة مارينغو كانت نصراً للقنصل الأول على فرنسا، لأنه بعد ذلك صار حاكمها الفرد الذي لا ينازع.

محاولة اغتيال نابليون

وتناولت الأزمة الثانية محاولة اغتيال جادة عشية الميلاد، سنة ١٨٠٠، فيما كان نابليون وجوزفين في عربتهما إلى حضور عرض لهايدن. كانت الشائعات حول المحاولة قد راجت في اليوم السابق، ولكن رجال الشرطة الخاصة للقنصل الأول، لا شرطة فوشيه، أكدوا له أنه تم الكشف عن الطريق والمسرح وتبين لهم أنها خاليان مما يريب وأنه ليس هناك ما يخشى منه، ولكن... ما إن انعطفت عربة نابليون إلى شارع

سانت نيكيز الضيق حتى انفجرت آلة جهنمية ـ عربة محشوة بالبارود أو فلنقل مفخخة بلغة اليوم ـ ونجا نابليون باعجوبة بدون أي أذى، لأن سائق عربة القنصل الأول اندفع بسرعة تجاوزت المألوف وهو في حالة سكر. وسمع فوشيه تعنيفاً شديداً، واهين بقوة في وجهه وقيل له أنه كان عليه أن يراقب أصدقاءه اليعاقبة الذين اتهموا بالمحاولة. ولكن فوشيه رد بكل هدوء يطلب مهلة أسبوعين ليثبت أن الاعتداء كان من صنع الملكيين. وبعد التدقيق والمتابعة وجمع كل الأدلة واحداً بعد الآخر ونتفة بعد نتفة، عثر فوشيه على الحداد الذي صنع حدوة الجواد الذي استخدم في المحاولة واعترف بأنها مَن صنعه. ثم أدى ذلك إلى اعتقال المتآمرين الملكيين الذين اعترفوا بأنهم قاموا بالمحاولة قبل إعدامهم. صحيح أن نابليون أعجب بمقدرة وزير الشرطة لكنه لم يفوت المناسبة لترحيل عدد من اليعاقبة الأبرياء إلى افريقيا.

الشعارات الكاذبة

كان نابليون وفوشيه على خلاف حول قضايا عديدة لكنهما كانا يدركان أن جماهير الشعب قد سئمت الفساد والرشوة وملت الإدعاءات الفارغة عن الحرية والشعارات الكاذبة التي لا تعني شيئاً والكلام الضخم المنمق دون أي محتوى أو مضمون عن الثورة. إن الأمة تنشد النظام والأمن والاستقرار، بما في ذلك بعض حسنات النظام الملكي السابق. لذلك تميزت الأشهر الأولى من عهد القنصلية بالاعتدال وبالحكم المستنير مما أدى بالتالي إلى شعور عام بالاستقرار والطمأنينة، حتى أن نابليونساير اليمين السياسي وأعلن عفواً عاماً عن أكثرية المهاجرين ولم يستثن منهم غير لويس الثامن عشر. وفي ٢٥ آذار/ مارس، سنة ١٨٠٢، وقعت معاهدة «آميين» بين انكلترا وفرنسا في أجواء من الحماس الشعبي بعد أن ملت البلاد عشر سنوات من الحرب الثورية. جاءت هذه الخطة تعكس معتقدات فوشيه أيضاً الذي كان يعتقد بأن فرنسا تستطيع عندئذ أن تبدأ مشاريع تنمية اجتماعية واقتصادية. وفي يوم عيد الفصح دقت أجراس «نوتردام» لأول مرة منذ سنوات إيذاناً بالسلام، ودعوة لصلاة حضرها القنصل الأول نابليون نفسه بعد أن تحول على ما يبدو إلى مؤمن صالح.

ووقف فوشيه إلى جانب العديد من القادة العسكريين والسياسيين الجمهوريين الذين عارضوا اتفاقية «الكونكوردا» مع البابا والكنيسة الكاثوليكية في السنة السابقة

باعتبارها خطوة مشبوهة لتوحيد الشعر لأسباب سياسية. والحقيقة أن صلح «آميين» والكونكورد كانا تدبيرين تمهيديين قام بهما نابليون لتأمين انتخابه قنصلاً مدى الحياة، مما شكل الخطوة الأولى نحو إعلان نفسه امبراطوراً في وقت لاحق. آنذاك أعرب القيصر الجديد عن امتنانه بأنه حرم مجلسي الشيوخ والنواب من أية صلاحيات، إذ لا يجوز للصغار وذوي النظرة الضيقة أن يقفوا في وجه العباقرة. واستدار فوشيه إلى سيده عبثاً. قال: «حقاً أنني لم أر في ذلك غير الخطورة والفوضى. وقد عبرت عن ذلك بكل وضوح. قلت للقنصل الأول أنه أعلن نفسه ملكاً مدى الحياة ولكنه ليس لذلك في نظري أي أساس غير سيفه وانتصاراته». هنا كان نابليون قد بدأ يتضايق من تزايد شهرة فوشيه. وللمرة الأولى أخذ يعير أذناً صاغية للنقد الذي كان أشقاؤه وشقيقاته يوجهونه لوزير الشرطة وهو يعلم أنهم لم يجتمعوا إلا على العداء لفوشيه وجوزفين فقط. وفي آب/ اغسطس، ١٨٠٢، أبلغه رئيس الدولة أنه قام بواجباته خير قيام إلى درجة أن منصبه لم يعد ضرورياً. وتقديراً منه لخدماته منحه مكافأة تجاوزت مليون فرنك وعينه عضواً في مجلس الشيوخ للتأكيد له على عدم وجود أي استياء منه. لم يشأ نابليون أن يغامر في هذا المجال. فالرجل مستودع أسرار. ورجاله السريون في كل مكان. ومن يدري؟ إن إنساناً بمقدرة فوشيه قد يكون لازماً له في المستقبل.

وفي أيار/ مايو، سنة ١٨٠٣، نشبت الحرب في أوروبا من جديد. وفي أقل من عشر سنوات انتقل فوشيه من الحياة في منزل حقير إلى امتلاك مساكن فخمة في شاعر شيروقي في فيريير، بجوار باريس، وفي إكس في جنوب فرنسا، غير أن حياته الهادئة نسبياً في هذه الفترة ازعجته وحملته على ترقب استعادة مركزه السابق. وتسنت له الفرصة حين دخلت باريس مجموعة من المتآمرين الملكيين من غير أن يعرف بهم رجال المباحث. ولكن هذه المؤامرة التي تورط فيها جنرالان من أشهر جنرالات فرنسا كشفت في اللحظة الأخيرة. وبناء على معلومات غير دقيقة، وتأثراً بتربيته الكورسيكية، أقسم نابليون على الانتقام وأمر سراً باعتقال دوق دانجيان، الأمير الهارب ومن المطالبين بالعرش والمقيم في المانيا، ظناً منه بأن الأمير الملكي هو الذي يقف وزاء المؤامرة. ونقل الأمير الذي حل به غضب نابليون إلى قلعة بجوار باريس، وجرت محاكمة هذه الضحية البريئة على يدي عديل القنصل الأول، ثم أعدم رمياً بالرصاص وكل ذلك خلال ساعات معدودة. تدخل فوشيه من غير جدوى، ونوه

بالتأثيرات السياسية المؤذية التي ستنجم عن مثل هذا العمل غير المدروس، المهين للعدالة والشرعية. وصفه بأنه «أسوأ من جريمة. أنه خطأ فاضح». والواقع أن هذا الخطأ وحد أعداء فرنسا وزج أوروبا في حرب دامت إحدى عشرة سنة. وفي العاشر من تموز/ يوليو، استدعي فوشيه لتسلم منصب مدير الشرطة مرة أخرى ومن جديد.

الحاكم الفعلي

كانت قضية دوق دانجيان حداً فاصلاً نهائياً بين نابليون وعائلة البوربون الملكية. وإذا كان فوشيه ميالاً للنظام الجمهوري في داخليته، فإنه أدرك أن الاستقرار الوطني يتجاوز المشاعر الفردية. ولذلك عمل في مجلس الشيوخ على تشجيع إعلان الأمبراطورية وجرى ذلك بالفعل في ١٨ أيار/ مايو ١٨٠٤. وفي هذه الفترة أصبحت العلاقة بين السيد والخادم تزداد رسمية وشكلية حتى أن فوشيه كان يتردد في محادثة الأمبراطور بصراحته السابقة، مع العلم أن نابليون ظل يواصل توجيه الإهانات لوزير شرطته في وجهه ووراء ظهره. إن ذلك لم يمنع فوشيه من مواصلة الرقابة على المخدع الأمبراطوري. والواقع أن فوشيه كان من أول الذين شكوا بأن جوزفين رغم أن لها ولدين من زوجها الأول، لا نابليون، هي التي تعجز عن إنجاب وريث. وفي الوقت نفسه فإن مخبري نابليون الشخصيين لم يجدوا شيئاً مثيراً أو أية إشاعات في حياة فوشيه ينقلونه إلى سيدهم لأن فوشيه لم يكن يدخن السجاير، ولا يبالغ في تناول المشروبات، ولا يخون زوجته. وباختصار أنه كان مثالاً للفضائل النابليونية المفترضة. ولعل أقصى ما كان يمكن اتهامه به هو أنه يقوم بنشاطات «غير فرنسية».

وأثناء الحملات الخارجية الكثيرة التي كان يقوم بها الأمبراطور، كان فوشيه هو الحاكم الفعلي في فرنسا. كانت طريقته تقوم على الإقناع لا على العقوبة، ومثل هذا الأسلوب يتطلب جهازاً أمنياً واسعاً. وكثيراً ما يتبجح فوشيه بأنه «كلما اجتمع ثلاثة معاً، كان لي بينهم واحد يتنصت»، هذه مبالغة ولا ريب، لكنها إفادته كثيراً في الحد من المؤامرات. غير أن خصومه وجدوا انفسهم ملزمين بالاعتراف باعتداله وبسياساته المستنيرة. مدام دي شتايل، وهي الخصم الدائم لنابليون، أقرت بأن وزير الشرطة «لم يرتكب أي خطأ لا تقتضيه الضرورة». وقد استطاعت، في فترات إبعادها عن العاصمة، أن تدخلها خلسة، فيما كان فوشيه يغض الطرف. وعلى هذا التغاضي

تلقى فوشيه تعنيفاً صريحاً من نـابليون الـذي علم بذلـك من رجال مخـابراتـه السريين وهو في بولونيا. وبالمقابـل كان فـوشيه يتلقى تقـارير يـومية عن غـراميات الأمـبراطور بالكونتيسه ماري واليفسكا.

وبنتيجة إيقاف العديد من الصحف في فرنسا وإخضـاع ما تبقى منهـا للرقابـة، تمكن فـوشيـه من تخصيص قسم كبـير من وقتـه لغـربلة أنبـاء المنشـورات الأجنبيـة، وهضمها وفهمها وانتقاء جوهرها، وهو العمل الذي شكل الجزء الأساسي من تقاريره اليومية لنابليون. ولا ريب أن الدبلوماسيين الأجانب كانوا خاضعين لـرقابـة صارمـة، كما أن منح أذونات التنقل أو حجبها كانا من صلاحية فوشيه. وقد أدرك فوشيه تـزايد صعوبة الفصـل بين السيـاسة الـداخلية والسيـاسة التـوسعية الخـارجية التي لا بـد لها بالتالي، إذا لم تتوقف عند حد، أن تؤدي إلى القضاء على الأمبراطـورية. كـان واضحاً أن حروب نابليون تفرغ البلاد من شبابها وتقضي على ازدهارها، فيما كانت طمـوحاتـه تتسع مع كل حملة عسكرية جديدة.

عـزل تاليـران

وأدى غزو إسبانيا، سنة ١٨٠٨، ونبأ الهزائم الأولى في ميادين المعركـة إلى اتحاد أدهش المجتمع الباريسي. فقد ظل تاليران، وزير الخارجية، وفوشيـه، وزير الشرطـة والأمن، على ما هنالك من تشابه في خلفياتهما الدينية، خصمين على مدى سنوات، لا يتحدث أحدهما للآخر، وهو وضع أرضى نابليون وأثار ارتياحه. غير أن رغبة مشتركة بـالسلام دفعتهـما إلى التفاهم العلني وإعـداد المخططات للمستقبـل. واشتم نـابليـون رائحة انقلاب، فبادر إلى العودة من إسبانيا بسرعة، وعزل تاليران من منصبـه بصورة علنية ومثيرة، أما فوشيه فاستطاع كعادته أن يتجنب العاصفة. وفي السنة التالية، حين كان الأمبراطور في النمسا، نشأ وضع أشد حرجـاً، جاء نـزول القوات الانكليـزية في ولشيرين في هولندا تهديداً مباشراً لانتورب (انفـرس) ولشمالي فـرنسا. كـان لا بد من دحرها على الفور. وببادرة منه جنّد فوشيه الحرس الوطني وعين الجنرال برنادوت قائداً للحرس، على رغم سخط الأمبراطور عليـه. وفي رسالـة مليئة بـالروح القـومية أعلن فوشيه: «لنثبت لأوروبا أنه إذا كانت عبقرية نابليون تضفي البريق والمجد على فرنسا، فإن حضوره ليس ضرورياً لصد العدو». تصريح خال من الكياسة، لكنه كـان مصيباً

كل الصواب، كما تبين عند نجاح الهجوم المعاكس. واضطر الأمبراطور لكتم غضبه وبعد أسبوع منح فوشيه لقب دوق أوترانتو.

بعد ذلك ارتكب فوشيه سلسلة من الأخطاء التي لا نجد لها تبريراً، إلا إذا اعتقدنا بأنه بدأ يعمل لحسابه أو أنه بدأ يتحول عن نابليون ويعتقد بأن مصلحة فرنسا تقتضي تغييره، ولكن هذه الأخطاء أبعدته عن منصبه للمرة الثانية. لعله بالغ بالثقة بنفسه إذ استنفر الحرس الوطني ثانية، إنما لرد هجوم لا وجود له هذه المرة. واتبع ذلك بعمل سياسي يتسم بالتربص والخيانة. اتصل فوشيه بجوزفين ونصحها بوقاحة بأن تسهل من جانبها عملية الطلاق من نابليون. وبخه نابليون على ذلك الذي كان لا يملك الشجاعة ما يدفعه إلى تقديم مثل هذا الاقتراح. ثم وقع فوشيه في خطأ آخر أكثر أهمية حين قرر أن يقوم بدور السياسي وأن يعقد صلحاً مع انكلترا. ولم يكن ذلك بدون معرفة الامبراطور وحسب، بل باستخدام اسمه في المفاوضات أيضاً. هذه المرة أغفل فوشيه أن يتخذ الاحتياطات الكافية، وأخذ على حين غرة حين فاجأه نابليون الغاضب متلبساً بجرم الإزدواجية والخيانة. وفي الثالث من تموز/ يوليو، ١٨١٠، عزل فوشيه وعين سافاري، الجنرال المتبلد الشعور، محله في منصب وزير الشرطة.

كيف يمكن تفسير تصرفات فوشيه واتصاله بالانكليز؟ خيانة، طبعاً لا. ولكنه سأم من سياسات المغامرة وإيمان بضرورة عودة الاستقرار إلى فرنسا، رغم سيده ولو باسمه إذا لزم الأمر. إنه آمر الشرطة والمخابرات والأمن الذي يصبح سياسياً رغماً عنه ويكتشف إن الأمن الحقيقي هو الاستقرار ودون دكتاتورية الأمبراطور.

فوشيه الأرمل

أسف على سقوط فوشيه كثيرون كانوا قد استفادوا من معاملته اللبقة وأسلوبه الراقي المتطور في التعامل مع الناس، حتى الأعداء. لكن نابليون الذي كان يعرف شعبية فوشيه، ولعلها تعود إلى تطور آرائه السياسية حول علاقات فرنسا الخارجية والسياسة الداخلية، عينه حاكماً على روما، ولكن سافاري أبلغ الأمبراطور أن سلفه أحرق ملفات سرية قبل انتقاله إلى روما. ثارت ثائرة نابليون وطلب إعادة ما تبقى من مراسلات سرية ومواد أخرى حيوية. ونزل فوشيه عند طلب الأمبراطور لكسب

الوقت قبل أن يفر إلى ايطاليا. بعد حين سمح لفوشيه بأن يعود إلى فرنسا، ليواجه فقد زوجته التي توفيت سنة ١٨١٢. صحيح أن فوشيه كان آنذاك عظيم الثراء، لكنه لم يكن أمامه سوى حياة فارغة ما لم تسعفه الأحداث وهو رجل تعود أن تكون السلطة مهنته ولعبته وهوايته. وفي أواخر تشرين الأول/ أوكتوبر، حين كان نابليون يتراجع مهزوماً من موسكو وقع في باريس ما أسعفه بالفعل.

سرعان ما تجلى في ظل قيادة سافاري لأجهزة الأمن والشرطة أن القسوة والعنف والتعذيب بديل سيء للرقابة واليقظة. ولما فر الجنرال ماليه المتآمر اللدود الدائم لنابليون، من السجن، كان سافاري على جهل تام بتحركاته ونواياه. والواقع أن مخطط ماليه كان البساطة بعينها. أعلن أن نابليون قتل في روسيا وإن حكومة مؤقتة قد تسلمت السلطة. ثم أعلن اعتقال سافاري لكنه عجز عن التحرك بسرعة، فانهارت المحاولة الانقلابية. وأصيب نابليون بالذعر التام إزاء إمكانية نجاح مثل هذه المحاولة وما لاقته من دعم واسع بناء على مجرد إشاعة. والأسوأ من ذلك أن شرطة سافاري عجزت عن سحق المؤامرة في مراحلها الأولى. مثل هذا العجز غير مقبول. وغير مسموح به أبداً. سر فوشيه إزاء ارتباك سافاري، ثم شعر بالمزيد من الارتياح حين استدعاه نابليون إلى درسدن لاستشارته، إذ أن هذه الخطوة كانت أبلغ دليل على اعتراف الأمبراطور بخطئه.

آنذاك كان فوشيه في أواسط عقده السادس. كان لا يزال رقيق الجسم، ناحلاً كعادته، لكن قواه كانت قد أخذت بالوهن، كأنها بذلك تواكب وهن الأمبراطورية بالذات. وعلى غير عادته أتبع أسلوباً سياسياً متأنياً في شباك ودهاليز السياسة الإيطالية حينذاك أضاع بسببه أربعة أشهر في محاولة التأثير على الفئات العديدة في إيطاليا قبل العودة إلى باريس التي وصلها متأخراً... إذ أن لويس الثامن عشر كان قد تسلم العرش وجلس إلى جانبه تاليران. وعبر فوشيه عن حكمة حين رفض منصباً في الحكومة الجديدة، قائلاً عن البوربون أنهم لن يبقوا في الحكم أكثر من سنة. كان في الواقع مؤيداً للسلام، معارضاً لعودة نابليون، لكن قصر نظر الكثيرين من المهاجرين العائدين اقنعه بأن النظام الملكي سيكون قصير العهد. ولم يأت نبأ عودة الأمبراطور وزحفه الظافر مفاجأة له. وفي اللحظة الأخيرة قررت السلطة البوربونية اعتقال فوشيه، لكنه تمكن من الفرار بمغامرة الهبوط على سلم عبر جدار في حديقة هورتنس

الخلفية، وهي ربيبة نابليون ونسيبته أيضاً. وعند وصول الأمبراطور السابق، عين فوشيه وزيراً من جديد.

بين الوزراء الذين عملوا أثناء فترة الأيام المئة، وهي الفترة ما بين عودة نابليون ونفيه من جديد بعد معركة واترلو، كان فوشيه أقدرهم وأكثرهم كفاءة وكان يعتبر الصلة المجدية الوحيدة بين نابليون والملكيين. وعلى هذا الأساس دخل في مفاوضات سرية مع مترنيخ من خلف ظهر الأمبراطور، غير أنه كان هذه المرة على أتم استعداد حين صرخ به الأمبراطور: «أنت خائن! كان يجب علي أن أعلقك على حبل المشنقة».

الإقرار بالهزيمة

فقد رد عليه فوشيه: «سيدي، أنني لا أشاطر جلالتك هذا الرأي». وكشف له معرفته بأن نابليون نصب له فخاً في فندق «دراي كونيغ» في «بال» حيث كان مقرراً أن يتم الاجتماع بمندوب مترنيخ الدبلوماسي. وواصل الأمبراطور صراخه مدى ساعة لكنه كان لا بد له من الاعتراف بهزيمته في النهاية. وجاءت هذه المناوشة مقدمة بسيطة لهزيمته الساحقة في واترلو. هنا رأى فوشيه ضرورة استقالة نابليون. وباعتباره الرئيس الموقت للحكومة كان في وضع يمكنه من إرغام الأمبراطور على مغادرة باريس وإن يفسح المجال ثانية أمام لويس الثامن عشر.

كان الملك يكره من صوت لإعدام شقيقه وكان صوته هو الذي رجح إعدام الملك لويس السادس عشر. لكنه عين فوشيه وزيراً للشرطة للمرة الرابعة. ويروى أن لويس الثامن عشر قال في نفسه: «يا أخي المسكين. لو أنك رأيتني لسامحتني!» فعودة الملكية ـ المؤقتة ـ إلى فرنسا كانت تقتضي مصالحة واسعة. وإذا كان الملك أكرم فوشيه في وقت لاحق بحضور حفل زواجه من فتاة جميلة تصغره بنحو ثلاثين سنة، فإنه كان واضحاً أن وزير الشرطة قد استنفد نفعه للبوربون بعد أن رسخوا سلطتهم. وقد ظلت دوقة دانغوليم ذات الإرادة القوية والشخصية العنيفة، وهي ابنة الملك المعدوم لويس السادس عشر والملكة المعدومة ماري انطوانيت، هي «الرجل الوحيد في العائلة»، كما قال عنها نابليون، تكره هذا الرجل الذي اسهم في إعدام والديها وحملت لويس الثامن عشر حملاً على عزله من الخدمة وإبعاده إلى حيث قضى بقية حياته في ما يشبه المنفى.

قضى فوشيهَ السنوات الخمس الأخيرة من حياته في التنقل بين براغ وميونيخ ولينز، وهو يتوسل كل مرة مترنيخ المتعجرف أن يمنحه حق اللجوء. ولم يكن وزير الشرطة السابق بحاجة إلى مخبرين لاكتشاف انغماس زوجته في علاقات عاطفية مع رجل آخر. لقد كان الجواب مرسوماً في عيون أولئك الذين كان لا يزال يتصل بهم وفي شفاههم. ترى، ما هو شعور هذا الرجل الذي تعود رقابة الناس وتسجيل عيوبهم حين يكتشف أن زوجته الشابة تخونه؟ هل هو عقاب العدالة والأقدار؟!

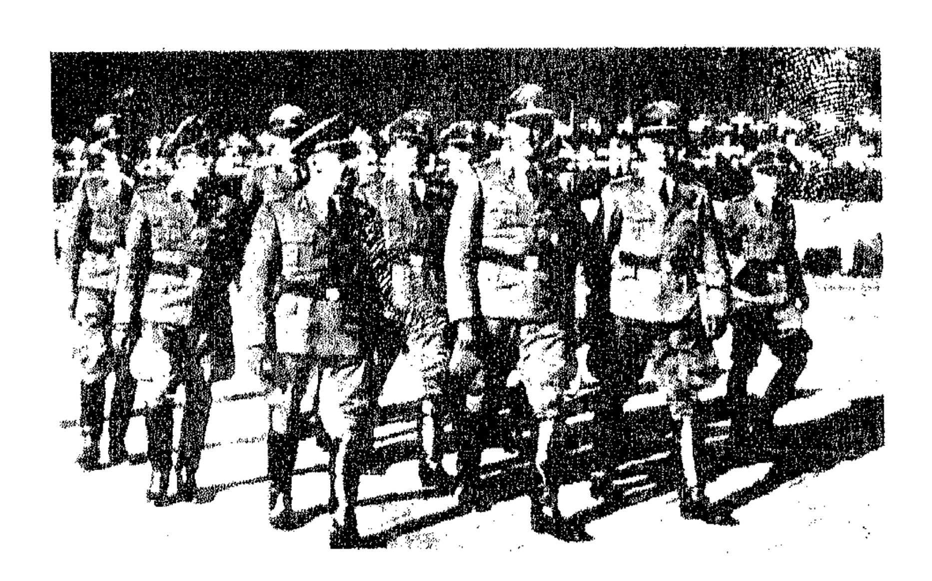
وأخيراً وجد العزاء والسلوى في تريستا حيث أبدى جيروم واليزا بونابرت عطفاً كبيراً عليه وهو الذي سبق له أن قدم لهما خدمات كثيرة في الماضي. وكانت نهايته في عشرين كانون الأول سنة ١٨٢٠. أخيراً وجد هذا الراهب السابق، والإرهابي، واليعقوبي، والملحد، والجمهوري، والثوري، والمناصر للملكية حيناً من الزمن، سلاماً مع الكنيسة، التي رضيت بدفنه في أحد قبورها.

إن معرفة النقطة الرئيسية في سيرة هذا الرجل الذي عرف انتهاز الظروف أمر صعب حقاً. وإذا ما استطاع المرء أن يتناسى بداية سيرة فوشيه الرهيبة في مدينة ليون والمجلس الوطني، تسنى له أن يجد انسجاماً أكيداً في أعماله اللاحقة وقد كانت في الأساس أعمال ديمقراطي مستنير في القرن الثامن عشر، مؤمن بمجتمع مستقر قد استتب أمنه وقادر على أن يضمن الراحة والسعادة للمواطنين.

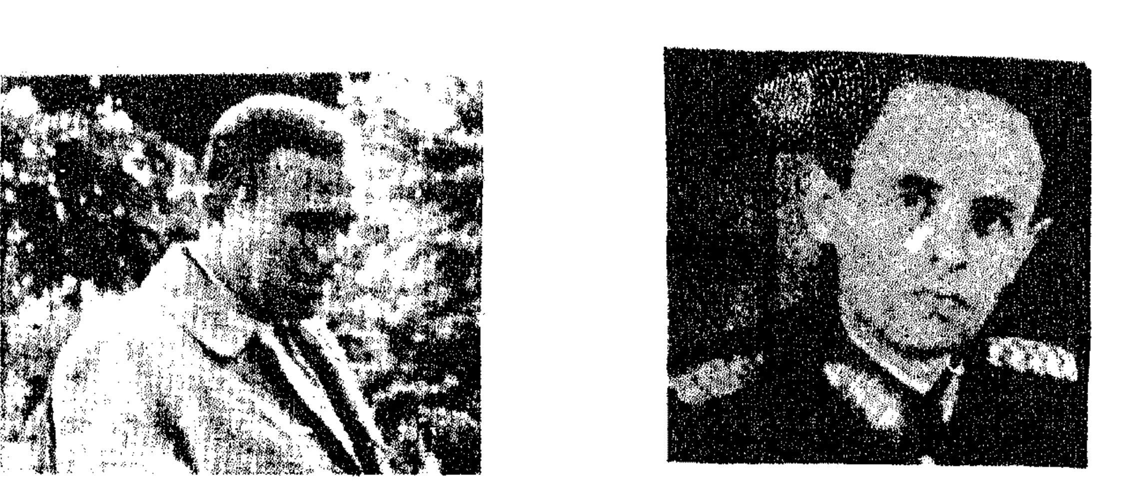
لو استمع نابليون لنصائح فوشيه..

ولا بد لكل تقدم حقيقي من أن يستند إلى السلام والحكم الذكي، ولتأمين هذين الهدفين خصص فوشيه، وهو في مركز قوة، كل جهوده ونشاطه. ليست للدولة البوليسية عند فوشيه مضامين إرهابية كالتي تحملها هذه الدولة في عصرنا الحالي. ولعل الإرهاب الذي مارسه أول حياته علمه أنه لا يفيد وأنه مضيعة للوقت وللإنسان. ولعل هذا الرجل الذي درس الآداب الكلاسيكية في شبابه عرف من رجال الرهبانية التي درس على أيديهم في نشأته أن السياسة كانت تعني عند الأغريق «إدارة حكومية» بالمعنى الإيجابي لا القمعي. ولو أن نابليون أصغى لوزير شرطته البارع على وجه أفضل، وأخذ برأيه في وقف المغامرات الخارجية وتحقيق أوسع المصالحات الداخلية لكان من المحتمل أن لا ينهي بقية حياته في منفاه التعيس في جزيرة سانت هيلانة.

الاستخبارات الألمانية الغربية

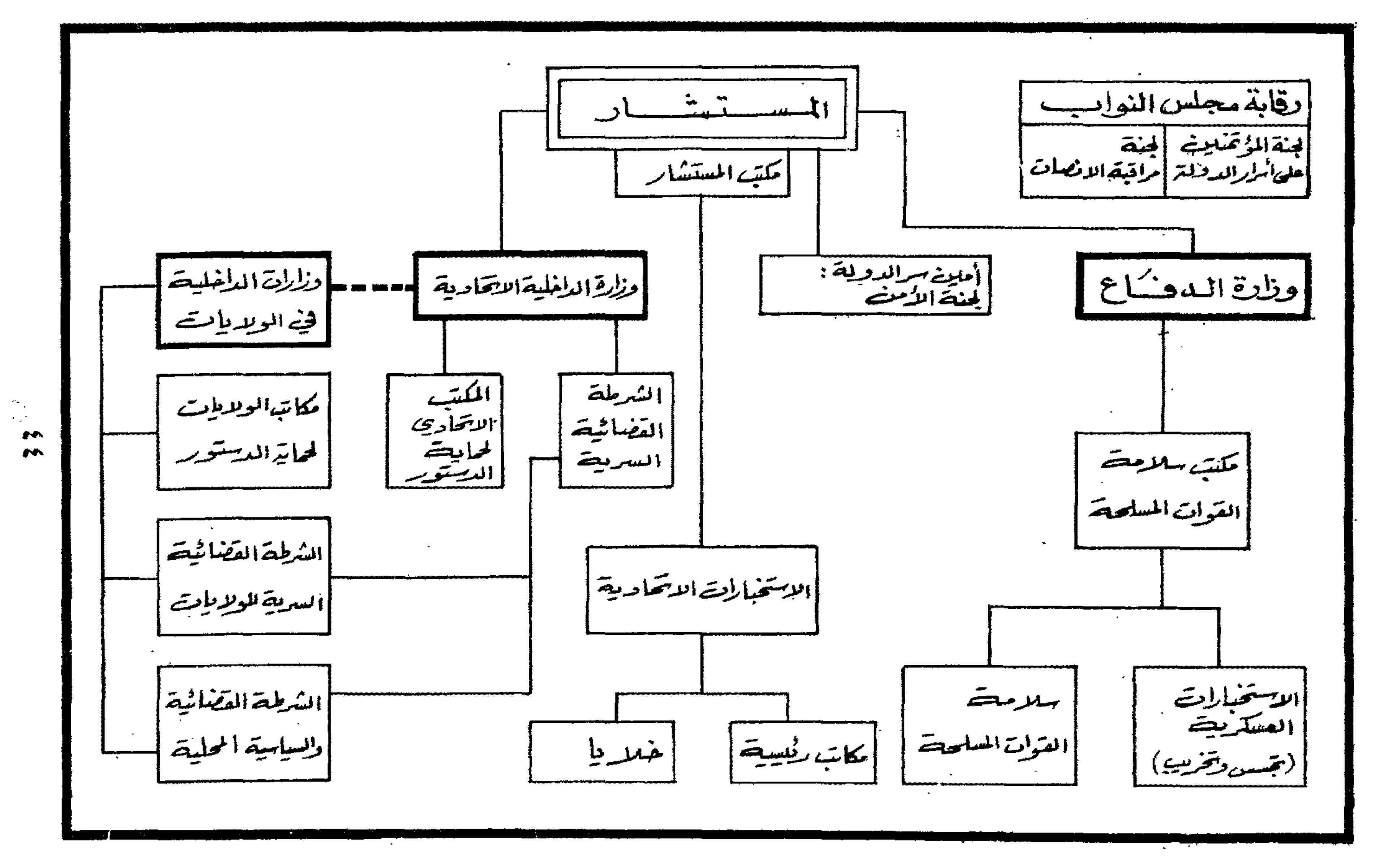


الكولونيل هايدريش، في الوسط، رئيس الغستابو الذي كان يسحل كل من لم يتعلم أن يصيح «هايل هتلر»



الجنرال راينهارت غيلن الفريد من نوعه

الرئيس الأول للمكتب الاتحادي لحماية الدستور أوتو جون: الهروب الى المانيا الشرقية.



الهيكلية التنظيمية للاستخبارات الألمانية الغربية

الاستخبارات الألمانية الغربية

المؤسسات الاستخبارية في المانيا الغربية هي ثلاثة :

الأولى ـ الاستخبارات الاتحادية ومهمتها التجسس في الخارج.

الثانية ـ المكتب الاتحادي لحماية الدستور والسلامة الداخلية، وكذلك مراقبة وملاحقة الجواسيس المزروعين في الداخل.

الثالثة ـ الاستخبارات العسكرية ومهمتها مراقبة وملاحقة الجواسيس ضد المؤسسة العسكرية وفي المصانع التي تنتج المعدات العسكرية.

I الاستخبارات الاتحادية.

مؤسس هذه الاستخبارات وهي الأقدم والمليئة بالألغاز هو ذلك الرجل الفريد من نوعه الجنرال راينهارت غيلن والذي أحيل على التقاعد عام ١٩٦٨، ظل على رأس هذه المؤسسة طوال ٢٢ سنة أولاً تحت اسم مؤسسة غيلن من عام ١٩٤٥ حتى عام ١٩٥٦ ثم تحت اسم الاستخبارات الاتحادية عام ١٩٥٦ حتى عام ١٩٦٨

فما هي قصة هذا الجنرال!!.



غيلين
أغرب وأخطر جاسوس في القرن العشرين

إنه الرجل الخفي الذي ظل يقفز، ببدهائه، وسعة حيلته، وجلده الذي قل أن يكون له ضريب، من ضابط صغير نكرة في الجيش الهتلري إلى أكبر المناصب العسكرية. حتى انتهى به الأمر إلى أن أصبح مديراً عاماً لمخابرات هتلر التي كانت تقف بالمرصاد للحلفاء أبان الحرب العالمية الثانية.

نشأة غيلين

ولد راينهارد غيلين يوم ٣١ نيسان ـ ابريل من عام ١٩٠٢ في مدينة «ايرفورت» البروسية في إقليم «ثورنجيا». وكانت أسرته تنتمي إلى الطبقة فوق المتوسطة التي كانت تمد حكومة الأمبراطور بالموظفين، ومديري المصانع، والمدرسين، وضباط الجيش.

في ذلك الوقت كان أبوه بنو فيلكس فالتر غيلين ضابط مدفعية في اللواء الأول بالجيش. وكان أجداده جميعاً من العسكريين النظاميين، وقد اشترك أحدهم بجدارة في حرب ١٨٧٠ ـ ١٨٧١، وخاض المعارك ببراعة وجرأة تحت إمرة الأمير البرت ولي العهد، واشترك في معركة «سيدان» التي انتهت بأسر نابليون الثالث، وسقوط الأمبراطورية الفرنسية الثانية.

وكانت كاترين مارغريت ـ أم راينهارد ـ من أسرة بروسية محاربة شعارها «لا تستسلم أبداً».

وكان أخوه الأصغر فالتر قد ولد في لايبتسش عام ١٩٠٣. وحرص والدهما على

أن يغرس في قلبيهما حب بسمارك وإجلاله، واحترام مولتكه والإشادة بمواهبه، بوصفهما من أعظم الرجال الذين أنجبتهم المانيا القيصرية.

كذلك اهتم الأب بأن يعمر قلبا ولديه بحب الوطن، ومخافة الله، والاهتمام بالحفاظ على النظام الاجتماعي، والحرص على اداء الواجب نحو الوطن بالأخلاص في الخدمة العسكرية.

وكان راينهارد غيلين ذا ذهن تحليلي، شديد الميل إلى الحساب والجبر والهندسة، وظل طوال حياته مغرماً بالأحصاءات، وكان يلتهم، ويهضم في غير مشقة كل ما يصادفه من مؤلفات في الاقتصاد والتاريخ والجغرافيا، ويعكف على قراءة كل ما يقع تحت يده من كتب الأدب الألماني الكلاسيكي، وكان من المتفوقين في اللغات ولا سيما اللغتين اللاتينية والفرنسية، واهتم بدراسة اللغة البولندية.

وكان سريع الفهم والبديهة، قوى الذاكرة، بارعاً في كتابة موضوعات الإنشاء طوال دراسته الثانوية.

وكان لهذا كله أثره في كل ما أعده من تقارير ومن مذكرات عندما عين، فيما بعد، موظفاً بإدارة المخابرات التي كانت ملحقة بمقر قيادة هتلر، وحين عمل، بعد سقوط المانيا وهزيمتها المنكرة في الحرب العالمية الثانية، مع إدارة المخابرات المركزية الأميركية، فقد كانت مذكراته وتقاريره تتميز بالذكاء والوضوح وجمال الأسلوب السلس المنطقي.

ولكنه كان يعاني من مركب نقص أثر في نفسيته بعمق، وذلك من جراء قصر نظره، وأذنيه الكبيرتين، ووجهه الذي يخلو من سمات الرقة والسماحة، وشعره الأشعث الذي يصعب تصفيفه.

وكان، بسبب مركب النقص الذي تملكه واستبد به شديد الخجل، ميالاً إلى العزلة، لا يصادق إلا أقل عدد من الناس، وكان أترابه في المدرسة يعاملونه بسخرية من جراء عيوبه الخلقية، ومن ثم كان يرفض أن يرافقهم في الرحلات، أو يشترك معهم في لهوهم، أو مبارياتهم الرياضية، أو مغامراتهم الصبيانية.

تلك هي الأسباب والعوامل النفسية ألتي جعلت هذا الرجل الذي جعل منه

مركب نقصه داهية، يجد لذة لا تعدلها لذة في التقوقع، والعمل على انفراد، والحرص على التخفي والتنكر، وبذل كل ما في وسعه من جهد للسيطرة على رؤسائه الذين كانوا يتصورون خطأً بطبيعة الحال أنه خادمهم المخلص المطيع.

الالتحاق بالجيش لا دراسة القانون:

كان يتحلى بكل الصفات التي يمكن أن تجعل منه باحثاً جامعياً. وحين حصل على شهادة الثانوية العامة فكر في الالتحاق بالجامعة، وشجعه عمه ماركس على دراسة القانون، ولكن أباه كان له رأي آخر صمم عليه، وهو أن خير ما يمكن أن يفعله ابنه راينهارد هو أن يلتحق بالجيش، ويتباهى بارتداء الزي العسكري، كما فعل كل أجداده. وقد أصر الأب على رأيه رغم التمزق المشوب بالذل، الذي كان يعاني منه الشعب الألماني بسبب هزيمة المانيا في الحرب العالمية الأولى، وتجريدها من السلاح.

وقد أصر الأب على موقفه لاعتقاده أن الخدمة العسكرية هي خير رمز لبعث الأمة الألمانية من جديد.

وهكذا لم ينقض أسبوعان على عيد ميلاده الثامن عشر حتى التحق في عشرين نيسان (ابريل) من عام ١٩٢٠ بالجيش الألماني الجديد «الرايخسفير» الذي كانت معاهدة فرساي قد نصت على ألا يتجاوز عدد رجاله المائة ألف وعلى ألا تكون له هيئة أركان حرب، أو يكون مزوداً بالدبابات أو المدرعات أو الطائرات، أو الغواصات، أو سفن حربية تزيد حمولتها على عشرة آلاف طن.

ولقد أسفرت هزيمة المانيا القيصرية في عام ١٩١٨ عن نتائج تختلف كل الاختلاف عن النتائج التي ترتبت على استسلامها بلا قيد أو شرط بعد انهيار الرايخ الثالث في عام ١٩٤٥.

فبعد عقد الهدنة عندما وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها. كانت وحدات ضباط الجيش الألماني لا تزال سليمة ونشطة، وآية ذلك أن الحبر الذي وقعت به معاهدة فرساي لم يكد يجف حتى شرع الجنرالات الألمان آنئذ في إعادة بناء الجيش وتنظيمه.

وكان الجندي راينهارد غيلين قد عين في وحدة للمدفعية بالجيش الألماني

الجديد، على مقربة من حدود بولندا وتشيكوسلوفاكيا، إذ كان قد قرر أن يقتفي أثر والده فيصبح من رجال المدفعية مثله.

وبعد فترة من الزمن استطاع الحصول على إجازة قضاها مع أفراد أسرة أبيه الذين كان معظمهم من اليمينيين، وأتيحت له وقتئذ فرصة الاجتماع بعدد من رجال السياسة، وأساتذة الجامعات، والكتاب، والضباط السابقين. وكانت أحاديثهم تدور حول نقطة واحدة هي الخطر البلشفيكي، فقد كان أولئك الألمان المثقفون منزعجين أشد الإنزعاج بسبب حصول الشيوعيين آنئذ على نحو مليوني صوت في الانتخابات النيابية التي جرت في المانيا خلال عام ١٩٢٥، وبسبب تعاظم قوة ستالين، واشتداد التجسس السوفياتي في الغرب. وكان الرأي عند أولئك الألمان المثقفين أن الواجب يقضي بمحاربة تلك الأخطار.

ولاحظ غيلين الشاب أثناء العطلة التي قضاها خارج المعسكر أن آراء أولئك الناس المثقفين الذين كان يحرص على الاشتراك في كل اجتماع يعقدونه، تلقى ترحيباً بوجه عام، وإن الحركة التي بدأها الجنرال لورندورف وأدولف هتلر تلاقي تأييداً من رجال السياسة والمثقفين بوجه عام. وإن ثمة تياراً عارماً يتجه نحو هدف على أعظم جانب من الأهمية في نظر أفراد الشعب، وهو تقوية الشعب الألماني. وتمكينه من استرداد كرامته التي أهدرت في الحرب، وجعله شعباً مرهوباً كما كان في الماضي.

الاقتناع بأن هتلر على حق

وأخيراً اقتنع أولئك الساسة والمثقفون بأن هتلر كان على حق في دعوته إلى التوسع شرقاً كحل للكارثة الاقتصادية التي نكبت بها المانيا منذ هزيمتها في عام ١٩١٨.

وبدأ غيلين يؤمن إيماناً أعمى بدعوة هتلر. ويعتقد أعتقاداً جازماً أن للألمان رسالة اجتماعية واقتصادية تدفعهم إلى السيطرة على أوروبا الشرقية. ومن ثم أخذ يقرأ بدقة وإمعان كل ما يقع تحت يده من كتب عن الحكومة السوفياتية، والمزارع الجماعية، والتصنيع في الاتحاد السوفياتي، وتكوين الجيش السوفياتي الذي كان تروتسكي قد حوله من مجرد جماعات ثورية مبعثرة إلى أقوى جيش في أوروبا.

ويلوح أن أهم شيء أثار اهتمام غيلين خلال تلك الفترة هو نشاط «الكومنترن» الذي كان يرمي إلى الدعوة لإشعال ثورة عالمية، وتشكيل «اللجنة الخاصة العليا

لمكافحة أعداء الثورة البلشفية» في سنة ١٩١٧، وجهاز الاستخبارات الضخم التابع لها، وهو جهاز لم يعرف له مثيل في أي بلد في العالم خلال تلك الفترة.

اشتد إعجاب غيلين في ذلك الوقت بفيليكس دزيرشنسكي الارستقراطي البولندي، والبلشفي القديم الذي انشأ «لجان التحقيق الحمراء السوفياتية»، فأكب على التهام عشرات الكتب عن روسيا، وحرص على الاحتفاظ بكل قصاصة من صحيفة أو مجلة المانية تحتوي على أية أنباء عن نشاط منظمات التجسس السوفياتية.

وكان يروي لزملائه الضباط حكايات منوعة يستخلصها من مطالعاته دون أن يلقى منهم أي اهتمام بما يرويه لهم.

ولكن زملاءه اهتموا إيما اهتمام بقصة واحدة رواها لهم خلاصتها أنه حدث ذات يوم أن وجه ستالين - وكان إذ ذاك سكرتيراً عاماً للجنة المركزية - إلى دزيرشنسكي سؤالاً هو: كم عدد الأشخاص الذين تشتبه «لجنة مناهضة أعداء الثورة» في أخلاصهم وولائهم، وتحتفظ بهم في المعتقلات. فأرسل إليه دزيرشنسكي مذكرة قال فيها أن عددهم ١٨٠٠، فأعاد إليه ستالين المذكرة بعد أن وضع علامة × على الهامش.

وفي الليلة التالية أعدم هؤلاء جميعاً بالرصاص وبعدها أبلغ دزيرشنسكي زعيمه ستالين أن الأمر الذي أصدره قد نفذ على أتم وجه.

وما إن تلقي ستالين نبأ الإعدام حتى طلب من سكرتيره أن يقول لدزيرشنسكي أنه - أي ستالين يضع عادة علامة × على أية مذكرة بعد الإطلاع عليها دون أن يقصد بذلك شيئاً آخر وإن دزيرشنسكي أخطأ الفهم لأنه لم يدرك أن علامة × تدل على أن ستالين قرأ المذكرة.

وكان غيلين شديد الإعجاب بمنشفسكي الذي سمع اسمه في عدة مناسبات، فقد تذكر أنه كان في برلين قنصل سوفياتي بهذا الاسم أدار خلال فترة ما شبكة تجسس، وعلم أنه كان من أخطر رجال المخابرات السوفياتية، وإنه واسع الثقافة ويجيد إثنتي عشرة لغة منها. الصينية، واليابانية، والعربية والفارسية وكان منشفسكي فوق ذلك، شاعراً وذا موهبة حسابية ويهتم بعلم الفلك، وعلم الطبيعة.

أعجب غيلين بذلك الرجل المثقف المتعدد الجوانب الذي كان يدير أخطر جهاز للمخابرات في العالم، ويجد، في الوقت نفسه، متسعاً من الوقت لقرض الشعر.

الرجل الـذي كانت لـه سيطرة لا حـد لها عـلى الناس، ومـع ذلك يهتم بـالدراسـات الإنسانية، ويعني بـدراسة نجـوم وكواكب في الـوقت الذي يـدير فيـه شبكات تجسس ضخمة على أوسع نطاق ممكن.

وكان عمله في المدفعية يحتم عليه أن يتـدرب على ركـوب الجياد، وكـان من أثر ذلك أن استبدت به هواية الفروسية، وسرعان ما أصبح من أبطالها بعد أن بذل جهداً جماً في التدريب رغبة منه في تعويض مركب النقص الذي كان يعانيه في مستهل شبابـه من جـراء ضآلـة جسمه، وصحتـه الهشة. أخـذ يمـارس هـذه الـريـاضـة في أوقـات الفراغ، غير أن تلك الهواية التي كان يجد في ممارستها لذة لا تعدلهـا لذة، لم تمنعـه من الاستمرار في دراسة شؤون أوروبا الشرقية.

ضابط في معهد سري!

وفي سنـة ١٩٣٠ إنتخب الفيلد مارشـال فون هنـدنبـورغ رئيسـاً للدولـة، وفي غضون تلك السنة عين غيلين ضابطاً بمدرسة الفروسية في مدينة هانوفر. ومع أن تلك المدرسة كانت ذات شهرة واسعة في تخريج الفرسان الشجعان، فقـد كانت في الـواقع معهـداً سرياً لتـدريب الضباط الممتـازين الأذكياء عـلى العمل في هيئـة أركان الحـرب الجديدة التي لم يكن لها ـ رسمياً ـ أي وجود طبقاً لمعاهدة فرساي.

وأبدى غيلين من الذكاء والبراعة في عمله الجديد ما جعل مديـر المعهد يـرشحه لأن يكون عضواً في هيئة أركان الحرب السرية الجـديدة، وحـدث أن نقل إلى منصب كبـير في برلـين خلال الفـترة التي كان هتلر يعـد فيها العـدة للاستيـلاء على السلطة. وهكذا استطاع غيلين أن يتمتع عن كثب، بالأحداث التي وقعت خلال الثلاثينات في برلين.

وفي مستهل شهر أيلول (سبتمبر) من عام ١٩٣١ تزوج غيلين شابة في السابعـة والعشرين من أسرة معـظم أفرادهـا من النبـلاء الأثـريـاء والعسكـريـين ذوي النفـوذ الواسع.

واستـطاع أن يتطلع إلى المستقبـل بتفاؤل واستبشـار بعد أن نـاسب تلك الأسرة الثرية ذات النفوذ، ولم يلبث أن عين. نتيجة لذلك، ضابطاً في هيئة أركان الحرب.

ورأى أن يضع رسالة ليدخل بها امتحـان الضباط العـظام، وكانت رسـالته عن

واجبات ومواقف عضو البرلمان، ومما قاله فيها أن واجبات السياسي تحتم عليه أن يخلص للدولة أولاً وقبل كل شيء وأن واجب النائب أن يوجه اهتمامه إلى الدولة قبل أن يهتم بدائرته الانتخابية.

وقد أخذ هتلر بوجهة النظر هذه بعد أن أطلع على رسالة غيلين التي نال بها شهادة أركان الحرب بامتياز وجدارة ومن ثم انشأ دولة ذات حزب واحد.

وقد رحبت أسرة غيلين بحكومة هتلر، كما رحب بها كل أصدقائها. وبعد انقضاء أربعة أسابيع على تولي هتلر الحكم حدث حريق «الرايخستاغ»، وتوجهت أصابع الاتهام إلى الشيوعيين دون أن يعرف الناس أن غورنغ، الذي تولى رئاسة الرايخستاج خلال تلك الفترة، هو الذي دبر عملية الحريق.

واستقر رأي غيلين بعد الأحداث الدموية التي وقعت عقب حريق البرلمان، على تأييد هتلر تأييداً لا حد له، فقد وجد فيه زعيماً قادراً على النيل بشدة وعنف من الشيوعيين، وعلى توسيع أراضي الدولة الألمانية الجديدة لتشمل كل بلاد أوروبا الشرقية، وهي أمور كان غيلين يحلم بها منذ شبابه، ولهذا رفض التعاون مع المتآمرين ضد هتلر في ذلك الوقت، الذين كانوا يعملون على التخلص منه بأي ثمن، وظل مخلصاً له حتى النهاية.

واستطاع غيلين بطموحه واجتهاده ومثابرته، أن يصل خلال بضع سنوات، إلى أرفع المناصب، بل إلى منصب مدير مخابرات هتلر أبان الحرب، وكانت أخطر مهمة اسندت إليه هي «التصدي بكل الوسائل المستطاعة لروسيا الشيوعية، وجواسيسها».

وحرص غيلين آنئذ على أن يتخصص في دراسة كل شؤون الاتحاد السوفياتي؛ فالتحق بالأكاديمية الحربية وتخرج منها بامتياز بفضل اجتهاده في الدرس والتحصيل، واتضح لاساتذته أنه كان أوسع منهم علماً ودراية بالماركسية، والنظام الشيوعي، والكومنترن، والجيش الأحمر، ونظام الاستخبارات السوفياتي.

ويقول زملاؤه في الأكاديمية أنه كان جاداً جداً في الدرس والتحصيل، ويحتفظ في غرفته بأكوام من الكتب عن الاتحاد السوفياتي بينما كان معظم أصدقائه وزملائه يتركون أنفسهم نهباً للهو والمرح مع الفتيات الجميلات.

وفي أثناء الحرب العالمية الثانية ذاع صيت غيلين في دوائر الحلفاء، وعـرف قواد الجيش البريطاني الشيء الكثير عنه. وفي هـذا يقول القـائد الـبريطاني الشهـير الجنرال بـاغيت: «لقـد أيقنت، بعـد أن التقيت بغيلين في إحـدى المنـاسبـات أنـه زئبقي الشخصية، وعلى جانب كبير من الذكاء وسرعة البديهة، وقوة الذاكرة والقدرة الخارقة على تحليل أعقد المواقف بوضوح مذهل. وأدركت بعد أن جادلته طويلاً إننا لا نعـرف إلا النذر اليسير عن الاتحاد السوفياتي وإن لديه ثروة من المعلومـات والبيانـات الدقيقـة عن تلك البلاد».

وفي سنة ١٩٣٦ عين غيلين في منصب هام بإدارة العمليات التابعة لهيئة أركـان حرب هتلر، وكان يحترم رئيسه الفيلد مارشال فون مانشتاين، بل يعتـبره مثله الأعلى في كل شيء. وفي تلك الأثناء كان مانشتاين يضع الخطط لضم النمسا إلى الرايخ (تم ذلك في شهر آذار ـ مارس ـ من عام ١٩٣٨) وغزو تشيكوسلوفاكيا في العام التالي.

وكان من حسن حظ غيلين أن سنحت له الفرصة لمعاونة المـارشال مـانشتاين في وضع تلك الخطط، ومن ثم أصبح أحد أعضاء لجنة الخطط الحربيـة التي كان يـرئسها الجنرال رونشتد القائد الألماني الذي ذاع صيته إبان الحرب العالمية الثانية، والتي كانت تخطط وقتئذ للهجوم على بولندا. وبعد بضعة أشهر عين مانشتاين قائداً للفرقة الثـامنة عشرة في سيليزيا، وهي الفرقة التي كان قد وقع عليها الاختيار للانقضاض على بولندا في شهر أيلول (سبتمبر) من عام ١٩٣٩.

في ذلك الوقت نقل غيلين إلى «ليغنتي» الواقعة على الحـدود الألمانيـة البولنـدية، على اعتبار أنه من ضباط كتيبة المدفعية الثامنة عشرة. لكن مهمته الحقيقة كانت بعيدة كل البعد عن المدفعية، إذ كان عليه في الـواقع أن يقـوم على الحـدود ببعض عمليات الاستطلاع والتجسس.

هتلر يستعين بخبرة غيلين

وفي ليلة الثاني من أيلول (سبتمبر) سنة ١٩٣٩ استقل الميجـور غيلين وكان قـد عـين ضابط مخـابرات فـرقته المشـاة رقم ٢١٣ ـ استقل سيـارة مدرعـة من سيليـزيـا، واقتحم بهـا الحـدود إلى بـولنـدا، مـع أولى الـوحـدات الألمـانيـة التي غـزت الأراضي البولندية.

بيد أن مهمته في الخطوط الأمامية انتهت بعد ثلاثة وثلاثين يـوماً. ففي العـاشر

من تشرين الأول (أكتوبر) استدعي إلى مقر قيادة هتلر العليا، إذ كان قد تقرر الاستعانة بخبرته ومعلوماته الواسعة في إدارة العمليات، ذلك أن الاعتقاد كان سائداً في مقر القيادة العليا لقوات المسلحة الألمانية أن العمليات الحربية ستزداد عدداً واتساعاً بعد أن أعلنت كل من بريطانيا وفرنسا الحرب على المانيا، ومن ثم كانت إدارة العمليات في حاجة إلى رجل ذكي، ذي نظرة شاملة من طراز غيلين.

وقد قررت القيادة الألمانية العليا إذ ذاك تكريمه والاعتراف بالخدمات العظيمة التي أداها خلال الفترة التي قضاها في منطقة الحدود البولندية الألمانية، فأقنعت هتلر بالموافقة على منحه وسام «الصليب الحديدي» من الدرجة الثانية.

يبدو إن هتلر أعجب أشد الإعجاب ببراعة غيلين إذ كان ينتقل من منصب رفيع إلى منصب أرفع بسرعة مذهلة خلال العامين الأولين من الحرب العالمية الثانية.

وكانت ترقيته إلى منصب مدير التحصينات تحت أمرة الجنرال الفريد جاكوب قد تمت بتوصية من المارشال مانشتاين. وقد أتاح له هذا المنصب الرفيع فرصة الالتقاء برجال يشغلون أرفع المناصب في القيادة الألمانية العليا.

ولو أن رجلاً آخر شغل ذلك المنصب الرفيع لقضى بقية حياته قانعاً بالعمل في مكتب أنيق، شأنه في ذلك شأن أي ضابط كبير لا يعرف الطموح، فيحصل على العلاوة السنوية بانتظام، ويرضى برتبة كولونيل ممتاز يتقاضى مرتباً كبيراً.

مواهب غير عادية

بيد أن غيلين لم يكن كأي رجل آخر، فقد أتاح له منصبه الهام في إدارة التحصينات الفرصة لإظهار مواهبه غير العادية التي ظفرت بأعجاب لا حد له من جانب كبار الضباط في القيادة العليا الذين كانوا يذهلون لإصراره على معرفة أدق التفاصيل عن كل مشكلة كانت تواجههم، ومثابرته غير المألوفة في دراسة المشاكل المعقدة الملتوية وتحليلها، رغبة منه في الاهتداء إلى أنسب الحلول لها.

في ٩ كانون الثاني ١٩٤٥ قرر الجنرال غودريان أن يباحث الزعيم أدولف هتلر من جديد بأمر الجبهة السوفياتية، واصطحب معه لذلك الجنرال غيلن. عند دراسة الوضع في مقر الفوهرر، عرض غيلن بكل وضوح السيطرة الجيدة الكاملة للجيش

الأحمر وتنبأ بـأن الجبهة الألمـانية ستتحـطم تمامـاً عند أول هجـوم صاعق تشنـه القوات السوفياتية.

وبـالدقـة التي تنبأ بهـا غيلن، وقع الهجـوم السـوفياتي وانهارت الجبهـة الشرقيـة بالنسبة إلى الألمان.

مقر القيادة العليـا للجنرال غيلن كـان في تسوسن عـلى مقربـة من برلـين. ذات صبـاح جمع الـرجل أركـانـه وتبـاحث معهم بـأن الـوقت قـد حـان ليس لإنقـاذ حيـاة الأشخاص فحسب بل كذلك لإنقاذ المؤسسة الاستخبارية التي بنوها بأيديهم.

قال غيلن ما معناه : الرايش الألماني غلب على أمره وأصبح احتـلال الأجنبي له أمـراً لا مفر منـه، لكن الشعب الألماني سيقف شـامخاً من جـديد ليعيـد سـير الأمـة في طريقها. وعلى هذا الأساس فإن مؤسسة «جيوش الشرق» يجب أن تبقى مستعـدة فوراً للنهوض حالما تحين الفرصة وحالما تحتاجها ألمانيا.

مؤسسة «جيوش الشرق» التي كانت بقيادة الجنرال غيلن على الجبهة السوفياتية، كانت المؤسسة الاستخبارية العسكرية العليا للجبهة كلها هناك.

والأمر الأبعد من ذلك، قال غيلن أيضـاً، هو أنـه ليس في الغرب كله مؤسسـة واحـدة ذات أعمال واتصـالات استخباريـة فعّالـة في أوروبـا الشرقيـة. فـإذا مـا أمكن الحفاظ على المؤسسة، فبالإمكان عودتها إلى النشاط الفعلي في وقت قريب.

وعلى الأثر أعطى غيلن التعليمات :

على المؤسسة كلها أن تنشطر إلى ثلاثة فروع، وعلى كـل فرع أنْ يجمـع خبراء في كـل الحقـول. فـإذا مـا حـدث أن صفي فـرعـان من الثـلاثـة في ظـروف الانكســار العسكري، يبقى هنالك فرع ثابت مستمراً في الوجود. وعـلى كل من الفـروع الثلاثـة أن يحتفظ بجـردة كاملة من الميكـروفيلم تتضمن كـل مـوجـودات المؤسسـة من وثـائق ومعلومات.

أما رؤساء الفروع الثلاثة فعليهم أن يحاولـوا الإبقاء عـلى الاتصال في مـا بينهم، فيـما يحرم عـلى أي عضو في المؤسسـة، من غير الإذن الـواضح من رئيسـه أو من غيلن شخصياً، أن يعطي للآخرين أية من المعلومات السرية.

أما العملاء فيجب التأكيد لهم بأنهم، مهما حدث لألمانيا، يستطيعون أن يسندوا ظهورهم إلى المساعدة التي تأتيهم من جانب المؤسسة.

وبعدما عبرت الجيوش السوڤياتية نهر أودر (جزء من الحدود الحالية بين بولونيا وألمانيا الشرقية) وصار مرتقباً وصولها إلى برلين، أعطى غيلن الأمر لمؤسسته بالرحيل نحو باڤاريا في الجنوب. وعلى الفور رحل جميع أركان وموظفي المؤسسة باتجاه الجبال الباڤارية. كلهم تلقوا الأمر: ممنوع الاصطدام المسلح بالعدو.

وعندما وصل رجال المؤسسة إلى بلدة ميسباخ في باڤاريا، أعطى غيلن الأمر بأن تتفرق الفروع الثلاثة وأن يقصد كل منها المكان المقرر لها للاختباء، على أن يتولى السعاة تحقيق الاتصال الدائم حسب الظروف، في ما بينها.

وعلى الأثر ترك غيلن وصحبه سياراتهم على الطريق وحملوا وثائقهم السرية وانطلقوا سيراً إلى قمة الجبل حيث يقع كوخ كبير. في هذا الكوخ، قرر غيلن البقاء وانتظار الأميركيين لأخذه أسيراً.

وانقضى يومان ولم يحصل شيء. في اليوم الثالث رأى غيلن بالمنظار قوة أميركية تعبر الوادي باتجاه النمسا دون أن يبدو عليها أنها مستعدة للتوقف إذ لم تكن أمامها قوات ألمانية لمقاتلتها. بالطبع، أرسل واحداً من رجاله إلى الوادي في مهمة تقضي بأن يتصرف وكأنه من أهالي المنطقة وأن يقول إنه علم بوجود جنرالات ألمان هاربين ومعتصمين في أعالي الجبل. وبعد أخذ ورد، قرر الأميركان إرسال قوة إلى رأس الجبل، فلماوصلت هذه إلى المكان أعلنت عن وجودها عبر طلقات الرشاشات ثم فتحت الباب ودخلت الكوخ.

هناك كان الجنرال ورفاقه ينتظرون على أحر من الجمر الآسرين الأميركيين. وعلى الفور أعطوا أسمائهم كاملة مع رتبهم، مع أن هذا ليس مطلوباً من الضباط الكبار، وسار الجميع نازلين من الجبل إلى الطريق فيما بقيت أكداس الميكروفيلم مطمورة تحت أرض الكوخ.

وفي الشهرين التاليين كان غيلن عرضة لاستجوابات كثيرة، لكن المحققين لم يكن لهم أي اهتمام خاص بالمعلومات السرية عن «الحلفاء» السوفيات. كان هم الأميركيين بالدرجة الأولى آنذاك البحث عن كبار المسؤولين النازيين للاقتصاص منهم.

ومع ذلك لم يقطع غيلن الأمل بأن يأتيه محقق أميركي يستطيع أن يقدر قيمة المعلومات الاستخبارية التي لديه. هذا المحقق المنشود خرج إلى الوجود في حزيران ١٩٤٥ وهو الجنرال وليم دونوفان رئيس «مكتب العمليات الاستراتيجية» الأميركي في ألمانيا.

دونوفان أمضى بضع ساعات مع غيلن واستمع إلى آرائه حول نيات السوفيات في فترة ما بعد الحرب واقتنع بأنه عثر على رجل خبير محنك وصاحب معلومات عن الاتحاد السوفياتي لا يعلى عليها. وفي الوقت نفسه وجد غيلن أن الفرصة قد سنحت للتحدث عن الوثائق السرية المخبأة وعن مؤسسته التي لا تزال عميقة التوغل في قلب الاتحاد السوفياتي.

وحابر دونوفان البنتاغون في واشنطن بالأمر على جناح السرعة، ولم ينقض إلا زمن قصير حتى طار غيلن ومساعدوه إلى الولايات المتحدة.

في البنتاغون جرت اجتماعات كثيرة بحضور كبار رجال الاستخبارات العسكريين الأميركيين. غيلن تحدث في هذه الاجتماعات بإسهاب عن أن الوثائق التي في حوزته تثبت نية الاتحاد السوفياتي في متابعة سعية للسيطرة على أوروبا بكاملها. وبعد ذلك تقدم بالاقتراحات التي يؤمن العمل بها وقف هذا المخطط.

وفي اللحظة الملائمة، وبعدما شعر غيلن بأنه أقنع الأميركيين بكل ما قاله لهم، عرض عليهم التعاون بين مؤسسته ومكتب العمليات الاستراتيجية الأميركي. رد الفعل الأميركي كان إيجابياً، ولكن عندما بدأ البحث بالتفصيل في كيفية التعاون، راح غيلن يضع شروطه.

ما هي شروط الجنرال المكسور؟.

كل رجال مؤسسته يبقون تحت إمرته هو، والمؤسسة تبقى ألمانية صرفة على أن يمولها الأميركيون. لا يحق لأي عضو في مؤسسته أن يجبر على القيام بأي نشاط يخالف المصلحة الألمانية. وهذا الوضع يبقى على هذه الحال إلى أن يجري تشكيل حكومة ألمانية فتتولى هذه وضع المؤسسة تحت جناحها.

هل كان معقولاً أن يقبل المنتصرون الأميركيون بآراء الجنرال المكسور من الدولة المقهورة؟

وافقوا. سبحان موزع العقول!.

الرجل كان ذا قيمة بالغة ومؤسسته كانت متكاملة العمل والخبرة وضرورية. ثم أن الأميركيين، لو لم يقبلوا بهذه المؤسسة القائمة، لكان عليهم أن يؤسسوا واحدة مثلها وعلى حسابهم وبملايين الدولارات.

بعض الأحداث التي ظهرت عام ١٩٤٥ بالذات جعلت الأميركيين يبدأون التنبه إلى المخططات التوسعية السوفياتية، فيما كانت الحدود الأوروبية الجديدة لا تزال غير محددة نهائياً وفيما كانت الحاجة ماسة إلى معرفة النيات السوفياتية بالضبط حول هذه المسائل.

والواقع أن غيلن وأفراد مؤسسته أثبتوا فعاليتهم على الفور في هذا الحقل، وأن الأميركيين كانوا أكثر من سعداء في السماح لمؤسسة غيلن بالعمل من جديد بتمويل منهم وخدمة لمصالحهم.

وبدأت مؤسسة غيلن بالعمل في المباني المحاطة بالأسوار لمكتب العمليات الاستراتيجية في فرانكفورت ولكن سمح لرجالها بالمجيء والذهاب حسبما يروق لهم.

كان في الأمر غرابة. ففيما توقفت ألمانيا مؤقتاً عن أن تكون دولة وفيما كان كل عسكري سابق يقاد إلى الأسر، كان رجال غيلن يعملون كمؤسسة عسكرية ألمانية صرفة تحصل على ملبوساتها وأموالها من الأميركيين.

والغرابة الأبعد هي أن رجال غيلن الذين شعروا بأنهم محترمون أكثر مما كانوا محترمين في عهد هتلر، راحوا يشتغلون ضد الاتحاد السوفياتي باندفاع فريد.

أول شيء أقدمت عليه مؤسسة غيلن هي إعادة الاتصالات مع عملائها في أوروبا الشرقية. بالعدد الوفير من السعاة الممتلئي الجيوب بالأموال والمزودين بأفضل المخترعات الحديثة في آلات الاستخبارات، جرى توثيق العلاقات من جديد في بلدان أوروبا الشرقية التي كانت أحوالها لا تزال متقلقلة ومبهمة من حيث الاستقرار ونوعية الحكم والنظام. غيلن استغل هذه الظروف كلها وغلغل وعملاءه في المؤسسات السياسية المتبرعمة.

في هذه الأثناء انتقل الضابط في الاستخبارات السوفياتية إيغور غوزنكو إلى

الغرب وسلم الحكومة الكندية معلومات رهيبة عن شبكة الاستخبارات السوفياتية المنتشرة في القارة الأميركية.

وجن جنون واشنطن. معلومات غيلن ومؤسسته من ناحية، ومعلومات غوزنكو من ناحية أخرى، جعلت واشنطن تبدأ بالتفكير بانشاء استخباراتها هي تكون على مستوى المسؤولية العالمية الملقاة على عاتق الولايات المتحدة. هذه المؤسسة كانت وكالة الاستخبارات المركزية التي كان عليها أن تلجأ إلى مؤسسة غيلن بالذات لتفهم كيفية العمل في الاتحاد السوفياتي وأوروبا الشرقية.

وكثرت الحاجة إلى الخبراء في شؤون أوروبا الشرقية وازداد تعلق الاستخبارات المركزية الأميركية بخبرات غيلن ومؤسسته. وبمرور الزمن زال الشك نهائياً من أذهان الأميركيين حول الخطأ والصواب من إعطاء جنرال ألماني مجال تأسيس مؤسسة ألمانية قائمة بذاتها تحت أمرته تتولى مهمات الاستخبارات.

ووسط هذه الحاجة الأميركية، وقع الجنرال غيلن على اتفاق جديد مع القيادة الأميركية في ألمانيا ترسخت بموجبه الشروط الألمانية المرافقة لإنشاء المؤسسة.

ومنذ توقيع هذا الاتفاق أصبحت «مؤسسة غيلن» - كما سميت حتى ١٩٥٦ - مؤسسة ألمانية مرسخة ومعترفاً بها داخل الاستخبارات المركزية الأميركية.

وانتقل غيلن ومؤسسته من فرانكفورت إلى بلدة بولاخ قرب مدينة ميونيخ، عاصمة ولاية باڤاريا، وجعل من مجموعة مبان كانت سابقاً للحزب النازي مقراً لكبار الموظفين ومن مباني ثكنة عسكرية سابقاً مقراً عاماً للمؤسسة. كل هذه المباني سيجت بجدار عال وبالأسلاك الشائكة بشكل فصلها نهائياً عن بقية العالم ووضعت لها فرقة ألمانية مسلحة خاصة لحراستها.

الآن، صار المقر العام في بولاخ مجهزاً بالمزيد من المباني كما وضعت فيه آلات الكترونية ترسل ذبذبات خاصة للحؤول دون تمكن العالم الخارجي عبر الآلات الحديثة والأجرام الاصطناعية من الاستماع إلى الكلام داخل المباني. كذلك وضعت عند الجدار آلات حساسة جداً تسجل اقتراب أي كائن بشري أو حيوان أو حتى الحشرات والزحافات من المقر العام.

والطريف أن المؤسسة كلها قائمة على تعاون أشخاص كثيرين من غير أن يرى

واحدهم الآخر وذلك عبر مراسلات بواسطة صناديق البريد أطلق عليها صناديق البريد «الميتة والحية».

وصندوق البريد الميت هو عبارة عن مخبأ توضع الرسالة المحبرة بالحبر السري من قبل العميل السري ضمنه وقد يكون جذع شجرة أو حفرة تحت حجر في حائط ليستلمها ساعٍ يضعها في صندوق البريد الميت ليسلمها بدوره ساعٍ ثالث وهكذا حتى تصل الرسالة بالتسلسل إلى المركز الرئيسي.

وصندوق «البريد الحي» هو عبارة عن شخص يحمل رسالة من شخص لشخص ثاني دون أن يدري حجم المعلومات الموجودة لتصل بالتالي هذه الرسالة إلى جهاز الاستخبارات.

حتى إعلان وجود الدولة الألمانية الغربية كدولة ذات سيادة عام ١٩٥٥ كانت مؤسسة غيلن تعمل على طريقتها الخاصة حتى تم تشكيل الاستخبارات الاتحادية التي دمجت ضمنها كل مهمات الاستخبارات الخارجية ووسعت جهازها إلى حد كبير.

وللاستخبارات الاتحادية الكثير من المؤسسات الاستخبارية في العالم الحليف لها تتعاون معها بشكل كثيف وأبرز أوجه هذا التعاون تمثل ويتمثل في اتصال دائم بالتلكس مع وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية، تعاون معلوماتي مع خلايا خاصة مكلفة بمتابعة ومراقبة العلاقات بين الدول الغربية وكل من المانيا الشرقية والاتحاد السوفياتي.

ساهمت الاستخبارات الاتحادية في الإطاحة بحكومة المناضل الافريقي باتريس لومومبا عام ١٩٦١ وساعدت في تصفيته، دعم هذا الجهاز الاستخبارات العسكرية الأندونيسية عام ١٩٦٥ عبر تزويد الأندونيسيين بمسدسات وآلات لاقطة وأموال كمساهمة لإحباط المحاولة الانقلابية اليسارية.

وللمخابرات الألمانية علاقات خاصة مع الاستخبارات الاسرائيلية والتركية والإيرانية (أيام حكم الشاه) والباكستانية والأسوجية واليابانية والإفريقية والأميركية الجنوبية.

وكانت المخابرات الألمانية أول من استطاع تحديد موعد الهجوم الإسرائيلي صباح

٥ حزيران ١٩٦٧ على المواقع العربيه بأدق تفاصيله وذلك قبل حدوثه بأسبوع من عملائها ضمن الاستخبارات الاسرائيلية.

وكذلك فقد استطاعت المخابرات الألمانية وقبل شهر تحديد تاريخ زحف القوات السوفياتية وحلف فرصوفيا على تشيكوسلوفاكيا.

استطاع الجنرال غيلن أن ينتقل في مؤسسة (الاستخبارات الاتحادية) بكل معنى الكلمة فكان لا يسمح لأحد بالتدخل في شؤونها الداخلية وربط علاقة المؤسسة بالسلطة مباشرة بالمستشار نفسه الذي لم يتدخل بشكل تفصيلي بعمل هذه المؤسسة.

ذات صباح وصلت إلى طاولة المستشار الاتحادي آنذاك كونراد أديناور ورقة كتب عليها : ستالين مات.

ومعرفة المستشاربوفاة ستالين كانت قبل أن يعلم المكتب السياسي للجنة المركزية للحزب الشيوعي بنبأ الوفاة بساعتين وثلاثة عشرة دقيقة، بعد سبع عشرة ساعة من تاريخ الوفاة أذيع النبأ رسمياً.

بعد تقاعد الجنرال غيلن عام ١٩٦٨ خلفه في موقع المسؤولية الجنرال غيرهارد ڤيسيل الذي كان من كبار مساعدي غيلن على الجبهة السوڤياتية الذي واجه سلسلة من الزوابع والتصادم بين أجهزة السلطة المختلفة ومؤسسته على أثر مجيء الديمقراطية الاشتراكية إلى الحكم عام ١٩٦٩ مما جعل عمل هذه المؤسسة مقيدة وعرضة للفضائح الإعلامية التي تعرفها مجلة دير شبيغل بسلسلة من المواضيع الحساسة ترتكز على التشهير بهذه المؤسسة عبر فضائح كان القضاء قد أصدر حكمه فيها.

نشر هذه السلسلة أحدث تغييرات أساسية في مواقع الموظفين وأحال الكثيرين إلى التقاعد مما ضعضع هذا الجهاز وأربك فاعليته.

II المكتب الاتحادي لحماية الدستور

أول رئيس لهذا المكتب كان أوتو جون وأول مشكلة واجهته هي تعدي الاستخبارات البريطانية لصلاحية مكتبه مما أدى شرخاً كبيراً بالعلاقات بين هذين الجهازين وتفاصيل هذه المشكلة هي أن بقايا النازيين وعلى رأسهم الدكتور فيريز ناومان والذي كان أمين سر دولة في وزارة الدعاية بعهد هتلر نشطوا في إيجاد موقع

سياسي لهم على خارطة العمل السياسي الألماني العلني فأخذ هؤلاء النازيون في الانخراط بخلايا تنظيمية من أجل إعادة إحياء الحركة النازية فتغلغلوا في الجمعيات والمنظمات والرابطات الفلاحية وفي الصحافة.

أوتو جون رئيس المكتب الاتحادي كان عالماً بكل هذه التحركات وتفاصيل التحرك لهذه المجموعة وارتأى أن يلاقي الدكتور ناومان ويصارحه بكل التفاصيل وبكل المعلومات المتوافرة لديه حتى لا يعمد إلى اعتقالهم ويصبحوا بالتالي شهداء الديمقراطية في العهد الجديد.

وقبيل الموعد المحدد لهذا اللقاء بدقائق أبلغت الاستخبارات البريطانية أوتو جون أن كل مجموعة الدكتور ناومان أصبحت قيد الاعتقال مما اعتبره أوتو جون ضربة في صميم مصداقيته مع الآخرين وكذلك تعدى صارخ على صلاحية جهاز المكتب الاتحادي.

الصحف البريطانية بدورها أشادت باعتقال هذه المجموعة واعتبرت هؤلاء أنهم كانوا يعدون لانقلاب يطيح بالعهد الجديد لإعادة العهد الهتلري القديم، لكن ما انقضت الأيام حتى أخذت هذه الصحف تتساءل عن قانونية هذا الاعتقال دون توجيه أية تهمة رسمية مما يتعارض مع الإلتزام بالمبادىء الديمقراطية.

ولما تنقض أسابيع قليلة حتى كانت مجموعة الدكتور ناومان كلها خارج السجن مما فتح باب الخلافات بين جهازي الاستخبارات البريطانية والمكتب الاتحادي لحماية الدستور على مصراعيه.

بعد مرور بضعة أشهر على المشكلة الأولى، نشأت المشكلة الثانية.

ذات يوم من أواخر العام ١٩٥٣ تلقى أوتو جون دعوة كريمة على عشاء سخي على مائدة رئيس حكومة ولاية هسن جورج أوغوست تسن وفي منزله الرسمي بمدينة ڤيزبادن، على العشاء كان المدعوون كلهم من كبار المسؤولين في الولاية وكذلك وزير الداخلية الاتحادي، وشرب القوم من النبيذ أعتقه وأكلوا من الطبخ أطيبه.

حوالي منتصف الليل طلب من المدعوين الإخلاد إلى السكون لأن رئيس حكومة الولاية يريد أن يلقي كلمة.

في هذه الكلمة قال رئيس حكومة الولاية أن النيابة العامة، في اللحظة ذاتها هذه إذ يتكلم، تتولى الإشراف على اعتقالات واسعة جداً بين صفوف منظمة «الشبيبة الألمانية الاتحادية» إذ تبين أن فيها قوى ذات نزعات نازية جديدة شبه عسكرية. هذه القوى، قال رئيس حكومة الولاية، تجري دراسات في علوم حرب العصابات بإشراف مدربين من وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية وتستعد بكل نشاط لمباشرة حرب عصابات ضد المانيا الشرقية بالإضافة إلى أنها أنجزت وضع لوائح بأسماء الشيوعيين ومؤيديهم وحتى الحياديين الذين يجب اعتقالهم عند الحاجة.

وفوق ذلك انتقل رئيس حكومة الولاية، وهو من الحزب الديمقراطي الاشتراكي، إلى اتهام أوتو جون ولو بطريقة لبقة بأنه كان على علم بكل هذه النشاطات لكنه بقي ساكتاً عنها رغبة منه في تغطية دور الاستخبارات الأميركية.

وسكت أوتو جون خلال العشاء وحار جواباً. فالواقع هو أن المكتب الاتحادي لحماية الدستور لم يكن على علم بكل ما ذكره رئيس حكومة الولاية وأن المسألة، في حال ثبوتها، لها أبعادها الخطيرة.

فحكومة ولاية هسن، بتصرفها هذا، لم تتخط الحكومة الاتحادية فحسب بل كذلك قوات الاحتلال.

أوتو جون أصيب شخصياً وفي صميمه، لأن مكتبه الاتحادي أضحى مضحكة الرأي العام. فلما عاد بعد ذلك إلى رئيس حكومة الولاية يسأله عن سبب عدم إعلامه شخصياً بما أقدم عليه، أجاب هذا بأنه أعلم الحكومة الاتحادية في بون بالأمر وأنه قدر بأن بون أرادت التغطية على أعمال الاستخبارات الأميركية وأن في العاصمة الاتحادية الألمانية أشخاصاً كثيرين في مراكز المسؤولية يوافقون ضمناً على ما يجري.

عند هذه النقطة سعى أوتو جون جهده لتجنب فضيحة من العيار العالمي فاقترح تشكيل لجنة تحقيق أميركية - ألمانية غربية مختلطة. هذه اللجنة تشكلت بموافقة رئيس حكومة الولاية جورج أوغوست تسن ثم بموافقة وزارة الداخلية الاتحادية في بون وكذلك الجنرال الأميركي تريسكوف. وبعد انقضاء يومين على ذلك اجتمع تسن وتريشكوف بحضور أوتو جون واتفقا على التهادن طوال فترة عمل اللجنة.

ومع ذلك سارع تسن إلى نقض التفاهم بأن أعلن أمام مجلس نواب الولاية

تفاصيل كل ما جرى ومن غير أن يأتي على ذكر أمر النفوذ الأميركي. وعلى الأثر انطلقت الصحف في إفشاء السر وهو أن كل ما جرى إنما كان بناء على طلب وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية. ونتيجة لذلك حلت فروع عديدة لمنظمة الشبيبة الاتحادية نفسها بعدما كانت فروع أخرى في الولاية التي يحكمها الديمقراطيون الاشتراكيون قد حلت بأمر حكومي.

وطوال سنة كاملة بقيت الأمور في حال ارتباك، خاصة بعدما جرى اعتقال مئات الشبان في ألمانيا الشرقية بتهمة التجسس لحساب الاستخبارات الأميركية وصدور أحكام عليهم وصلت إلى السجن تسع سنوات.

ماذا وراء كل هذا؟.

اللعبة، كما قيل، كانت أكبر من أوتو جون. كان في الأمر لعبة أميركية ـ بريطانية لأن التنافس بين الدولتين الحليفتين كان ينقلب في بعض المرات إلى عمليات غير نظيفة بينهما فوق أرض ألمانيا الغربية. وبالنتيجة تكاثرت البهدلات والكوارث.

وجاء دور المشكلة الثالثة :.

إحدى المؤسسات التي كانت تحت مراقبة المكتب الاتحادي لحماية الدستور منذ سنوات هي «معهد أبحاث العلوم الاقتصادية» الذي كان مركزه الرئيسي في برلين الشرقية والذي كان له مركزان في هامبورغ وفرانكفورت بألمانيا الغربية. من الناحية الرسمية كان على هذه المؤسسة أن تشجع التبادل التجاري بين ألمانيا الغربية وألمانيا الشرقية. أما من الناحية الأخرى فالمؤسسة كانت أحد مراكز الاستخبارات لألمانيا الشرقية المكلف جمع المعلومات عن التطويرات السياسية والعسكرية في ألمانيا الغربية.

أوائل الخمسينات كان كثيرون في ألمانيا الغربية يؤيدون الفكرة القائلة بوجوب تطوير التعامل التجاري مع ألمانيا الشرقية، ومن بينهم كثيرون من غير الشيوعيين، استناداً إلى القول أن في ذلك تدعيماً للاتجاه نحو إعادة توحيد ألمانيا بشقيها الغربي والشرقي. وبالطبع لم يكن كل أولئك المتحمسين يعرفون الأوضاع الحقيقية لمثل هذه المؤسسة.

ربيع ١٩٥٣ جاء ضابط اتصال أميركي إلى أوتو جون ليقول له أن موظفاً من

موظفي المؤسسة في برلين الشرقية سيهرب إلى الغرب في القريب العاجل وأن هذا وعد بأن يحمل معه، إلى جانب الوسائل السرية، لائحة بأسماء عملاء الاستخبارات الشرقية العاملين في ألمانيا الغربية. كما قال إنه لمن الأهمية بمكان تركيز توقيت الاعتقالات كلها حتى لا يعرف العملاء بالأمر فيتدبرون هروبهم قبل إلقاء القبض عليهم أو لمجرد معرفتهم بهروب الرجل إلى الغرب..

ولما كان المكتب الاتحادي لحماية الدستور ليس من صلاحياته اعتقال أحد، فقد انتقل أوتو جون إلى مدينة كارلسروة للاجتماع إلى النائب العام الاتحادي والاتفاق معه على أنه فور وصول الموظف الهارب إلى ألمانيا الغربية فسيؤتى به إليه في كارلسروة حيث يجري الإطلاع على لائحة العملاء واعتقالهم فوراً.

وانقضت أسابيع قليلة على ذلك حتى طلعت عناوين الصحف بخبر اعتقال ٣٥ عميلاً شيوعياً في ألمانيا الغربية. الضربة كانت قاضية وكبيرة ولا سابقة لها منذ انتهاء الحرب عام ١٩٤٥ كما كانت أول ضربة من هذا النوع تجريها يد العدالة الألمانية الغربية بالذات وبمعزل عن قوات الاحتلال الحليفة.

الواقع أن أوتو جون شعر بأن مؤسسته لا علاقة وطيدة لها بكل ما حصل من تصرف عدلي وإن تطورات الأمر بررت تحفظه حيال الأمر منذ البداية. فقد تبين أن معتقلين كثيرين ليسوا عملاء بل تجاراً سعوا إلى تقوية تصديرهم إلى المانيا الشرقية أو استيرادهم منها عن طريق المؤسسة.

ومن جديد كرت سبحة الإفراج عن المعتقلين والاعتذار لهم. ومن جديد كذلك عادت الشكوى من تصرف أوتو جون والمكتب الاتحادي لحماية الدستور من زاوية مدى ضمان حقوق الفرد في الدولة الألمانية الجديدة.

في نهاية الأمر، ماذا تبين؟.

تبين أن المشكلة كلها ناتجة عن التسرع في التصرف من جانب ضابط استخبارات أميركي، اعتبر أن التجار البريئين ذوي العلاقة التجارية مع المانيا الشرقية عملاء استخبارات شيوعيين. كما تبين أن موجة الاعتقالات تلك حملت عدداً وفيراً من التجار الألمان الغربيين على العزوف عن تطوير تعاملهم التجاري مع المانيا الشرقية.

والواقع أن التبادل التجاري بين المانيا الغربية والمانيا الشرقية كان في تلك الأثناء

قد تقدم تقدماً ملموساً وأن ذلك لم يكن في مصلحة الولايات المتحدة الأميركية التي كانت سياستها ترتكز على قيام المانيا غربية مستقلة ومسلحة من جديد لتكون حليفاً قوياً ومنيعاً لها في قلب أوروبا.

عند هذه النقطة طرح التساؤل بجدية: ألم يكن ضابط الاستخبارات الأميركي عالماً تماماً ومسبقاً بنتيجة عمله ووفقاً لمخطط مدروس؟.

أخطاء وفخاخ كثيرة وقع فيها المكتب الاتحادي لحماية الدستور برئاسة أجوتو جون. لكن «الكارثة» هي تلك التي تمثلت باختفاء الرجل نفسه. فماذا كان من أمر اختفاء أوتو جون؟.

ألاعيب أميركية
على الجهاز البريطاني
أوتو جون في ألمانيا الشرقية

اختطاف أوتو جون أو هروبه إلى ألمانيا الشرقية مسألة شغلت الألمان سنوات كثير. لقد تساءل كثيرون: كيف يعقل أن يختطف رئيس جهاز للأمن الداخلي في بلد؟ كيف يعقل أن يترك شخص بهذه المسؤولية بلاده إلى معسكر آخر؟.

قصة أوتو جون في ألمانيا الشرقية كادت ذات يوم أن تصبح من الأساطير لولا أن تفاصيلها عادت مع الزمن إلى التوضح.

بداية القصة أن أوتو جون سافر إلى برلين الغربية، بطريق الجو طبعاً، في ١٩٥٤/٧/١٥ برفقة زوجته لحضور عملية تجديد انتخاب رئيس الجمهورية الألمانية الغربية البروفيسور تيودور هويس. ثمة داع آخر لوجوده في برلين الغربية في ذلك الحين وهو الاشتراك في حفل رفع الستار عن التمثال الذي نصب تخليداً لذكرى قتلى ١٩٤٤/٧/٢٠ وهم أولئك الذين حاولوا اغتيال الفوهرر أدولف هتلر، ومن بينهم هانز، شقيق أوتو جون.

في برلين الغربية سعى أوتو جون في تلك الأثناء كذلك إلى الإلتقاء بصديق قديم هو الدكتور فولغيموت وهو طبيب دأبت المستشفيات على طرده لأسباب نسائية كما أنه يعيش حياة اللهو والمجون ومواخير الليل وكثير الاتصال بالناس من الشرق والغرب.

الرابطة بين هذين الشخصين المختلفين في الأطوار كانت قائمة بسبب تعارفهما أيام العهد النازي وتفاهمهم على وجوب عدم تسليح الألمان من جديد.

الساعة السابعة والنصف من مساء ١٩٥٤/٧/٢٠ غادر أوتو جون فندقه للالتقاء بالدكتور. ومنذ تلك اللحظة اختفى مدير المكتب الاتحادي لحماية الدستور كما لو أن الأرض انشقت وابتلعته، إلى أن انقضت عشرة أيام وأعلن الرجل عبر إذاعة ألمانيا الشرقية أنه انتقل إلى المعسكر الآخر.

كيف ولماذا ولأية أسباب وفي أية ظروف؟.

للقصة وجهان، أو بالأحرى هناك قصتان الأولى سردها أوتو جون نفسه والثانية سردها الدكتور.

أوتو جون يروي أنه ذهب بسيارة تكسي إلى عيادة الطبيب حيث وجده يتناول عشاءه فيها فجلس هناك بعض الوقت وشرب عنده القهوة ثم انتقل الاثنان إلى سيارة الدكتور للذهاب بها إلى منزل الأخير.

في السيارة بدأ أوتو جون يشعر بدوخة قوية وبنعاس قوي. كل ما يذكره الرجل عن تلك اللحظات أن الدكتور قاد سيارته حينذاك بسرعة فائقة.

عندما أفاق، وجد نفسه في غرفة شبه مظلمة وملتقحاً على صوفا وقد خلع له حذاؤه وسترته وانتشلت ساعته وربطة عنقه. عند الباب وجد ثلاثة رجال سوفيات وممرضة حول طاولة وضعت في الممر المؤدي إلى الغرفة. واحد من هؤلاء الثلاثة تقدم منه وأفهمه بكلام صريح أن المطلوب منه هو التعاون مع الاستخبارات السوفياتية وأن هذا الموضوع سيكون مجالاً للأخذ والرد في اليوم التالي عندما يصل الجنرال.

الجنرال وصل في اليوم التالي وقال بصراحة أن السوفيات تتبعوا مواقفه في عدائه للنازيين وتبين لهم من خطبه وتصرفاته أنه يشاركهم الشعور بوجوب عدم تسليح ألمانيا من جديد. على هذا الأساس فإنهم يستقبلونه على الرحب والسعة في ألمانيا الشرقية حيث سيفتحون أمامه الباب واسعاً حتى يستمر في الكفاح من أجل مبادئه.

أوتو جون وجد أن عليهم التظاهر بقبول التعاون مع السوفيات حيث لا مفر من ذلك. فهو نفسه كان يوصي رجاله بالتظاهر بالتعاون مع الخصم في حال وقوعهم بين

أيديه، خاصة إذا لم يشمل هذا التعاون فضح أسرار المؤسسة التي ينتمون إليها وإذا لم يشمل إعطاء معلومات قيّمة تشكّل خطراً على أرواح العملاء والمخبرين.

وجاء الحديث العام بعد عشرة أيام عبر الإذاعة وأمام حشد كبير من الصحافيين الشرقيين والغربيين في نادي الصحافة ببرلين الشرقية. طبعاً، كان البيان الذي ألقاه أوتو جون من إعداد السوفيات وكذلك الأجوبة على الأسئلة التي كانت من نصيب المراسلين الصحافيين الشرقيين في الكمية الغالبة منها.

هذا المؤتمر الصحافي حضره في جملة من حضروه، مراسل «الديلي إكسبرس» اللندنية سيفتون دلمر الذي استأذن الروس والألمان الشرقيين المحيطين بأوتو جون في أن يحادثه على انفراد. بعد التشاور قرَّر الجماعة أن بالإمكان شرب القهوة في الطابق العلوي، وهكذا كان. ولكن، وفيما الكل صاعدون على الدرج، قال أوتو جون لصديقه منذ أيام الإقامة في لندن، سفتون دلمر، وبلغة إنكليزية سريعة: «حالتي بالويل».

وفهم دلمر المسألة بإطارها العام وهو أن الرجل مخطوف وأن كل بيانه الصحافي وكذلك أجوبته على الأسئلة إنما أملاها عليه الأسياد الذين يحيطون به وانتهت المقابلة الإضافية الهامشية وعاد دلمر إلى برلين الغربية وأبلغ الاستخبارات البريطانية هناك بالتلميح السريع من جانب أوتو جون، فكتمت هذه السر حتى النهاية.

بعد ذلك أخذ أوتو جون إلى موسكو حيث وضع في منزل عند الضاحية بحراسة شخصين لا يفارقانه. وأمضى هناك أسابيع من غير أن يستنطقه أو يضايقه أحد. ثم جاءه الاقتراح بأن ينتقل إلى مكان معتدل المناخ على البحر الأسود فوافق على ذلك وانتقل - أو نُقل - إلى دار مريحة في بلدة غاغري حيث راح يمضي الوقت بممارسة السباحة والمشي.

إلى أن كان ذات يوم، وقد اطمأن السوفيات إلى أنه أصبح في حال عصبية مرتاحة، فأطلَّ على الدار فجأة الكولونيل ميخائيلوف، وهو من قدامى رجال بيريا ويعرف ماذا يريد ولا يتراجع أمام الشيء في سبيل تحقيقه.

ميخائيلوف مارس اللعبة بأن حاول إيهام أوتو جون بأن الاستخبارات السوفياتية **تعلم الشيء الكثير عن دواخل المكتب الاتحادي لحماية الدستور. والواقع أنه اكتشف**

مبلغ كثرة هذه المعلومات لكنه لم يفاجأ بها وهو الذي كان يطالب وزارة الداخلية الاتحادية دوماً بأن تخفف من سحب النسخ عن التقارير السرية وتحديد كمية كبار المسؤولين الذين يسمح لهم بالإطلاع عليها. وقد تأكد أوتو جون من أن الاستخبارات السوفياتية كانت تعمل فعلاً بلا كلل للحصول الجدي على أقصى ما يمكن من المعلومات ومن داخل المكتب الاتحادي بالذات.

المفاجأة الحقيقية بالنسبة إلى أوتو جون كانت في أن ميخائيلوف لم يصر كثيراً على معرفة أسرار المكتب الاتحادي - إذ يبدو أنه كان مطلعاً على الأساسي منها - وإنما كان مصراً على إكمال حلقة معلوماته بمعرفة مدى العلاقة والتعاون بين المكتب الاتحادي لحماية الدستور والاستخبارات البريطانية في إسبانيا والبرتغال أواخر الحرب العالمية الثانية.

هنا إذن بدأت تبدو الأهمية التي علقها السوفيات على اختطاف أوتو جون.

أوتو جون بدأ يتبصر بأن أهم ما يريد السوفيات اكتشافه هو تأكيد محاولة اقتناع سوفياتية من وجود تحالف مضاد للسوفيات بين المتآمرين الألمان على حياة هتلر في ٢٠ تموز ١٩٤٤ والقوات الغربية الحليفة.

لقد بدا أن الروس مقتنعون بأنه كان هنالك مخطط يقضي بأن يتعاون الحلفاء مع المتآمرين الألمان على حياة الفوهرر، فور وقف إطلاق النار على الجبهة الغربية، من أجل فتح جبهة مشتركة ضد الاتحاد السوفياتي.

طبعاً لم يكن بإمكان أوتو جون أن يفيد السوفيات شيئاً عن هذه المسألة لأنه أساساً لم يكن ذلك الشخص الذي أعطي أي دور أو أي سر في كل المؤامرة.

والسوفيات فوجئوا بأن الوهم صور لهم دوراً لهذا الرجل في أواخر العهد النازي وبأكثر مما يستحق فما كان من ميخائيلوف إلا أن عاد أدراجه إلى حيث أتى.

بعد ذلك أعيد أوتو جون إلى موسكو مع مرافقيه وإلى البيت ذاته الذي سبق أن وضع فيه. وبقي الثلاثة هناك بضعة أسابيع من غير أن يحدث أي شيء غير عادي. وما أن حل كانون الأول ١٩٥٤ حتى أطل على البيت شخص طويل القامة في سيارة حكومية سوداء عرّف نفسه بأنه الجنرال بانيوشكين. إنه الكسندر سيميونوفيتش

بانيوشكين الديبلوماسي العتيق الذي كان سفيراً في الصين وفي الولايات المتحدة والذي أصبح بعد إعدام بيريا رئيس شعبة التجسس في الخارج لدى الاستخبارات السوفياتية.

في الحديث المتبادل، أعرب أوتو جون عن رغبته في أن يعاد إلى ألمانيا الشرقية حيث يستطيع من برلين الشرقية أن يقود الحملة من أجل نزع السلاح وتصفية النازية وإعادة توحيد المانيا.

بانيوشكين وافق على هذه الرغبة وفي ذهنه أن أوتو جون لا يمكنه أن يفيد الاستخبارات السوفياتية في شيء وأن هروبه إلى الغرب، وهو أمر لن تتأسف عليه الاستخبارات السوفياتية مطلقاً.

إذن، أعيد أوتو جون إلى برلين ووضع في دارة محترمة وأرفق بحراس دائمين ثم حول إلى «لجنة الوحدة الألمانية» التي تشرف عليها الاستخبارات الألمانية الشرقية من أجل أن يعمل ضمن إطارها على إصدار مقالاته وبياناته في الخط المطلوب.

ولم يطل الزمن حتى تبين للألمان الشرقيين أن أوتو جون لا يعرف الكتابة وليست له تلك الآراء الفذة في الدفاع عما يؤمن به وأنهم مفشولون به بقدر ما فشلت به الاستخبارات السوفياتية. فكونه خصماً للنازية ولأعادة تسليح المانيا لم يكن كافياً ليصبح ذلك النجم اللامع الذي تستغله ألمانيا الشرقية في حملاتها الإعلامية على ألمانيا الغربية.

وجاء صيف ١٩٥٥ وأوتو جون يبدو ظاهرياً غير متضايق من وضعه فيما يستعد لتدبير أمر هروبه من جديد إلى برلين الغربية ومنها إلى ألمانيا الغربية. ولما كانت له الحرية في أن يستقبل من يشاء من الغربيين، فقد درج على استقبال المراسل الصحفي الدانمركي بوندي هنريكسون الذي كان عميلاً للاستخبارات البريطانية.

ويوم ١٢ كانون الأول ١٩٥٥ كان يوم الهرب المتفق عليه؛ فتظاهر أوتو جون عند المساء بأنه متوجه إلى مكتبة الجامعة حيث يعكف على الاطلاع على بعض المخطوطات، وهناك غافل مرافقيه وخرج من الباب الثاني للمكتبة حيث كان هنريكسون في انتظاره بسيارته. على الأثر توجه هنريكسون بسيارته إلى حدود القطاع،

حيث كـان التفتيش على الخروج والدخـول لا يزال طفيفـاً في تلك السنوات، وقـطع الطريق إلى القطاع البريطاني عبر بوابة «براندنبورغرتور».

وبـالنتيجة وصـل أوتو جـون في الليلة ذاتها إلى ألمـانيـا الغـربيـة بـطريق الجـو، فسارعت النيابة العامة الاتحادية إلى الحجز عليـه، مقدمـة للتحقيق والمحاكمـة، رغم اعتراضاتـه. وبقي في السجن ١١ شهراً حتى كـان موعـد ١٢ تشرين الثاني ١٩٥٦ إذ قدم إلى المحاكمة أمام المحكمة الاتحادية العليا بتهمة الخيانة العظمى.

ولما لم يكن أمام القضاة غير المتهم وحـده بكل مـا جرى معـه وما صـدر عنه من تصريحات صحافية وبيانات إذاعية، ولما كان الشاهد الرئيسي الدكتور ڤولغيموت متغيباً لأنه هارب من المانيا الشرقية، فقد انتهت المحكمـة إلى إصدار حكمهـا في ٢٢ كانـون الأول ١٩٥٦ بسجن أوتو جون أربع سنوات.

وبقي أوتو جون في السجن حتى ٢٥ تموز ١٩٥٨ إذ أفرج عنه قبل انجـاز المدة. أما الدكتور ڤولغيموت فقد عاد من المانيا الشرقية وسلم نفسـه بعد ذلـك ببضعة أشهـر لمواجهة حكم القضاء بتهمة إجراء اتصالات مع الخارج تتخذ صفة الخيانة.

هذه المرة كان أوتو جون نفسه الشـاهد الـوحيد في المحـاكمة. وقـد كان مـوقف الصـديقين السـابقين في صحن المحكمـة محرجـاً على الصعيـد الشخصي وكذلـك على صعيد سرد الوقائع إذ كان لكل منهما صيغته التي حكى بهـا قصته. وكـما كان متـوقعاً، فقد برىء الدكتور من التهم الموجهة إليه.

وبقي أوتو جون يسعى منذ ذلك الحـين لإعادة محـاكمته من أجـل محو الأسبـاب التي حكم من أجلها لكنه لم يفلح في مسعاه. فكلما أثار الرجل قضيته من جديـد ازداد ميل العارفين بالأمور إلى الأخذ بالافتراضـات الكثيرة المنتشرة حـول الرجـل. من ذلك القول أن أوتو جون لم يكن ذلك الخصم الحقيقي للنازية وأنـه كان عـلى اتصال بـزعيم جيش الصاعقة هاينريش هملر يوم مات أخوه بسبب مؤامرة ٢٠ تمـوز ١٩٤٤ وأن ذلك بالذات هو الذي سهل له الفرار إلى البرتغـال. ومن ذلك أيضـاً الافتراضـات الألمانيـة الغربية والسوفياتية معاً من أنه ضليع جداً في تعامله مع الأستخبارات البريطانيـة وربما منذ أيام العهد النازي.

III الاستخبارات العسكرية

مؤسسة الاستخبارات الثالثة في المانيا الغربية، بعد الاستخبارات الاتحادية والمكتب الاتحادي لحماية الدستور، هي الاستخبارات العسكرية الصرفة المعروفة على الطريقة الفرنسية باسم المكتب الثاني.

الاستخبارات العسكرية هي بالطبع لدى القوات المسلحة وتابعة لوزارة الدفاع. وشغلها الأساسي هو تأمين سلامة القوات المسلحة داخلياً وخارجياً، أي الحؤول دون وقوع عمليات تجسس داخل الثكنات أو بين الأفراد العسكريين وحماية المصانع المنتجة للسلاح من فضول الأغراب.

كذلك فإن من صلاحيات الاستخبارات العسكرية الركض للحصول على أخبار القوات المسلحة لدول معينة والوقوف على تفاصيل تحركاتها وعلى الاختراعات الجديدة التي بين أيديها.

هذه الاستخبارات لا علاقة لها بالمدنيين وقلما توظف أحداً منهم إلا لمهمات معينة هي في الغالب خارج الأرض الألمانية. ولها جواسيسها وعملاؤها كأية استخبارات أخرى مماثلة وكل الأموال التي تنفقها هي أموال واردة في الموازنة وتخضع لموافقة دائرة المحاسبة في وزارة الدفاع كأي مال آخر تنفقه الوزارة.

ولما كانت القوات المسلحة في المانيا الغربية تقرب من النصف مليون جندي فقد يكون هناك عشرة آلاف أو عشرون ألفاً مهمتهم الانتماء إلى الاستخبارات العسكرية لهم علاقة فارقة يعرفها كل الضباط والجنود.

الأستخبارات العسكرية هي حتى أوائل ١٩٧١ برئاسة الجنرال ألك وهو من قدامى الاستخبارات في الحرب العالمية الثانية ومن تلاميذ كناريس. هذا الجنرال لا يعيش متخفياً ولا يتعاطى إلا المهمات الموكولة إلى مؤسسته كما أنه لا يستطيع إنفاق قرش واحد غير ذلك الذي توافق عليه الدائرة المالية في وزارة الدفاع، بمعنى أن الرجل ليست له أية مخصصات سرية يتصرف بها وبمعنى أن يدفع ثمن فنجان قهوة لضيفه من جيبه.



الأسير لومومبا في الكونغو: الاستخبارات الاتحادية ساعدت في تصفيته



القضاء على محاولة الانقلاب في اندونيسيا: بمساعدة الاستخبارات الاتحادية

مشاكل أمن ومشكلة ضمانات

المشاكل المتعلقة بأوضاع الاستخبارات في المانيا الغربية كثيرة جداً.

المانيا الغربية عضو في الحلف الأطلسي وفوق أراضيها ترابط جيوش أميركية وبريطانية وفرنسية وهولندية وبلجيكية وكندية .. وحتى اليوم، وبموجب القوانين السابقة الموضوعة أيام الاحتلال، يحق لكل هذه الجيوش أن تكون لها استخباراتها فوق أراضي المانيا الغربية.

بالمقابل،فإن ألمانيا الشرقية عضو في حلف فرصوفيا كما أن الاتفاقات الخاصة بين دول الحلف سمحت بأن يكون لكل منها فرع استخبارات خاص بها فوق أرض المانيا الشرقية يرتبط بلجنة عليا للاستخبارات الشرقية كلها مركزها في برلين الشرقية.

وواقع الحال هو أن أراضي الدولتين الألمانيتين ساحة واسعة منتعشة بالتجسس والعمالة للمعسكرين الشرقي والغربي. والراهن كذلك هو أن اللغة الألمانية هي اللغة الأكثر استعمالاً بين العملاء في الدولتين.

الاستخبارات الاتحادية (الالمانية الغربية) لا حق لها بالتعاطي بمكافحة جواسيس المانيا الشرقية فوق أراضي المانيا الغربية لأن هذه المهمة متروكة للمكتب الاتحادي لحماية الدستور. لكن الاستخبارات الاتحادية هي التي يحق لها إرسال العملاء إلى المانيا الشرقية بالتعاون مع الاستخبارات العسكرية

تقسيم المهمات على هذا الشكل ليس بالأمر السهل وهو غالباً ما أدى إلى أعمال ونتائج متناقضة وإلى وقوع أخطاء فادحة.

ثم هناك مشكلة أخرى لا تزال تؤذي الألمان الغربيين حتى الآن وهي من بقايا قوانين الاحتلال بعد ١٩٤٥.

هـذه المشكلة هي أن مراقبـة البريـد والهـاتف أمـر شرعي جـداً لكنـه ليس من صلاحيات السلطات الألمانية الغربية على الإطلاق، على ما في ذلك من غرابـة بالنسبـة إلى دولة مستقلة. هذه المراقبة هي من صـلاحيات الاستخبـارات الحليفة العـاملة فوق أرض المـانيا الغـربية ولـو أن بين هـذه كلها والمكتب الاتحـادي لحمايـة الدستـور تفاهم واتفاق على كيفية إجراء معاملات المراقبة.

فإذا أراد المكتب الاتحادي مراقبة خط هاتفي لأحد المشبـوهين، فـإنه يقـدم طلباً إلى زميله «المحتل» السابق و «الحليف» الحالي. وبعد الحصول على الإذن يتوجه موظف المكتب الاتحادي إلى مكتب البريد ويعالج المسألة الفنية مع الموظف المختص.

كثـيرة هي النقاشـات التي دارت حول هـذه المسـألـة في مجلس النـواب الألمـاني الغربي، لكن وزير الداخلية كان يرد دائماً: «نحن لا نراقب الهاتف ولا نفتح البريد».

المراقبةكانت ولا تزال تحدث منذ ربع قرن، وهي مثبتة في الدستور المؤقت الذي فرضه الحلفاء الغربيون الثلاثة على المـانيا الاتحـادية عنـد تأسيسهـا عام ١٩٤٩ المـادة العاشرة من هذا الـدستور المؤقت ـ الـذي لا يزال سـارياً حتى اليـوم ـ هي التي نصت على ذلك، والمكتب الاتحادي مجبر على احترامها.

المشكلة الأكثر بروزاً والتي تشمل الأجهزة الثلاثة للاستخبارات في المانيا الغـربية هي مشكلة السلاح.

لا يحق لأفراد أي من هذه الأجهزة حمل الســلاح الناري أو تـوقيف الأشخاص. المهمة محصورة في جمع المعلومات في الخارج وفي تعقب خطوات المشبوهين في الداخل، وتوفير الأدلة التي تؤمن الإدانة أمام المحكمة.

كيف يجري، إذن، القبض على العملاء بالجرم المشهود؟.

هذه العلة الكبيرة في المانيا الغربية كان حلها الوحيد التعاون مع الشرطة العادية التي لها وحدها حق توقيف الأشخاص وبأمر خطي من المدعي العام. في حالات كثيرة فشلت محـاولات القبض على المشبـوهين بـالجرم المشهـود لأن التنسيق لم يكن على أتمـه ولأن الشرطة لم تصل إلى الأمكنة المقصودة في اللحظة المناسبة.

مثل هذا الروتين الحكومي قتل مبادرات كثيرة وخنق مناسبات إدانية فريدة.

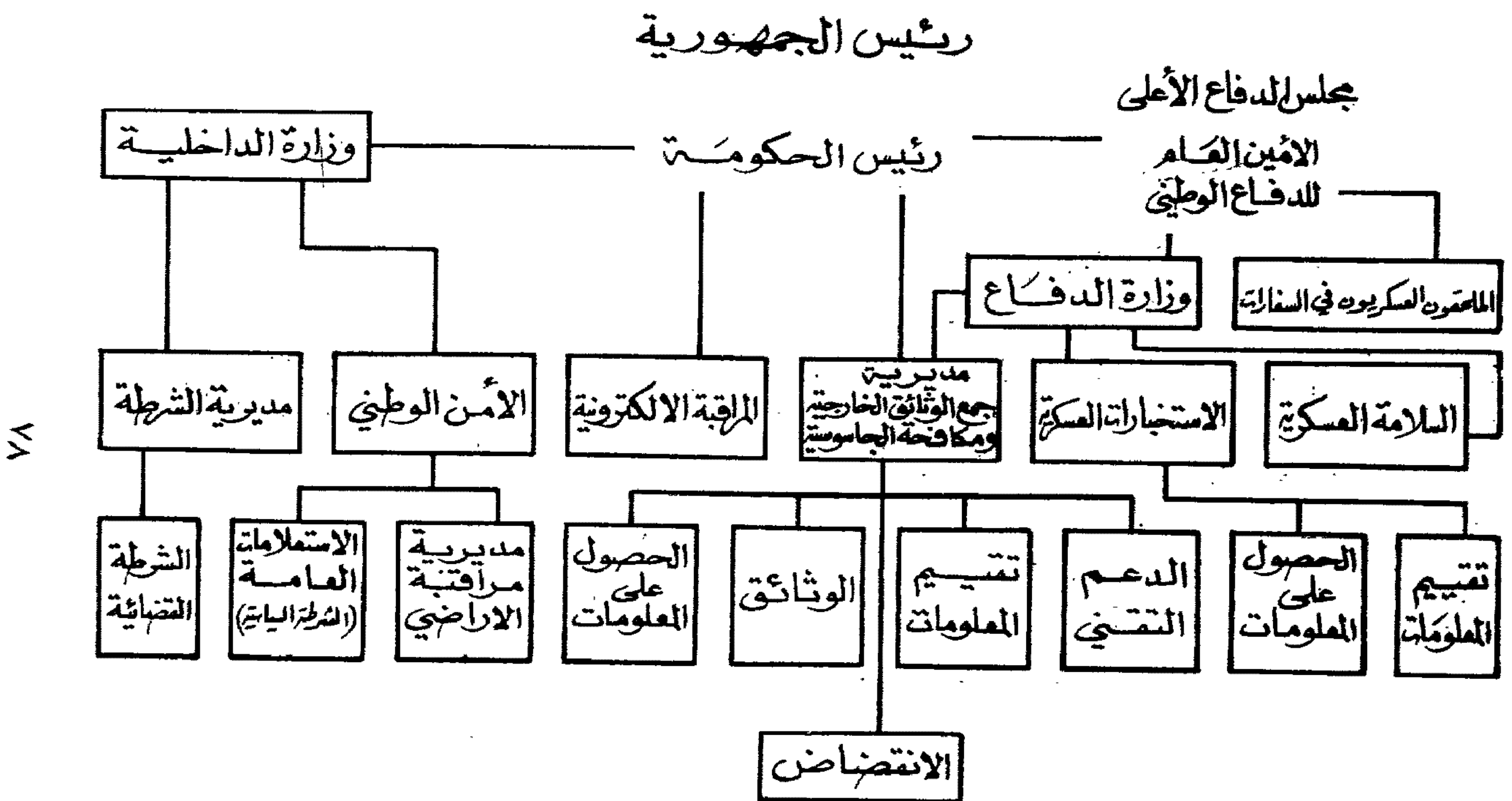
لماذا كل هذا التعقيد؟.

لا بد من عود إلى بدء. نفسيات الألمان معقدة من قصص الاستخبارات في العهد النازي ومن عمليات السحل التي جرت في الشوارع باسم القانون. الحساسيات لا تزال كثيرة والمشترعون أرادوا مداراة الناس وذكرياتهم المؤلمة.

والظاهر أن عذاب الروتين لا يزال أفضل من العذاب الآخر.



الجنرال بول جاكييه



الهيكلية التنظيمية للاستخبارات الفرنسية

الاستخبارات الفرنسية

دخلت فرنسا عالم الاستخبارات مع بروز عظمة نابليون في بداية القرن الماضي الذي اعتمد على هذا العنصر الهام لإدارة حروبه ودحر أعدائه وكان فوشيه وزير شرطته أهم أركانه (راجع فوشيه أبو المخابرات الحديثة في بداية هذا الكتاب) إذ كان لا يضع المخططات للمعارك إلا إذا استكمل جميع المعلومات التي تأتيه عبر جواسيسه داخل العدو.

من الاحتلال الألماني إلى الاستقلال الجزائري.

بعد وقوع فرنسا جزئياً تحت الاحتلال الألماني عام ١٩٤٠ وقيام حكومة الهدنة برئاسة الماريشال بيتان في مدينة فيشي وانتقال الجنرال ديغول إلى بريطانيا ليشكل فيها حكومة فرنسية «حرة» يوافق عليها ونستون تشرشل، كان لا بد للفرنسيين الأحرار من إعادة تشكيل جهاز الاستخبارات ومن نوع جديد هذه المرة.

ديغول استدعي إليه في لندن واحداً من الضباط الشباب، يدعى النقيب ديوافران، وكلفه تشكيل هذا الجهاز الجديد الخاص الذي كان مغايراً في مهماته عن بقية أجهزة الاستخبارات المعروفة. فقد كان عليه القيام بالأعباء الآتية :

● التجسس على الجيوش الألمانية في فرنسا الحرة ومعلومات الجيوش البريطانية.

● تحقيق التنسيق بين معلومات قوات فرنسا الحرة ومعلومات الجيوش البريطانية.

● التعاون السري مع بعض عناصر استخبارات الماريشال بيتان في فيشي.

● التعاون مع بعض عناصر استخبارات فيشي على تأمين الاتصال بين حكومة الفرنسيين الأحرار في لندن والشعب الفرنسي الرازح تحت الاحتلال.

● تأمين تشكيل عناصر مقاومة ومدها بالسلاح والذخيرة وتعاونها مع المدنيين إلى الحد الأقصى.

هذا الجهاز الاستخباري سمي آنذاك «المكتب الوطني للاستعلام والعمل» كما أن النقيب ديوافران ما أن تسلم الأمر بتنفيذ المهمة حتى سمى نفسه على الفور «باسي».

باسي اعترف في مقالة نشرتها له صحيفة «المونـد» الباريسية عام ١٩٦٦ أنه لم يكن يفهم شيئاً من شؤون الاستخبارات عندما وصله التكليف من ديغول. ولكنه دق باب الاستخبارات البريطانية وطلب من ضابط الاتصال البريطاني المختص أن يعلمه البديهيات، فكانت انطلاقته الجيدة في العمل.

من تفاصيل المرحلة الأولى لعمل هذا الجهاز أنه في أوائل خريف ١٩٤٠ جاء فرانك نلسون، المسؤول البريطاني عن تنظيم العمليات شبه العسكرية في الأراضي الواقعة تحت الاحتلال الألماني، وهو فرع منفصل تماماً عن الاستخبارات البريطانية، ليطلب من باسي أن ينشيء داخل المكتب الوطني للاستعلام والعمل شعبة تكلف تنفيذ العمليات التخريبية التي تستهدف مقاومة القوات الألمانية.

الجنرال ديغول أعطى الموافقة لباسي كما أعطاه الأمر في آن واحد لمحاولة إعادة تكتيل تجميع عناصر المقاومة التي يمكنها إعادة تنظيم نفسها بسرعة في أراضي فرنسا. وعلى هذا الأساس تمكن جهاز باسي من نسف عدد وفير من الأهداف العسكرية في فرنسا المحتلة.

ومع مرور الوقت تغير اسم هذا الجهاز لدى القوات الفرنسية الحرة إلى «المكتب المركزي للاستعلام والعمل» وحقق الاتصالات اللازمة مع حركات المقاومة الهامة التي تكونت في المنطقة المحتلة من فرنسا وفي المنطقة غير المحتلة منها. وقد كلف ماكس مولان تنسيق العمل في ما بينها، وذلك على الصعيد السياسي بإنشاء «مجلس وطني للمقاومة» وعلى الصعيد العسكري بإعادة تجميع عناصر هذه الحركات التي تجد في نفسها استعداداً لتشكيل جيش سري.

وحتى تترتب مهمات «العمل»، أنشأ باسي في قلب المكتب المركزي للاستعلام والعمل، وبمعزل عن جهاز الاستخبارات، شعبتين:

● شعبة مكلفة تشكيل عملاء «العمل» وتنظيم الاتصال في ما بينهم عند تنفيذ المهمات وكذلك تنفيذ مهمات الطيران السري والهبوط بالمظلات.

● شعبة لتجميع الوثائق العسكرية مكلفة الحصول على المعلومات وبالتالي وضع مخططات الهجوم على أهداف الألمان في عمليات شبه عسكرية.

هذه الشعبة كلفت كذلك وضع مخططات تدمير الخطوط الحديدية والإنفاق وطرقات التموين العسكرية وتضليل الألمان وإثارة اهتماماتهم في أماكن بعيدة عن أماكن النزول الحقيقية للحلفاء فوق أرض فرنسا.

بالإضافة إلى هاتين الشعبتين، كانت هنالك شعبة غير عسكرية منحصرة اهتماماتها بالشؤون السياسية. هذه الشعبة التي لم تكن «عملية»، كانت تجمع المعلومات غير العسكرية التي يحصل عليها عملاء الجهاز وعملاء شعبة «العمل» وترفعها إلى «مفوضية الداخلية» للحكومة الفرنسية المؤقتة في لندن التي يرئسها الجنرال ديغول. وعلى صعيد آخر، كانت هذه الشعبة تحضّر، وفقاً لتعليمات وزير الداخلية في الحكومة المؤقتة، تعليمات ذات طابع سياسي توجه إلى الفرنسيين المقيمين تحت نظام الاحتلال الألماني. هذه التعليمات كانت ترسل بالرموز أو بأية وسيلة مضمونة أخرى إلى العملاء في فرنسا المحتلة.

وهكذا فإن «المكتب المركزي للاستعلام والعمل» أصبح بالنسبة إلى الفرنسيين الأحرار في لندن إحدى الأدوات الفعلية الأساسية ليس في قيادة الحرب فحسب بل كذلك في تنفيذ العمل السياسي بحسب ما يقرره الجنرال ديغول.

وبالإضافة إلى ذلك كله، كان لا بد من التحسب.

فمنذ العام ١٩٤١ بدأ جهاز الاستخبارات الديغولي يشعر بأنه بات عليه توقع محاولات ألمانية للتغلغل في صفوفه، سواء أكان ذلك في فرنسا أم في لندن. في هذه الأثناء وصل إلى لندن مسؤول سابق من مكتب مكافحة التجسس في حكومة فيشي يدعى روجيه ويبو، بعدما خشي أن يفتضح أمره في أرض فرنسا لكونه أنشأ جهازاً واسعاً لاستقصاء المعلومات للحكومة الحرة في لندن، ولو أنه موظف في حكومة

فيشي. على الأثر كلف ويبو رئاسة شعبة مكافحة التجسس في المكتب المركزي للاستعلام والعمل.

دور ويبو في تلك الأثناء كان يقضي بترتيب كل المعلومات الواصلة إليه والمتعلقة بالأشخاص وبمواعيد انضمامهم إلى المكتب المركزي للاستعلام والعمل، مهما كان أصلهم وفصلهم. هذه المعلومات لم تكن خاضعة للرقابة إلا إذا ظهرت عناصر الخطر البالغ على سلامة أجهزة الاستخبارات وحركات المقاومة.

كذلك كلفت شعبة مكافحة التجسس استجواب المتطوعين الذين كانوا ينضمون إلى قوات فرنسا الحرة. وهي، من خلال هذه المهمة، كشفت عملاء كثيرين للألمان، من الفرنسيين، كانوا يحاولون التغلغل في داخل هذه القوات وداخل المكتب المركزي للاعلام والعمل.

في هذه الأثناء كان «جهاز الاستخبارات» لدى حكومة الماريشال بيتان في مدينة فيشي، المعادي جداً للاحتلال الألماني، يتابع مهماته في مكافحة التجسس. وقد توصل في بعض الحالات وخلال ظروف الهدنة، إلى توقيف الفرنسيين من عملاء الألمان وتنفيذ إعدامهم.

وفي الجزائر أيضاً أثبت جهاز الاستخبارات التابع لحكومة فيشي فعالية بالغة ضد لجان الهدنة الألمانية والإيطالية، وكذلك بعد نزول الحلفاء في الجزائر في ٨ تشرين الثاني ١٩٤٢ بفضل التعاون البالغ من جانب استخبارات حكومة فيشي. وبعد تسلم الجنرال جيرو السلطة، تولى «القائد الأعلى المدني والعسكري» ضم أجهزة استخبارات فيشي إلى سلطته.

هذه الأجهزة كان يرئسها الجنرال رونان فيما كان جهاز استخبارات فرنسا الحرة برئاسة الكولونيل ريفيه وجهاز مكافحة التجسس وجهاز الأمن لعسكري برئاسة المقدم بايول. وفي الوقت نفسه قام في الجزائر جهازان جديدان: الأول جهاز «العمل» والثاني جهاز «الرقابة التقنية» برئاسة مدني هو ألبيريك دو ميتر.

وعندما جاء الجنرال ديغول إلى الجزائر، بعد مفاوضات عسيرة، للتشارك مع الجنرال جيرو في رئاسة لجنة التحرير الوطنية، جرت مباحثات من أجل دمج أجهزة الاستخبارات المتعددة في الجزائر ولندن. هذه كانت على تنافس في ما بينها إلى حد

العداء كما كانت تخصص جزءاً من نشاطاتها لمهمات استخبارية واحدة. وبصفة خاصة كانت نظرة الواحدة منها مختلفة عن نظرة الأخرى.

الجنرال جيرو كان يعتبر المسألة عسكرية صرفة، حتى قال فيه أحد العارفين آنذاك: «أنه لم يكن قادراً على الاقرار بأن هنالك فارقاً بين وحدات جيش سري في المناطق المحتلة وفوجاً من القناصة المراكشيين يأخذ أوامره من القيادة العليا». وبالاضافة إلى ذلك كان من الطبيعي أن تقوم بين الاستخبارات الفرنسية والاستخبارات الأميركية علاقات عمل قوية.

الجنرال ديغول كان له رأي آخر مغاير تماماً في تلك الحقبة.

وبعد أخذ ورد تشكلت لجنة تنسيق برئاسة الجنرال كوشية من السلاح الجوي، لكنها فشلت في تحقيق المطلوب منها. وأخيراً تم الاتفاق عام ١٩٤٣ على تشكيل «المديرية العامة للخدمات السرية» وتسليمها إلى «رجل من جماعة لندن» هو جاك سوستيل. لكن هذا أصبح فوراً «الخروف الأسود» بالنسبة إلى الجنرال جيرو الذي كان يتهمه بالدرجة الأولى بأنه «مدني».

آنذاك وبعدما وصل خبر انزعاج جيرو إلى ديغول في لندن، أرسل هذا إلى زميله في الجزائر برقية يقول له فيها: إذا كان لا يرضيك لأنه مدني فسأرضيك بأن سأشتري له بدلة جنرال وألبسه إيَّاها!.

ورغم ذلك، فإن جيرو حرم على ضباطه التعامل مع سوستيل الذي ما أن أقام مكتبه في قصر بروس حتى وجد أن خطه الهاتفي هو تحت مراقبة ضباط جيرو.

وعندما جرى تحييد الجنرال جيرو وفرض الإقامة الجبرية عليه، بعدما أصيب بجرح في محاولة لاغتياله قال إنها من تدبير سوستيل وجماعته، جرى توحيد أجهزة الاستخبارات دون عناء يذكر وعلى مستويات كبار الموظفين وصغارهم، ولو مع حصول بعض الاستثناءات.

وبعد تحرير فرنسا تحولت المديرية العامة للخدمات السرية إلى «المديرية العامة للدراسات والأبحاث» وأصبح الكولونيل ديوافران (باسي) رئيساً لها.

باسي، منذ تسلم مسؤوليته الجديدة، سارع بعد عام ١٩٤٥ إلى إحياء النشاط

الفرنسي للعودة إلى التمركز في الهند الصينية كما بدأ بتحويل مهمات الاستخبارات من عالم الحرب إلى عالم السلم بمعنى أنه ألغى الفروع التي كانت لها علاقة بالأعمال التخريبية العسكرية أو التنظيم السياسي والإداري للمقاومة.

لكن باسي استقال من منصبه عام ١٩٤٦ بعدما ترك ديغول دفة الحكم وجاءت الحكومة الجديدة بعده تبدي امتعاضها من ولاء باسي الشخصي لديغول. وبالإضافة إلى ذلك قامت الصيحة في تلك الفترة من قيام دولة ضمن دولة بسبب فضيحة مالية تتعلق بالعملات الصعبة، سيرد الحديث عنها بالتبسيط في فصل خاص.

مكان باسي، حل نائب اشتراكي سابق هو هنري ريبيز وضع إلى جانبه «مساعداً تقنياً» هو الكولونيل فوركو لم تتلبسه تهمة الديغولية مثلما تلبست غيره من الضباط في تلك الحقبة. آنذاك أيضاً تحولت المديرية العامة الدراسات والأبحاث إلى «مديرية الوثائق الخارجية ومكافحة الجاسوسية».

في هذه المديرية وحيث كان يعشعش حتى الآن موظفون من مشارب ومهمات متعددة، أي من جماعة فرنسا الحرة والمقاومة السرية وقدماء استخبارات ما قبل الحرب، بدأ الآن التطعيم بعناصر من الاشتراكيين وبدأت المديرية تتحول إلى جهاز حكومي واسع يقع مركزه في بوليفار سوشيه. هذا الجهاز الموسع استبقيت فيه الشبكات القديمة للاستخبارات بمن فيها من أشخاص وجدوا أن لامهمات واضحة أمامهم فراحوا يتصرفون حسبما تديرهم أهواؤهم.

ووسط هذا الجو من الفوضى بين الموظفين وفوضى الأموال السرية المنفقة على المؤسسة، حاول ريبيير وضع شيء من التنظيم فيما كانت مؤسسته تخوض صراعاً عنيفاً على الصلاحيات مع «مديرية مراقبة الأراضي» التابعة لوزارة الداخلية والتي تأسست خريف ١٩٤٤ بعد تحرير فرنسا.

ومن جهة أخرى، ومع توسع مشكلة الحرب في الهند الصينية، أطل على الوجود جهاز جديد منافس هو«المكتب التقني للاتصال والتنسيق» تابع لوزارة ما وراء البحار كان في طليعة ما كشف النقاب عنه حصول شخص فيتنامي على نسخة من تقرير الجنرال ريفيير عن الهند الصينية وهي النسخة التي كانت وراء «فضيحة الجنرالات».

وسط كل هذه الخلافات والتناقضات، صدر مرسوم جمهوري في ١٨ كانون الأول ١٩٤٥ بتكليف المفتش العام في موقع مرسيليا والمدير السابق للأمن العام بيار بوريسكو، وهو ذو ميول اشتراكية، مهمة التنسيق وإعادة التنظيم. وفي الوقت نفسه أصبح بوريسكو المدير العام لمديرية الوثائق الخارجية ومكافحة الجاسوسية.

بوريسكو بقي سنوات طويلة في هذا المنصب وتميزت فترة عمله بأنها كانت على الأقل سالمة نسبياً من الفضائح. فترته كانت فترة الحرب الباردة وحرب الهند الصينية وحرب الجزائر والعدوان الثلاثي على مصر (١٩٥٦) وهذه كلها أوجدت أعمالاً كثيرة لرجال المديرية، تميز فيها عمل الكولونيل فوركو بسريته الفائقة.

لكن بوريسكو أنهيت خدماته وعين مكانه في أيلول ١٩٥٧ الجنرال غروسان مديراً عاماً لمديرية الوثائق الخارجية ومكافحة الجاسوسية بعدما كان الأمين العسكري العام في رئاسة الجمهورية.

العلاقات بين غروسان والأجهزة المتعددة للاستخبارات التي أنشئت في الجزائر لدى القوات المسلحة وبعض الوزارات، كانت علاقات حساسة جداً. المديرية العامة التي نقلت مركزها الرئيسي إلى بوليفار مورتييه، لم تبق بمنأى عن الخلافات الشخصية والحزبية التي تفجرت ضمنها.

فالعناصر المتناحرة ضمن المديرية أضيفت إليها عناصر متناحرة جديدة استقدمت من ضمن القوات المحاربة سابقاً في الهند الصينية والقوات المحاربة حالياً في الجزائر.

الجنرال غروسان كان حريصاً على ألا يغرق في تكليف الأشخاص «المتناحرين»، بالقضايا التي لها علاقة بالسياسة الفرنسية الداخلية. لكنه لم ينجح تماماً في هذا المخطط لأن العناصر القديمة الآتية من أجهزة الاستخبارات العسكرية كانت قادرة مع ذلك على تمثيل دورها بحسب مزاجاتها.

ولما كانت مديرية الوثائق الخارجية ومكافحة الجاسوسية هي بحسب القانون للعمل خارج فرنسا، لم تكن لها أية مسؤولية تمارسها مباشرة في الدفاع عن النظام القائم أو في أي شيء له علاقة بالأوضاع الداخلية في فرنسا.

لهذه الأسباب كان من المفترض ألا تتدخل المديرية من حيث المبدأ فوق أراضي

«محافظات الجزائر» باستثناء بعض مهمات «المباغتة» ضد جبهة التحرير الوطنية الجزائرية. وعندما وقعت محاولة الانقلاب في نيسان ١٩٦١ وبدأت «منظمة الجيش السري» عملها، بقيت المديرية على موقفها ولو من ناحية المبدأ.

اعتباراً من ١٩٦١ كلف الجنرال جاكييه «إعادة النظام» في المديرية بعدما تعاظمت الخلافات الشخصية في داخلها إلى حد الفضيحة.

الجنرال جاكييه عكف على تركيز نظام قاس جداً كما ساعد بطريقة مباشرة على إعادة «التنظيم العسكري» إلى المديرية وبشكل أوجد بعض المتاعب بالنسبة إلى معالجة شؤون الجزائر في ذلك الحين.

الفوضى والتنظيم في الستينات.

«إعادة النظام» في عهد الجنرال جاكييه لم تكن ممكنة بتلك السهولة المرجوة. في عهده مرت ظروف غير طبيعية على الأوضاع الفرنسية الداخلية والخارجية ليس أقلها استقلال الجزائر وانطلاق عمل «منظمة الجيش السري» وغيرها من المنظمات الفرنسية التي وضعت بين أهدافها الرئيسية تصفية بعض الفرنسيين أنفسهم وتصفية القضية الجزائرية في غير طريق الاستقلال.

وبصرف النظر عن مشاكل هذه المديريةوما يتبعه من أجهزة على الصعيد السياسي البحت، نشأت في فرنسا مشاكل من نوع آخر، كانت هنالك خلايا سرية ضمن المديرية يتصرف أفرادها على نحو لم يكن متبعاً في دولة أوروبية وغربية كبرى. هؤلاء الأفراد عاثوا فساداً وإفساداً إذ دأبوا على استغلال مراكزهم وراحوا يقبضون الأموال الكثيرة ثمناً لحمايتهم بيوت الدعارة والحانات ودور القمار غير المرخص لها. وقد وصلت الفوضى في أوائل الستينات إلى حد أنه إذا ما أوقف شخص ما بتهمة حيازة سلاح، كان يجري إخلاء سبيله بعد قليل ولمجرد وصول مكالمة هاتفية من موظف نافذ في المديرية تقول إن الموقوف يقوم بمهمات وطنية سرية.

بالطبع ثبت في ما بعد أن تلك المهمات لم تكن لها علاقة بالعمل الوطني بل

بالمصالح الشخصية والحزبية والانتخابية. هكذا أثبتت الشكاوي والتقارير التي رفعت إلى رئاسة الحكومة.

وإذا كان يتضح يوما بعد يوم أن الأمور لا يجوز لها أن تستمر على هذا الحال؛ كان على الدولة (الديغولية) أن تستعد للتحرك في سبيل إعادة المسائل والمسؤوليات والتجاوزات إلى حجمها الطبيعي. فمنذ حزيران ١٩٦٥ بدأ مجلس الوزراء الفرنسي اتخاذ التدابير الجذرية اللازمة وأولها وضع مديرية الوثائق الخارجية ومديرية الجاسوسية تحت الإشراف المباشر الإضافي من جانب وزارة الدفاع.

هذه البداية الجديدة للإصلاح جرت في أواخر عهد رئاسة الجنرال جاكييه، لكن الجنرال لم يكن على ما يبدو ذلك الشخص المنشود لإنجاز العمل المطلوب بعدما استمد طاقاته في عمليات الإصلاح التي سميت «إعادة التنظيم» في بداية عهده.

طبعاً جاءت فضيحة اختطاف الزعيم المغربي المعارض بن بركة وتصفيته فوق الأراضي الفرنسية، مع ما كشفت عنه من مشاكل وأزمات على الصعيدين الداخلي والخارجي، سبباً للتعجيل في إنجاز الإصلاح.

قرار حزيران ١٩٦٥ لم يؤد إلى إلحاق المديرية بوزارة الدفاع فحسب بل كذلك إلى وضعها تحت السلطة المباشرة من جانب الوزير.

وعلى هذا الأساس، وفي ١٩٦٦/١/٢٠ قرر مجلس الوزراء إنجاز إصلاح المديرية كما عين مديراً جديداً لها هو الجنرال جيبو الذي كان حتى الآن ملحقاً بوزارة الدفاع ومتخصصاً بشؤون ما وراء البحار.

آنذاك قال الناطق الرسمي بلسان الحكومة أن الهدف من إلحاق المديرية بوزارة الدفاع هو «وضعها ضمن التنظيم» كما اعترف بأن قضية بن بركة كانت وراء اتخاذ هذا القرار ولو أن جاكييه حاول في المديرية تطبيق النظام العسكري.

ولكن وفي الفترة إذ جرى الاستغناء عن خدمات جاكييه، كان الجنرال يعاني مع المسؤولين على أعلى المستويات مشكلة التنظيم في المديرية ومشكلة النظام الشامل في الدولة. قيل آنذاك أن الاستخبارات الفرنسية ككل ليست شواذاً عن وضع فرنسا ككل: إدارة حكومية متحزبة متحيزة، وشعباً منقسماً إلى فئات كثيرة ذات ولاءات متعددة، وقضية اجتماعية ومالية ذات مرافق متعددة. وقيل آنذاك أيضاً أن الإصلاح في

مكـان واحد لا يمكن أن ينضبط مـا لم يتم الإصـلاح في أمكنـة كثـيرة لأن هـذه وتلك مترابطة بعضها مع بعض الأجزاء ترابط في هيكل الادارة العامة للدولة .

هذا الكلام يهدف إلى الكلام عن بداية «إعادة التنظيم» في عهد جاكييه أولاً وما رافق ذلك من قرار حاسم اتخذه وإلى ديغول بسحب المسؤولية المباشرة لرئيس الحكومة على مديـرية الـوثائق السريـة ومكافحـة الجاسـوسية لأنـه، كـما يعـرف عنـه في مجلس الوزراء، أراد نقل المؤسسة إلى التنظيم الوظيفي في الدولة.

جاكييه كلفـه رئيس الحكومـة ميشال دوبـريه بتنـظيم المديـرية بعـدما تشرشحت خلال حرب الجزئر. لذلك عكف جاكييه، خاصة بعد مجيء بومبيـدو رئيساً للحكـومة على إعادة تجديد الكادرات وعلى إدخـال الحيويـة والحركـة إليها. وعـلى هذا الأسـاس ألغي «فوج الانقضاض الحادي عشر» الذي كان مكلفاً دعم «شعبة العمل» المؤلف من بعض أفراد الكوماندوس المدربين على المهمات السرية.

كذلك شكـل الجنرال جـاكييه شعبـة أمن خاصـة ملحقة بمكتبـه مهمتها مـراقبة الأشخـاص، كما شكـل من إدارة الشعبة المـالية واحـدة تكون مهمتهـا هي أيضاً جمع المعلومات ومكافحة الجاسوسية.

والتدابير الجديدة المتخذة اسنبرت بأنها ستشدد عـلى هذا الاتجـاه. لذلـك عندمـا صدر القرار بتعيين الجنرال جيبو، اعتبرت الخطوة تعبيراً عن الأمل بالعودة إلى المبادىء العسكرية الصرفة في العمل. وبالإضافـة إلى ذلك فـإن إلحاق المؤسسـة بوزارة الـدفاع سمح لها بالتدخل مباشرة وأكثر فأكثر لانجاز العمل المطلوب منها وبأفضل مما لـو كانت خـاضعة لـرئيس الحكومـة، فضلاً عن أن ذلـك فتح البـاب أمام الـوزارة للدخول في عملية تجديد دائمة للموظفين الألفين الذين بينهم ألف عسكري على الأقل.

كـذلك أملت الحكـومة من تـدبيرهـا الأخير هـذا إعادة تقييم أهـداف المؤسسـة بسهولة. فبعدما كانت المؤسسة طوال سنوات الحرب الباردة مركزة نشاطها الأولي عـلى دول المعسكر الشرقي، انتقلت حتى منذ عهـد جاكييـه في أوائل الستينـات إلى الاهتمام الإضـافي الزائـد بدول العـالم الثالث، مـع العلم أنها أهملت الاهتمام بـالدول الحليفـة لفـرنسا إمـا عن عجز وإمـا عن قلة اكتراث، مـع أنها دأبت على التعـاون مـع أجهـزة استخبـاراتها وعـلى التعرض لبعض محـاولات التغلغل فيهـا. قـطاع الاهتـمام بـالـدول

الحليفة والتعاون مع استخباراتها جرت تقويته في التنظيم الجديد للجنرال جيبو.

هذا التنظيم الجديد لمديرية الوثائق الخارجية ومكافحة الجاسوسية أثار بعض الاعتراض، فالشعب المكلفة جمع المعلومات ومكافحة التجسس تقبلت بصعوبة وعلى مضض الحرية النسبية في الحركة التي فرضت عليها حديثاً بعدما كانت أكثر تحركاً على هواها تحت إشراف رئيس الحكومة، وأثارت اعتراضات جزئية حول مدى تأثير ذلك على سلامة الدولة.

في التنظيم الجديد كان على المؤسسة أن تعود إلى الهدف الاستخباري الأول في مفهوم العسكريين وهو جمع المعلومات الدفاعية ذات العلاقة المباشرة بالأوضاع العسكرية والاستراتيجية لدى الخصم، بالإضافة إلى المعلومات عن القدرات الاقتصادية ذات التأثير المباشر على الدفاع.

هذا الاتجاه العسكري الصرف طرح التساؤل عن مجال الاستمرار في العمل الاستخباري الفعال في الحقل السياسي والاقتصادي العام، والواقع أن هذا الحقل كان ولا يزال أساسيا من وجهة استخبارية عامة وكذلك وبصفة خاصة لأن قانون المؤسسة يفرض «البحث في الدول الخارجية عن جميع المعلومات والوثائق الأيلة إلى اعلام الحكومة» بجميع وزاراتها وأجهزتها.

قبل التنظيم الجديد كانت المديرية تزود وزارات الدولة بالمعلومات السياسية ذات العلاقة بتطور الأنظمة السياسية ذات العلاقة بتطور الأنظمة الحاكمة في الدول الشيوعية وفي الدول العربية والإفريقية. في التنظيم الجديد، نشأ الاتجاه نحو ترك هذه المعلومات لتقارير البعثات الدبلوماسية قد تكون أقل شأناً من نوعية تقارير الخلايا الرسمية للمديرية في الخارج وبصفة خاصة في الدول الإفريقية حيث المعلومات الاستخبارية السياسية والاقتصادية أهم بكثير من المعلومات العسكرية.

في التنظيم الجديد كذلك أعيد النظر في عدد وفير من التقارير القديمة، كتغيير المسؤولين المرابطين في الخلايا المركزة في الدول الخارجية ومنذ زمن بعيد. في هذا المجال ذكر مثلاً أن العميل المرابط في نيويورك كان قد انقضى عليه في تلك الأثناء أكثر من عشر سنوات وأن العميل المرابط في المغرب كان قد انقضى عليه هناك أكثر من خمس عشرة سنة. هذا الاتجاه تغير لأن الخطة الجديدة قضت بالتبديل السريع نسبياً.

للعملاء في الخارج والإكثار من توجيههم نحو التخصص بالمناطق أو القارات حسبما تقتضي الحاجة.

عند هذه النقطة، أثيرت، لمناسبة التنظيم الجديد كذلك، مسألة تجميع المعلومات الاستخبارية في الخارج المنوطة بالمديرية وما إذا كان ذلك يسمح لها أولاً بجمع الاستخبارات داخل فرنسا، على اعتبار أن فيها أجانب كثيرين يمكن جمع المعلومات الاستخبارية منهم عن بلدانهم.

عند إثارة هذه النقطة كثرت الخلافات بين الأجهزة المتعددة التابعة للوزارات ذات الصلاحية. وفيما المسؤولين بين أخذ ورد حول ما هو أصلح، كانت الفوضى الإدارية بين هذه الأجهزة تزداد انتشاراً فيما كان بعض الأفراد يستغلون الوضع المتقلقل لفتح دكاكينهم على حسابهم على النحو الذي سبقت إليه الإشارة العابرة.

لكن الإشارة بشكل غير عابر ستكون الآن إلى بعض من الفضائح الشهيرة التي حدثت في فرنسا، إما بتدبير من بعض رجال الاستخبارات وإما بمشاركتهم وإما بتحريض منهم.

ثلاثة من شهيرات هذه الفضائح: فضيحة الجنرالات وفضيحة القرش الڤيتنامي وفضيحة التهريبات.

فضيحة الجنرالات
١٩٤٩ - ١٩٥٠

في أيار ١٩٤٩ وفيما كان المسيو كوي رئيساً للحكومة، ازداد تحول حرب الهند الصينية إلى كارثة. عند ذلك، وفي سبيل إعادة تحسين الوضع، كلفت الحكومة الجنرال ريفير إجراء تحقيق عن الوضع في الهند الصينية بالذات. في هذه المهمة اختار ريفير مساعداً له الكولونيل فوركو، «المدير الفني» لمديرية الوثائق الخارجية ومكافحة الجاسوسية. أحد أصدقاء الجنرال، وهو روجيه بيريه، تبين في ما بعد أنه كان يحقق في الموضوع نفسه لحساب المديرية نفسها وفي الوقت نفسه إذ كان الجنرال والكولونيل في الهند الصينية.

وعاد الجنرال إلى باريس وكتب تقريراً قاسياً جداً حول عدم فعالية السياسة

الفرنسية وفساد نظام الأمبراطور باو داي في ڤيتنام واقترح تخلي القوات الفرنسية عن المواقع المتقدمة على الجبهة وتركزها في مناطق دلتا نهر ميكونغ.

في ٢٦ آب ١٩٤٩ علم وزير «فرنسا لما وراء البحار» بول كرست فلورية، الذي تنال منه تقارير الجنرال بيريه بطريقة غير مباشرة، إن إذاعة قوات «الڤيتنمة» تبث الخلاصة السياسية لتقرير رئيس الأركان الجنرال ريفير.

في ١٨ أيلول وقعت مشادة ربما كانت مقصودة أو عفوية في مؤخرة سيارة أوتوبيس على مقربة من محطة ليون للقطارات في باريس، بين ڤيتنامي وجندي فرنسي عائد من الهند الصينية. هذه المشادة أدت إلى كشف نسخة عن تقرير الجنرال ريفير في حقيبة الرجل الڤيتنامي الذي يدعى داو داي والذي كان من أنصار هوشي منه.

وفي غضون أربعة أيام تمكنت الشرطة ومديرية الوثائق الخارجية ومكافحة الجاسوسية من الإمساك بخطوط القضية ومن معرفة كيفية وصول تقرير الجنرال ريفير إلى يد الڤيتنمة مروراً بالجنرال ماست وروجيه بيريه.

وما أن علم رئيس الحكومة وبعض الوزراء بتفاصيل الفضيحة حتى حاولوا جهدهم لإخفاء معالمها قبل نشر تفاصيلها على الملأ. آنذاك كان الحلف الأطلسي لا يزال في بدايته وكان الفرنسيون يحرصون على عدم فتح الباب أمام الحلفاء الأميركيين للتدخل في الشؤون الخاصة للقوات الفرنسية.

على هذا الأساس، راح وزير الدفاع الوطني المسيو رامادييه يقول أن التقرير ليس له طابع التقرير السري العسكري وأن نشره لا يؤدي بالتالي إلى الإساءة إلى السلامة الوطنية.

في ٢٣ أيلول صدرت التعليمات بأن المسألة يمكن اعتبارها منتهية. لذلك أفرج عن الڤيتناميين المعتقلين رغم اعتبارهم من أنصار الڤيتنمة.

في ٢٧ أيلول وجه وزير فرنسا لما وراء البحار بول كوست فلوريه مذكرة إلى رئيس الحكومة مستنكراً إنهاء القضية على هذا الشكل ومتهماً الجنرال ريفير بتسريب المعلومات. وبعد مرور يومين على ذلك انطلق الكلام عن وجود فضيحة كبرى.

في ٣٠ تشرين الثاني هرب إلى البرازيل روجيه بيريه بعدما كان معتقلاً فترة من

الزمن، فيما أحيل الجنرال ريفير إلى التقاعد سراً بتاريخ ٧ كانون الأول.

أواخر كانون الأول انفجرت الأزمة على نطاق واسع. في ٢٣ كانون الأول نشرت مجلة «تايم» الأميركية معلومات نقلها إليها أحد مراسليها في باريس جاك لاغير أشارت إلى قلق واشنطن من تفاصيل الفضيحة وإلى أنها تتهم بها رئيس الأركان الجنرال ريفير الذي نحي من منصبه.

منذ الأيام الأولى لكانون الثاني ١٩٥٠ انطلقت الصحف الديغولية في نشر أخبار الفضيحة وانقضى العام كله وهذه الصحف تتحدث بها. فكان نشر أخبارها يتخذ طابع تصفية الحسابات بين مديرية الوثائق الخارجية ومكافحة الجاسوسية التابعة لرئاسة الحكومة مباشرة ومديرية مراقبة الأراضي التي يديرها مراقبة الأراضي التي يديرها المسيو فيبو والتابعة مباشرة لوزارة الداخلية.

في ١٧ كانون الثاني ١٩٥٠ وجه جورج بيدو استجواباً إلى الجمعية الوطنية عن الفضيحة فتصادم حول ذلك مع النواب الشيوعيين لكن ذلك انتهى بتشكيل لجنة تحقيق نيابية لحسم الخلاف حول الفضيحة.

تحقيق اللجنة النيابية كشف أن الثقة كانت قائمة من جانب الجنرال ريفير وإنما الجنرال ماست استغلها لأن كان مهتماً بتعيينه قائداً عاماً في سايغون. كما كشف التحقيق التأثير الذي كان يمارسه روجيه بيريه.

تبين كذلك أن بيريه كان عميلاً سابقاً للمديرية لكنه تقرب كثيراً من الجنرال ريفير من غير أن يلاحظ ذلك الكولونيل فوركو الذي يفترض فيه أن يعلم بأن الرجل لم يعد تابعاً للمديرية. مراقبون كثيرون اعتبروا بيريه خصماً للعهد الذي كان قائماً وأنه كان محرضاً على قيام الفضيحة.

وتبين بما يشبه الجزم أن الفضيحة كشفت قصصاً وعادات فريدة، منها سعي رئيس الحكومة السيد كوي إلى طمس المشكلة ومن وراء ظهر وزير العدل ووزير الهند الصينية، كما كشفت الخلافات الحادة بين أجهزة الشرطة وبصفة خاصة بين أجهزة الاستخبارات الفرنسية المتعددة التي كانت منهمكة بمقاومة بعضها الآخر أكثر من انهماكها بجمع المعلومات.

عام ١٩٦٣ نال الجنرال ريفير إعادة الاعتبار إذ صدر مرسوم يعلن عدم شرعية

القرار الذي أنهى خدماته. أما الجنرال ماست فقد انصرف إلى الأعمال الخاصة بعد استقالته من الجيش، فيما استعفى كل من الكولونيل فوركو من مديرية الوثائق الخارجية ومكافحة الجاسوسية وروجيه فيبو من مديرية مراقبة الأراضي بعد عودة الجنرال ديغول إلى الحكم عام ١٩٥٨، واستقر روجيه بيريه في بوليفيا.

١٩٥٤ : السوق السوداء
للقرش الفيتنامي

الحرب الفرنسية في الهند الصينية التي استمرت من ١٩٤٦ إلى ١٩٥٤ تبدو وكأنها غير كاملة التفاصيل إذا لم يذكر فيها ما جرى من فضائح تتناول السوق السوداء للقرش الڤيتنامي.

طريقة قيام هذه السوق السوداء كانت بسيطة.

في ٢٥ كانون الأول ١٩٤٥ أصدرت الحكومة المؤقتة للجنرال ديغول مرسوماً بتحديد سعر القرش الڤيتنامي بـ ١٧ فرنكاً فرنسياً قديماً. في الواقع كانت قيمة القرش الڤيتنامي بين ٧ و ٨ فرنكات فرنسية في السوق الحرة.

إذن كان بالإمكان شراء مليون قرش ڤيتنامي بثمانية ملايين فرنك فرنسي وبالتالي تحويل المبلغ بالقرش الڤيتنامي إلى فرنسا حيث تصبح قيمته الفعلية بالسعر الرسمي ١٧ مليون فرنك فرنسي.

والأبعد من ذلك، فقد كان شراء القرش الڤيتنامي بالدولار أو الذهب تجارة أوسع بكثير. ولكن، ومع أن القرش الفيتنامي مرتبط بالفرنك الفرنسي، فقد أنشىء مكتب للقطع في سايغون.

كل المشكلة بالنسبة إلى مهربي الأموال كانت منحصرة في الحصول من مكتب القطع هذا على إذن بتحويل القرش من ڤيتنام إلى فرنسا. والأبعد من هذا، كانت هنالك وسائل عبر هونغ كونغ وسويسرا تسمح بإجراء عملية التحويل المالي في اتجاهين وبشكل يضمن ربحاً مئة بالمئة في غضون ثلاثة أسابيع فقط.

هذه العمليات غير المشروعة تسهلت بانتشار الفساد والفوضى في الهند الصينية

حيث كانت الحرب تستهلك مليارات الفرنكات (القديمة) وحيث كان العهد القائم يشتري بالمال الوفير صداقاته ومحالفاته..

وبالإضافة إلى ذلك فإن مهربي الأموال كانوا يبذلون جميع الوسائل لإغراق جميع المسؤولين الرسميين على جميع المستويات في عمليات التهريب لتربيطهم وجعلهم غير قادرين على التحرك ضدهم. وبالطبع تضمنت هذه الوسائل تكثيف الفضائح فوق الأشخاص وكذلك تصفية الحسابات بطريقة دموية.

وعندما انتشرت فضيحة الجنرالات، بدأت الأخبار تنتشر عن فضائح القرش الفيتنامي التي تشمل شركات فرنسية وفيتنامية كبيرة وشخصيات وأحزاباً سياسية، كذلك انتشرت الأخبار أن الدولة الفرنسية كانت تسمح باستمرار هذه السوق السوداء من أجل تحقيق التوازن في موازنتها.

جاك ديسبيش، الذي كان أول من نشر أخبار هذه الفضائح، تعرض لملاحقة القضاء استناداً إلى التخمين بأن وراء الاتهامات المتكاثرة عملاء سريون كثيرون في أجهزة استخبارات تتخالف وتتخاصم. وفي طليعة الضالعين ماتيو فرانشيني، وهو صاحب فندقي ماجستيك وكونتيننتال في سايغون وكبير المساهمين في الكازينو هناك وصاحب كازينو آخر في فرنسا ومدبر رشوات وارتباطات لرجال أجهزة استخبارات متعددة.

والإثارة الناتجة عن هذه الفضيحة حملت الجمعية الوطنية في تشرين الثاني ١٩٥٣ على تشكيل لجنة تحقيق برئاسة نائب اشتراكي. التحقيق أثبت أشياء كثيرة جرت لفلفتها لأن أفراداً كثيرين في الأجهزة المتعددة للاستخبارات الفرنسية كانوا ضالعين في استغلال النفوذ وفي تصفية الخصوم وبشكل حتم على الدولة عدم اللجوء إلى القضاء ستراً للمضاعفات السياسية والإدارية، آنذاك اضطرت الحكومة إلى إجراء عملية تطهير صامتة وطويلة النفس.

١٩٥٤: التهريبات

في ١٨ حزيران ١٩٥٤ أصبح بيار منديس فرانس رئيساً للحكومة وابتدأ بالتحضير لمفاوضات السلام في الهند الصينية المزمع إجراؤها في جنيف.

أوائل تموز علم منديس فرانس من وزير الشؤون المراكشية والتونسية كريستيان فرشيه أن الحزب الشيوعي الفرنسي وضع يده على تقرير مفصل جداً عن الجلسة التي عقدتها في ٢٨ حزيران لجنة الدفاع الوطني. بهذا الخبر بدأ في فرنسا ما سمي آنذاك «فضيحة التهريبات».

التهريبات جرت بصفة خاصة أيام الحكومة السابقة التي ترأسها جوزف لانييل التي كان فيها رينيه بليفان وزيراً للدفاع وليون مارتينو ديبلا وزيراً للداخلية. والتحقيق في التهريبات بدأ سراً منذ أيام الحكومة السابقة وكلف به مدير شرطة باريس جان بايلو. ومع ذلك فإن التهريبات الأولى وكذلك التحقيقات السرية الجارية لم يجر اطلاع منديس فرانس وإطلاع وزير داخليته فرنسوا ميتران عليها عند تسلم المسؤوليات من الحكومة السابقة.

بعد العمليات التي وصمت إلى فوشية، أعيد التحقيق ولكن على مستويات عالية جداً ومن غير أن يدري به ميتران إلا في أيلول.

في أيلول علم أن الشخص الذي أعلم فوشيه بالتهريبات كان مفوض الشرطة جان ديديس الذي يدير شعبة الاستخبارات التي تلاحق أخبار الحزب الشيوعي، كما بدا أن بايلو لم يكن غافلاً عن أن ديديس وضع يده على الوثائق، فلأن المفوض في الشرطة ديديس يخامره الشك في أن ميتران بالذات هو الذي يهرب الوثائق إلى الشيوعيين.

على هذا الأساس استمرت المسألة على صعيدين قضائي وسياسي، فالقضاء العسكري تحرك باعتبار أن الموضوع هو موضوع أسرار تمس الدفاع الوطني، واستدعي إلى التحقيق المفوض ديديس وكذلك الصحافي أندريه باراتيس. ثم توصل إلى معرفة شخصي الموظفين اللذين توليا تسليم محضر جلسات لجنة الدفاع وأوقفهما.

الشخصان كانا رينيه توربان المساعد المباشر للأمين العام الدائم لوزارة الدفاع جان مانس، وروجيه لابروس رئيس شعبة حماية المدنيين في الوزارة نفسها، والاثنان يساريان وأفادا أن ما قاما به كان مساهمة منهما في خدمة السلام!....

عام ١٩٥٦ حكم على لابروس بالسجن ٤ سنوات وعلى توربان بالسجن ٦ سنوات فيما برئت ساحة كل من بارانيس ومانس.

أما الجو السياسي للفضيحة فهو جزء من حقبة نهاية حرب الهند الصينية.

تهريب الوثائق كان الهدف منه الإثبات أن منديس فرانس وميتران يخونان فرنسا وأن ميتران سبق له أن خانها في عهد لانييل، فضلاً عن أن هذه الخطة كانت ترمي إلى تغميس حكومة منديس فرانس في الوحل أمام الحلفاء الأطلسيين ولا سيما الأميركيين وفي زمن كان منديس فرانس غاطساً في المهمة الصعبة المتعلقة بمفاوضات إعادة تسليح ألمانيا الغربية.

في النهاية تبين أن الشخص الرئيسي في الفضيحة، الصحافي بارانيس، كان عميلاً لأحد أجهزة الاستخبارات وفي آن واحد عميلاً للشيوعيين، فيما تبين أن الاتهامات وجهتب إلى مانس بأن بدوره عميل شيوعي وهو من هو في وزارة دفاع دولة أطلسية. والأهم من ذلك كله، تبين مدى انغماس أجهزة الاستخبارات الفرنسية المتعددة في سياسات المصالح الخاصة المتعارضة.

تضارب في الصلاحيات

نعود إلى التنظيم.

كثرت الشكاوي من الفوضى ومن تضارب الصلاحيات ومن التجاوزات، وتعالت الصيحات المطالبة بالتنظيم وبصفة خاصة من جانب مراكز المسؤولية العليا في الدولة.

وكان لا بد من التحرك. على هذا الأساس اتخذ مجلس الوزراء قراراً في ٢٠ كانون الثاني ١٩٦٦ كلف بموجبه الرئيس الأسبق للمجلس التشريعي ليون نويل «الدراسة الفورية والاقتراح على الحكومة في أقرب وقت» جميع التدابير الضرورية لإصلاح أجهزة الاستخبارات.

ليون نويل وجد أن رجال مديرية الوثائق الخارجية ومكافحة الجاسوسية يتسلطون على صلاحيات رجال مديرية مراقبة الأراضي والعكس بالعكس. هذه الحقيقة كانت راهنة منذ سنوات طويلة وهي في ذاتها كانت السبب الأقوى للشكاوي. لكن دراسة نويل لها بكل تفاصيلها جعلت من الممكن وضع الأمور في حدودها الطبيعية.

في ٣ آذار ١٩٦٦ قدم ليون نويل تقريره الرسمي إلى الجنرال ديغول مباشرة، فما كان من الرئيس الفرنسي آنذاك إلا أن حوله إلى لجنة مختصة في قصر الإليزيه عكفت على دراسة مضمونه وعلى وضع الجنرال في الجو الشامل للقضية.

على هذا الأساس. وبعد شهرين ونصف الشهر من تقديم التقرير، أي في ٢٠ أيار ١٩٦٦، درس مجلس الوزراء التقرير وقرر الدمج التدريجي لأجهزة الأمن الوطني والشرطة، وكلها تابعة لوزارة الداخلية.

كذلك أخذ مجلس الوزراء باقتراح نويل ووضع تحديداً واضحاً لعمل مديرية الوثائق الخارجية ومكافحة الجاسوسية يقضي بالانصراف إلى التجسس في الخارج على أن يشمل ذلك جمع المعلومات وكذلك مكافحة التجسس خارج أراضي فرنسا.

أما مديرية مراقبة الأراضي فقد أنيطت بها مهمة مكافحة التجسس داخل مجمل أراضي فرنسا بما فيها نقاط الحدود. هذه المديرية تابعة للمديرية العامة للأمن الوطني، وهي التابعة بدورها لوزارة الداخلية طبعاً والتي تعمل على أساس اللامركزية.

بقي أمر الملحقين العسكريين لدى السفارات الفرنسية في الخارج، هؤلاء، بعد أخذ ورد كثيرين، تقرر وضعهم تحت الإشراف المباشر لرئاسة الدولة العامة لأركان الدفاع الوطني التابعة مباشرة بدورها لرئيس الحكومة. الأمر الواضح الجلي هو أن الملحق العسكري المقيم في أية سفارة فرنسية ليس تابعاً لوزارة الدفاع ولا لوزارة الخارجية بل لرئيس الحكومة مباشرة. وعمل الملحق العسكري هو صورياً تحت إشراف السفير لكن هنالك حالات كثيرة لا تمر فيها تقارير هذا الملحق على السفير قبل إرسالها إلى باريس بل تذهب مباشرة إلى مكتب خاص في رئاسة مجلس الوزراء.

ومع كل التنظيمات القديمة والحديثة، ليس في فرنسا أية هيئة مماثلة لتلك التي في بريطانيا أو الولايات المتحدة تعني بالتنسيق الدائم لأعمال مؤسسات الاستخبارات المتعددة المهمات. صحيح أن هناك لجنة للاستخبارات تضم أعضاء من بضع وزارات ومهمتها تحديد الخطوط الكبرى لأعمال الاستخبارات ومكافحة الجاسوسية، لكن الراهن أن هذه اللجنة لا تجتمع بشكل دوري وإنما حسب الظروف.

هل انتهى بالتنظيم الجديد كل تشابك في الصلاحيات؟.

كلا! تطور العلاقات الدولية وتكاثر الأجهزة في الدول وازدياد المشاكل المتعلقة بمراقبة الحدود، كل هذه وغيرها جعلت مديرية مراقبة الأراضي تفهم تنظيم الصلاحيات على النحو الذي تريده هي ومن زاويتها.

حتى اليوم وتحت ستار مكافحة التجسس في فرنسا تبحث مديرية مراقبه الأراضي وضمن الأراضي الفرنسية بالذات عن معلومات تتعلق بالدول الأجنبية كما تقيم علاقات مع أجهزة أجنبية للاستخبارات هي حليفة أصلاً.

إذن، تجد مديرية الوثائق الخارجية ومكافحة الجاسوسية أن ذلك تعدياً على صلاحياتها لأنها هي «إدارة حصر» الاتصال مع أجهزة الاستخبارات الأجنبية وعلى الأقل خارج الأراضي الفرنسية.

طبعاً، ترد مديرية مراقبة الأراضي على ذلك باتهام مديرية الوثائق الخارجية ومكافحة الجاسوسية بأنها على صعيد آخر تتدخل ضمن الأراضي الفرنسية بما هو ليس من صلاحياتها وتحت ستار «حق الملاحقة والتعقب».

لذلك كان لا بد من التفكير بالتنسيق. لكن هذا، ما أن بدىء بتطبيقه حتى تجددت الخلافات. كأنما حكاية إبريق الزيت لا نهاية لها.

«الكولونيل» الشاب

اجتناب الفضائح = نجاح

الرئيس الحالي لمديرية الوثائق الخارجية ومكافحة الجاسوسية هو «الكولونيل» الكسندر دو ـ مارانش وهو من مواليد ١٩٢١ وابن جنرال في الجيش الفرنسي ومن أم أميركية ثرية، كما أنه متزوج من مطلقة اسكوتلندية وله منها ولدان.

«الكولونيل» دو ـ مارانش كان خلال الحرب العالمية الثانية إلى جانب الجنرال (المارشال لاحقاً) ألفونس جوان إذ كان المترجم الموثوق به بين القادة الفرنسيين والقادة البريطانيين والأميركيين لإتقانه اللغة الإنكليزية من والديه.

منذ نهاية الحرب العالمية الثانية وحتى موعد التعيين في هذا المنصب في تشرين الأول ١٩٧٠ لم يكن يعرف عن دو ـ مارانش الشيء الكثير سوى أنه يقيم في قصر

صغير في الريف الفرنسي ويعيش حياة موزعة بين الاهتمام بأرزاقه وممارسة الاجتماعات على المستوى الرفيع في النوادي الباهظة التكاليف.

في المديرية كان ثمة تساؤلات عند مجيئه :

ما هي هذه الرتبة العسكرية العالية (كولونيل) التي حصل عليها الرجل وهو ابن ٢٥ سنة؟.

كيف يجوز للرئيس ما لا يجوز للأفراد وهو الزواج من أجنبية؟.

الظاهر أن الإجابة عن السؤالين لم تثر المسؤولين، لا سلباً ولا إيجابياً، لأن الاقتناع الرسمي لدى رئيس الجمهورية ورئيس الحكومة هو أن دو ـ مارانش يقود الآن مديرية الوثائق الخارجية ومكافحة الجاسوسية التي تضم ٢٥٠٠ موظف رسمي ما خلا العملاء السريين الذين قديكونون بعشرات الألوف. في تخطيطه للعمل أن المديرية يجب أن تقلع عن مبدأ حفظ الملفات عن الأشخاص والمؤسسات، وهو مبدأ قديم جداً في فرنسا، وأن تندفع في اعتماد وسيلة جديدة يدخل فيها الاستقراء والاستنتاج وكذلك الاستعانة بالدماغ الالكتروني (ماركة «يونيفاك ٩٤٠٠») الذي اشترته حديثاً.

أما الأموال التي تنفقها مديرية الوثائق الخارجية ومكافحة الجاسوسية فقد قسمت في إحصاءات ١٩٧٠ إلى ٢٥ مليون فرنك للعمل الإداري و١٧ مليون فرنك للتجهيز وإلى مبلغ كبير يؤخذ من موازنة رئاسة الوزراء البالغة ٨٢ مليون فرنك، هكذا موازنة للاستخبارات في دولة كبرى لا تعتبر موازنة «محترمة».

والاتجاه الحالي في المديرية هو نحو التخفيف من العمل الروتيني ونحو زيادة التخصص في المدرسة الخاصة بها في ضاحية باريس حيث يتلقى الأفراد علوماً تشمل القانون والإدارة والتخريب ومكافحته والإرسال والإلتقاط والاستنطاق وما إلى ذلك مما تتطلبه ظروف المهنة.

كذلك فإن الاتجاه الآخر ذو الطابع الغالب على المؤسسة هو التخفيف من الاستعانة بالعسكريين وتقوية الاعتماد على العناصر المدنية ذات الاختصاص. فالمقصود في الظروف العالمية الراهنة الاهتمام بدرجات متساوية تقريباً بالمعلومات العسكرية والعلمية والاقتصادية والاجتماعية لأنها كلها تؤلف مجتمعة عناصر ضرورية للمعلومات التي تريدها الدولة.

الفضائح والمشاكل والتشابكات في الصلاحيات لم تصبح بعد مشكلة عند دو ـ مارانش. قد يكون مرد ذلك إلى أن الرجل جديد ولما ينقض زمن طويل بعد على ممارسته المسؤولية، وقد يكون مرده إلى أن الرجل يمارس طريقته الخاصة في الإدارة التي يجوز لها أن تكون فاعلة.

أما مدى فعالية الاستخبارات الفرنسية في عهد دو ـ مارانش، ففي رأي العارفين أن اجتناب الفضائح هو في حد ذاته نجاح، إذ في الأساس لم يعد لفرنسا ذلك الدور العالمي الذي تستطيع استخباراتها أن تمارس نشاطها في ضوئه.

جاسوس فرنسي داخل العرين الروسي
قصة الجاسوس الفرنسي داخل الـ K.G.B

ينصب اهتمام غورباتشيوف الأكبر، في ما يتعلق بعمليات الاستخبارات في الخارج، على التجسس العلمي والتكنولوجي. فعندما خاطب موظفي السفارة في لندن في أثناء اجتماع خاص حضره المنشق غوردييافسكي. في ١٥ كانون الأول من العام ١٩٨٤، هنأ غورباتشيوف نفسه على النتائج التي حققها مجلس الإدارة التكنولوجي. ومنذ تلك اللحظة بدأ جلياً أنه يعتبر الكسب السري للتكنولوجيا الغربية أحد أهم مقومات البريسترويكا الاقتصادية.

وفي السابق، كان مجلس الإدارة التكنولوجي مجرد جزء من جهاز ضخم هو جهاز الاستخبارات العلمي والتكنولوجي وعملت لجنة عسكرية صناعية (VPK) على تنسيق المعلومات التي جمعها في مجال الدفاع مع مطلع الثمانينات. وقد رقى غورباتشيوف في ما بعد هذه اللجنة إلى رتبة لجنة رسمية للمجموعة الصناعية العسكرية، وأوكلت إليها مهمة الإشراف على انتاج السلاح. ويترأسها نائب لرئيس مجلس الوزراء. وهي تغطي عمل خمسة مكاتب: الـ GRV ومجلس الإدارة التكنولوجي للإدارة العامة الرئيسة لـ KGB (أي قسم الاستخبارات في الخارج) واللجنة الرسمية للعلم والتكنولوجيا، والوحدة السرية لأكاديمية العلوم واللجنة الرسمية للعلاقات الاقتصادية مع الخارج. وتبين المستندات التي كان يسلمها عميل مسؤول عن التدخل الفرنسي إلى مجلس الإدارة التكنولوجي ويُرمز إلى اسمه بـ «فارويل» تُبين أن VPK أعطى التعليمات لـ ٣٦١٧ عملية في مجال العلم والتكنولوجيا. تحقق منها ١٠٨٥ خلال السنة لصالح ٣٣٩٦ مشروعاً سوفياتياً.

والجدير ذكره أن ٩٠٪ من المعلومات التي يعتبرها الـ VPK الأهم مع مطلع الثمانينات تصدر عن GRV والـ KGB. وبالرغم من أن جزءاً كبيراً من المواد العلمية

والتكنولوجية اتى من مصادر غربية غير سرية (مثل الندوات العلمية والمجلات التقنية)، فإن المعلومات السرية كانت تعتبر ذات أهمية بالغة. ففي العام ١٩٨٠، ٥ , ٦١٪ من معلومات VPK كانت تصل من مصادر أميركية، و٥ , ١٠٪ من مصادر المانية، و٨٪ من مصادر فرنسية و٥، ٧٪ من مصادر بريطانية و٣٪ من مصادر يابانية. وبالرغم من أننا لا تتوفر لدينا أرقام دقيقة بالنسبة إلى حقبة غورباتشيوف فإن كل المؤشرات تدل على أن التجسس العلمي والتكنولوجي يميل أكثر إلى التوسع من الانحسار. ومن بين أهم انجازات الـ VPK، نذكر مجموعة سوفياتية من نظام الرادار الجوي الأميركي الصنع «أواكس». قاذفة القنابل الروسية «بلاك جاك» ونسخة عن قاذفة القنابل الأميركية B — B1، وكمبيوتر RYAD، وتقليد أجهزة IBM . . .

راحت القوات المسلحة تعتمد على إنجازات كتلك في مجال الاستخبارات العلمية والتكنولوجية، ويعتقد أن ١٥٠ نظام تسلح سوفياتياً تقريباً تقوم على التكنولوجية المسروقة من الغرب.

استمر التجسس العلمي والتكنولوجي السوفياتي بالتطور لغاية العام ١٩٨٩. وحتى مع مطلع العام ١٩٩٠، حاولت بعض أقسام الاستخبارات الخارجية في أوروبا الشرقية التأثير على الحكام السياسيين الجدد وذلك من خلال حملهم على تركيز مجهودهم على التكنولوجيا الغربية اللازمة لتحديث الصناعات التقليدية.

في شهر شباط من العام ١٩٩٠، أعلن رئيس الاستخبارات الأميركية CIA «وليام وبستر» أن الـ KGB تكثّف نشاطاتها ولا سيما في الولايات المتحدة، وذلك عبر استمالة أشخاص ملمّين بالمعلومات التقنية.

خلال سنة ١٩٩٠
كثفت الـ KGB نشاطها

ومن الإنجازات التي حققها مجلس الإدارة التكنولوجي في أوروبا الغربية، نستطيع أن نذكر معلومات وردت من إيطاليا بشأن نظام الاتصال الالكتروني الذي سيدخل إلى منظمة حلف شمالي الأطلسي مع بداية العام ١٩٩٠ . . .

كما يبدو أن استثمار الصناعة السوفياتية للمعلومات العلمية والتقنية بات مسألة

معقدة. وتؤكد نسخة مجموعة أجهزة الكمبيوتر الأميركية واليابانية الجديدة أن السيطرة قد تمت على مئات الآلاف من الاتصالات وعلى سلسلة كاملة من الإجراءات المكلفة. خاصة بالانتاج.

وتشير إلى أن أكبر عملية جمع معلومات علمية في تاريخ التجسس لم تتمكن من لجم اتساع الهوة بين التكنولوجيات السوفياتية والغربية ولا سيما في المجال المدني. إن هذه المسافة تعيق عملية تقليد بعض الاختراعات المتطورة في الغرب.

وإذا كان مجلس الإدارة التكنولوجي حقق نجاحات باهرة أيضاً فبفضل أحد ضباطه. اتخذ بلد غربي موقفاً حاسماً معادياً لـ KGB في مطلع الثمانينات. إن الأمر يتعلق بالجاسوس الذي عُرف حتى اليوم باسم «Farewell» إذ أن السلطات الفرنسية لطالما رفضت الكشف عن اسمه الحقيقي.

إن أي ضابط في جهاز الـ KGB يتكلم لغة أجنبية تكون بمثابة «اللغة الأساسية». (أفضل الضباط يتمتعون بلغتين إضافيتين أو أكثر). وكانت اللغة الأساسية للملازم فلاديمير أيبوليتوفيتش فيتروف هي اللغة الفرنسية التي اكتسبها في الجامعة وفي الـ KGB في ما بعد، حيث تخصص بالشؤون المتعلقة بفرنسا، البلد الذي سيستهويه لدرجة أنه سيمضي آخر أيامه فيه.

تخرج «فيتروف» من الجامعة مهندساً، التحق بمجلس الإدارة التكنولوجي الذي سيرسله إلى باريس في الستينات بغية جمع معلومات ذات منحى علمي وتكنولوجي.

وبعد مرور فترة طويلة استدعي.فيتروف من رحلته الطويلة ولم يعرف غورديافسكي ما الدافع وراء ذلك أهي مشاكل شخصية أم إصابة أحد أقربائه بمرض أم صعوبات مع أولاده؟ وعلى أي حال، فإن فيتروف لم يتمكن بعد ذلك من الحصول على أية وظيفة جديدة في فرنسا فصب جهوده حتى يتم إرساله إلى كندا.

وبالفعل ذهب إلى ذلك البلد بيد أنه لم يمكث فيه طويلاً إذ أن مشاكله الشخصية تفاقمت، فبعث «المركز» بطلبه قبل انتهاء المدة المحددة لمهمته.

ومنذئذ لم يغادر الاتحاد السوفياتي كما جرى نقله من قسم «العمليات» إلى قسم «التحليل» الذي يقوم نشاطه على معالجة المعلومات التي يوصلها الضباط وعلى توزيعها على المكاتب المختصة.

إلا أنـه في سنـة ١٩٨١، سمـع غـورديـافسكي في أثنـاء وجـوده في المـركـز أن «فيتروف» تم اعتقاله بتهمة ارتكاب جريمة، فأثار الأمر الدهشة. . . وممـا لا شك فيـه أن عـدداً من الضباط قـد يرتكب جنحـاً أو جرائم حتى، بيـد أن القاعـدة تقضي بأن يتجنبـوا اكتشافهم وأن يتجنبـوا أي نزاع مـع الشرطـة. والجـديـر ذكـره أن الـ KGB حاسم في هذه الأمور. فأي إخلال بالسلوك قد يسيء إلى مهمة الضباط.

ويذكر غورديافسكي أنه شاهد «فيتروف» في مقهى المركز ويذكر أيضـاً أنه كـان دائـماً بصحبة امـرأة جميلة أنيقة في حـدود الأربعـين من العمـر وقيـل أنهما عـاشقـان. والجدير ذكره أنهما زميلان في قسم التحليل في مجلس الإدارة التكنولـوجي الأمر الـذي سهل عليهما اللقاء. وإذا أشار أحدهم إلى العلاقة بينه وبين تلك المرأة كان يجيب بأنها ضابط تعمل معـه في قسم ذاته. والمعلوم أن الاثنـين متزوجـان إلا أن علاقـة فيتروف بزوجته لم تكن جيـدة. فزوجتـه على علم بسلوكـه، تمامـاً، كما كـان زوج السيدة التي كانت تطمح إلى طرق فيتروف حتى تتزوجـه، في حين لم يكن هـو ذاته واثقـاً من تلك الرغبة.

فارويل يطعن أحد المارة في موسكو

مـا هي الجريمـة التي ارتكبها فيـتروف؟ يقال إنـه اصطحب المـرأة المذكـورة إلى مطعم سوفياتي راق من الدرجة الأولى حيث تناولا طعام الغذاء. ثم غادرا المطعم بعد أن نشب بينها شجار عاطفي وسرعان مـا تطورت الأمـور بينهما فـأمسك فيـتروف قنينة شمبانيا وهـددها بهـا، وقيل أنـه ضربها مـرتين عـلى التوالي، وبعـد أن رأت أنه فقـد أعصابه فتحت باب السيارة وفرت هاربة فلحقها وظل يتهددهـا. عندئـذ تدخـل أحد المارة محاولاً الإمساك بالضـابط فما كـان من هذا الأخـير إلا أن أخرج من جيبـه سكيناً وطعن بها الرجل فأرداه وفرّ هارباً بالسيارة. وفي المساء ذاته، عاد إلى مكـان الحادثـة. ربما ليتقص عن حالة ضحيته أو ربما للبحث عن عشيقته أو ربما لسبب آخر مجهول؟

وعندئذ ألقت الشرطة القبض عليه.

من المعلوم أن الاستخبـارات الروسيـة تجهـد دومـاً في الـدفـاع عن عنـاصرهـا وعملائها ولم تكن الحال هذه مع فيتروف على اعتبار أنه تجاوز الحـدود. فتركـه رؤساؤه بين أيدي الشرطة لكي تأخـذ الإجراءات القضـائية مجـراها. فحكمت المحكمـة عليه

بالسجن مدة ١٢ سنة. وبعد مرور سنة أي في العام ١٩٨٢ سرت ضجة جديدة في الإدارة العامة الرئاسية بشأن «فيتروف».

فخلال الفترة التي سجن فيها، عُلم أنه جاسوس أجنبي. نعم جاسوس داخل الـ KGB!!! راح الضباط يتساءلون لحساب أي بلد يعمل، فتبين أنه يعمل لحساب فرنسا. إنه أمر لا يصدق!!!

وسرت شائعتان مختلفتان حول الموضوع. الأولى تفيد أن السيدة «فيتروف» وجدت في المنزل «شيئاً معيناً». وبسبب غيرتها، سلمت وثيقة الإثبات التي تدين زوجها إلى جهاز الـ KGB. وسرعان ما أثبتت التحقيقات صدق هذه المعلومة.

أما الشائعة الثانية فمفادها أن فيتروف أدرك بعد سنة من سجنه أن حياته انتهت وعندما سيخرج من السجن سيكون قد أمسى رجلاً عجوزاً محطماً. وبما أنه فخور بما حققه خدمة لفرنسا، كتب اعترافاً أورد فيه تفاصيل حول أفعاله وتصرفاته.

لقد اعتبر «غورديافسكي» أن الرواية الثانية محتملة. الخطوة التالية لم تكن من اختصاص الشرطة إنما من اختصاص الـ KGB. لقد اتضح أن «فيتروف» عمل لحساب فرنسا على مدى سنة كاملة زودها خلالها بمجموعة وثائق وملفات ضخمة.

ويقول غورديافسكي أنه عندما كان يُسأل عن الدافع كان يجيب بأنه تصرف على هذا النحو لأنه يكره جهاز الـ KGB والنظام السوفياتي أيضاً.

أضف إلى ذلك كرهه للإنحطاط والجو في الإدارة العامة حيث تسود «الواسطات» و«العبودية».

لقد شَغفَ فيتروف بفرنسا فرأى أن يقدم لها شيئاً فهو يقول إنه فخور وعلى استعداد أن يضحي بنفسه من أجل بلد رائع كهذا...

ويقال إنه قبل أن يُنفذّ فيه حكم الإعدام طلب ورقة وقلماً وكتب رسالة مفصلة إلى القيادة العليا للـ KGB أتهم فيها الإدارة العامة بكل المساوىء حتى أنه نعتها «بالعاهرة العجوز».

ومؤخراً ورد اسم فيتروف في الصحافة السوفياتية إذ أوردته صحيفة «برافدا» السوفياتية في عددها رقم ٣٦ الصادر في شهر أيلول من العام ١٩٩٠، وذلك في

مقـابلة أجرتهـا مع ضـابط في الـ KGB اقترح عـلى مجلس السـوفيـات الأعـلى إجـراء تحقيقـات لكشف العملاء المشتبه بهم بالتعـال مـع الخـارج. وذلـك الضـابط اسمى فيتروف (لكنه لم يقل «فيتروف» أي «فـارويل») وبـالطبـع كانت المـرة الأولى التي تأتي فيها الصحافة على ذكر هذا الاسم.

واعتبر غورديافسكي أن «فيتروف» هو أول وآخر من تجرأ على خداع الـ KGB.

الاستخبارات البريطانية

فضائح بالجملة



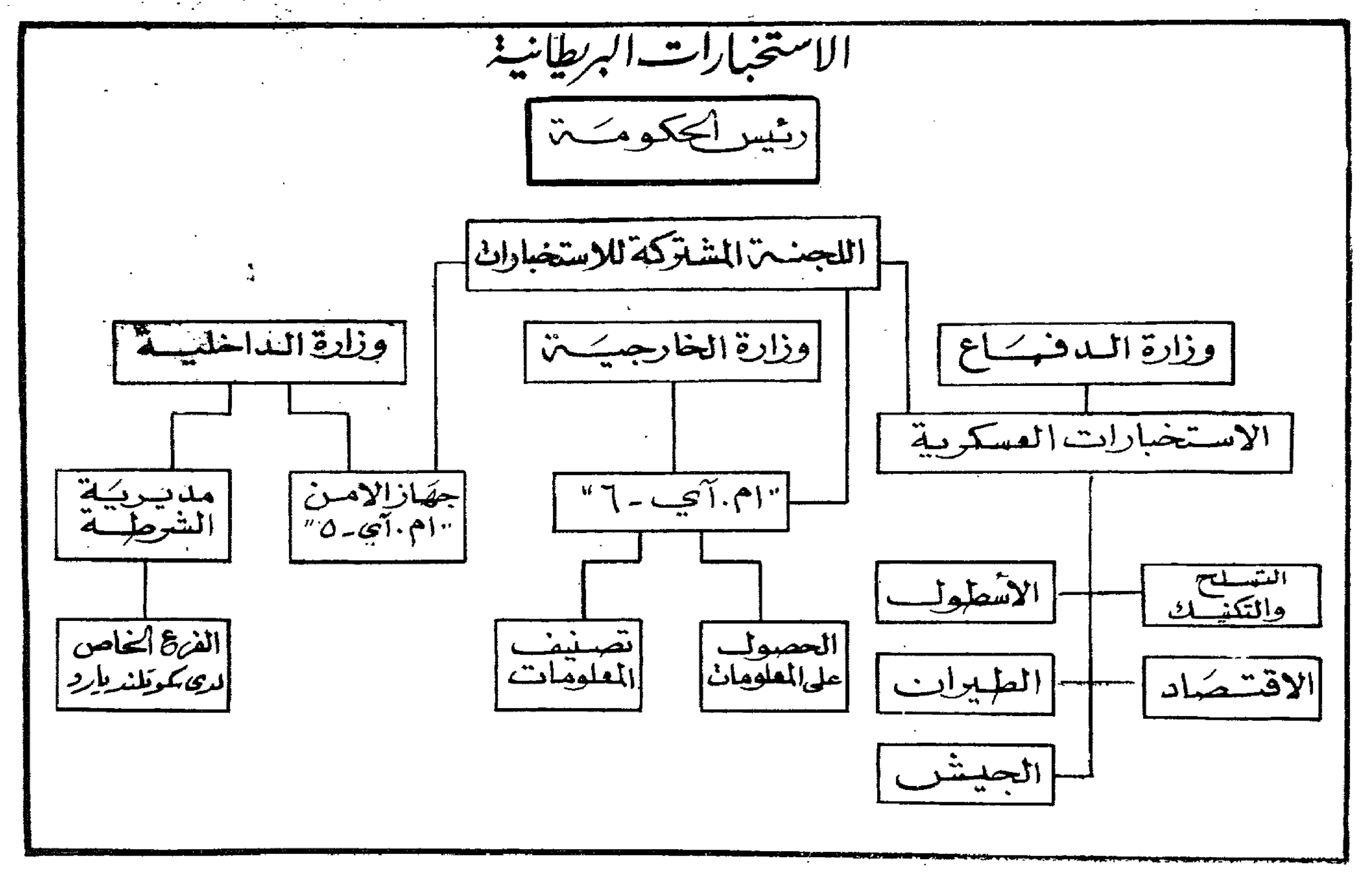
وزير الدولة العاشق: جون برفيومو



الرقم ٢ فى الاستخبارات البريطانية: كيم فيلبي



الملحق السوفياتي «الفحل»: ايفانوف



الهيكلية التنظيمية للاستخبارات البريطانية

الاستخبارات البريطانية

أقدم وأعرق الاستخبارات العالمية، أسّسها عام ١٥٧٣ السر فرنسيس والشينغهام وزير الدولة والمستشار لدى الملكة اليزابيث الأولى وأهم مهام هذه الاستخبارات كان تثبيت العرش لاليزابيث والتي بفضل المعلومات التي زودها بها جهاز الاستخبارات هذا، تم اقصاء منافستها على العرش الملكي ماري ثم قتلها لاحقاً. فلقد كشفت الاستخبارات البريطانية الرسائل التي كانت ترسل في براميل البيرة لأنصار ماري.

والشينغهام هذا هو أذكى المتخرجين من طلاب أوكسفورد وكانبريدج ليرسلهم كمجندين للاستخبارات في الخارج ليتابعوا تحركات الأسطول الاسباني الذي كان يرهب بريطانيا والعالم في تلك الأزمان وكان نتيجة هذه المعلومات للمجندين الذين جمعوها أن تم تدمير الأسطول الاسباني وأضحى الأسطول البريطاني سيِّد البحار في تلك الحقبة.

الاستخبارات البريطانية حالياً مقسمة في مهامها إلى أربعة أجزاء:

① الجزء الأول يسمّى (ام. اي ـ ٦) أو الاستخبارات البريطانية، وهذا القسم متخصص للشؤون الخارجية ويتبع مباشرة وزارة الخارجية، تأسس في بداية هذا القرن برئاسة السير مانسفيلد كامنغ.

② الجزء الثاني يسمى (ام. اي ـ ٥ـ أو جهاز الأمن، وهذا القسم متخصص بمكافحة الاستخبارات ويتبع مباشرة وزارة الداخلية، تأسس عام ١٩١٠ وكان برئاسة الضابط السير فيرنون كيل.

الجزء الثالث يسمى المديريه العامة للاستخبارات، ويتبع مباشرة وزارة الدفاع.

الجزء الرابع هو المتعارف عليه باسم «سكوتلنديارد» وهـو متخصص في الشؤون الداخلية ذات الـطابع الاقتصـادي والجزائي العام.

الجهاز الأول (أم بي ٦٠) جهاز الاستخبارات البريطانية

تأسست عام ١٨٨٦ للعمل على تحطيم النشاط الجمهـوري الايرلنـدي في قلب بريطانيا ثم تطورت وتوسعت مهامه لتشتمل مقاومة الحركات السرية المشبوهة بالاضافة إلى كشف الجرائم والجنح.

الاستخبارات البريطانية نـالت شهرة الأكـثر سرية في العـالم، حتى العام ١٩٦٨ كان رئيس الاستخبارات هو السر ديك غولد سميث هـوايت من مواليـد عام ١٩٠٦، كان خلال الحرب العالمية الثانية برتبة كولونيل في الاستخبـارات العسكريـة البريـطانية وكسب لنفسـه شهرة الأبـرز ومن ألمع الجـواسيس، عمل في فـرع مكافحـة التجسس لدى قيادة الجنرال ايزنهاور لقوات الحلفاء وكـانت رتبته نـائب رئيس هذا الفـرع وهذه الصفة هي التي مكّنته من أن يكون المسؤول المباشر عن مكـافحة التجسس بعـد نزول قوات الحلفاء في النورماندي بشهرين وحتى نهاية الحرب.

بعد الحرب تـزوج وهو في التـاسعة والثـلاثين من عمـره، ثم انتقل للخـدمة في (ام اي - ٦) وصار جزءاً من عالم الغيب والأسرار.

الجهاز الثاني (ام. اي - ٥) أو جهاز الأمن

هذا الجهاز منوط به مكـافحة التجسس في الأراضي الـبريطانيـة والسرية المـطلقة المحيطة بوجـود هذا الجهـاز كأنـه غير قـائم اطلاقـاً. يتبع هـذا الجهاز مبـاشرة لوزيـر الداخلية وهـو بنفس الوقت ليس جـزءاً تابعـاً لوزارة الـداخلية وذلـك بموجب مـذكرة ادارية صادرة عام ١٩٥٢ إلى رئيس جهاز الأمن من وزير الداخليـة آنذاك السر ديفيـد ماكسويل فايف.

ولعل فضيحة برفيومو عام ١٩٦٣ هي التي أماطت اللثام عن وجود هذا الجهـاز علناً فأفصـح عن اسم رئيس جهاز الأمن في ذلـك الوقت السر روجـر هنري هـوليس الـذي ورد اسمـه مصاحباً بالحـديث عن هذه الفضيحـة وهي ما تنـاقلتـه وسـائـل الاعـلام

الصحافية في ذلك الوقت متهمة إياه بالتقصير والتقاعس عن ضمان سلامة الأسرار العسكرية البريطانية.

الجهاز الثالث. المديرية العامة للاستخبارات
أو جهاز «الاستخبارات العسكرية»

رئيس هذا الجهاز يدعى المدير العام للاستخبارات، وهو شخص معروف وله رقم هاتفه في قلب وزارة الدفاع في مبنى «وايت هول»، وهذا الجهاز شكل نتيجة لدمج أجهزة الاستخبارات المتفرقة للقوات الجوية والبحرية والبرية وذلك عام ١٩٦٥.

هذه الأجهزة الثلاثة: الاستخبارات البريطانية وجهاز الأمن والمديرية العامة للاستخبارات تتعاون فيما بينها ضمن اللجنة المشتركة للاستخبارات في وزارة الخارجية والتي يرئسها غالباً موظف كبير من وزارة الخارجية برتبة سفير والذي لا يدير هذه الاستخبارات وفقاً لأية نظريات شخصية في الموضوع لأن رؤساء هذه الأجهزة الثلاثة لهم استقلال واسع في العمل والحركة، ويقتصر دور هذا الرئيس على إشعار هذه الأجهزة الثلاثة بأن هناك رأساً فوقهم ولو أنه لا يستطيع فرض تأثيره عليهم.

قانونياً رأس الهرم لهذه الأجهزة هو رئيس الحكومة البريطانية الذي يخوِّل عادة موظف خاص لربط الصلة بينه وبين هذه الأجهزة، هذا الموظف هو عادة من الضباط السابقين.

الأميركان: عقدة الاستخبارات البريطانية.

من أهم ما يشغل الاستخبارات البريطانية هو أن تبقى المخابرات الأميركية راضية عنها وحائزة على ثقتها.

والواقع أن كثيراً من ظروف الضعف مرَّت على الاستخبارات البريطانية جعلت المخابرات الأميركية تتعامل معها بشيء من التحفظ إن لم يكن بالازدراء وعدم الاهتمام بوجودها في الكثير من الحالات مما جعل التنسيق بينهما في كثير من الأحيان معدوماً، بعكس الاعتقاد الذي كان شائعاً في السابق وبالذات في فترة ما بعد تقلص النفوذ البريطاني وحصول الكثير من المستعمرات على استقلالها وكان هذا التقلص في الكثير من الحالات لمصلحة المصالح الأميركية هناك.

وما أزعج الانكليز كثيراً أن الاستخبارات الأميركية كانت مجندة للكثير من أفـراد الاستخبارات البريـطانية إبَّـان حملة السويس عـام ١٩٥٦ مما جعـل الأميركـان يملكون ويطلعون على الكثير من المخططات السرية للعـدوان الثلاثي عـلى مصر من قبل هؤلاء الأفراد وكذلك عن طريق المخابرات الاسرائيلية. وهذه المعلومات والوثائق كانت غائبة عن الكثيرين من الوزراء البريطانيين أنفسهم.

ولعـل ما جعـل الخلاف بـين الجهازين الأمـيركي والبريـطاني يكبر ويتعـاظم هو حادثة **هارب سوفيـاتي يدعى أنـاتولي دولينستـين.** ففي تموز عـام ١٩٦٣ وسط معمعة فضيحة برفيومو وفضيحة فيلبي وضعت الاستخبارات الـبريطانيـة مذكـرة سرية للغـاية قالت فيها إن الهارب السوفياتي هو في بريطانيا وطلبت إلى المعنيين بالأمر عدم القول إن اسمه هو دولنيستين. ومع ذلك فهذه المذكرة وصلت للصحف الـبريطانيـة التي كشفت عن وجود هذا الهارب في بريطانيا مما أحرج الأميركان كثيراً لأن هذا الهارب كان قد لجأ إلى الولايات المتحدة لثمانية عشر شهراً خلت وأنه كان المفروض عدم التحـدث اطلاقـاً عنه وجزمت المخابرات الأمـيركية أن نشر هـذه المذكـرة لم يكن القصد منهـا هو سريـة المسألة بل كشفها بغية تحويل الاهتمام عن مشاكل الأمن والاستخبارات التي ابتليت بها حكومة ماكميلان في تلك الحقبة.

فضائح المخابرات البريطانية
كريستين كيلر وبروفيومو وايفانوف «الفحل»

فضيحة برفيومو وكريستين كيلر قصة في ذاتها سردت عشرات المرات وكانت أحاديث الناس بمن فيها من نساء وجواسيس ومسؤولين، لكنها تستحق السرد بالمختصر لما فيها من تشابكات غريبة.

وزير الدولة في وزارة الحربية جون برفيومو المتزوج من الممثلة فاليري هوبسون اجتمع بالفتاة كريستين كيلر، التي تشتغل عاهرة تحت الطلب الهاتفي، ذلك يوم من أيام الصيف وهي تستحم عارية في مسبح راق تابع لقصر كلايفدن الذي يملكه اللورد استور الذي كان من تقاليده «حسن الضيافة».

برفيومو استحلى المنظر لأن كريستين «كان لها جمال جسدي أخاذ». بالنتيجة أتم برفيومو واجباته تجاه رجولته مع البنت بحسب التسهيلات التي قدمها صاحب القصر.

ذلك اليوم، وقد كان ٨ تموز ١٩٦١، كان بين الضيوف مساعد الملحق البحري السوفياتي وعميل الاستخبارات العسكرية السوفياتية الكابتن يوجين ايفانوف. هذا بدوره ابستحلى البنت وشرب معها زجاجتين ويسكي وأنهى معاملته معها، كما قال التقرير الرسمي في ما بعد «ربما بنوع من انواع العلاقة الجنسية».

كريستين نفسها، الأقل تحفظاً من التقرير الرسمي البريطاني، قالت في ما بعد أن إيفانوف كان يعجبها كثيراً «لأنه مثل الفحل».

كريستين كيلر والكابتن ايفانوف كانا في القصر بدعوة من شخص في الخمسين من عمره يدعى ستيفان وارد، وهو فنان وله بعض الأطباع الفريدة كاستعمال المرايا التي تمكنه مراقبة الأحداث من خلفها، وكمعاشرة الفتيات المراهقات.

وارد تعرف الى ايفانوف في نادي غاريك (وهو احد مراكز لقاءات رجال

الاستخبارات البريطانية) وتصادق معه. وارد كان في الوقت ذاته صديقاً لبرفيومو.

على مسرح هذه العملية كانت فتاة لعوب أخرى تدعى ماندي رايس ديفيس وفتاتان اخريان من جزر الهند الغربية، احداهما اطلقت الرصاص ذات يوم على كريستين فأخطأتها.

بعد انقضاء ثلاثة ايام على الحفلة الجنسية في قصر كلايفدن، كان جهاز الأمن قد علم بجميع التفاصيل من وارد نفسه: فلقد تبرع بالعمل على استخلاص المعلومات التي طلبها ايفانوف منه وهي «معرفة موعد استعداد الاميركيين لتزويد الألمان الغربيين بالاسلحة الذرية».

ورجل جهاز الأمن الذي اجتمع بوارد، تعرف الى كريستين في سبيل تقوية علاقته بها.

أواخر شهر تموز ذهب رئيس جهاز الأمن شخصياً لمقابلة برفيومو واقترح عليه تجنب التعامل مع وارد لأن هذا الأخير على علاقة وطيدة بعميل معروف للاستخبارات السوفياتية. وفي الوقت ذاته سأل رئيس جهاز الأمن بروفيومو عن مدى قدرته في تحويل ايفانوف الى عميل مزدوج.

برفيومو تقبل التحذير لكنه من جهة اخرى لم يتمكن من تحويل ايفانوف الى عميل مزدوج. لذلك طلب اليه بأن يوقف هذا المسعى. لكن ما أزعج برفيومو في كل هذه الاتصالات هو اعتقاده بأن جهازه الأمن كان يحاول ابعاده عن كريستين.

والواقع، كما ثبت في ما بعد، ان جهاز الأمن لم يكن حتى ذلك الحين على علم بعمق العلاقة بين وزير الدولة والبنت، مع ان العلاقة كانت آنذاك تزداد تطرفاً وفي شقة وسرير وارد بالذات.

أوائل كانون الثاني ١٩٦٣ كانت كريستين تحاول أن تنقل قصتها الى الصحف. فلما شعر برفيومو بعبء ذلك اتصل برئيس جهاز الأمن محاولاً حثه على مساعدته في منع ذلك عن طريق طلب رسمي من الدولة الى الصحف بمنع نشر مذكرات البنت. هذه عادة بريطانية مطبقة بين الدولة والصحف عندما تشعر الحكومة بأن نشر الخبر يؤثر على سلامة الدولة وأمنها.

لكن المحاولة فشلت وتمكنت كريستين من نشر قصصها في احدى الصحف.

والواقع أن الصحيفة شطبت مقاطع كثيرة من القصة في سبيل تليينها.

قبيل نشر المذكرات كان جهاز الأمن قد علم بشكل جازم بأن كريستين كانت عشيقة برفيومو وايفانوف في وقت واحد، وبأن مكتب رئيس الحكومة هارولد ماكميلان كان قد تلقى العلم والخبر مسبقاً من رئيس تحرير الصحيفة عن نشر المذكرات.

بعد انقضاء بضعة أيام على نشر القصة، علم جهاز الأمن من سكوتلنديارد ان كريستين اعترفت للشرطة بجميع مغامراتها وبأن وارد طلب اليها ذات مرة ان تستنطق برفيومو عن موعد اقدام الولايات المتحدة على تزويد المانيا الغربية بالأسلحة الذرية. ومع ذلك فضل جهاز الأمن البقاء بمنأى عن المسألة.

وازداد تعقد المسألة واضطر برفيومو الى الوقوف في مجلس العموم في ٢٢ آذار ١٩٦٣ محاولاً تبرئة نفسه، فيما انصرفت الشرطة الى استجواب وارد بتهمة القوادة. لكن وارد عظم المسألة من زاوية اخرى وكتب رسالتين الى رئيس الحكومة ورئيس المعارضة قال فيهما ان برفيومو كذب في مجلس العموم.

ولما كان الوضع قد اصبح اقوى ما يمكن احتماله، فقد اعترف برفيومو بأخطائه في ٤ حزيران ١٩٦٣ واستقال من منصبه الوزاري. بعد ذلك وقف رئيس الحكومة في مجلس العموم ليقول ان الحقيقة لم تصل اليه كاملة لأن «رئيس جهاز الأمن» لم يخبره بها.

آنذاك تساءلت الأندية العليمة عما اذا كانت الفضيحة هي فضيحة برفيومو وحده ام انها يجب ان تشمل جهاز الأمن كذلك.

لقد ثبت في الواقع أن جهاز الأمن انتظر أربعة أشهر كاملة حتى يخبر رئيس الحكومة بالوقائع الصحيحة، وعلى الأقل تلك التي كان يعرفها منذ سنتين ومنذ ان تعرف رجل جهاز الأمن الى كريستين كيلر.

والتساؤل الأبعد الذي اعتبرته الأندية العليمة محقاً أكثر، كان: ما دام برفيومو قد كذب أمام مجلس العموم، فلماذا لم يذهب رئيس جهاز الأمن الى رئيس الحكومة ليقول له ان وزيره يكذب؟

في هذه الأثناء كان ايفانوف قد غادر لندن نهائياً، خاصة بعدما نبهه وارد وائـل ١٩٦٣ بأن فضيحة كبيرة قد بدأت تتفاعل

اما رئيس جهاز الامن، فـما ان هدأت العـاصفة حتى استقـال من منصبـه عـلى مهل.

تقيداً بالعـرف والتقليد، لم يكن بـامكان الـرجل المستقيـل من هكذا منصب ان يكتب مذكراته وينشرها، مع أنه كمدير كان يتقاضى سنوياً ٥٨٠٠ استرلينية فقط.

الراهن أن برفيومو كان ضحية ايفـانوف بسبب الأسلحـة الذريـة وان كريستين مثلت الدور الذي طلب منها وهو فضح أمره من بـاب الضغط عليه لاهـلاكه سيـاسياً واجتماعياً ومعنوياً.

هروب ماكلين وبيرغس الديبلوماسيين البريطانيين وفيلبي الى الاتحاد السوفياتي

في أوائل الخمسينات كان الرئيس المرموق لجهاز الأمن هو السر بيرسي سليتو. في عهده هرب الى الاتحاد السوفياتي، في أيار ١٩٥١، الديبلوماسيان البريطانيان دونالد ماكلين وغي بيرغس. بعد هروبهما أفاد سيليتو أن معاونيه لم يخبروه في الوقت المناسب بأن الرجلين كانا موضوعين تحت رقابة جهاز الأمن.

سيليتو، الذي جيء به إلى جهاز الأمن من صفوف الشرطة، كان يشعر على الأرجح بأن طبيعة عمله الأول هو الذي أثار عليه ضمن جهاز الأمن حفيظة متخرجي أوكسفورد الذين كانوا يرفضون الاعتقاد بأن اثنين من خريجي كامبريدج يمكنهما أن يرتكبا الخيانة العظمى. في هذا «التفريق الطبقي» ضمن مؤسسات الحكومة في بريطانيا كثيراً من الصحة.

والواقع أن الفضيحة الكبرى التي هزت أجهزة الاستخبارات البريطانية، وبصفة خاصة بينها جهاز الأمن، كانت تشمل شخصاً ثالثاً هو هارولد فيلبي الذي فر من بيروت الى موسكو في اللحظة المناسبة.

القصة من أولها هي ان بيرغس التقى ماكلين في كمبريدج عام ١٩٣١.

بيرغس، الأكبر سناً، كان من عيلة موسرة وأرستقراطية كما كان طالباً متفوقاً.

في كامبريدج غازل الطالبان العقيدة الشيوعية بالإضافة إلى غزلهما الواحد بالآخر. بيرغس كان منذ يفاعته منحرفاً جنسياً بشكل علني، أما ماكلين فقد تزوج فتاة أميركية تدعى ميليندا مارلينغ أنجبت له ثلاثة أولاد. لكن ماكلين كان أسير الكحول وإلى الحد الذي أفقده الثقة بنفسه جنسياً.

على صعيد آخر ومن زاوية عملهما التجسسي، كانت الأدوار مقلوبة: ماكلين كان أكثر وضوحاً في كونه عميلاً سوفياتياً في قلب وزارة الخارجية البريطانية، فيما كان بيرغس اكثر تحفظاً.

كيم فيلبي: الرقم ٢ في الاستخبارات البريطانية خائن أم بطل تاريخي؟؟

كيم فيلبي، من جهته، كان من مواليد الهند عام ١٩١٢ والابن الوحيد للحاج عبدالله سان جون فيلبي، صديق لورنس العرب والمستشرق المعروف الذي كانت له صلات قوية في السعودية.

فيلبي وبيرغس وماكلين كانوا معاً في كامبريدج.

ماكلين، ابن وزير سابق، دخل السلك الديبلوماسي عام ١٩٣٥ فعين في باريس حيث التقى الفتاة الأميركية التي تزوجها. بعد باريس عاد الاثنان إلى لندن وبقيا فيها أكثر فترة الحرب، أي حتى ١٩٤٤ عندما عين أميناً للسفارة البريطانية في واشنطن.

بيرغس من جهته انخرط في العمل الصحافي والاذاعي لحساب هيئة الاذاعة البريطانية وأصبح ملتصقاً كثيراً بالأحداث الأوروبية ومخبراً سرياً من حين الى آخر لجهاز الأمن «أم. اي ـ ٥». عام ١٩٣٩ انضم الى قسم الدعاية التابع للاستخبارات البريطانية «أم. أي ـ ٦» لكنه من الناحية الرسمية عاد إلى الوظيفة في هيئة الإذاعة البريطانية عام ١٩٤١ ثم انضم إلى السلك الديبلوماسي عام ١٩٤٤.

كيم فيلبي. انخرط في العمل الصحافي وغطى أحداث الحرب الأهلية في اسبانيا على جبهة فرانكو كمراسل لصحيفة «التايمز». وبدوره انضم إلى جهاز الأمن قبيل الحرب العالمية الثانية ثم انتقل بعد ذلك إلى الاستخبارات تحت غطاء ديبلوماسي، أي بتوظفه رسمياً في وزارة الخارجية، فيما كان خلال الظرف نفسه يعمل سراً مع الاستخبارات السوفياتية. عام ١٩٤٧ كان في القنصلية البريطانية في اسطنبول وعام ١٩٤٩ نقل إلى السفارة البريطانية في واشنطن.

في كانون الثاني ١٩٤٩ علم جهاز الأمن ان الاستخبارات السوفياتية لها تغلغل خطر في قلب وزارة الخارجية. لكن جهاز الأمن لم يكتشف بأن دونالد ماكلين هو العميل إلا في أوائل أيار ١٩٥١.

فيلبي، كمندوب للاستخبارات البريطانية في واشنطن، كان عمله يشمل تأمين حلقة الارتباط مع دوائر الاستخبارات الأميركية. وهو من خلال عمله في الاستخبارات أو عن طريق اتصاله بالاستخبارات الأميركية، علم بأن ماكلين أصبح في لندن موضع شك قوي، فنبه زميله بيرغس إلى الأخطار التي يتعرض لها زميلهما السابق في الجامعة.

في ذلك الظرف بالذات، كان السفير البريطاني في واشنطن السر أوليفر فرانكس قد بدأ يتذمر من تصرفات بيرغس الجنسية المنحرفة ومن إدمانه شرب الكحول ومن قيادة سيارته بالشكل الذي ضجت له الشرطة الأميركية. لذلك استدعى بيرغس إلى الإدارة المركزية فوصل إلى لندن في ٧ أيار ١٩٥١ حيث طلب إليه تقديم استقالته..

كيم فيلبي، مرفأ بيروت ١٩٦٣
حمل سوڤياتي ثمين

من القصص التي تروى عن كيم فيلبي:

□ مطار بيروت، عام ١٩٦٣، الحادية عشرة ليلاً. تحط طائرة اميركية ضخمة في وسط اجراءات خاصة، ويخرج منها نحو ١٦٠ خبيراً بمكافحة التجسس من خيرة الاختصاصيين وتوزعهم السيارات في سرعة البرق، على نقاط عدة في بيروت وضواحيها، مجموعات صغيرة وكبيرة عليها البحث عن ضابط كبير هرب من لندن، ويعتقد أنه في بيروت والأمر واضح: القبض عليه حياً أو ميتاً.

وتلك الليلة عينها منذ الساعة الثامنة مساء، حركة غير عادية في السفارة السوفياتية في بيروت. وبرقية مستعجلة إلى لوبيانكا ٧ فالكرملين. وإلى لوبيانكا ثانية فوزارة الأسطول التجاري: «عاجل جداً: إلى القبطان الأول على الباخرة السياحية ايفان فرانكو، لتتحول الباخرة تحولاً سريعاً طارئاً إلى مرفأ بيروت وتخرج منه قبل طلوع الفجر بحمل ثمين جداً سيسلم اليها. والحذر الشديد فالأمر في غاية الخطورة».

كانت الباخرة في المتوسط وقريبة من الساحل اللبناني، فأعلمت السلطات اللبنانية بكارثة على متنها وطلبت منها عاجلاً إذن التزود بالمياه، فوافقت. والثالثة فجراً كانت الباخرة الكبيرة تتزود المياه في مرفأ بيروت المعتاد على البواخر الوسطى، مثل لاتفيا وفيليكس دزرجنسكي، وفي الخامسة دخلت سيارة السفير السوفياتي الليموزين السوداء إلى حرم المرفأ واقتربت من الرصيف حيث الباخرة ايفان فرانكو. وأخرج موظفون في السفارة من صندوق السيارة الكبيرة حملا خشبياً فربط فوراً إلى ونش رفعه في الفراغ عالياً إلى الباخرة. وآنئذ وصلت خمس سيارات أميركية وجيب إلى المرفأ، متأخرة فتوقف ضخ المياه إلى خزانات ايفان فرانكو، وأبحرت مسرعة، وعندما ابتعدت الباخرة السوفياتية، وكانت الساعة السابعة صباحاً هناك في المدى جيء بالحمل المصندق

إلى غرفة القبطان الأول وفتح فخرج منه رجل في الخمسين من عمره، طويل، أنيق هادىء عانق القبطان وقال معرفاً: كيم فيلبي: والبرقية عاجلة: «الصناعة سليمة في حوزتنا. ستتجه دون توقف الى مرفأ الأوديسا»، وتفتح شمبانيا وكونياك من النوع الأرمني الفاخر وشرب الحضور نخب نجاح المهمة. ومساء ذلك اليوم نزل فيلبي من الباخرة التي خففت سيرها وهي في عرض البحر المتوسط إلى لنش ومنه إلى غواصة، على مبعدة ميل اتجهت به سالماً آمناً إلى مكان ما في الاتحاد السوفياتي. بل إلى حياة جديدة، تلي طفولة قضاها في كلكوتا، الهند، ودراسة في كمبردج، وقتالاً في الحرب الاسبانية وادارة معهد شملان في الخمسينات لتعليم الانكليز اللغة العربية، في لبنان.

□ ذات مساء في موسكو، في ١٩٦٤، على مسرح الأوبريت، مسرحية من لندن بطلها السير لورنس أوليفييه. وفي مقصورة الشرق إلى اليمين النائب الأول لوزير الثقافة الروسي في رفقة السفير البريطاني. وبينما الجميع في الالتفاتة الثابتة إلى المسرح، كان السفير يدور «بالبينوكل» ويستقر نظره على رجل يجلس في المقصورة وحيداً... إلى اليسار، كان كيم فيلبي.

قصة طويلة لا تسرد الآن، يصعب تصديقها عن الرقم ٢ في الاستخبارات البريطانية وكيف أفلت، وكيف كاد يصل إلى المركز الأول، بتلك السهولة وفي أوائل الستينات، وكيف حمل أهم أسرار الغرب إلى الشرق، عبر مكتب ضخمة كانت سبقته إلى موسكو عبر بحر البلطيق.

انها نبذة عن ضابط كبير في أصعب المهن على الاطلاق. كان له من نعته بالخائن ومن اعتبره بطلاً تاريخياً، فأيهما كان؟.

في ١٢ أيار ١٩٨٨ صدرت الصحف العالمية لتنقل نبأ وفاة كيم فيلبي عن عمر يناهز الـ ٧٦ في موسكو حسب ما أعلن ناطق بلسان وزارة الخارجية البريطانية بناء لإعلام السفارة السوفياتية للوزارة.

وهكذا طويت صفحة آخر أربعة عملاء بريطانيين عملوا لحساب الـ ك. ج. ب. وسلموا الاتحاد السوفياتي مجموعة كبيرة من الأسرار العسكرية البريطانية والأميركية أثناء الحرب الباردة.

في ٢٥ أيار ١٩٥١، أجيز لجهاز الأمن بأن يحقق مع ماكلين مباشرة وللمرة

الأولى. عشية ذلك اليوم التقى ماكلين وبيرغس وتوجهـا معاً إلى بـاخرة أقلتهـما خارج الجزيرة البريطانية.

في حزيران من العـام نفسه، استـدعي فيلبي إلى لندن دون ضجـة حيث طلب إليه تقديم استقالته من الخدمة الديبلوماسية، استناداً إلى القول انه كان على علم بـأمر بيرغس وماكلين وبصفة خاصة لأن بيرغس كان مقيماً معه في منزله بواشنطن.

وبقي الغمـوض محيطاً بـالمكان الـذي يمكن أن يكون مـاكلين وبيرغس قـد لجـأ إليه، إلى أن كان ١١ أيلول ١٩٥٣ إذ سافرت ميلينـدا ماكلين مـع أولادها الثـلاثة إلى جنيف، وهناك اختفت آثارها مع أولادها. الواقع أن الجميع كانوا قـد أصبحوا ضمن الأراضي السوفياتية.

في نيسان ١٩٥٤ وبعدما هرب فلاديمير بتروف إلى أوستراليا، قال في جملة ما قاله أن مـاكلين وبيرغس كـانا قـد بدآ العمـل لمصلحة الاستخبـارات السوفيـاتية منـذ أيام الدراسة في جـامعة كـامبريـدج وان موسكـو هي التي عملت على تهـريبهما إلى الاتحـاد السوفياتي.

بعد تقرير بيتروف عن المسألة، أثـيرت في مجلس العموم الـبريطاني قضيـة ما إذا كان فيلبي. فكان جواب وزير الخارجية آنـذاك هارولـد ماكميـلان في ٧ تشرين الثاني ١٩٥٥ أنه لم تتوافر أية اثباتات على كون فيلبي هو الذي نبه الرجلين إلى الخـطر الذي بدأ يحدق بهما.

في شباط ١٩٥٦ أعلن الاتحاد السوفياتي عن وجود ماكلين وبـيرغس في أراضيه. ومع ذلك، وبعد انقضاء سبعة أشهر عـلى الحدث السـوفياتي، كـانت وزارة الخارجيـة البريطانية تسعى لدى مجلسة «الأوبزرفر» لتشغيل فيلبي لديها. وقـد فعلت المجلة ذلك بـأن تقاسمت التكـاليف مع مجلة «الايكـونوميست» لإرسـال فيلبي إلى الشرق الأوسط كمراسل مشترك لهما.

في بيروت بالذات، وحيث كان فيلبي قد بدأ باحتساء الكحول بكميات وفـيرة، تـزوج المراسـل للمرة الثـالثة ومن أمـيركية كـانت زوجة مـراسل «نيـويورك تـايمـز» في بيروت.

في ٢٣ كـانون الثـاني ١٩٦٣ اختفى فيلبي من بيروت وتـذكـر العـارفـون قصـة

«الرجل الثالث» في قضية بيرغس وماكلين وتكهنوا بأن فيلبي بدوره ربما أصبح في موسكو.

إلى أن جاء الأول من تموز ١٩٦٣ وقبيل انطلاق رائحة فضيحة برفيومو، فوقف الوزير في حكومة ماكميلان، ادوارد هيث، في مجلس العموم وأفضى بتصريح يتعلق بفيلبي قال فيه أن جهاز الأمن قد تحقق من أن الرجل كان يعمل لمصلحة الاستخبارات السوفياتية منذ قبل العام ١٩٤٦ وأنه هو الذي كلف بيرغس بتحذير ماكلين من أن جهاز الأمن كان يريد القبض عليه.

وجاء صب الزيت على النار من موسكو في ٣٠ تموز ١٩٦٣. فقد قالت صحيفة «أزفستيا» الناطقة بلسان الحكومة السوفياتية ان فيلبي «الذي كان ذا مرتبة عالية في الاستخبارات البريطانية» قد منح حق اللجوء السياسي في الاتحاد السوفياتي.

جورج بليك العميل المزدوج
هولندي المولد والأم
وأب يهودي مصري

في ٢٥ نيسان ١٩٦١ قالت صحف لندن في خبر صغير: «جورج بليك، موظف الحكومة البالغ من العمر ٣٨ سنة والمجهول محل الاقامة، أحيل إلى المحاكمة بموجب قانون أسرار الدولة».

في سياق المحاكمات التي جرت في أيار تبين أن جورج بليك كان مسؤولاً كبيراً في الاستخبارات «ام. اي - ٦» لكنه لم يترك شيئاً مما وصلت إليه يداه في هذه المؤسسة إلا ونقله إلى السوفيات. كما تبين أن بليك انضم إلى الاستخبارات السوفياتية منذ خريف ١٩٥١، بمعنى أنه عمل مدة تسع سنوات ونصف السنة في توفير أفضل الخدمات لهم.

وانتهت المحاكمات بأن حكم على بليك بالسجن ٤٢ سنة، وهو أعلى حكم بالسجن صدر في تاريخ القضاء البريطاني المعاصر.

اسم «ام. اي - ٦» لم يذكر خلال المحاكمات، إذ حاولت حكومة هارولد ماكميلان آنذاك أن تسدل على الموضوع ستاراً من السرية. لكن الصحف الأميركية اندفعت في نشر التفاصيل وفي الاشارة إلى أن بليك كان مسؤولاً في «ام. اي - ٦» وعمل كثيراً لمصلحة السوفيات في برلين وأعطاهم أسماء عملاء بريطانيين عديدين.

على أثر ذلك انطلقت الاستجوابات تلو الاستجوبات في مجلس العموم البريطاني كما انطلقت الصحف البريطانية في نشر التفاصيل المذهلة التي سبق نشرها في بلدان عديدة.

كثير من الوقائع لا يزال جزءاً من عالم الغموض، لكن المعلوم منها هو ما يأتي:

جورج بليك ولد تحت اسم جورج بيهار في روتردام، هولندا، عام ١٩٢٢ من

أم تنتمي إلى إحدى العيال الهولندية المرموقة وأب يهودي مصري. بيهار الأب حارب في صفوف الجيش البريطاني خلال الحرب العالمية الأولى ونال الجنسية البريطانية بعد ذلك ثم توفي عام ١٩٣٦ فيما كان ابنه جورج مقيماً عند إحدى عمّاته في القاهرة.

جورج بليك أظهر منذ حداثته أنه كثير الخيال متوقد الذهن، إذ كان ينحو إلى ممارسة الألعاب التي تؤدي به إلى إقناع غيره بما يريد. وعندما عاد إلى روتردام عام ١٩٣٩ أكثر من التردد على إحدى الكنائس البروتستنتية معتزماً دراسة اللاهوت ليصبح قساً.

وعندما اجتاحت الجيوش الألمانية هولندا عام ١٩٤٠، عايش بليك الغارة الجوية الألمانية الرهيبة على روتردام لكنه سجن لأنه ابن شخص من التابعية البريطانية. بعد زمن، هرب وانضم إلى المقاومة السرية الهولندية ثم شق طريقه عام ١٩٤٣ إلى فرنسا فبريطانيا حيث غيّر اسمه نهائياً إلى بليك.

في بريطانيا خدم مدة قصيرة في البحرية الملكية ثم ما لبث أن انضم إلى الفرع الهولندي في «مديرية العمليات الخاصة» التي كانت تقوم بأعمال التخريب وراء الخطوط الحربية الألمانية. حتى اليوم ليس من الثابت أن بليك تعاون مع الألمان، مع أن الفرع الهولندي في مديرية العمليات الخاصة بعد انضمام بليك إليه، قام بعملية جريئة أنزل فيها ٥٠ مظلياً كلهم من أفضل الجواسيس الهولنديين وراء خطوط الألمان فوقعوا في أيدي الغستابو التي ذبحتهم عن بكرة أبيهم بعدما وضعت يدها على اللاسلكي الخاص بالمديرية واستخدمته طالبة إلى القيادة في لندن إرسال أكثر عدد ممكن من أولئك الجواسيس.

بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، صرف بليك زمناً في استجواب قواد الغواصات الألمانية من الأسرى في هامبورغ، ثم أعيد إلى جامعة كامبريدج لدراسة اللغة الروسية.

عام ١٩٤٩ كان مركز عمله في سيوول، عاصمة كوريا الجنوبية، تحت ستار شرعي وهو كونه نائب القنصل، وخلال الغزو الكوري الشمالي لكوريا الجنوبية وقع أسيراً ونقل إلى كوريا الشمالية حيث تعرض لتعذيب وحشي رهيب.

خلال المحاكمة ثبت أن بليك بدأ يعمل في خدمة الاستخبارات السوفياتية منذ سنة ١٩٥١، وإن كان ما يزال أسيراً في كوريا الشمالية.

في نيسان ١٩٥٣ أفرج عن بليك فعاد إلى لندن عن طريق بكين وموسكو.

عام ١٩٥٤ تزوج بليك موظفة جميلة في وزارة الخارجية البريطانية تدعى غيليان، الآن يبدو أنها كانت هي أيضاً عضوة في الاستخبارات «ام. اي - ٦» وأنها فوجئت في ما بعد بكون زوجها عميلاً للاستخبارات السوفياتية فوق كونه زميلها في الاستخبارات البريطانية. وقد أنجب الزوجان ثلاثة أولاد.

في نيسان ١٩٥٥ نقل بليك مع عائلته إلى برلين الغربية حيث بقي مدة أربع سنوات كمسؤول في الاستخبارات «ام. اي - ٦» التي كانت متركزة في مباني المدينة الرياضية.

تلك السنوات كانت كثيرة الشغل بالنسبة إلى الاستخبارات في برلين. فالمدينة كانت تغلي بمن فيها من العملاء الشرقيين والغربيين، والمتعاونين والمتنافرين.

في تلك الأثناء هرب إلى برلين الشرقية المسؤول الأول عن جهاز الاستخبارات الألماني الغربي المختص بمكافحة التجسس الهر أوتو جون الذي كان في الوقت ذاته عميلاً كبيراً للاستخبارات البريطانية «ام. اي - ٦». وجن جنون الانكليز لاعتقادهم بأن هذا الهرب له علاقة بالمضايقات التي تعرض لها أوتو جون من جانب وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية.

وفجأة، في ١٣ كانون الأول ١٩٥٥، وفيما كان بليك لا يزال في برلين، عاد أوتو جون هارباً إلى الغرب حيث حكم عليه بالسجن بتهمة الخيانة.

في هذه الأثناء كان عميل سابق للاستخبارات الألمانية الغربية يدعى آينتر قد أصبح عميلاً للاستخبارات البريطانية في برلين ويعمل تحت إمرة بليك مباشرة. في ما بعد تبين أن آينتر كان عميلاً مزدوجاً ويعمل لمصلحة الاستخبارات السوفياتية كما تبين أن آينتر اكتشف بنفسه أن بليك كان بدوره عميلاً للسوفيات.

في عالم العملاء المزدوجين، يقول كاتب ظريف: العميل المزدوج عليه أن يهرِّب أسراراً من حين إلى آخر. فإذا ما هرب من الأسرار أكثر مما يعود به إلى مؤسسته

بالذات، فهو خائن، وإذا ما عاد بأسرار أهم من تلك التي أخذها فهو بطل.

انطلاقاً من هذه القاعدة، ربما، قيل إن الاستخبارات البريطانية استخدمت بليك كعميل مزدوج على أساس وضعه في موقف من يدعي أمام السوفيات أنه يعمل لمصلحتهم في الوقت ذاته إذ يعمل للاستخبارات البريطانية. إذا صح هذا القول، فاعترافات بليك في المحكمة أثبتت أن ولاءه كان لموسكو وحدها.

عام ١٩٥٩ عاد بليك من برلين إلى لندن، ثم عام ١٩٦٠ عينّ طالباً في مدرسة شملان للغة العربية التي تديرها السفارة البريطانية في بيروت والتي طالما قيل عنها إنها مدرسة للجواسيس. بليك لم يكن في حاجة آنذاك لمن يدربه على الجاسوسية لأنه كان مؤصلاً منذ زمن بعيد، وكذلك هارولد فيلبي الذي كان خلال الفترة ذاتها «مراسلاً صحافياً» في بيروت.

الاستخبارات الصينية الشيوعية



كانون الأول ١٩٦٥ ـ محاولة إغتيال الرئيس جمال عبد الناصر
اتهام الحزب الشيوعي المصري الموالي للصين بالمحاولة

الاستخبارات الصينية الشيوعية

العين الشيوعية لا تدخر وسعاً في استخدام كل ما تستطيع توظيفه خارجياً في سبيل استخباراتها. من توظيف السفارات والقنصليات المنتشرة في العالم إلى فتح مكاتب لوكالة انبائها إلى ارسال بعثات شبابية واقتصادية وصحية إلى كل الدولة المستهدفة بالحصول على معلومات لخدمة استخباراتها

أواخر الحرب الكورية أرسلت الصين ممثلين عن الصليب الأحمر الصيني إلى اليابان المساعدة ظاهرياً على ترحيل الصين من اليابان وباطنياً كان الهدف ايجاد قاعدة مخابراتية في اليابان ونجحت في إرساء هذه القاعدة.

في الملايو ـ حركة تمرد قادها الحزب الشيوعي المدعوم من المخابرات الصينية واستمر هذا التمرد من عام ١٩٤٨ لغاية عام ١٩٦٠ حتى استطاعت الحكومة المالاوية القضاء عليه وبقي الحزب الشيوعي المالاوي معتمداً التخفي والسرية وسط الجامعات ومدارس الجاليات الصينية.

في ساراواك ـ المقاطعة الملايوية تم اكتشاف منظمة شيوعية صينية سرية أوائل الستينات هدفها قيادة ثورة شيوعية ضد نظام الحكم.

في سنغافورة ـ نشأت صراعات محلية عنصرية بين الصينيين والمالاويين في عام ١٩٦٤ كان من نتيجتها إلقاء القبض على سيم سيوكيم العميل للمخابرات الصينية وكان مكلفاً بمهمة اغتيال لزعماء حكومة سنغافورة.

في اندونيسيا ـ كاد الحزب الشيوعي الصيني أن يتسلم الحكم قبل وقوع محاولة الانقلاب الشيوعية الفاشلة في ٣٠ أيلول ١٩٦٥ والتي انتهت بتنحية أحمد سوكارنو عن الحكم.

في بورما عام ١٩٤٩ ـ تمحورت عمليات المخابرات الصينية حول الحركة الشيوعية المسماة «البيرق الأبيض» وكانت تتخذ منها ستاراً لعملها في انحاء بورما.

في كمبوديا ـ تبنت الصين قضية الأمير سيهانوك بعد تنحيه عن رئاسة الدولة وما زالت المخابرات الصينية طرفاً أساسياً في الصراع القائم حول السلطة في كمبوديا حتى وقتنا هذا.

في نيبال ـ اعترف عميل استخباراتي حين هرب إلى الغرب عام ١٩٦٤ أن المشروع الصيني بشق طريق رئيسية في نيبال كان واجهة لمجهود سري لقلب الحكومة النيبالية وإبدال النظام بسلطة شيوعية موالية للصين إذ أن الخمسماية عامل صيني، وهو العدد الذي كان يشكل فريق العمل الصيني كان في حقيقته جيشاً نظامياً وأن السلاح كان يهرَّب لهذا الجيش ضمن صناديق آلات شق الطرق.

في سيلان ـ نشطت السفارة الصينية في المحاولة الفاشلة لاعادة انتخاب السيدة باندرانيكه رئيسة للحكومة عام ١٩٦٥، ذلك أن سيلان إلى جانب الهند وكان الحزب الشيوعي فيهما مؤيداً لموسكو.

وللمناسبة أعيد انتخاب السيدة باندرانيكه رئيسة للحكومة في صيف ١٩٧٠ دون أن يعلم مقدار التدخل الأجنبي في دعم عودتها.

عمل المخابرات الصينية في الشرق الأوسط وافريقيا

انحصر هدف المخابرات الصينية في الشرق الأوسط وافريقيا على مقاومة النفوذ السوفياتي وفي تشجيع قيام أحزاب شيوعية موالية لها.

في مصر ـ بعد محاولة اغتيال الرئيس جمال عبد الناصر في كانون الأول ١٩٦٥ وجهت التهمة وقتها إلى أفراد الحزب الشيوعي المصري الموالي للصين، ولهذا وجدت بكين نفسها في موقف حرج جدا خصوصاً أن مصر كانت أول دولة افريقية تعترف بالدولة الشيوعية وتقيم معها علاقات دبلوماسية، وهذا ما حدا بأربع دول افريقية لقطع العلاقات الدبلوماسية معها.

في مالاوي ـ اتهم السفير الصيني الشيوعي في تانزانيا بتدبير محاولة الانقلاب الفاشلة في عام ١٩٦٥.

في زامبيا ـ طرد أربعة أعضاء في مجلس ادارة جامعة النقابات المتحدة لقبضهم رشوات مالية من السفارة الصينية لاثارة القلاقل والاضطرابات.

في كينيا ـ طرد عدد من الدبلوماسيين الصينيين بتهمة شحن أسلحة سراً إلى الأراضي الكينية عام ١٩٦٥.

في جمهورية افريقيا الوسطى ـ على أثر اكتشاف مخابىء أسلحة وذخيرة عام ١٩٦٦ تم طرد دبلوماسيين صينيين بعد قطع العلاقات مع الصين وإغلاق مركز وكالة أنباء الصين الجديدة.

في داهومي ـ تم طرد جميع الدبلوماسيين الصينيين بعد قطع العلاقات الدبلوماسية بتهمة المشاركة في التآمر على قلب نظام الحكم مما أفقد الصين أي مجال للعمل والحركة في البلدان المجاورة، وهي توغو وفولتا العليا والنيجر ونيجيريا والتي لم تكن هناك علاقات دبلوماسية معها.

في غانا ـ وجهت ضربة قاصمة للوجود الصيني في غانا على أثر الانقلاب العسكري الذي أطاح بكوامي **نكروما** والذي كان يزور بكين في ذلك الوقت من شباط ١٩٦٦، حيث اتهم نكروما بالعمل مع الاستخبارات الصينية الشيوعية وأدى هذا الانقلاب إلى طرد ٤٣٠ صينياً كان بينهم ضباط استخبارات ومدربون للتدريب على حرب العصابات.

في بوروندي ـ اتهمت الصين الشيوعية بتدبير اغتيال رئيس الحكومة بيرتعند اندوموي عام ١٩٦٥، وكان من نتيجة هذا الاتهام قطع العلاقات الدبلوماسية وطرد جميع الصينيين من بوروندي.

في الكونغو ـ كانت السفارة الصينية مركز قيادة عمليات التجسس. في تلك السفارة كان الأمين الأول هو الكولونيل كان ماي المسؤول الأول عن تدريب الثوار الكونغوليين في غامبولا وايمبقوندو، لكن التقارب والتفاهم الذي حدث بين دولتي الكونغو عام ١٩٦٦ أنهى هذا النشاط الصيني.

عمل المخابرات الصينية في أوروبا

قبل حصول الخلاف الصيني ـ الروسي الحاد، كانت براغ مركز التجسس

الرئيسي للمخابرات الصينية. وبعد الخلاف الحاد الذي انتقل إلى تشيكوسلوفاكيا مع الصين، اضطرت المخابرات الصينية إلى نقل مقر قاعدتها الأوروبية إلى سويسرا حيث يتدرب أفراد السلك الدبلوماسي الصيني على اللياقات والتعامل ووسائل التصرف الغربية بجانب عملهم التجسسي.

حذرت الحكومة السويسرية في حزيران ١٩٦٥ السفير الصيني بأنها لن تستمر في تحمّل «نشاطاته غير الشرعية» التي تشمل تمويل وإدارة عملاء «الاتحاد الفرنسي للمحافل الماركسية - اللينينية»، العامل لحساب بكين في أوروبا. وفي شباط ١٩٦٦ طردت سويسرا من أراضيها أمين السفارة الصينية الشيوعية وموظفاً في حكومة الصين الوطنية بتهمة إدارة شبكة تجسس واسعة تنقل أخبار فورموزا إلى بكين.

في اليونان كانت الاستخبارات الصينية وراء قيام لجنة في اليونان في منتصف الستينات تدعى «لجنة الاعتراف بالصين الشعبية في اليونان»، كذلك وقفت وراء انشاء «رابطة الماركسيين - اللينينيين» في النمسا والمركز الماركسي - اللينيني في هولندا وجامعة الشبيبة الماركسية - اللينينية في ايطاليا.

والمخابرات الصينية تعتمد كذلك في نشاطاتها على مركز رئيسي لها في ألمانيا وعلى الحزب الشيوعي البلجيكي الموالي لبكين الذي يتلقى سنوياً الأموال بالملايين.

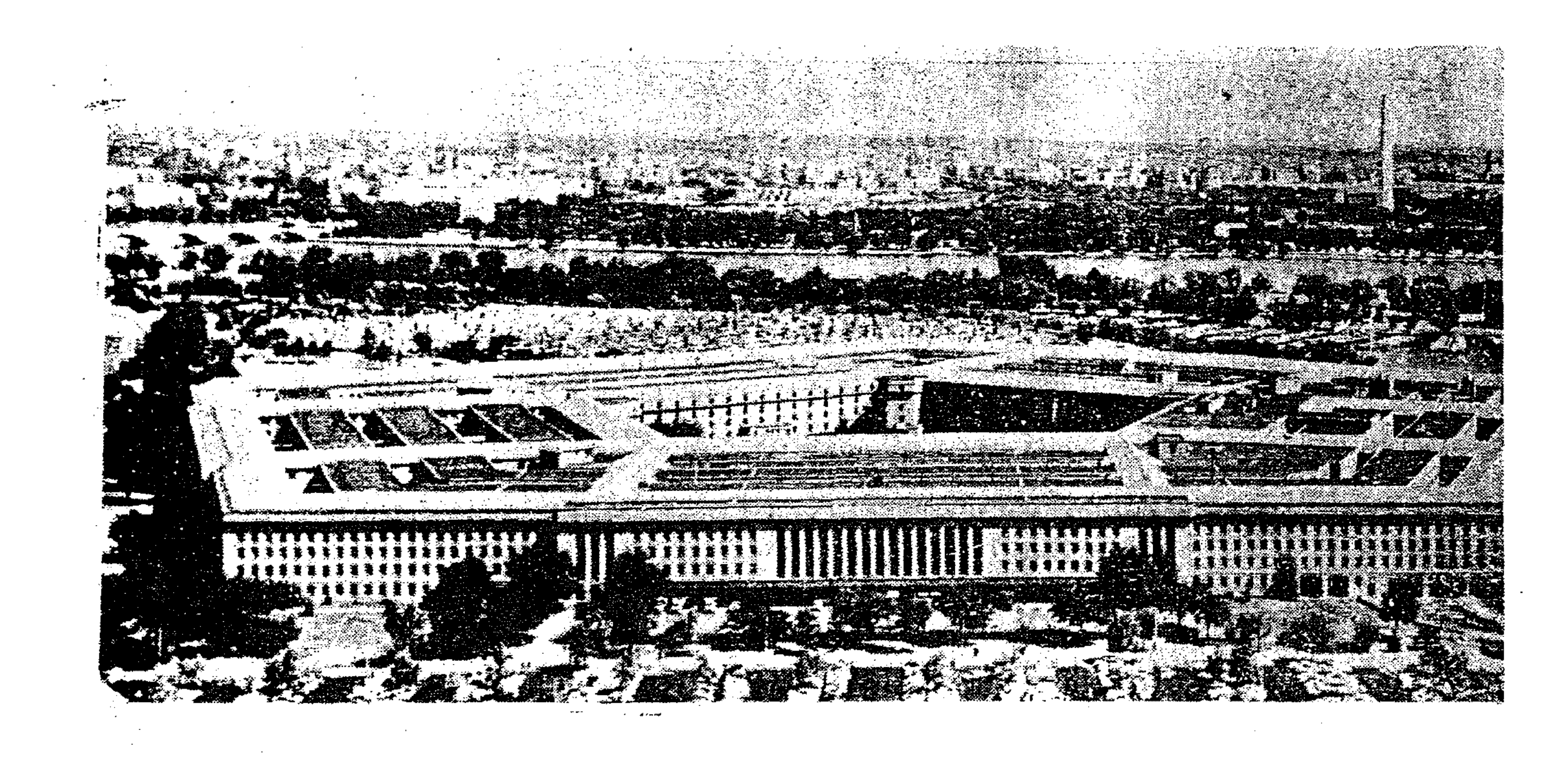
ومن أبرز نشاطات الاستخبارات الصينية في أوروبا مكافحة التجسس المعادي ومنع الهرب لرعاياها إلى الغرب.

وأبرز الحوادث التي جرت لمنع الهرب هي حادثة هيسو تزو - تساي في هولندا عام ١٩٦٦. وتفاصيل الحادثة أن هيسو شوهد مسجّى على أحد الأرصفة في مدينة لاهاي وعندما حضرت الشرطة للتحقيق لم تجد الرجل المسجى. ففي هذه الأثناء كان الرجل الجريح قد نقل إلى السفارة الصينية - الشيوعية. رفض الصينيون بداية السماح لرجال الشرطة الهولنديين بدخول مقر السفارة للاستفسار عن الرجل الجريح، وبعد مناقشة طويلة سمح لضابط من الشرطة ورجل اسعاف واحد بالدخول حيث تم نقل الجريح إلى المستشفى وتبين أنه مصاب بكسور في جمجمته وفي ضلوعه وبجروح في عموده الفقري، عملت المخابرات الصينية على تهريب الجريح من المستشفى إلى مقر السفارة الصينية حيث ادعت السفارة بعد ذلك بأن هيسو قد مات في مكتبه في ١٨ تموز مما اضطر هولندا لاعتبار القائم بالأعمال الصيني شخص غير مرغوب فيه.

وهيسو في الحقيقة كان ضمن وفد صيني في هولندا حيث أجرى مع زملائه بالوفد اتصالات شخصية مع عدد من الأميركيين. ووجهة النظر الصينية أن هيسو مع عدد من زملائه قد حاولوا الهرب إلى الغرب وسقط من علو شاهق بعد أن حاول الوصول إلى سطح مبنى مجاور لمقر سكنه. أما رفاقه الباقون فكان عددهم ثمانية، فقد جرى احتجازهم بمقر السفارة، وبعد تطويق الشرطة الهولندية للسفارة الصينية مطالبة بتسليمها الثمانية لاستجوابهم وأمام رفض أركان السفارة لهذا الاستجواب، تم الوصول إلى حل وسط يقضي بدخول ثلاثة موظفين من وزارتي الخارجية والعدل الهولندية ومعهم مترجم في زيارة قصيرة تستغرق ٩٠ دقيقة لاستجواب الثمانية.

وهذه الفترة قصيرة جداً لاستجواب ثمانية أشخاص عبر مترجم، لكنها كانت كافية لاقناع الهولنديين بأنهم نفذوا قانونهم.

وفي اليوم التالي، ووسط عسكرة مندوبي الصحف ومصوري التلفزيون في خيام نصبوها أمام المبنى، سافر الصينيون الثمانية إلى بلادهم عبر موسكو، محمَّلين بكتب ماو تسي تونغ وملوِّحين بها للصحافيين، متحدثين بشعارات مهينة بحق الحكومة الهولندية.



مقر وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية في لانغلي قرب واشنطن

الاستخبارات المركزية الأميركية C.I.A.

الرؤساء

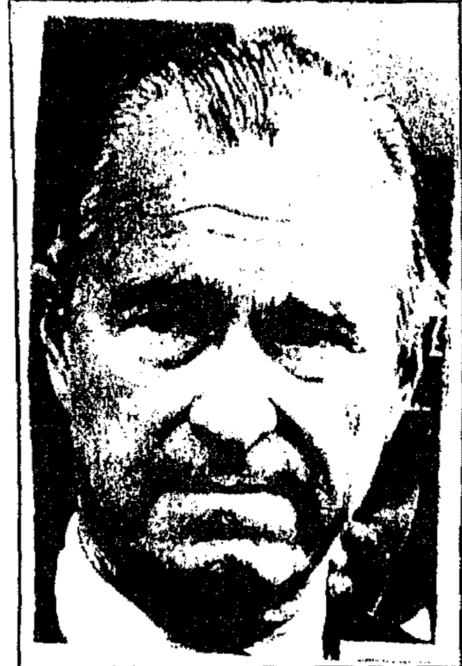


ستانسفيلد

١٩٧٧ - ١٩٨١

وليام كولبي

١٩٧٣ - ١٩٧٦



ريتشارد هولمز

١٩٦٦ - ١٩٧٣



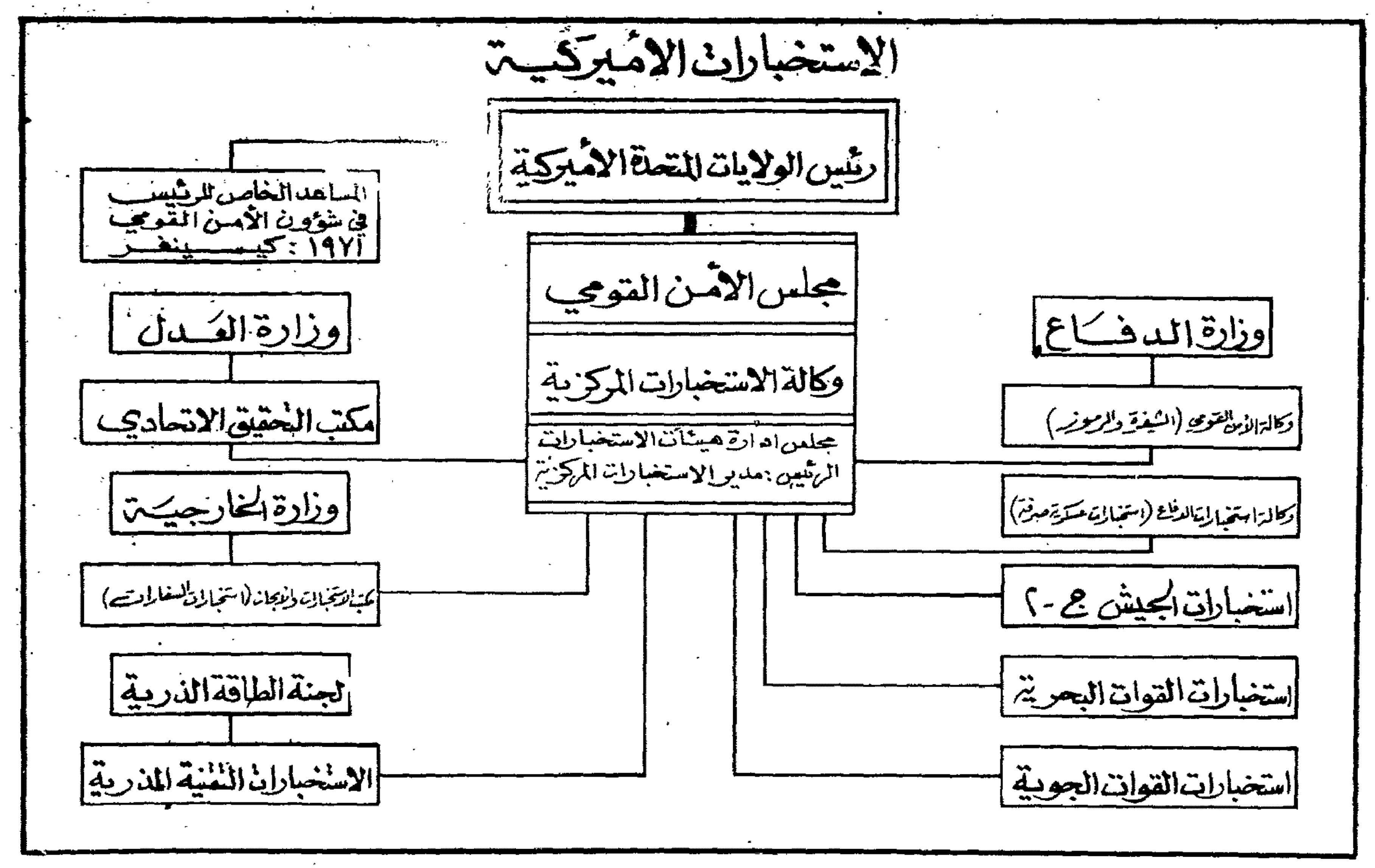
وليم وبستر

١٩٨٦ ـ وما زال



وليم كايسي

١٩٨١ - ١٩٨٦



الهيكلية التنظيمية للاستخبارات الاميركية

الاستخبارات المركزية الأميركية
التنين والديكتاتور
C.I.A

عالم داخل عالم، وديكتاتور يتحايل على الكونغرس ولا يتورع عن إحراج موقف البيت الأبيض وتنين أعطي الاصبع ليلحسها فافترس الذراع كلها.

هذه هي الـ (C.I.A) بشكل موجز ومركّز.

هذا التنين الذي يتضرر منه الأميركي نفسه في متجره أو مدرسته أو مصنعه هو ذاته الذي يئن منه العربي والآسيوي والافريقي والأوروبي والأميركي وأي مواطن آخر من هذا الكون.

البداية: الرئيس الأميركي هاري ترومان وفي عام ١٩٤٨ وفي ١٨ أيلول تحديداً وقع مرسوماً بإنشاء وكالة الاستخبارات المركزية وقد حددت مهامها حسب المرسوم بالتالي:

١ ـ تقديم النصح إلى مجلس الأمن القومي.
٢ ـ تقديم التوصيات إلى مجلس الأمن القومي.
٣ ـ فرز المعلومات وتوزيعها على الأنشطة المختلفة لمجلس الأمن القومي.
٤ ـ القيام بخدمات إضافية حسب ما يرتأيه ويقرره مجلس الأمن القومي.
٥ ـ ممارسة المهمات والواجبات ذات العلاقة بالاستخبارات.

عام ١٩٤٨ بعد سيطرة الشيوعيين على الحكم في تشيكوسلوفاكيا خشيت العاصمة الأميركية من امتداد هذه السيطرة إلى إيطاليا عبر الانتخابات العامة واستطاعت وكالة الاستخبارات أن تقنع البيت الأبيض بضرورة اعتماد عملية سرية للمقاومة وتم تشكيل جهاز «مكتب التنسيق السياسي» للاشراف على مقاومة سيطرة الشيوعيين على ايطاليا.

وبعد حل المشكلة الايطالية بإبعاد السيطرة الشيوعية عنها أعطيت وكالة الاستخبارات صلاحيات واسعة حتى فيما يتعلق بصرف وانفاق الأموال دون العودة إلى ديوان المحاسبة.

بعد تشكيل مكتب التنسيق السياسي جيء بفرانك وايزنر ليكون مساعد مدير مكتب التنسيق بالتعاون مع وزارة الخارجية والبنتاغون. ومع بداية عام ١٩٥٠ جيء بالجنرال والتر سيدل سميث كمدير لوكالة الاستخبارات المركزية والذي ألغى كل مشاركة في عمل الاستخبارات مع وزارتي الخارجية والدفاع وجعل عمليات وايزنر تحت رقابة وكالة الاستخبارات المركزية وحدها.

أوائل العام ١٩٥١ دمج مكتب التنسيق السياسي بمكتب العمليات الخارجية في قسم الخطط الذي أعطي صلاحيات كاملة في التنفيذ والاشراف لجميع العمليات السرية التي تقوم بها .C.I.A في العالم.

أول عمليات قسم الخطط كان الاطاحة بحكومة الدكتور مصدق في ايران عام ١٩٥٣ عبر الانقلاب العسكري الناجح.

ثاني عمليات هذا القسم كان التخطيط لانقلاب ناجح في غواتيمالا عام ١٩٥٤.

ثالث عمليات هذا القسم حصوله على الخطاب السري الذي ألقاه خروتشوف في المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفياتي عام ١٩٥٦ وتهجم فيه على ستالين للمرة الأولى.

رابع عملياته إنزال كوبيين منفيين في خليج الخنازير للإطاحة بحكم الرئيس كاسترو.

خامس عملياته تجنيد رجاله من أجل إجهاض الثورة في الكونغو عام ١٩٦٤.

سادس عملياته محاولة فاشلة لقلب نظام سوكارنو في اندونيسيا عام ١٩٥٨.

سابع عملياته فشل محاولة التجسس فوق الاتحاد السوفياتي من خلال إسقاط السوفيات لطائرة (يو - ٢) فوق أراضيهم وأسر الطيار باورز.

رجالات الـ : .C.I.A
الأدميرال رابورن وريتشارد هلمز

عندما عين الرئيس السابق جونسون ريتشارد هلمز مديراً لوكالة الاستخبارات المركزية في ٣٠ حزيران ١٩٦٦ قال عنه: «مع أن هلمز قضى ما يزيد على العشرين سنة في الخدمة العامة محاولاً تجنب الدعاية الشخصية، فقد بقي عاجزاً عن اخفاء الواقع بأنه واحد من أكثر الناس موضعاً للأمانة والمقدرة وبين أكثر رجال المهنة اخلاصاً في هذه العاصمة. ما من رجل جاء إلى هذا المكتب الكثير المشاكل وهو في حال أفضل».

والواقع أن هلمز كان أول رجل استخبارات ممتهن، يعين مديرا لوكالة الاستخبارات المركزية. فإذا كان الآن دالس الذي تسلم ادارة الاستخبارات المركزية من ١٩٥٣ إلى ١٩٦١ قد غطّى على هلمز في ضروب المهنة، فإنه على كل حال قد قضى ما يزيد على نصف حياته في المحاماة في مكتبه القائم في وول ستريت.

هلمز بدأ عمله في الاستخبارات فيما كان في السابعة والعشرين من العمر، وبقي فيها. والواقع أن الرجل أثبت أنه خلق للوظيفة الأميركية بكل ما تعنيه من كلام طيب وضحكة من القلب ومرح وصبر وكذلك وبصفة خاصة البعد عن السياسة.

أحد رجال الاستخبارات قال فيه: هلمز لا سياسة له. انه رجل استخبارات ممتاز.

قال ثان: هلمز بعيد عن تعقيد المبادىء لكل الأمور عنده وجه وقفا.

قال ثالث: هلمز لا تعلق له بالعقائد. انه رجل عملي متأثر بماضيه السري.

الذي أمكن أن يعطوا أي رأي سلبي عن الرجل عند تعيينه، اختفوا. في العادة كان لا بد أن يتنطح احدهم ليقول: هذا مقاوم للشيوعية على طريقة مكتب التحقيق الاتحادي، أو: هذا متحرر لكنه قلبه يتفتت شفقة. على كل حال، انتهت مرحلة التعيين آنذاك بقول جونسون انه وجد هلمز «الرجل الوحيد الذي يختزن جميع الأجوبة».

هلمز يبلغ طوله حوالي ١٩٠ سنتيمتراً ورفيع القامة وذو شعر إسمر. انه من النوع الأنيق الذي يصلح في العادة لتمثيل دور الجاسوس في أفلام هوليود.

من مواليد ١٩١٣ وابن موظف في شركة تجارية تم نقله إلى أوروبا. لذلك مضى ريتشارد هلمز سنتين في فرنسا وألمانيا وتعلمَ لغتيهما وعاد إلى الولايات المتحدة حيث درس في وليمس كولدج حيث كان طالباً ناجحاً.

بعد ذلك انضم هلمز الى وكالة «يونايتدبريس» في ألمانيا وغطى أخبار الألعاب الأولبية في برلين عام ١٩٣٦ وأخذ حديثاً خاصاً من الفوهرر أدولف هتلر. في العام التالي، أي ١٩٣٧، ترك التحرير الصحافي وانضم إلى دائرة الاعلانات في صحيفة «التايمز» بمدينة انديانابوليس حيث أصبح بعد سنتين مدير الاعلان فيها وقادراً على الزواج من جوليا بريتزمان شيلدز المطلقة التي دخلت البيت الزوجي الجديد مع ولدين من زواجها الأول. لكن للزوجين الآن شاباً وحيداً أنجباه يدعى دنيس.

خلال الحرب العالمية الثانية خدم ريتشارد هلمز كضابط في البحرية ملحقاً بمكتب الخدمات الاستراتيجية، أي مكتب التخريب والتدمير والتجسس. وقد عين للخدمة على المسرح الأوروبي بسبب معرفته اللغتين الفرنسية والألمانية وعمل مدة من الزمن في الأراضي الألمانية تحت امرة ألان دالس.

بعد الحرب، بقي في الاستخبارات العسكرية، إلى أن تأسست وكالة الاستخبارات المركزية بمرسوم عام ١٩٤٧، فانتقل من الاستخبارات العسكرية إليها. لكن عملية الانتقال من مؤسسة إلى أخرى لم تدر عليها النفع المطلوب إذ أنه كان يتوقع أن يصبح الرجل الأول في «فرع الخطط» الذي يقوم بالعمليات السرية، في الترفيعات الإدارية التي حصلت عام ١٩٥٨ والتي كانت حصته منها أن يكون الرجل الثاني في الفرع.

آنذاك أعطى دالس المركز إلى ريتشارد بيسل، وهو أستاذ سابق في جامعة ييل تولى ادارة برنامج التجسس بواسطة طائرات «يو - ٢» والمحاولة الفاشلة لغزو كوبا عام ١٩٦١

عام ١٩٦٢ وبعدما نحي بيسل عن منصبه بسبب فضيحة خليج الخنازير في كوبا، أصبح هلمز نائب مدير فرع الخطط ولكن تحت إمرة رجل آخر ادخل في تصنيف الرتب كمدير تنفيذي

هذا المدير التنفيذي كان ليمان كيركباتريك وهو متخرج من جامعة برنستون

أصيب بالشلل عام ١٩٥٢ فيما هو موظف في الإستخبارات المركزية. وقد بقي في المؤسسة مشلولاً ولا يتحرك إلا على كرسي جرار ولم يتركها إلا عام ١٩٦٥ ليصبح بروفيسوراً للعلوم السياسية في جامعة براون.

ومن جديد وجد هلمز نفسه يعارك الروتين المستتر الذي حاول ان يزحلقه عليه خصمه ومنافسه راي كلاين، وهو من قدماء مكتب الخدمات الاستراتيجية في الشرق الأقصى الذي أصبح نائب المدير لشؤون الاستخبارات عام ١٩٦٢ وهو منصب مساو في الرتب لمنصب هلمز.

كلاين أدار شؤون الاستخبارات المركزية في تايبه عاصمة فورموزا على أساس أنه مدير «المركز المساعد للمواصلات لدى البحرية الأميركية» وهو مركز الغي عام ١٩٦٥ بعدما تبين أنه مفضوح وعلني أكثر من اللازم.

وكلاين حاصل على الدكتوراه من هارفارد كما أنه مارس وظيفة ضابط الاتصال مع الاستخبارات البريطانية وبدأ وظيفته في الاستخبارات منذ ١٩٤٢.

ومع ذلك استطاع هلمز في النهاية أن ينتصر ولو بشيء من التعب. فبعدما خدم في منصب نائب المدير، أي في منصب الرجل الثاني في وكالة الاستخبارات، مدة ١٤ شهراً، وصل إلى المرتبة العليا في الطبقة السابعة من مبنى الوكالة في الغرفة التي تحمل الرقم ٧٥٧٠٦ وهي قدس أقداس الوكالة المكتوب على بابها: مدير الاستخبارات المركزية.

والانتصار الوظيفي الشخصي الذي حققه هلمز كان في الواقع انتصاراً لجماعة مكتب الخدمات الاستراتيجية السابق الذين كان لهم تكتلهم الخاص ضمن وكالة الاستخبارات المركزية.

لقد كان من المفروض أن يتسلم هلمز منصب مدير الوكالة منذ العام ١٩٦٥ خلفاً لمديرها آنذاك ماكون. لكن جونسون الذي كان يكره المثقفين من الضفة الشرقية للولايات المتحدة على أثر تعمق خلافاته مع آل كينيدي، عين في المنصب رجلاً من تكساس هو الأدميرال المتقاعد وليم رابورن.

رابورن كان المسؤول الأول وراء تطوير صاروخ بولاريس. وهو، بعدما تقاعد

من البحرية، أصبح نائب الرئيس لإدارة المشاريع في شركة «ايروجيت جنرال كوربوريشن» في كاليفورنيا. هذا الرجل الذي كان ينصرف إلى غرس الزهور تحقيقاً لراحة الأعصاب، كان على علاقات طيبة بالكونغرس وصاحب صيت بأنه رجل صلب وقوي وفاعل. هذه الميزات هي التي جعلت جونسون يختاره لأن الرئيس الأميركي كان يريد اعطاء وكالة الاستخبارات المركزية شيئاً من تطعيمه الشخصي لها وفي الوقت نفسه إبقاء الكونغرس بعيداً عن ممارسة أي ضغط أو أية رقابة على الوكالة.

والأبعد، في سياق الإشارة إلى العنصر الشخصي الذي جعل جونسون يختار رابورن، هو شعور جونسون بأن رابورن هو من ولاية تكساس وبأنه عين عام ١٩٦٤ عضواً في رابطة «العلماء والمهندسين من اجل جونسون وهامفري» التي نظمها دونالد ماكارثر، زوج ابنة اخت جونسون. وبالإضافة إلى ذلك فإن رئيس مجلس إدارة شركة «أيروجيت» كان دان كيمبال وهو ديمقراطي معروف، كما أن رابورن كان من القلائل بين كبار العسكريين المتقاعدين الذين لم يدعموا ترشيح غولدووتر، المرشح الجمهوري للرئاسة. لقد قال رابورن في حديث تلفزيوني قبل انتخابات الرئاسة بيومين ان غولدووتر «ليس ذكياً إلى الحد الكافي ليصبح رئيساً للولايات المتحدة».

.ومع كل هذه العناصر من الروابط الشخصية، فشل رابورن في تحقيق ما كان جونسون يتوقعه منه. فمنذ اليوم الأول الذي تسلم فيه مديرية وكالة الاستخبارات المركزية، أثبت الرجل أنه فريد في عمله. ففي احتفال حلف اليمين الدستورية في البيت الأبيض يوم ٢٨ نيسان ١٩٦٥، أحاط رابورن نفسه بجميع كبار المسؤولين من وكالة الاستخبارات المركزية الذين ما لبث البيت الأبيض أن أصدر بياناً صحافياً بأسمائهم جميعهم. كثيرون منهم كانت أسماؤهم تنتشر على الملأ للمرة الأولى.

ولربما كان في تعداد الأسماء التي نشرها البيت الأبيض آنذاك بعض المنفعة اليوم.

فإلى جانب دالس وماكون وهلمز وكلاين وكيركباتريك، ضمت لائحة الضيوف كلًا من نائب المدير لشؤون الاستخبارات جاك سميث ومدير فرع الخطط ديسموند فيتزجيرالد ونائب المدير لشؤون الأبحاث ألبرت ويلون ورئيس مجلس ادارة «شركة التقديرات الوطنية» شيرمان كنت ونائب المدير جون بروس والمستشار العام لورنس هيوستن ومساعد المدير والتر ألدر ورئيس دائرة العمل والطلاب والثقافة كوردماير

ورئيس الدائرة الآسيوية وليم ايغان كولبي ورئيس الدائرة الأميركية اللاتينية ج. س. كينغ وكذلك برونسون تويدي الذي حل عام ١٩٦٦ مكان أرشيبالد روزفلت كرئيس لمكتب لندن الذي يشرف على العمليات في الشرق الأوسط.

بعد ظهر ذلك اليوم بالذات أمر جونسون مشاة البحرية بالنزول في جمهورية الدومينيك. لكن رابورن، الذي لم يكن على استعداد لأي شيء، وجد نفسه وسط أزمة داخلية تتخبط بها وكالته. ففي البداية أعلن جونسون أن انزال مشاة البحرية كان تصرفاً ضرورياً لانقاذ الأرواح الأميركية وغيرها ثم ما لبث بعد ذلك أن راح يتحدث عن الخطر الشيوعي.

وراحت وكالة الاستخبارات المركزية آنذاك تبحث عن الاثبات لذلك، وسط انتقادات لإذاعة من جانب السياسيين بأن رابورن وجماعته لا عمل لهم إلا مناقضة انفسهم.

وما انقضى زمن طويل حتى بدأ المسؤولون في وكالة الاستخبارات يتراهنون على مدى ادراك رابورن لتفاصيل المهنة في اختياراتها وتجاربها. وما ان قارب العام ١٩٦٥ نهايته حتى كانت الشكوك هذه قد تسربت إلى الصحف.

أحد الصحافيين قال بكل جرأة: .

«خلال الاجتماعات، يتبين أن رابورن لا يعرف كيف يلفظ أسماء البلدان والشخصيات الأجنبية، كما أن توصياته أثبتت أنها لا علاقة لها بالوقائع الراهنة. ففي بعض المناسبات راح يتكلم عن بعض الأحداث وكأنها جديدة، مع أنها كانت موضع مناقشات ومشاورات حامية لبضع دقائق خلت. وفي بعض المناسبات كان الموقف الذي يتخذه كمنطلق مناقضاً تماماً للقرار الذي اتخذ. وبالإضافة إلى ذلك فإن المسؤولين راحوا يشكون من أن الصيغة النهائية لما توصلوا إليه من توصيات كانت عرضة للتغيير غير المحق وإلى الحد الذي أضعف معنويات أولئك العاملين في دائرتي الأبحاث والدراسة في الوكالة، وبصفة خاصة أولئك الذين يقومون بالدراسات والتحاليل ذات الطابع البعيد المدى».

في كانون الأول ١٩٦٥ انطلقت مجلة نيوزويك في حملتها على رابورن عبر موضوع تحليلي كتبه فيها موظف سابق في وكالة الاستخبارات المركزية جاء فيه أن

رابورن «يبدي قلة التحسس بالكرامة المهنية لكبار مساعديه وغير قادر على التعامل بالإشارات والرموز وبعيد جداً عن فهم السياسات الدولية إلى حد أنه غير قادر على التلفظ الصحيح بأسماء الدول الأجنبية ورؤساء الجمهوريات. . . ففي أحد اجتماعات كبار المساعدين ـ كما قال مصدر مطلع جداً ـ قاطع رابورن الجدل بين كبار المسؤولين ليسأل عن معنى كلمة «أوليغارشي» (أي «حكم الأقلية المتسلطة»). بعد ذلك صاح أحد المسؤولين، بعد الخروج من الاجتماع: يا إلهي، إذا كان لا يعرف معنى كلمة «أوليغارشي»، فكيف يستطيع أن يعالج مشاكل ثلاثة أرباع البلدان التي نعالج أمورها»؟.

وقالت المجلة كذلك أن المحترفين في وكالة الاستخبارات المركزية كانوا منزعجين جداً من طريقة رابورن «البحرية» في الكلام وفي العادات وفي تنكره لطريقة الإستخبارات في العمل القائمة بين الزملاء على أساس اللطف في التعامل وحفظ حدود الآداب والتهذيب في التحادث. ذات مرة قال رابورن لكبار الموظفين: «عندما تسيرون في الممشى، أريد أن أرى الريح من ورائكم تتحرك».

وتناقل المسؤولون في وكالة الاستخبارات المركزية المثل الهامس في ما بينهم: إذا كان ألان دالس قد قاد سفينة سعيدة وجون ماكون قاد سفينة راكزة فإن ريتشارد رابورن يقود سفينة غارقة».

وعدم الرضى انتشر إلى حد واسع حمل بعض كبار المسؤولين على عدم اخفائه حتى أمام مديرهم. ذات مرة، زار صحافي مركز الوكالة واستمع إلى رابورن يتحدث عن بعض الأمور، فلاحظ أن أحد كبار المسؤولين في الفرقة لم ينقطع عن القول «هذا خطأ» و «انه لا أمل منه».

رابورن، في دفاعه عن موقفه، أصر آنذاك على القول انه كان يمارس الوظيفة حسبما أراده رئيس الجمهورية ان يفعل: أي أن يشد بقبضته على الروتين المكتبي المتبرعم في وكالة الاستخبارات المركزية وأن يفرض «النظام من فوق» على فروعها التقنية المتعاظمة الأهمية وأن يترك المهمات الاستخبارية البحتة لريتشارد هلمز. ولما حاول المدير أن يعثر على الفتق الذي ظن أن كل البلاء منه، انتهى بأن نخب الضحية لذلك كانت في شخص راي كلاين الذي نقل إلى مركز خارج الولايات المتحدة.

والأبعد من ذلك أن المحترفين الحقيقيين في وكالة الاستخبارات المركزية تخوفوا من أن يكون اختبار التكساسي رابورن من جانب معلمه التكساسي الآخر تدليلاً على قلة اكتراث جونسون بالنواحي العلمية والفكرية العالية المفروضة في مهنة الاستخبارات. .

ذات يوم قال أحد المسؤولين في الوكالة: «أخشى أن يكون حدود اهتمامات جونسون بوكالة الاستخبارات المركزية متوقفة عند قراءة تقرير يفيد ما قالة هذا لذاك أو ما فعلت هذه لتلك».

لكن الواقع كان غير هذا. جونسون بدأ يتململ لأنه شعر بعبء المشكلة عليه من الناحيتين الإدارية والسياسية. ثمة من قال كذلك ان تململ جونسون بدأ منذ الأسبوع الأول لممارسة رابورن مهامه. هذا إذا صح ما قيل على لسانه.

ماذا قال أو ساذا قوِّل؟ كان القول مزيجاً من التقريظ واللوم: لقد وصل الأدميرال إلى المركز وسط وضع صعب في جمهورية الدومينيك واستطاع أن يدبر الأمور، لكن الرجل لن يبقى في المركز ذلك الوقت الطويل.

والظاهر أن رابورن اقنع نفسه، بعد فترة، أن هذه المسؤولية متعبة اكثر مما كان يتوقع وأنه يمارسها بصفة مؤقتة. لذلك، وبتوجيه من جونسون، كان يصطحب معه هلمز إلى البيت الأبيض في كل زيارة عمل للرئيس.

بعد انقضاء أربعة عشر شهراً على التعيين، هي أقل مدة قضاها أي رئيس لوكالة الاستخبارات المركزية حتى الآن، عاد الأدميرال إلى شركة «ايروجيت» حاملاً وسام ترضية من الحكومة.

و «بانزال الادميرال إلى الشاطىء» عادت وكالة الاستخبارات المركزية إلى أيدي رجال حقيقيين وعلى رأسهم هلمز كمدير لها.

رحلة في داخل الأخطبوط

اشراف مدير الـ (C.I.A.) لا يقتصر فقط على جهازه هذا بل هو يشمل جميع وكالات الاستخبارات الأميركية وهذه تشمل:

وكالة الاستخبارات المركزية ووزارة الدفاع ووكالة السلامة القومية وفروع

الاستخبارات في مختلف الأسلحة البرية والجوية والبحرية ولجنة الطاقة الذرية و (الأف. بي. آي).

عدد موظفي المركز الرئيسي لوكالة الاستخبارات في لانغلي حوالي خمسة عشرة ألف شخص هذا العدد لا يشمل عشرات الآلاف من المجندين بالخارج.

معظم المسافرين للخارج وبالذات لدول العالم الثالث في رحلات طويلة

وبالذات أساتذة الجامعات المتعاقدين مع الخارج والبعثات التبشيرية أو المراسلين الصحافيين والوكلاء التجاريين هم في الأغلب مجندين للـ C.I.A. وكذلك البعثات الديبلوماسية الأميركية، وبعض الاذاعات في ألمانيا الغربية وعدد وفير من الشركات الأميركية تحت أسماء تجارية وهمية.

الموازنة السنوية تتراوح بين مليار ومليارين دولار سنوياً وتزداد هذا الموازنة لتصل إلى خمسة مليارات دولارات حسب أهمية عملياتها.

التدريب يجري في مدرسة خاصة ملحقة بالوكالة وهو فرع من التدريب على اطلاق النار واستعمال الرموز واستخدام الآلات الصغيرة والسياسية والنقابية ذات الطابع العالمي.

السلاح الذي يشحن لصالح عمليات فرع الخطط للوكالة وفير جداً مصدره شركة تدعى شركة السلاح العالمية المحدودة (أنترا آرمز) مركزها فيرجينيا وعلى نهر بوتوماك ولهذه الشركة ١٧ شركة متفرعة عنها في لندن وجنيف ومونتي كارلو وهلسنكي وبوينوس ايرس وبريتوريا كما لها ممثلين عديدين في المناطق الساخنة بالعالم.

من مستودعات هذه الشركة يتدفق السلاح على كل المناطق الحامية لمنع إستلام القوى المعارضة للسياسة الأميركية الحكم في هذه المناطق.

وأسلحة هذه الشركة التي تباع فقط بأوامر من الاستخبارات المركزية الأميركية تشمل الطائرات والرشاشات والمسدسات والمتفجرات العادية وغير العادية وفي حالات كثيرة تسلم هذه الشركة السلاح من دون مقابل مادي عندما يكون صاحب العلاقة مستعد لتنفيذ مخططات الوكالة.

الـ C. I. A في أميركا الجنوبية
الماضي والحاضر من بيرون إلى نورييغا

وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية جعلت من قارة أميركا الوسطى والجنوبية ميداناً لعملياتها التجسسية منفذة سياسة الولايات المتحدة الأمبريالية في جميع بلدان أميركا اللاتينية، فكانت دائماً هي صاحبة الأمر المطلق في سياسات الحكومات التي تقيمها سواء بالترغيب أم بالترهيب، ولم يستثن أي بلد من هذه البلدان من أحابيلها، فكانت وراء جميع الانقلابات العسكرية المعادية للشعوب وما زالت إلى الآن.

وإذا ضربنا صفحاً عما قامت به هذه الوكالة في كل من بوليفيا (١٥٧ انقلاباً عسكرياً في تاريخها الذي لم يبدأ إلا منذ مائة وثمانين عاماً) والبيرو والأكوادور، وهي البلاد التي عاشت ردحاً طويلاً من الزمن في ظل الإنقلابات العسكرية التي صنعتها أو أوعزت بها وكالة الاستخبارات الأميركية هذه، فإن الباراغواي ودول أميركا الوسطى تكاد تكون ولايات أميركية بسبب تغلغل نفوذ هذه الوكالة في سياسات هذه البلدان، فما من حاكم ذي منشأ عسكري إلا وكان صنيع المخابرات الأميركية.

ولعل أبرز ظواهر هذا النفوذ الاستخباراتي هو الإنقلاب العسكري الذي نفذه الجنرال أرامبورو في الأرجنتين ضد نظام حكم الجنرال خوان بيرون المتمتع بتأييد واسع من الشعب الأرجنتيني، إذ كان هذا الجنرال الذي بدأ حياته السياسية بالوقوف إلى جانب العمال الذين أخرجوه من السجن ليغدو رئيساً للجمهورية في أربعينيات هذا القرن، كان مثال الحكم الوطني المسَيَّر.

ولأنه كان يتبع سياسة تحررية اشتراكية مناهضة لشركات الاحتكار الأميركية والإنكليزية، فقد جندت وكالة المخابرات المركزية الأميركية في الخمسينات قادة البحرية للإطاحة به.

فقد وجدت المخابرات الأميركية ضالتها في قائد سلاح البحرية الأميرال إسحق روخاس وهو يهودي الأصل، فاستعمل هذا المتآمر اليهودي، أحد قادة الجيش الجنرال أرامبورو وكان ساذجاً رغم رتبته العسكرية ومناصبه الرفيعة، فتم الإعداد للإنقلاب الذي تزعمه هذا الأخير، فيما كان الأول هو المحرك الأساسي له، ولهذا أطلقت الصحافة عليه لقب «النملة السوداء»!.

كيف تم الإنقلاب؟.

لقد اتفقت وكالة المخابرات المركزية مع روخاس على أن يزود الأسطول بالذخائر في إحدى القواعد البريطانية في جزر مالڤينا (الفوكلاند) وكان پيرون غير واثق من ولاء الأسطول له، فدأب على منع تزويده بالذخائر الفعَّالة. وهكذا تم في الخفاء تزويد الأسطول بالذخائر تحت إشراف الوكالة الأميركية قبيل تنفيذ المؤامرة بأيام، حيث استغل روخاس قيام الأسطول بمناورات اعتيادية ليتحرك ويفاجىء الحكومة بمحاصرة العاصمة بوينوس آيريس الواقعة على شاطىء البحر (ريو دي لابلاتا) في الوقت الذي تمرد فيه أرامبورو بقواته واحتل بعض المناطق في مقاطعات كوردوبا وأنتري ريوس القريبة من العاصمة.

واضطر پيرون إلى التنحي عن الحكم واللجوء إلى طراد من الپاراغواي كان متواجداً في ريو دي لابلاتا، وذلك بعد أن هدد روخاس بتدمير بوينوس آيريس إذا لم يرضخ بيرون لمطالب الإنقلابيين في التنحي عن الحكم!.

وما حدث في الخمسينات، يحدث الآن في هذه الأيام، فوكالة المخابرات المركزية الأميركية التي أطاحت ببيرون وأعادت نفوذ وسلطان الدول الغربية وفي مقدمتها الولايات المتحدة، عبر الشركات الاحتكارية الأميركية، تحاول الآن الإطاحة بالجنرال مانويل نورييغا في پاناما لأنه يزمع على تأميم قناة پاناما ويتصدى للمخططات الأميركية في التحكم بأقدار هذه البلاد.

والوكالة لم تجد إلا تلفيق تهمة تهريب المخدرات لتلصقها بقائد الجيش الپانامي في سعيها إلى إضعاف شعبيته في بلاده لتسهل عملية الإطاحة به.

فمن الإطاحة ببيرون إلى محاولة الإطاحة بنورييغا يقبع ربع قرن من تجارب التجسس الأميركي في أميركا اللاتينية. لكن عمر هذا التجسس أكثر من ذلك بكثير إنه

يتعدى القرن. وأشهر عمليات هذا التجسس الذي أثمر انقلابات دموية في بعض البلدان وفشل في بلدان أخرى، الإنقلاب الذي قام به الجنرال پينوتشيه في التشيلي ضد الرئيس سلڤادور آلّليندي، في الثاني من أيلول (سبتمبر) ١٩٧٣، ثم الغزو الفاشل الذي نظمته وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية لكوبا والذي عرف بعملية «خليج الخنازير»، وما يجري الآن من تآمر مفضوح ضد الحكم السَّانديني في نيكاراغوا حيث تجنِّد الوكالة المذكورة «ثوار الكونترا» ضد حكم دانيال أورتيغا بقصد الإطاحة به.

فكيف تعاملت وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية مع هذه الأحداث؟

التشيلي : الإطاحة بآللّيندي

حينما أممت الحكومة التشيلية في عهد الرئيس آلّليندي الأراضي الزراعية في العام ١٩٦٥ وأتبعتها بشركات النحاس والقصدير والألومينيوم الأميركية، قررت الحكومة الأميركية الإطاحة بحكومة «الوحدة الشعبية» وعهدت إلى وكالة المخابرات المركزية «C. I. A» مهمة تنفيذ هذه المؤامرة.

وبدءاً من ذلك العام شهدت أروقة الثكنات العسكرية في التشيلي والمؤسسات الإعلامية والثقافية وقطاعات المهن الحرة من محامين ومهندسين وغيرهم، أنشطة مكثفة في الخفاء، كانت ترجمتها الفعلية سلسلة من إضرابات غير مفهومة نفذتها كثير من القطاعات، حتى ربات البيوت، ضد حكومة الوحدة الشعبية، رغم أن هذه الحكومة تتمتع بتأييد أغلبية الشعب التشيلي من عمال ومثقفين وبورجوازية صغيرة.

ولم تهدأ هذه الإضطرابات المفتعلة طيلة هذه الفترة، وبلغ حجم المبالغ التي وزعتها الوكالة التجسسية الأميركية عدة مليارات تم من خلالها شراء جنرالات وزعماء ورؤساء نقابات وأصحاب صحف ومحطات إذاعة وتلفزة.

وكان حصار قصر مونيدا مقر الحكومة بعد تحرك الجيش بقيادة الجنرال أوغستو بينوتشيه، الإعلان الصريح على نجاح هذه المؤامرة، حيث قُتِلَ الرئيس آلّليندي مع القوات التي ظلت على ولائها لحكومته الشعبية، ولو لم يقتل بالقصف لوضع في طائرة ـ حسب نصيحة الوكالة الأميركية ـ تنقله إلى المنفى ظاهرياً، وفي الحقيقة تسْقط هذه الطائرة وهي في الجو فيتم الخلاص منه بطريقة «غير حادة».

وقد أعلنت الأحكام العرفية في نفس اليوم الذي اقتحم فيه قصر مونيدا.

وفُضح دور الوكالة المذكورة في هذا الانقلاب حين ساهمت في تعيين أومبرتو غوردون روبيو رئيس جهاز المخابرات ممثلاً للجيش داخل الحكومة خلفاً للضابط خوليو كانيسا الذي تم عزله. كما تدخلت الوكالة في تعيين الجنرال لويس دانوس حاكماً عسكرياً لمقاطعة بونتا أريناس في الجنوب. غير أنه سوف يحال إلى التقاعد لأنه مرتبط بعلاقة مع المعارضة إضافة إلى كونه صديقاً حميماً للقس الكاثوليكي التقدمي توماس غونزاليس.

بيد أن التهمة التي وصم بها هذا الجنرال الذي ما زالت الوكالة الأميركية تعتمد عليه في مخططاتها للمستقبل بعد الخلاص من عهد پينوتشيه، تصريحه بأنه في العام ١٩٨٩ يجب أن يحكم البلاد شخص آخر غير پينوتشيه!؟ علماً أن پينوتشيه يطمح إلى تمديد فترة حكمه إلى عام ١٩٩٧.

وهذا التضارب في «جماعة أميركا» داخل حكم التشيلي، يشير إلى مدى التشابك في العلاقات الذي «تنعم» به الوكالة الأميركية حيث الجميع أدواتها، لكنهم ذوو أدوار مختلفة.

فالجنرال المتقاعد من سلاح الجو نيكاتور دياز إسترادا وهو من أوائل المحسوبين على «السي. آي. إي» قد أعلن: «عندما قمنا بالإنقلاب على حكومة آلليندي، فكرنا بإعادة الجيش إلى الثكنات، لكن هذا الرجل (أي پينوتشيه) كان يتطلع إلى إسبانيا ويقول: أنا فرانكو الجديد».

غير أن هذا التناقض بين بينوتشيه ورفاقه الإنقلابيين ليس بعيداً عن منهج السياسة الأميركية التي تنفذها الوكالة المذكورة، حيث تعد العدة للإنتهاء من هذا الديكتاتور بعدما افتضح أمره ولم يعد يستطيع أن يقدم للناس أي شيء، فلا بد من تغيير الصورة والمجيء ببديل من «الرفاق» يحل محله، ليواصل السير في طريق معاداة المصالح الوطنية ردحاً آخر من الزمن تكون فيها المصالح الأميركية معززة على حساب مصالح الشعب التشيلي.

ويشتد الصراع على خلافة بينوتشيه الآن، وجميع الجنرالات ينسقون مع الوكالة عبر السفارة الأميركية في سانتياغو، مع أن بينوتشيه أعلن أمام السفير الأميركي

بقوله «إني سأفقد السلطة التي أتمتع بها في حالة الوفاة أو الاستقالة فقط، وهذه الأخيرةلست واردة على كل حال».

ولوحظ أنه بعد هذا التصريح، التقى السفير الأميركي مع أحد المعارضين في بونتا أريناس الذي صرح للصحافة قائلاً: «على مركز رأس الدولة يتربع الآن طاغية، ولأول مرة في تاريخ الديكتاتوريات في أميركا اللاتينية، يقوم الديكتاتور بمفرده باتخاذ القرارات المتعلقة بترفيع أو إقالة العسكريين فليست المؤسسة هي الطرف المخول بتحديد مصير الضباط، وإنما التصرف التعسفي الذي يقوم به الحاكم الفردي».

ومن هذا التباين في الآراء بين ديكتاتور التشيلي وبقية الجنرالات المعارضين له، وجميعهم محسوبون على السياسة الأميركية، يتضح أن نهاية أوغستو بينوتشيه قد قاربت ساعة الصفر، وإن الوضع يتطلب من «السي. آي. إيه» أن تتدبر رجلاً آخر من صنائعها ليحل محله، لتستمر معاناة الشعب التشيلي على حساب المصالح الأميركية!

كوبا: خليج الخنازير

بعدما انتصرت الثورة التي قادها فيديل كاسترو على حكم الديكتاتور فولجنسيو باتيستا في أول كانون الثاني ١٩٥٩، سافر كاسترو إلى واشنطن والتقى نائب الرئيس الأميركي ريتشارد نيكسون في نيسان من العام ذاته، وبعد اللقاء كوّن نيكسون أفكاراً واضحة عن منهج كاسترو في الحكم والكيفية التي سيحكم بها كوبا، وأدرك أن هذا الرجل سيشكل خطراً على المصالح الأميركية في أميركا اللاتينية خصوصاً وأن كوبا لا تبعد عن شواطىء ولاية فلوريدا أكثر من مائتي ميل...

وقد أُعد ملف عن كاسترو وكوبا بعد هذا اللقاء، أودع أضبارات وكالة المخابرات المركزية تحت عنوان «المسألة الكوبية»!.

وفي ٧ آذار ١٩٦٠ وافق الرئيس دوايت آيزنهاور على أن تشكل وكالة المخابرات المركزية وحدات (عصابات) من المنفيين الكوبيين في أميركا، وخاصة في ولاية فلوريدا.

وعيّن رئيس الوكالة آنذاك آلان دالاس معاونه ريتشارد بيل مسؤولاً عن العملية، وتقرر أن تتخذ هذه العملية طابع الغزو الحقيقي وليس طابع حرب العصابات، وأن تتم قبل انتخابات الرئاسة الأميركية في تشرين الثاني ١٩٦٠.

ولأسباب فنية تأجلت هذه العملية إلى ما بعد انتخاب جون كينيدي رئيساً للولايات المتحدة الأميركية، وعقدت القيادات السياسية والعسكرية الأميركية أكثر من ٢١ اجتماعاً بين ٢٩ تشرين الثاني(نوفمبر) ١٩٦٠ و١٢ نيسان (ابريل) ١٩٦١ خُصصت كلها للبحث في «المسألة الكوبية» وترأسها كنيدي نفسه.

وتم اختيار «أسلوب الغزو السريع» الذي يضمن وضع الرأي العام الأميركي والعالمي أمام الأمر الواقع.

وقد دُرب المنفيون الكوبيون في غواتيمالا وليس في فلوريدا حيث تعيش أغلبية هؤلاء، كي لا يفشى سر العملية.

وفي ٢ نيسان (أبريل) ١٩٦١ نُقل هؤلاء من غواتيمالا إلى نيكاراغوا لتكون في مواجهة خليج الخنازير في كوبا.

وضغط كينيدي على مدراء الصحف الكبرى ورؤساء التحرير فيها ومسؤولي الإذاعات ومحطات التلفزة بكتم المعلومات حول العملية المرتقبة، وتقيَّدت هذه الصحف والإذاعات ووسائل الإعلام الأخرى بالتعليمات وبذا أمكن للحكومة الأميركية إخفاء الغزو لتحقيق المفاجأة، وتوهمت أنها قادرة على إظهار الغزو وكأنه عملية كوبية داخلية محضة مردها الصراع القائم بين مواطنين كوبيين. ورشحت الوكالة عناصر من المنفيين ليكوِّنوا الحكومة الكوبية المؤقتة، في ميامي.

وقد انفجرت الخلافات بين هؤلاء متوهمين أن الساعة قد حانت لإقتسام الغنائم، فظهرت هذه الخلافات على السطح، فاستعاضت الوكالة عن هذه الحكومة المؤقتة بمجلس ثورة يرأسه خوسيه ميروكاردونا.

استدعت الوكالة المركزية بعض المنفيين الكوبيين إلى فندق لكسنغتون في نيويورك وطلبت إليهم نشر بيان موجه إلى الشعب الكوبي كانت الوكالة قد أعدته من قبل. وتضمن البيان دعوة حارة إلى الرأسماليين الأجانب وأصحاب المصارف وكبار ملاك الأراضي لمساعدة المجلس المذكور وخلا من ذكر أي دعوة للعمال والزنوج.

وفي ليلة ١٦ ـ ١٧ نيسان (أبريل) ١٩٦١ بدأت حركة الغزو، وبعد بضع ساعات نقلت الوكالة بالطائرات المرشحين للحكومة المؤقتة إلى ميامي ووضعتهم في منزل في إحدى الضواحي وقطعت عنهم الاتصالات الخارجية تحت حراسة مشددة

ووضعت تحت تصرفهم مطاراً قريباً. . . .

وكانت الطائرات الأميركية الحربية المموهة قد قصفت في ١٥ نيسان (أبريل) مطارات سانتياغو وسان أنطونيو دي لوسْ باتوس وسيرا ليبرتاد.

وفي صباح الثامن عشر من الشهر، سارعت الوكالة إلى الإعلان عبر الإذاعات الأميركية والصحف بأن الغزو بحراً قد بدأ.

بيد أن حكومة كاسترو سارعت إلى اعتقال المناوئين خشية استخدام الغزاة لهم كطابور خامس. وكان الغزاة قد أقاموا في يوم ١٧ نيسان رأس جسر في خليج الخنازير، إلا أنهم فشلوا في توسيعه.

ثم بدأ الهجوم الكوبي المضاد بعد ساعات معززاً بالدبابات، فألحقت الهزيمة بالغزاة بعد يومين.

لقد انتهت المعركة في ١٩ نيسان (أبريل) بأسر أكثر من ألف ومائتي مقاتل من الغزاة ومعهم قائدهم مانويل اتيم والمدربون الأميركيون والخبراء أيضاً. وقُتل ١٠٤ من الحرس الوطني (الميليشيا) الكوبي و٥٥ من الجنود: بعد سحق الغزو وتحقيق النصر الكوبي تقدم كاسترو إلى الحكومة الأميركية بعرض يقضي باستبدال كل أسير بجرار زراعي . .

وهكذا انتصر كاسترو مدعوماً من الشعب الكوبي على وكالة الاستخبارات المركزية وفضح مراميها في دول أميركا اللاتينية.

نيكاراغوا : الوكالة والكونترا

بعد فشل وكالة التجسس الأميركية للاستخبارات «C. I. A» الذريع في كوبا، تسعى إلى عدم تكرار الفشل في نيكاراغوا، وجعلت من «ثوار الكونترا» نمطاً آخر من المنفيين الكوبيين تجندهم بالمال والعتاد ضد حكومة الرئيس دانييال أورتيغا بقصد الإطاحة بالحكم الساندينيي، خصوصاً وقد كشفت فضيحة «إيران غيت» مدى ضلوع وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية في العمل من أجل دعم الكونترا بتوفير المال اللازم لهم عن طريق عائدات صفقة الأسلحة التي بيعت إلى إيران، وقد أدت

هذه الفضيحة إلى استقالة عضوين كبيرين من الوكالة المذكورة إضافة إلى بعض المسؤولين الآخرين، خصوصاً في شعبة الأمن القومي.

فكيف بدأت القصة، وما هي الساندينية؟.

قبل الاستفاضة في هذا، لا بد من الإحاطة بإيجاز، بتاريخ العلاقات الأميركية - النيكاراغوية قديماً وحديثاً لتنجلي الصورة أمامنا.

لقد أُكْتُشِفَتْ نيكاراغوا عام ١٥٠٤ أثناء الرحلة الرابعة لكريستوفر كولومبوس، وكان الهنود الموسكينوز يعيشون على طول الشاطىء الممتد من ناحية الشرق، كل الشاطىء من دون أن يقوم بينهم حدود، وكانت نيكاراغوا محمية بريطانية، وهذا يفسِّر إنشاء حزبي المحافظين والأحرار، وهما الحزبان اللذان كانا دائماً وعاءً للسياسة الأميركية في هذه البلاد حيث المصالح الأميركية فرضت نفوذاً لها منذ بداية تكوين دولة نيكاراغوا التي استقلت عن الحكم الإسباني أولاً، ثم انضمت إلى أمبراطورية المكسيك مع جاراتها هندوراس والسلفادور وكوستاريكا من دول أميركا الوسطى، ثم أعلنت دولة ذات سيادة بعد انفصام عرى ذلك الاتحاد والإتحاد الآخر الذي أعقبه «كونفدرالية أميركا الوسطى» المؤلفة منها ومن هندوراس والسلفادور وكوستاريكا.

أُنشئت العاصمة ماناغوا كمساومة بين الأحرار الذين كانت عاصمتهم ليون والمحافظين الذين كانت عاصمتهم غرانادا، وتقع ماناغوا في المنطقة الوسطى بين المدينتين.

وقد بدأ التدخل الأميركي باكراً في هذه البلاد، حيث أقدم أحد المغامرين الأميركيين واسمه وليام نولكر على تعيين نفسه رئيساً لنيكاراغوا في العام ١٨٥٦ وكان ينوي ضم نيكاراغوا إلى الولايات المتحدة. وانتهى تنافس المصالح الأميركية العاملة ضمن نطاق حزبي المحافظين والأحرار عام ١٨٦٠ بمقتل نولكر نفسه.

وفي العام ١٨٩٣ وصل إلى الحكم الليبرالي خوسيه سانتوس زيلايا الذي استجاب أساساً لضغوط مثقفي عائلات الحزب الليبرالي (الأحرار) وبورجوازيته الوسطى فحمل مشروعاً لتوحيد أقطار أميركا الوسطى وكان حاكماً جريئاً، فحركت الولايات المتحدة في وجهه مجموعة من الصعاب ثم أقدمت على عقد «مؤتمر السلام لأميركا الوسطى» في واشنطن عام ١٩٠٧ الذي كان بمثابة القرار الأميركي للتخلص

من زيلايا، حتى إذا قام زيلايا بإعدام مغامرين أميركيين شماليين تحرك مشاة الأسطول الأميركي (المارينز) وأطاحوا به من خلال انقلاب عسكري في العام ١٩٠٩.

وفي ظل حكم الجنرال دياز قائد الانقلاب بدأت الولايات المتحدة في التحكم بمقدرات نيكاراغوا. وفي عام ١٩١٢ تمركزت قوة من مشاة البحرية الأميركية في البلاد «لتهدئة الأوضاع» وفي العام ١٩١٦ عقدت اتفاقية برايان ـ شامورو بين الولايات المتحدة ونيكاراغوا، وفي مقابلها تحصل الأخيرة من الأولى على مبلغ ثلاثة ملايين دولار، مقابل حصول واشنطن على حقوق أبدية لبناء واستعمال قناة تصل الكاريبي بالمحيط الهادي، كما وتحصل أميركا على رخصة استعمال جزيرتي الذرة الكبرى والذرة الصغرى في الكاريبي كقاعدتين بحريتين لمدة تسع وتسعين سنة، وعلى حق بناء قاعدة بحرية على شاطىء المحيط الهادي عند خليج فونسيكا في الشمال الغربي.

واندلعت الحرب الأهلية مجدداً في العام ١٩٢٦ ضد الوجود الأميركي، وضد الديكتاتور أميليانو شامورو، فدخلت أميركا تدخلاً مباشراً عبر قواتها البحريةوأقامت «مناطق محايدة» في البلاد. كما أرسل الرئيس الأميركي كالڤين كوليدج مبعوثاً إلى نيكاراغوا في العام ١٩٢٧ لحل المشكلة. وقد استطاع هذا المبعوث تحقيق غايته في حل الجيش النيكاراغوي وإنشاء الحرس الوطني محله مثلما فعلت أميركا مع الدومينيكان في الفترة ذاتها، وقامت أميركا بتدريب هذا الحرس.

وكان العاصي الوحيد في هذه التسوية الجنرال أوغستو ساندينو (١٨٩٣ ـ ١٩٣٤) الذي اغتيل عام ١٩٣٤ في ماناغوا بعد أن كانت الحكومة قد قدمت له تنازلات حملته على النزول من الهضاب التي كان يقاتل فيها الأميركيون ويلحق بهم الهزائم المتتالية، وكان أحد هذه التنازلات إبعاد البحرية الأميركية!.

وفي العام ١٩٣٧ وصل رئيس الحرس الوطني الجنرال أنستاسيو سوموزا إلى الحكم (حليف أميركا) الذي قام بعد فترة قصيرة من حكم أرغويللو المنتخب في ٢٥ أيار (مايو) ١٩٤٧ بتسمية بنجامين ساكاس رئيساً مؤقتاً فيما تولى هو وزارة الحربية، ثم انتخب في ظل حراب العسكر مرة أخرى رئيساً بالوكالة ثم رئيساً على الطريقة إياها، إلى أن اغتيل في عام ١٩٦٥.

بعد موت سوموزا، عيّن مجلس الشيوخ النيكاراغوي ابنه البكر لويس رئيساً

لمجلس الشيوخ ورئيساً للبلاد في العام ١٩٥٧ . أما ابنه الثاني أناستاسيو الثاني فقد عُيِّن رئيساً للحرس الوطني.

بعد عامين تعرضت نيكاراغوا لغزو من المنفيين في كوستاريكا مؤيدين من كوبا. ثم تم انتخاب رينيه ستيك غوتياريس رئيساً للبلاد في العام ١٩٦٦ وكان قبلاً وزيراً للخارجية، وانتخب «المنقذ» أناستاسيو سوموزا رئيساً للبلاد في العام ١٩٦٧ تحت ظل التهديد الأميركي بالتدخل....

لقد أطاح الساندينيون ـ نسبة إلى الجنرال ساندينو ـ بسوموزا في العام ١٩٧٩ وفي العام ١٩٨٤ فاز الساندينيون في الانتخابات فكان دانييال أورتيغا رئيساً لنيكاراغوا لتحل بعده منافسته فيوليتادي شامورو في الدورة الانتخابية الثانية.

وفي نطاق دعم نيكاراغوا لثوار السلفادور وهندوراس اللتين هما خاضعتان سياسياً وعسكرياً للسياسة الأميركية، أعلنت حكومة أورتيغا حالة الطوارىء في آذار (مارس) ١٩٨٤ لتسهيل نقل المساعدات العسكرية اللوجستية إلى أولئك الثوار الحلفاء، بقصد التأثير على انتخابات السلفادور في ٢٨ آذار (مارس) من ذلك العام.

وكانت نيكاراغوا قد أعلنت في أوائل أيار (مايو) ١٩٨٣ أنها سحقت غزواً قام به ١٢٠٠ متمرد يميني يساندهم جنود من هندوراس. كما سبق لها وقدمت شكوى إلى مجلس الأمن في كانون الأول (ديسمبر) ١٩٨٢ ضد التحرشات العدوانية التي تقوم بها كل من السلفادور وهندوراس ضد أراضيها بدعم من الولايات المتحدة. وهذا ما أكده الرئيس الأميركي رونالد ريغان في ذلك العام حين قام بجولة في دول أميركا الوسطى والجنوبية حيث أعلن دعم بلاده للدول المجاورة للنظام الساندينى، وكان هذا بمثابة اعتراف ضمني بإشراف خبراء أميركيين تابعين لوكالة الاستخبارات المركزية الأميركية بتدريب ثوار الكونترا ضد حكم ماناغوا.

علماً أنه سبق لنيكاراغوا أن وضعت جيشها في حالة تأهب بسبب المناورات العسكرية الأميركية ـ الهندوراسية المشتركة، وشهدت العاصمة تظاهرات ضد هذه المناورات ووقعت عدة حوادث حدود مع هندوراس.

وتتهم الولايات المتحدة نظام الحكم في نيكاراغوا بتصدير الثورة إلى أميركا الوسطى بدعم من كوبا والاتحاد السوفياتي، الأمر الذي أطلق يد وكالة التجسس

الأميركية في إعداد المتمردين من أحزاب اليمين في نيكاراغوا للقتال في المناطق الحدودية .

وقد استخدم ريغان سلطاته الدستورية لمناهضة لجنة المخابرات التابعة لمجلس الشيوخ التي أوصت بعدم التصويت على الاعتمادات المخصصة لدعم ثوار الكونترا، وقد أعلن ريغان علانية أنه لن يعدم السبل المتاحة لرصد هذه الاعتمادات التي تقدر بأربعمائة مليون دولار لهذه الغاية.

ولدى حكومة نيكاراغوا معلومات عن إعداد آليات مدرعة وطائرات للعمل مع ثوار الكونترا ضدها، تحت ذريعة تقول أن الكوبيين والسوڤيات يقومون بتدريب جيش نيكاراغوا.

وهي نفس التهم التي ألصقتها الولايات المتحدة قبلاً بكوبا وبكل نظام يحاول التحرر من السيطرة الأميركية، وكان فرضها على السوفيات سحب الصواريخ من كوبا في الستينات إحدى ظواهرها.

والبقية تأتي . .

وإذا كنا قد عرضنا في هذا المجال بعض وقائع التدخل الأميركي في نيكاراغوا على مر التاريخ، وما قامت به الوكالة الأميركية للتجسس المسماة وكالة «المخابرات الأميركية» فإن التدخل الأميركي ونشاط أجهزة التجسس الأميركية في بقية أقطار أميركا اللاتينية لا يمكن أن يحصره العد.

بيد أننا نذكر عرضاً، أحداث الدومينيكان في الستينات على أثر الإطاحة بنظام حكم آل تروخيليو الاستبدادي، حيث كان من المقرر أن يعم الاستقرار هذه البلاد لولا إيعاز الوكالة المذكورة إلى الجنرال وازن إي وازن وهو من أصل لبناني، بتحريك قطعات الجيش ليمنع هذا الاستقرار وليعيد هذه البلاد إلى حلبة المصالح الأميركية.

وكذلك ما تقوم به الولايات المتحدة في البرازيل، حيث تبيَّن أنها هي التي أطاحت بنظام حكم الرئيس جانيو كوادروس ووجهت الجنرالات المحسوبين على وكالة المخابرات المركزية إلى قصر الرئاسة في برازيليا وأجبروه على الاستقالة.

وحدث الأمر ذاته مع نائبه جوان غولارت زعيم الحزب العمالي الذي مذ بات

رئيساً للجمهورية خلفاً للكوادروس، فرض عليه العسكر التخلي عن صلاحياته بإحداث مركز «رئيس وزراء» وهو لم يكن موجوداً في تاريخ البرازيل كلها.

وحينما «تمرد» الرئيس غولارت على أوامر العسكر وتحرك الشعب لدعمه في معظم الولايات البرازيلية، خصوصاً في ولايات الجنوب: ريو غراندي، دوسول وسانتا كاتارينا وبارانا - هو من أبناء ولاية ريو غراندي دو سول الجنوبية - قام الجنرالات وعلى رأسهم قائد الجيش الجنرال جوان فيغيريدو بانقلاب أطاح به، وكادوا يفتكوا به، لولا إسراعه في الفرار والإلتجاء إلى الپاراغوي أولاً ثم إلى إسپانيا ثانياً.

وإذا كان پيرون قد استطاع العودة بعد أكثر من خمسة عشر عاماً إلى الأرجنتين وتسلم مقاليد الرئاسة إلى حين وفاته، فإن غولارت كان أسوأ حظاً منه، إذ مات أخيراً في المنفى، وكلا الرجلين: الارجنتيني اليهودي إسحق روخاس، والبرازيلي المسيحي جوان فيغيريدو عميلان معروفان بانتماءاتهما إلى السياسة الأميركية ويتلقيان التوجيهات من وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية(C.I.A).

المهام الصعبة بين
الـ .K.G.B والـ .C.I.A

الهيمنة الاقتصادية للـ .C.I.A
هل كان نورييغا عميلاً أميركياً؟

أكد النائب الأول لمدير الاستخبارات السياسية ـ الخارجية في لجنة أمن الدولة الجنرال فاديم كيربيتشينكو، أن «عمل الاستخبارات السوفياتية «ك. ج. ب» في الولايات المتحدة، أصعب من عمل رجال الاستخبارات المركزية الأميركية «سي. اي. ايه» عندنا».

وفي حديث أدلى به إلى مراقب «ساب» السياسي فلاديمير أوستروفسكي، أشار الجنرال كيربيتشينكو إلى القدر الكبير من الانفتاح الذي يميز المجتمع السوفياتي وديمقراطيته العميقة وانفجار العلانية، باعتبارها عوامل جديدة تيسر على دوائر الاستخبارات الأجنبية إنجاز مهامها. وعلى حد رأي رجل الاستخبارات، فإن هذه التحولات التي يشهدها الاتحاد السوفياتي قد خلقت ظروفاً مؤاتية لرجال دوائر الاستخبارات الغربية لإقامة الاتصالات مع المواطنين السوفيات. وإلى جانب ذلك، كما يرى الجنرال، لم تطرأ أية تغيرات ذات طابع جذري على المجتمع الأميركي. فما زال من الصعب على الاستخبارات السوفياتية العمل داخل الولايات المتحدة كما هي الحال في الأعوام السابقة.

وكالسابق تقدم بانتظام أوساط متنفذة إلى حد كاف وهيئات خاصة، على تنظيم حملات صاخبة من الهستيريا التجسسية داخل بلادها. وتواظب الصحف الأميركية باستمرار على نشر المواد حول عمل لجنة أمن الدولة واستخباراتها وما إلى ذلك، الأمر الذي يجب أن يغذي لدى الأميركيين مشاعر الحذر والحرص فيما يخص الأمن القومي.

وفي سياق كلامه حول نشاط وكالة الاستخبارات المركزية لفت الجنرال الانتباه إلى الموقف الشمولي الذي يقفه موظفو هذه الوكالة من مسألة الحصول على مصادر المعلومات من وسط المواطنين السوفيات الذين لهم إطلاع على معلومات سرية. وقال:

نحن نلاحظ قيام موظفي وكالة الاستخبارات المركزية ودوائر التجسس الأخرى بمحاولات كثيرة للغاية للاتصال بالمواطنين السوفيات في الخارج. يعرض على الكثير منهم مجرد البقاء في الولايات المتحدة أو العمل لحساب وكالة الاستخبارات المركزية. وهذه العروض تطرح أحياناً بشكل عشوائي وعلى أناس غرباء».

وصف كيربيتشينكو ذلك بالطريقة الهجومية في عمل وكالة الاستخبارات المركزية ضد الاتحاد السوفياتي. وتبغي هذه الطريقة برأيه هدفين هما: الحصول على مصدر المعلومات بسهولة من جهة، وخفض نشاط رجال الاستخبارات السوفيات من جهة أخرى عن طريق إفزاعهم بالزحف الشامل على المواطنين السوفيات.

وفي التقرير الأخير (١٦ أيار ١٩٩١) الذي رفعته مديرية الاستخبارات في وزارة الدفاع الأميركية إلى اللجنة الموحدة للشؤون الاقتصادية التابعة للكونغرس، شدد الجنرال على الرأي التالي: «إن الاتحاد السوفياتي على الرغم من الأزمة السياسية والاقتصادية والقومية يبقى الدولة الوحيدة القادرة على أن تهدد الولايات المتحدة تهديداً حيوياً». ويرى الجنرال أن ظهور معلومات من هذه التقارير في الصحف الأميركية هو إجراء مقصود، وإن هدف مثل هذه الأخبار ممارسة الضغط على القيادة السوفياتية. ومما يؤكد هذا الاستنتاج بقدر معين الحقيقة الضمنية التالية أيضاً: قبل عام شكل في لندن فريق سري من الخبراء مسؤولي الاستخبارات الفروعية بهدف وحيد هو «العمل بانتظام على وضع تقويمات لإجراءات الضغط التي تمارس على الزعيم السوفياتي».

ويواصل الجنرال كيربيتشينكو قائلاً: لقد سجلنا نشاط دوائر الاستخبارات في تلك المسألة أيضاً مثل المحاولات الرامية إلى التأثير على الرأي العام في بلادنا في قضايا العلاقات السوفياتية ـ اليابانية. وعلى هذا الصعيد جاءت الكذبة الإعلامية التي أدعت استعدادنا لتقديم التنازلات مقابل قيام اليابان بمنح الاتحاد السوفياتي قروضاً كبيرة وغيرها من الإشاعات.

وإلى جانب ذلك، إزداد في شكل ملحوظ اهتمام دوائر الاستخبارات الأجنبية بجمع المعلومات حول القدرة الدفاعية والعلمية ـ التقنية للاتحاد السوفياتي وحول احتياطات الخامات الاستراتيجية والمواد الغذائية والعملات الصعبة والذهب. ونحن

نعرف جيداً أن رجال الاستخبارات الأميركيين زادوا بقدر كبير من ترددهم على الاتحاد السوفياتي في السنوات الأخيرة. وإن هذا النشاط لا يأتي إلا تأكيداً للمسلمة التالية: أن الاستطلاع البصري يبقى ضرورياً كالسابق. على أن الاستطلاع الالكتروني الأميركي يعطي كالسابق الجزء الأكبر من المعلومات عن طريق استعمال محطات الرصد العديدة والإنصات للمكالمات الهاتفية الجارية داخل أراضينا واستخلاص المعلومات من البث اللاسلكي عبر الأقمار الصناعية.

وأكد أن التجهيز الفني للاستخبارات في نمو دائم وبالأخص على صعيد وسائل الاتصال مع العملاء. وإن هذه الإمكانات عند وكالة الاستخبارات المركزية على مستوى رفيع للغاية. فالاستخبارات الأميركية برأي كيربيتشينكو تواظب باستمرار على تطوير أشكال وطرق عملها. فلا تمر سنة من دون أن تصطدم أجهزة لجنة أمن الدولة بشيء جديد في نشاط دوائر التجسس الأجنبية.

وفي معرض تطرقه إلى احتمال تعيين ر. غيتس مديراً جديداً لوكالة الاستخبارات المركزية، أعاد الجنرال إلى الأذهان واقع أن هذا المختص في شؤون الاتحاد السوفياتي صرح في وقته قائلاً: «إن الحط من نشاط لجنة أمن الدولة في الماضي والحاضر من شأنه أن يلحق ضرراً ملحوظاً بسمعة هذه المنظمة وبمعنويات كوادرها وأن يوسع بذلك مجال العمل داخل الاتحاد السوفياتي أمام الاستخبارات الأميركية». والجدير بالذكر هنا أن القيادة السوفياتية، أعلنت مراراً أن الاتحاد السوفياتي لا يعتبر الولايات المتحدة عدواً له. في حين أن حكومة الولايات المتحدة لم تقم حتى الآن بإعلان مماثل. الأمر الذي يعتبر على جانب كبير من الأهمية ويغذي في شكل ملحوظ مع الأسف الرأي المنتشر بصورة واسعة وسط الأميركيين الذي يدعو إلى اتخاذ موقف حذر للغاية من الاتحاد السوفياتي.

* * *

الوثائق تثبت علاقة الاعتماد بوكالة الاستخبارات المركزية

ذكرت وثائق حكومية أميركية ووثائق مصرفية وتصريحات مسؤولين ومصرفيين أن «بنك الاعتماد والتجارة الدولي» الذي أغلقته السلطات المصرفية العالمية في الأسبوع الماضي كان على علاقة بوكالة الاستخبارات المركزية الأميركية.

وتفيد الوثائق أيضاً أنه تم استخدام البنك في صفقات أسلحة سرية منها عملية بيع أسلحة أميركية إلى إيران في ١٩٨٦ . وقبل انهياره استخدم رخصته في لوكسمبورغ لتقديم خدمات مصرفية للأفراد، وفي عز أعماله نفذ أعمالاً مصرفية في أكثر من ٧٠ دولة، وكان كثير من حكومات هذه الدول زبائن لدى البنك

وسمحت سلطات لوكسمبورغ للمصرف الذي كان رأسماله ٢٠ بليون دولار بتنفيذ أعماله بسرية بموجب قوانين مرنة لجلب الزبائن. واستناداً إلى الوثائق وأقوال مسؤولين سابقين في البنك كان بعض أصحاب البنك ومديروه رؤساء دول وأشخاص لهم علاقة بوكالات الاستخبارات والجيوش في كل أنحاء العالم.

ويعتقد أن وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية استخدمت البنك لمساعدة الثوار الأفغان. وأكد استخدام الوكالة للمصرف مسؤولون حاليون وسابقون منهم وليم فون راب الذي كان مسؤول الجمارك الأميركية في ١٩٨٨ عندما أدين فرع البنك في مدينة تامبا في فلوريدا بـ «غسل» أموال عمليات تهريب المخدرات.

ويقول فون راب: «اكتشفنا أن وكالة الاستخبارات المركزية استخدمت هذه الأموال لحسابها الخاص والدفع من حسابات سرية لأشخاص غير مسمين».

وبعدما اعترف البنك بذنبه في الاتهامات التي وجهت إليه في عام ١٩٩٠ تعاون مع السلطات الفيديرالية في شأن قضية حاكم بنما السابق مانويل نورييغا الذي استخدم البنك أيضاً في عمليات استخبارات وعمليات سياسية وذلك حسب ما تنص عليه وثائق الكونغرس ووثائق المحكمة المتعلقة بعملية «غسيل» الأموال في فلوريدا وأقوال مسؤولين سابقين في المصرف.

وقال فون راب في مقابلة أجريت معه في تموز ٩١ أنه قبل الاتهامات التي وجهت إلي البنك في ١٩٨٨ كان المسؤولون في وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية قدموا لمسؤولي الجمارك معلومات عن البنك من دون أن يتدخلوا في التحقيق.

وامتنع مارك مانسفيلد المتحدث في وكالة الاستخبارات المركزية عن التعليق على الموضوع علماً أن الوكالة المذكورة تستخدم دائماً مصارف أميركية وأجنبية لتحويل الأموال. وفي عمليتها الأكثر سرية استخدمت الوكالة شركات وهمية لتغطية أعمالها بينما أذيع في الماضي عن تورطها بفضائح في استراليا وجزر البهاماس.

وكان مسؤولون حكوميون ومسؤولون في المصرف ذكروا قبل ثلاث سنوات في مقابلات أجريت معهم أنهم يعتقدون أن «بنك الاعتماد والتجارة الدولي» استخدم كجزء من برنامج اعتمدته وكالة الاستخبارات المركزية لمساعدة الثوار في أفغانستان.

وكان المسؤولون في البنك امتنعوا في ذلك الوقت عن التعليق على الموضوع ولم يكن واضحاً ما إذا كان البنك على علم بعمليات وكالة الاستخبارات المركزية.

وكان المسؤولون في البنك وصفوا البنك قبل انهياره بأنه يخدم الناس ورجال الأعمال والحكومات في الدول النامية. وردا على أسئلة وجهت إلى محامين يعملون لحساب البنك في ١٩٨٨ عن علاقة البنك مع حكومات أجنبية ووكالات الاستخبارات أصدر هؤلاء المحامين بياناً إلى أحد المراسلين الصحافيين أكدوا فيه أن «بنك الاعتماد والتجارة الدولي» نفذ عمليات مع بعض الهيئات الحكومية وقدم لها خدمات مصرفية تقليدية.

لكن البنك كما يضيف البيان: «لم يكن حراً في الأعلان عن أسماء الزبائن أو عن طبيعة علاقاتهم المالية». ولكن السلطات المصرفية والمحققين في بلدان عدة ينظرون الآن في عمليات قيمتها بلايين الدولارات يمكن أن يكون «بنك الاعتماد» نفذها بوسائل احتيال ومنها ما يتعلق بقروض مكنت البنك من الاستيلاء بشكل سري على حصة مسيطرة في أكبر مصرف في مدينة واشنطن وهو «فيرست ناشيونال بنكشيرز» الذي يرأسه كلارك كليفورد المحامي اللامع في واشنطن.

وتنظر اللجنة الفرعية التابعة للكونغرس المختصة بشؤون الإرهاب وعمليات تهريب المخدرات في تشعبات السياسة الخارجية التي اعتمدها البنك خلال تعامله مع الحكومات المختلفة.

وفي جلسة مناقشة تمت في أيار (مايو) الماضي تحدث السناتور جون كيري رئيس اللجنة الفرعية المذكورة بشكل عام عن دور «بنك الاعتماد والتجارة الدولي» في تحويل مبالغ سرية تابعة للمخابرات وكذلك عن علاقة البنك المالية مع عشرات الدول.

وتسعى اللجنة الفرعية حالياً إلى الوصول إلى وثائق تضم معلومات عن تلك العمليات كانت السلطات المالية حصلت عليها من البنك بموجب أمر كتابي من

المحكمة قبل أن يتم الاستيلاء عليه لكن البنك لم يرد بعد على مذكرة استدعاء المحكمة.

* * *

الـ «سي اي ايه» تنصلت من تقرير:
اليابان تسعى للسيطرة الإقتصادية

ذكرت صحيفة «الواشنطن بوست»، أن وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية تنصلت من التقرير الذي كانت قد نشرته، متهمة اليابان بنيتها في «السيطرة الاقتصادية التامة» على العالم.

استناداً إلى مقالة نقلتها «الواشنطن بوست» عن صحيفة «الهيرالد تريبيون»، تؤكد وكالة الاستخبارات الأميركية في بيان لها أن هذا التقرير تحت عنوان «اليابان والعام ٢٠٠٠» لا يعكس وجهات نظر الخبراء الذين شاركوا في أعداده أثناء مؤتمر سرّي نظمته الوكالة في روشستر (نيويورك) وكانت عملية نشر التقرير قد أثارت ردات فعل شديدة في اليابان، واحتجاجات بعض الخبراء الذي تمت استشارتهم في ذلك الوقت من قبل وكالة الاستخبارات.

وأفاد التقرير خصوصاً أن الثقافة اليابانية ورجال الأعمال اليابانيين سيهيمنون قريباً على الاقتصادي العالمي إلا إذا استدرك الغرب هذا الأمر. وأضاف أن الثقافة اليابانية تغذي التمييز العنصري و«نخبة بوروقراطية» قومية «غير ديموقراطية».

أوردت الصحيفة الأميركية أن أحد المشتركين في المؤتمر، وهو مصرفي يدعى جيفري غارتن كتب الاثنين إلى مدير الاستخبارات السيد ويليام وبستر طالباً منه الإعلان رسمياً أن التقرير لا يعكس وجهات نظر الخبراء كلهم.

وكان كولونيل قديم في السلاح الجوي يدعى اندرو دوغرتي متخصص في المشاكل الدفاعية في معهد التكنولوجيا في روشستر قد حرر هذا التقرير، وحسب قوله لقد سرق مخطط مشروع للتقرير من أحد مباني المعهد قبل أن تنشره إحدى الصحف في روشستر.

* * *

مستندات نشرها موكلو نورييغا:
كان رجل الاستخبارات الأميركية

ورد في مستندات نشرت في ميامي (فلوريدا) بناء لطلب موكلي رئيس بناما

السابق، إن الجنرال مانويل نورييغا كان «رجل وكالة الاستخبارات الأميركية» في بناما، التي زودته بمبالغ سرية بلغت قيمتها ١١ مليون دولار.

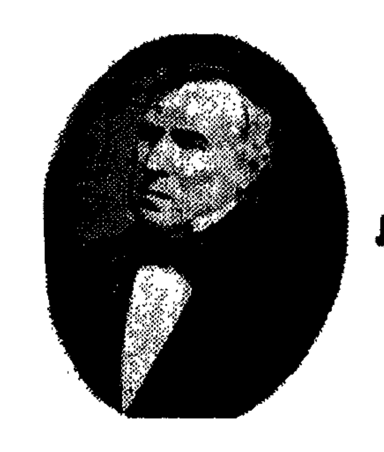
وحسب هذه الوثائق، فإن الجنرال نورييغا قد أعطى معلومات لواشنطن تتعلق بالرئيس السوفياتي ميخائيل غورباتشيوف، وقد أرسل صواريخ «إكزوسيت» إلى الأرجنتين التي استعملتها ضد السفن الإنكليزية في حرب جزر «المالوين» العام ١٩٨٢ وتعامل مع وكالة الاستخبارات الأميركية لتمويل «الكونترا» في نيكاراغوا.

وقد نشرت الوثائق التي تضم ١٠٧ صفحات بناء لطلب موكلي الجنرال نورييغا التي تلاحقه محكمة فلوريدا حالياً بتهمة تهريب المخدرات.

وكان الرئيس نوريغا، الذي أطاح به الجيش الأميركي من الحكم في العام ١٩٨٩، قد قبل بـ ٤,٦ ملايين دولار قدمه له كارتل «ميديلن» الذي كان يرغب في تحويل بناما إلى مركز توزيع الكوكايين في العالم.

في المقابل، رفضت وزارة العدل الأميركية التي تحافظ شرعياً على الوثائق، أن تضيف إليها التقارير المتعلقة بالاتصالات التي أجراها الجنرال نورييغا مع الرئيس الأميركي جورج بوش عندما كان هذا الأخير يتبوأ منصب نائب رئيس الولايات المتحدة، ومع اللفتنانت كولونيل أوليفر نورث وهو إحدى الشخصيات الأساسية في فضيحة «إيران غيت» ومع مدير وكالة الاستخبارات المركزية ويليام كايسي.

أما الدفاع فطلب إبراز الوثائق في الدعوى التي ستفتتح في ٢٢ تموز المقبل، وذلك بغية التمكن من إثبات أن نورييغا أصبح «رجل وكالة الاستخبارات الأميركية» في بلاده بعد مصرع سلفه عمر توريخوس الذي قضى بحادث طائرة، وكانت الاستخبارات الأميركية تعتبره «رجلاً شعبياً خطراً».



نبشوا قبر الرئيس الأميركي تايلور ليحددوا سبب وفاته.... بعد قرن ونصف!

هل سممت مخابرات الولايات الجنوبية الرئيس؟

توفي الرئيس الأميركي السابق زاكاري تايلور، وهو الثاني عشر في سلسلة الرؤساء الذين تعاقبوا على حكم الولايات المتحدة بعد استقلالها، في عام ١٨٥٠ ولم يكن أمضى أكثر من ١٦ شهراً على توليه منصبه. ودفن في مقبرة تحمل اسمه وتحف بها الأشجار والخضرة من كل جانب في مدينة لويسفيل في ولاية كنتكي الأميركية التي اشتهرت بتربية الخيول.

وفجأة احتشد جمع من الناس في تموز ٩١ أمام «مقبرة زاكاري تايلور الوطنية» ودلف نفر منهم، يجرون نقالة ملفوفة بالعلم الأميركي، إلى قبر تايلور وحملوا ما بقي من عظامه وعادوا بعد بضع ساعات ليدفنوا بقايا الجثة في مكانها.

وعقدت الدهشة ألسن الأميركيين الذين تساءلوا عن سر هذا الاهتمام المفاجىء برجل لم يكن حظه من الاهتمام يتجاوز حقيقة كونه الرئيس الثاني عشر للولايات المتحدة.

واتضح لاحقاً أن بقايا جثة تايلور أخذت للتحقيق: هل قتل مسموماً على أيد أبناء الجنوب الأميركي الذين أغضبتهم حملاته للقضاء على الرق؟ وتفيد الوثائق الرسمية أن تايلور توفي أثر تناوله شيئاً من الفاكهة ومشروباً بارداً في يوم كان شديد الحر. وقال مؤرخون لاحقاً أنه توفي أثر إصابته بالتهاب المعدة والمصران، ورجحوا أن يكون ماء أو لبن ملوث سبب الإصابة.

لكن كلارا رايزينغ المتخصصة في تأليف روايات عن تاريخ الجنوب الأميركي

قالت أنها واثقة من أن تايلور قتل مسموماً على أيدي غلاة المدافعين عن استمرار تجارة الرقيق التي كانت شائعة آنذاك. وقالت أيضاً أن السم دس أيضاً لطبيب الوفيات المسؤول عن كتابة سبب الوفاة. ولذا كان لا بد من فتح مقبرة تايلور وأخذ ما بقي من جثته لتحليلها بغية التحقيق من وجود آثار سم فيها.

وفحص العلماء عينات من شعر الرئيس السابق وأظافره وعظامه وسيصدرون بياناً عما توصلت إليه أبحاثهم في الأسابيع المقبلة، وتقول رايزينغ أن تايلور قتل لأنه وافق على ضم كاليفورنيا إلى اتحاد الولايات الأميركية على أن تعتبر «ولاية حرة» أي أنها لا تسمح بامتلاك العبيد.

وكان ثمة توازن يتسم بالحساسية الشديدة آنذاك بين الولايات المتحدة الحرة والولايات الجنوبية التي كانت تسمح بامتلاك الرقيق، إذ أن الأخيرة كانت تشعر بالقلق على مستقبل تجارة الرقيق وتطور الأمر - كما هو معروف - ليصل إلى اندلاع حرب أهلية دامية بين الولايات الشمالية والجنوبية أسفرت عن مقتل حوالي نصف مليون نسمة خلال الفترة من عام ١٨٦٠ إلى ١٨٦٥.

وكان تايلور يمتلك، عند وفاته، ١٤٠ عبداً من مختلف الأعمار ومن الجنسين. وتوفي عن ٦٥ عاماً. وكان العبيد يقومون - حتى إلغاء تجارة الرقيق - بكل المهمات الزراعية في حقول القطن والتبغ من دون أن تكون لهم حقوق أو أجور.

ويعتقد الخبراء بأن الرئيس تايلور بدأ يشعر بمغص معوي حاد بعد مضي فترة قصيرة من تناوله شيئاً من ثمار الكرز ولبناً دسماً في الرابع من تموز (يوليو) الذي يصادف عطلة رسمية في أميركا لمناسبة ذكرى الاستقلال. وكان أمضى بضع ساعات، يومذاك، تحت الشمس الساخنة يستمع إلى أقوال الخطباء في الحفلة التي أقيمت لمناسبة إرساء حجر الأساس لنصب واشنطن التذكاري في العاصمة الأميركية.

وكان الأطباء يتمسكون آنذاك بأن تناول أي طعام أو مشروب بارد في يوم شديد الحر يمكن أن يتسبب في الوفاة. وتوفي تايلور في التاسع من الشهر نفسه عام ١٨٥٠.

وذكرت رايزينغ أن الأعراض التي ظهرت على تايلور هي الأعراض التقليدية

للتسمم. وأشارت إلى أن الرئيس السابق ميلارد فيلمور الذي خلفه تلقى رسائل تحذره من أن سلفه مات مسموماً وسيكون مصيره مثل مصيره إن لم يدقق في الوجبات التي يتناولها.

لكن معظم المتخصصين في دراسة تاريخ الرؤساء الأميركيين السابقين يعرضون عن قبول آراء رايزينغ. ويقول البرت سميث استاذ التاريخ في جامعة مريلاند الذي نشر أبحاثاً كثيرة في تاريخ تايلور أن الرئيس السابق «أما مات لأنه تناول طعاماً فاسداً وأما بسبب بدائية الأدوية التي وصفها له أطباؤه».

وقال سميث في تصريحات نشرتها صحيفة «واشنطن بوست» إنه ظل يعتقد غلى الدوام بأن أطباء تايلور هم الذين قتلوه لكنهم لم يتعمدوا ذلك، معتبراً أن أطباءه أفرطوا في إعطائه عقار «الكوينين» ومادة الزئبق القاتلة.

وربما لن يقف الأمر عند تحليل ما بقي من جثة الرئيس تايلور. ففي واشنطن يدور جدل آخر على احتمالات إصابة الرئيس الأميركي السابق إبراهام لنكولن بخلل نادر في جينات الوراثة يسمى «ظاهرة مارفان». ويطالب الذين يثيرون هذا الجدل بأن يسمح لهم بنبش قبر لنكولن لفحص بقايا جثته.

وإذا جاءت نتائج التحليل الطبي الذي يجري حالياً لتحديد سبب وفاة تايلور مطابقة للإدعاء أنه قتل مسموماً فسينفتح الباب واسعاً أمام المطالبة بنبش قبور عدد من المشاهير الأميركيين للتحقق مما يقال عن السبب الحقيقي لوفاتهم.

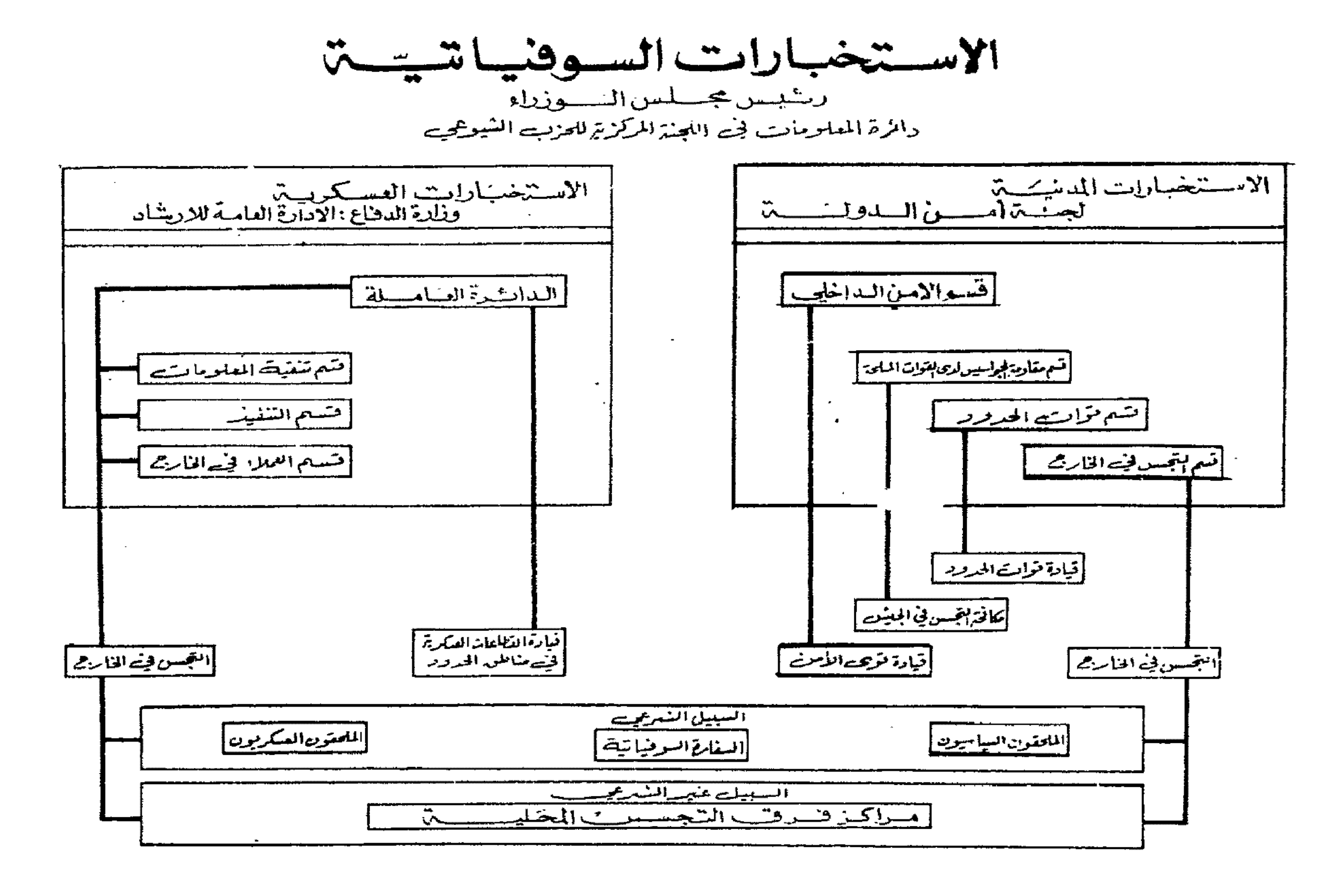
الاستخبارات السوفياتية



ريتشارد سورج، العميل الشهير لستالين قبيل الحرب العالمية الثانية
منح وسام بطل الاتحاد السوفياتي



قائد الطائرة «يو - ٢» التي أسقطت فوق الاتحاد السوفياتي
فرنسيس غاري باورز أثناء محاكمته



الهيكلية التنظيمية للاستخبارات السوفياتية

الاستخبارات السوفياتية

موجات الخيال كثيرة، تمد وتجزر بحسب الاهواء والاغراض.

الاستخبارات السوفياتية يجوز فيها تقبل كل خيال، وحتى كل وهم. انها استخبارات لدولة وقفت وحدها ووحيدة في العالم، تكرهها الديكتاتورية الأوروبية والديمقراطية الغربية ثم تصافحها، ودولة تجمعت عليها في بعض ظروف نشأتها أثر من دولة أوروبية ذات حول وطول.

منذ تأسيس الدولة السوفياتية والاستخبارات فيها، منها أو ضدها، بين طول وقصر، بين انفلاش وتزمزم. بين الحربين العالميتين الأولى والثانية كانت شيئاً آخر، وبعد الحرب العالمية الثانية وطوال فترة الحرب الباردة حتى أواخر الخمسينات كانت شيئاً فريداً، ومنذ أوائل الستينات صارت أكثر فاكثر جزءاً أساسياً من هيكل الدولة ولحتمها.

هذه الاستخبارات كانت ولا تزال جزءاً ملازماً لنوع الدولة وللأنواع المتعاقبة لألوان الحكم فيها. ومع كل التبدل الذي فرضه تطور العصر ومرور فترات قصيرة كانت متميزة بالتضعضع، فان هذه الاستخبارات أثبتت خلال السنوات العشرين الأخيرة انها أصبحت مهنية علمية الى أقصى حد مستطاع وأقل التصاقاً بنوعية الرئيس أو المدير المشرف عليها، خاصة بعد وفاة جوزف ستالين اذ بطلت أن تكون اداة للارهاب في قلب الاتحاد السوفياتي نفسه.

من الغرائب البارزة فيها أن أي رئيس استخبارات جاء بعد ستالين كان يعيش مدة أطول من أي رئيس لها مر في عهده بالذات.

بين أغرب ما في سجلات الشرطة السرية القيصرية أن جوزف ستالين كانت

قدمه اليسرى غير طبيعية اذ كانت فيها اصبعان ـ الثانية والثالثة ـ متلاصقتين في اصبع واحدة وناميتين كتلة واحدة.

وبعد ثورة أوكتوبر تأسست في العهد السوفياتي استخبارات مماثلة لدائرة حماية الدولة. في تاريخها حدثت لها تقسيمات كثيرة. ثلاث مرات قسمت الى نوعين من الاستخبارات: الأولى هي دائرة الشرطة السرية والثانية هي دائرة الاستخبارات والتجسس والأمن الداخلي.

الأسماء تغيرت وتعدلت وتقسمت وضمت بعضها الى بعض أكثر من مرة. والمهمات بدورها تعرضت لكل التبديلات الممكنة. سياسة الدولة خلال ما يزيد على الخمسين سنة من الحكم السوفياتي كانت غير ثابتة في ما يتعلق بمؤسسات الاستخبارات الخارجية والداخلية ومقاومة التجسس في الداخل أو توسيعه في الخارج. حتى الأشخاص الذين تسلموا المسؤوليات في هذه المؤسسة أو المؤسسات السوفياتية، كانت لهم آخرة قلما كانت لغيرهم من زملائهم في دول الغرب المعروفة.

من عرض الأسماء والمهمات، في ما يأتي، أكثر من دليل على مدى التقلقل في تحديد المسؤوليات وعلى مدى العاقبة التي حلت بأكثر من رئيس تسلم هذه الاستخبارات:

* تشيرشينسكي، رئيس «المفوضية فوق العادة لمكافحة اعداء الثورة والقضاء على التخريب» و «الادارة السياسية للدولة» و «الادارة السياسية المتحدة للدولة» من ١٩١٧ الى ١٩٢٦، مات بالذبحة القلبية.

* منشينسكي، رئيس «الادارة السياسية المتحدة للدولة» من ١٩٢٦ الى ١٩٣٤، مات بالسم الذي دسه له خليفته.

* ياغودا، رئيس «مفوضية الشعب للشؤون الداخلية» من ١٩٣٤ الى ١٩٣٦، أعدم رمياً بالرصاص عام ١٩٣٨.

* يشوف، رئيس «مفوضية الشعب للشؤون الداخلية» من ١٩٣٦ الى ١٩٣٨، اختفى فجأة ثم تبين انه اعدم بالرصاص.

* بيريا، رئيس «مفوضية الشعب للشؤون الداخلية» و «وزير الشؤون الداخلية» من ١٩٣٨ الى ١٩٥٣، أعدم عام ١٩٥٣.

* ميركولوف، رئيس «مفوضية الشعب لسلامة الدولـة» مم ١٩٤١ الى ١٩٤٦، أعدم عام ١٩٥٣.

* كـروغلوف، رئيس «مفـوضيـة الشعب للشؤون الـداخليـة» و«للشؤون الداخلية» و «وزير الشؤون الداخلية» من ١٩٤٦ الى ١٩٥٦، أقيل من منصبه واختفى في عالم النسيان.

* أباكـوموف، «وزيـر سـلامـة الـدولـة» من ١٩٤٦ الى ١٩٥١، أعدم عـام ١٩٥٤..

* اغنـاتييف، «وزير سـلامة الـدولة» من ١٩٥١ الى ١٩٥٣، أقيـل من منصبه واختفى أثره.

* سـيروف، رئيس «مفوضية سلامـة الدولـة» من ١٩٥٤ الى ١٩٥٨، نقل الى «الادارة العامة للاستخبارات لدى قيادة الأركان» ثم طرد من منصبه عام ١٩٦٣.

* دودوروف، «وزير الشؤون الداخليـة» من ١٩٥٦ الى ١٩٦٠، نقل الى وزارة الاسكان.

* شيليبين، رئيس «مفوضيـة سلامـة الدولـة» من ١٩٥٨ الى ١٩٦١، رقي الى الأمانة العامة للحزب الشيوعي.

* سميتشاسني، رئيس «مفوضية سلامة الدولة» من ١٩٦١ الى ١٩٦٧صار الآن في وظيفة أخرى.

تشيلوكوف، رئيس «وزارة كل الاتحاد للمحافظة على النظام العام»، منذ ١٩٦٦ لا يزال في منصبه.

* اندروبوف، رئيس «مفوضية سلامة الدولة» منـذ ١٩٦٧، حتى انتخابـه أميناً عاماً للحزب الشيوعي.

من تشيرشينسكي الى اندروبوف

هذه اللمحة العابرة عن الأشخاص وأنواع المؤسسات التي أشرفوا عليها، وكلها للاستخبارات أو للقيام بأعمال الشرطة السرية وبمسميات مختلفـة، لا تغني عن سرد ولو موجز لتطور أجهزة الاستخبارات الداخلية والخارجية في الاتحاد السـوفياتي، والـوصول

بالتالي الى الوضع الذي انتهت اليه في الوقت الحالي.

أبو الاستخبارات السوفياتية بالمعنى الشامل كان فليكس أدموندوفيتش تشيرشينسكي. ولد عام ١٨٧٧ من عائلة ريفية بولونية الأصل وكان ينوي أن يصبح كاهناً لكنه انحاز الى البولشفيك.

في ٢٠ كانون الأول ١٩١٧ تأسست «المفوضية فوق العادة لمكافحة أعداء الثورة والقضاء على التخريب» وعين تشيرشينسكي رئيساً لها. هاذه المفوضية كانت تحت قيادة رئيسها آلة رهيبة نادرة المثال للتنكيل بالناس وسحلهم.

عام ١٩٢٢ ألغيت هذه المفوضية فوق العادة واستبدلت بـ «الادارة السياسية للدولة». لكن هذا الاسم لم يبق متداولاً مدة طويلة اذ جرى تغييره في ١٥ تشرين الثاني ١٩٢٣، وتحت قيادة تشيرشينسكي، الى «الادارة السياسية المتحدة للدولة».

وعندما مات تشرشينسكي بالسكتة القلبية عام ١٩٢٦، سلمت «الادارة» الى رئيس آخر من أصل بولوني هو فياتشيسلاف رودولفوفيتش منشينسكي. لكن هذا، اذ أراد أن يسير على خطى سلفه، سلم مسائل يومية كثيرة في العمل الى نائبه غينزيخ غريغورييفيتش ياغودا الذي انتهى بقتله مسمماً في أيار ١٩٣٤ وحل مكانه في تموز من العام نفسه.

ولكن، وفي العام نفسه، دخلت «الادارة» عالم النسيان لتمتصها وتحل مكانها مؤسسة أخرى هي «مفوضية الشعب للشؤون الداخلية» التي تولت احدى دوائرها في الوقت نفسه امتصاص مهمات «الادارة السياسية المتحدة للدولة».

وفي عهد ياغودا تولت مفوضية الشعب للشؤون الداخلية تدبير المحاكمات الجماعية الكبرى خلال حمى الاغتيالات والتصفيات وعمليات السحل التي بدأت صغيرة في منتصف الثلاثينات ثم راحت تكبر وتتوسع الى أن شملت الملايين خلال السنوات الثلاث التالية.

لكن ستالين، ما ان قضى أربه من ياغودا وأعوانه حتى انقلب عليهم لتصفيتهم. ياغودا نفسه أقيل من منصبه في أيلول ١٩٣٦ واعتقل في نيسان ١٩٣٧ ثم حوكم وأعدم بالرصاص.

خليفة ياغودا في المنصب كان نيقولاي ايفانوفيتش يشوف، وقد عين في ٢٦

أيلول ١٩٣٦. هذا كان دموياً «حتى العظم» لأنه ذبّح الناس وسحلهم كبيرهم وصغيرهم ونفذ أغبر الفضائع بكل من وصلت عنه وشاية ظالمة.

اسم يشوف أدخل كلمة جديدة الى قاموس اللغة الروسية «يشوفشينا»، التي تعني الارهاب والتنكيل.

ومع ذلك فان الدود كان من الخل نفسه. فما ان حل تموز من العام ١٩٣٨ حتى جاء دور يشوف نفسه تحت المقصلة. لقد اعفى من منصبه بطريقة لينة وأحل مكانه في المنصب تدريجياً لافرنتي بافلوفيتش بيريا الذي تسلم مهماته رسمياً في أيلول ١٩٣٨.

يشوف نفسه عين مفوضاً لشؤون النقل النهري ثم اختفى. تبين في ما بعد أنه أعدم رمياً بالرصاص.

أما بيريا، وهو أكثر معاوني ستالين في شؤون الأمن حتى ١٩٥٣، فقد كان بارد النظرات ملتهب الدم في آن واحد. كان مثل ستالين، من جيورجيا. هناك اشتغل في الاستخبارات البولشفية خلال السنوات الأولى للثورة البولشفية.

وقد بقي بيريا رئيساً لمفوضية الشعب للشؤون الداخلية حتى ١٩٤٦ فقط من الناحية الرسمية لكنه ثابر على السيطرة على أجهزة الشرطة السرية حتى بعد نقله الى المكتب السياسي للحزب الشيوعي ذلك العام بالذات.

عند هذه المرحلة لا بد من الاشارة الى انه خلال الحرب العالمية الثانية جرى تقسيم المؤسسة الى اثنتين:

الأولى حافظت على الاسم السابق، أي مفوضية الشعب للشؤون الداخلية، والثانية هي مفوضية الشعب لسلامة الدولة، وقد وضعت اسميا تحت رئاسة معاون بيريا فسيفولود نيقولا لايفيتش ميركولوف.

والواقع أن بيريا بقي مسيطراً بشكل حذيدي على جهاز الأمن السري برمته.

ولكن، وبعد انقضاء شهر واحد على الغزو الالماني للاتحاد السوفياتي، عادت مفوضية الشعب للشؤون الداخلية الى امتصاص مفوضية الشعب لسلامة الدولة. ومن جديد لم يطل التوحيد بين المؤسستين اذ أعيد التقسيم الى دائرتين في نيسان ١٩٤٣.

في كانون الثاني تخلى بيريا عن مركزه كرئيس لمفوضية الشعب للشؤون الداخلية

وأعطاه الى أفضل أعوانه سيرجي نيكيفوروفيتش كروغلوف الذي كـان قد أشرف فعليـاً على شؤون الأمن والسلامة، من الناحية السوفياتية طبعـاً، في مؤتمرات طهـران ويالـطا وبـوتسدام التي عقـدها الـزعماء السـوفيات والأمـيركيون والـبريطانيـون لتداول شؤون الحرب ضد ألمانيا وشؤون تقسيمها في ما بعد.

في آذار ١٩٤٦ أصبحت مفـوضية الشعب للشؤون الـداخلية وزارة دعيت وزارة الشؤون الداخلية، فيـما أصبحت مفوضيـة الشعب لسلامـة الدولـة وزارة هي الأخرى دعيت وزارة أمن الدولة. هذه الوزارة الثـانية وزارة أمن الـدولة. هـذه الوزارة الثـانية حل مكان ميركولوف فيها شخص يدعى فيكتور سيميونوفيتش أباكوموف.

ومع ذلك بقي بيريا الشخص الأعلى المهيمن على الوزارتين من الناحية الفعلية.

أبـاكومـوف أبدل عـام ١٩٥١ بسيمون دنيـزوفيتش اغنـاتييف الـذي مثـل دوراً أساسياً في «مؤامرة الأطباء» عامي ١٩٥٢ و١٩٥٣

خروتشوف نفسه، في خطبته السرية التي ألقاها عـام ١٩٥٦، قال ان أغنـاتييف تصرف تنفيـذاً لأوامر ستـالين فـاستنبط البراهـين ضد عـدد من كبار الأطبـاء اليهود في موسكو على أنهم كانوا يريدون القضاء بوسائلهم الخاصـة على جميـع زعماء الكـرملين. خروتشوف قال حرفياً: «لقد قال لي ستالين، ان لم تنتزع الاعترافات من أفـواه الأطباء فسأدحرج رأسك عن كتفيك»..

وخروتشوف نفسه لعب لعبته مع اغناتييف بعد وفاة ستـالين في ٥ آذار ١٩٥٣. لقد نقله الى الأمانة العامة للحزب الشيوعي ومن ثم الى منصب اداري في مكان ريفي بعيد عن العاصمـة. وعاد خـروتشوف فـاسترد الـدين من أغناتييف اذ استقـدمه عـام ١٩٥٨ الى موسكو ليشهد ضد بولغانين في اللجنة المركزيـة مما أمن لخـروتشوف ازاحـة بولغانين من طريقه ليحل مكانه رئيساً للحكومة.

نعود الى الاستخبارات والى الوزارتين الخاصتين بها.

بعد وفاة ستالين في ٧ آذار ١٩٥٣ دمجت الوزارتان في وزارة واحدة من جديـد، وهذه المرة تحت اسم وزارة الشؤون الداخلية. وعاد بيريا، ولو لمـدة قصيرة، الى تسلم الوزارة اسمياً وفعلياً للاشراف العمـلي على الشرطـة السرية والاستخبـارات معاً. لكن بيريا اعتقل في ٢٦ حزيران ١٩٥٣ وأقيل من الوزارة وأبعد عن الفريق الحاكم.

بيريا حوكم وأعدم في أواخر كانون الأول ١٩٥٣ . وميركولوف لقي المصير نفسه، فيما كان على أباكوموف أن ينتظر سنة أخرى لتنفيذ الاعدام به.

وأعيد كروغلوف على الفور وزيراً للشؤون الداخلية وبقي في هذه الوزارة حتى شباط ١٩٥٦ عندما أبدله خروتشوف بنيقولاي بافلوفيتش دودوروف. هذا كان في السابق رجل تعمير مسؤولاً عن الترابة والزجاج والتمديدات الصحية وغيرها، كما كان اخر وزير للشؤون الداخلية.

ففي ١٣ كانون الثاني ١٩٦٢ ألغيت المؤسسة المسماة وزارة وأعيد بناؤها في ٢٦ تموز ١٩٦٦ تحت اسم «وزارة كل الاتحاد» للمحافظة على النظام العام بقيادة نيقولاي اينسيموفيتش تشيلوكوف، وهو نجار سابق لم تكن له أية خبرة على الاطلاق بشؤون الأمن، لكنه سبق له أن عمل مع الأمين العام للحزب الشيوعي ليونيد بريجنيف في أوكرانيا قبل الحرب العالمية الثانية وبعدها.

ومفوضية سلامة الدولة، في ذاتها، انشئت بعد التخلص من بيريا ببضعة أشهر، أي في ١٣ آذار ١٩٥٤ . أول رئيس لها كان الجنرال ايفان سيروف القصير القامة والنحيل الجسم والأحمر الشعر والصغير العينين. قيل على لسانه خلال الحرب العالمية الثانية، بعدما شرب القنينة الثانية من الفودكا، انه كان يود أن ينكل بزعماء المانيا الى الحد الذي يتمنون معه عشرات المرات أن يموتوا قبل أن يقتلهم. وقيل كذلك على لسانه أنه كان يعرف كيف يكسر كل عظمة في جسم الانسان من غير أن يقتله.

سيروف من أسرة قروية ومن مواليد ١٩٠٥ ومن خريجي أرفع أكاديمية عسكرية في الاتحاد السوفياتي. وقد نقل الى الشرطة السرية عام ١٩٣٩ بعدما اضطر ستالين الى الاستعانة بالعسكريين المحترفين لتسليمهم شؤون الأمن الداخلي لكثرة ما صفى من موظفي الحكومة وأعضاء الحزب الشيوعي.

وخلال العامين ١٩٤٠ و ١٩٤١ تولى سيروف حمل السيف في دول البلطيق، أي استونيا وليتونيا وليتوانيا، لافهام كل من بقيت ذاكرته ضعيفة بأنه أصبح مواطناً في الاتحاد السوفياتي.

وبعد ذلك كان سيروف مساعداً لخروتشوف لشؤون الأمن في أوكرانيا. وما أن عين سيروف في المنصب الكبير الأخير الذي وصل اليه، حتى كان قد أمضى في مهنة الاستخبارات خمس عشرة سنة.

وسيروف سبقته شهرته الى بريطانيا عندما طار اليها عام ١٩٥٦ للاشراف المسبق على تدابير الأمن قبل زيارة خروتشوف وبولغانين الرسمية. ولكن، ولما كانت الصحف البريطانية قد أكثرت من الحديث عن وجوده وعن المهمة التي قدم من أجلها، فقد اضطر الى مغادرة بريطانيا قبل وصول الزعيمين الرسميين من موسكو بثلاثة أسابيع.

في أواخر العام نفسه كان سيروف يمثل دوراً رئيسياً في تحطيم الثورة المجرية التي اندلعت للتخلص من التبعية للاتحاد السوفياتي.

في كانون الأول ١٩٥٨ عين الكسندر شيليبين رئيساً لمفوضية سلامة الدولة، فيما عين سيروف مديراً لمفوضية منافسة هي الاستخبارات العسكرية البحتة. وقد بقي في هذا المنصب حتى ١٩٦٢ حين وقعت فضيحة الكولونيل بنكوفسكي، احد كبار عملائه، مما أدى الى حلول النقمة عليه وأبعاده الى المناطق النائية ومن ثم طرده من الحزب والرمي به في جحيم النسيان.

شليبين كان قصيراً ونحيلاً، يكثر من التدخين وقلما يحتسي الكحول كما يتجنب الاختلاط بالديبلوماسيين الغربيين في حفلات الاستقبال. من مواليد ١٩١٨ وابن عامل في السكك الحديدية. كان رئيساً لفريق من المحاربين الأنصار وراء الخطوط الألمانية عند موسكو خلال الحرب العالمية الثانية. درس في جامعة موسكو التاريخ والأدب، مما جعله شخصاً فريداً بين أقرانه من كبار المسؤولين.

خليفته في رئاسة مفوضية سلامة الدولة كان سميتشاسني، وهو حزبي منظم الى حد فائق ومتزن في تعامله مع الآخرين ويوحي الثقة بنفسه عند تعاطيه مع الناس. كان دائماً أنيق المظهر لكنه كان قليل الابتسام وقليل الكلام وقليل الظهور بين الناس أو حفلات الاستقبال وقليل السفر خارج الأرض السوفياتية مع انه كان عليماً بادق تفاصيل ما كان يجري في الولايات المتحدة بصفة خاصة.

سيميتشاسني من مواليد ١٩٢٤ وأنهى علومه في المعهد التكنولوجي للكيمياء في احدى مدن سيبيريا. لكنه بدأ البروز في حياته الحزبية العملية في أوكرانيا اذ انضم الى الشبيبة الشيوعية ثم أصبح عضواً كاملاً عام ١٩٤٤ وتمكن من أن يصبح مديراً أعلى لشؤون الشبيبة الشيوعية في أوكرانيا طيلة سنوات في فترة ما بعد الحرب.

من مآثره التي شهدها خروتشوف انه تسلم رئاسة الشبيبة الشيوعية في أوكرانيا

خلفاً لشيليبين عام ١٩٥٨ لكنه أبقى صورة ستالين معلقة على الحائط رغم الحملة الخروتشوفية القاسية على الزعيم الأوحد السابق.

كذلك وفي تشرين الأول ١٩٥٨ وبعدما منح بوريس باسترناك جائزة نوبل على «الدكتور جيفاكو»، خطب شميتشاسني أمام جمع غفير من الشبيبة الشيوعية في قصر الرياضة بموسكو، بحضور خروتشوف، وقال أن مقارنة باسترناك بالخنزير هي اهانة للخنزير.

سميتشاسني تسلم مفوضية سلامة الدولة في ١٣ تشرين الثاني ١٩٦١، نتيجة اختيار شخصي من خروتشوف، وبقي في هذا المنصب حتى ١٩ أيار ١٩٦٧ اذ عين الكرملين مكانه سفيره السابق في بودابست يوري اندروبوف.

اندروبوف، حتى مطلع العام ١٩٧١، لا يزال رئيساً للاستخبارات السوفياتية التي صارت تدعى الآن «لجنة أمن الدولة لدى مجلس وزراء الاتحاد السوفياتي».

اندروبوف حاول أن يحل الأزمة المجرية عام ١٩٥٦ بالحسنى والليونة كسفير للاتحاد السوفياتي آنذاك في بودابست، لكنه أبعد عن انجاز المهمة على طريقته خاصة بعدما وصل الجنرال سيروف الى بودابست واستل السيف لتقطيع الرؤوس يمنة ويسرة.

اندروبوف من مواليد ١٩١٤ وكان في مطلع شبابه يعمل كعامل تلغراف لكنه ما لبث أن أصبح منظماً في الشبيبة الشيوعية وتدرج في المسؤولية حتى أصبح خلال الحرب العالمية الثانية مسؤولاً أعلى عن الشبيبة الشيوعية في مناطق الحدود عند فنلندا، الى أن أصبح عام ١٩٥١ رئيساً للدائرة السياسية في اللجنة المركزية. عام ١٩٥٣ أرسل الى السفارة السوفياتية في بودابست كمستشار ثم ما لبث أن أصبح سفيراً لبلاده هناك في العام التالي.

حياة أندروبوف في بودابست يتذكرها عدد من الديبلوماسيين الغربيين الذين كانوا في الخدمة هناك. كان على علاقة ود بالغ مع القائم بالأعمال الأميركي هناك الى حد أن هذا الأخير كان يستقدم من الولايات المتحدة أدوية نادرة لزوجة أندروبوف فيما كان السفير السوفياتي يبادله الهدية الطبية بالهدايا الأدبية من كتب تولستوي.

بعد تهدئة الأوضاع في المجر أعيد أندروبوف الى موسكو حيث كلف الاشراف على دائرة في اللجنة المركزية مهمتها توطيد التعاون مع الأحزاب الشيوعية الأخرى في

العالم. وهو بتلك الصفة سافر كثيراً الى مونغوليا ويوغسلافيا وبلغاريا وبولونيا والبانيا والصين.

عام ١٩٦٢ رقي الى منصب أمانة سر الحزب الشيوعي. وهو بتلك الصفة، أكثر من انتقاده اللاذع لموقف ماوتسي تونغ والصينيين من وجهة عامة.

المهمات الكثيرة
الاستخبارات السوفياتية

في شارع تشيرشينسكي الرقم ٢ على مقربة من الكرملين وقبالة سوبرماركت كبير لألعاب الأطفال يدعى ديتسكي مير، يقع المقر الرئيسي لمؤسسة الاستخبارات السوفياتية.

ومبنى مؤسسة الاستخبارات، الذي يدعى لوبيانكا، هو في الواقع مبنيان جرى تغيير واجهتيهما الى الشارع بحيث تحجبان أمكنة الاتصال بينهما.

المبنى الأول هو سجن مؤسسة الاستخبارات، وهو المكان الذي وضع فيه الجاسوس الأميركي فرانسيس غاري باورز الذي اسقطت طائرته «يو - ٢» فوق قلب الاتحاد السوفياتي.

والمبني الثاني يضم بين جدرانه المكاتب الادارية للمؤسسة. هذا المبنى الحجري الضخم كان ذات يوم فندقاً لكنه يشبه مبنى معداً للمكاتب. والواقع، كان هذا المبنى يضم شركة للتأمين في العهد القيصري.

وللمناسبة هنالك أميركيون قلائل سنحت لهم الفرصة لدخول هذا المبنى. أحدهم هو الجنرال وليم دونوفان الذي كان خلال الحرب العالمية الثانية رئيساً لمكتب «الخدمات الاستراتيجية» وهو إحدى المؤسسات التجسسية والتخريبية الأميركية خلال تلك الحرب.

دونوفان دخل المبنى خلال احدى رحلاته الى موسكو شتاء ١٩٤٣ حيث تباحث مع كبار المسؤولين السوفيات من رجال الاستخبارات حول مشروع تبادل التمثيل في موسكو وواشنطن بين مؤسستي الاستخبارات الأميركية والسوفياتية. آنذاك كان الهدف تبادل المعلومات بين الطرفين حول شؤون التخريب وراء الخطوط الحربية الالمانية.

في ذلك الزمان كان افرـل هاريمان سفير الولايات المتحدة في موسكو. وقد أيد هذا المشروع حرصاً منه على فتح الطريق أمام الاستخبارات الاميركية للتغلغل والتمركز في موسكو، لا سيما بسبب اقتناعه بأن عشرات بل مئات الجواسيس السوفيات متغلغلون ومتمركزون في الولايات المتحدة.

على كل حال، لم ينجح المشروع آنذاك لأن الرئيس روزفلت خشي من التضاعفات السياسية والادارية الداخلية في الولايات المتحدة.

والاستخبارات السوفياتية ذات حجم ضخم وهذه الضخامة تزعج المسؤولين السوفيات من الناحية الادارية من حين الى آخر.

والراهن أن مؤسسة الاستخبارات تجمع ضمن هيكلها مهمات متعددة كالتجسس في الخارج ومقاومة الجواسيس في الداخل، والشرطة السرية الداخلية ومراقبة حدود البلاد والختم على جوازات سفر الأجانب عند دخولهم الاتحاد السوفياتي وخروجهم منه ومراقبة جميع الأجانب من طلاب وديبلوماسيين وشيوعيين «أشقاء».

في التقديرات المتحفظة جداً لدى بعض الدول الغربية أن لدى مؤسسة الاستخبارات ما يزيد على ٣٠٠ ألف جندي من حرس الحدود، ولو أن هذا الرقم يتعدل من حين الى آخر.

وفي حال استثناء هؤلاء الجنود، فان عدد الافراد العاملين في مؤسسة الاستخبارات يصلون في التقديرات الى الخمسة وعشرين ألفاً، بالاضافة الى حوالي مئة ألف عميل سري موزعين في العالم.

أحد كبار المسؤولين السوفيات عن الاستخبارات، بيوتر ديريابين، هرب الى الغرب عن طريق فيينا عام ١٩٥٤ وتولى، كما يقضي العرف لتأمين الحماية لنفسه، تسليم نفسه الى مندوبي وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية في العاصمةالنمساوية.

ديريابين قال في تحقيق جرى معه أمام احدى لجان مجلس النواب الأميركي، ونشر عام ١٩٥٩:

«أستطيع أن أقول أن القسم الخارجي في الاستخبارات المدنية السوفياتية يضم ثلاثة آلاف شخص في مركز القيادة العامة أن موسكو وحوالي ١٥ ألف عميل موزعين في العالم كموظفين ديبلوماسيين في السفارات السوفياتية. ان القسم الخارجي في

الاستخبارات المدنية السوفياتية مسؤول عن التجسس وكذلك عن مكافحة التجسس في الخارج وعن مراقبة المواطنين ومواطني الدولة الاشتراكية الذين يسافرون الى الخارج. انه كذلك مسؤول عن تنفيذ الاغتيال والخطف والضغط والتهديد بكشف الفضائح وما شاكل ذلك».

ذلك الكلام انقضى عليه الزمن. التقديرات الحديثة ترفع عدد العاملين فعلياً في الاستخبارات المدنية السوفياتية الى أضعاف مضاعفة.

الأهم من كلام المسؤول الهارب وتقديرات هذا وذاك هو الاشارة الى أن كل الأرقام عن الاستخبارات هي عرضة للتعديل. ما من مؤسسة استخبارات في العالم تفصح عما فيها. الأصح هو الأخذ بوجهة نظر قريبة من مصادر الاستخبارات البريطانية تقول أن أرقام ديريابين قد تكون مغلوطة وربما عن قصد، اذ ربما كان في ذهن الاستخبارات الأميركية أن توهم زميلتها السوفياتية بتقديراتها العلنية عنها.

والسؤال البالغ الأهمية هو عن كميات الأموال التي تنفقها الاستخبارات السوفياتية. التقدير الغربي لذلك يشير الى رقم الملياري دولار سنوياً، بما في ذلك الأموال المخصصة للتجسس الالكتروني في الفضاء الخارجي.

هذه القلة النسبية في النفقات تعود الى أن رجال استخبارات عديدين لهم رواتبهم من مؤسسات حكومية أخرى.

الاستخبارات العسكرية

الاستخبارات التي ورد الحديث عنها حتى الآن كانت الاستخبارات المدنية، ولو انها تشرف على مهمات حرس الحدود وغيرها من المهمات ذات الطابع المسلح.

لكن في الاتحاد السوفياتي إستخبارات أخرى ذات أهمية بالغة هي الاستخبارات العسكرية. هذه لها تسمية فريدة نوعاً وهي «دائرة الارشاد لدى القيادة العامة للاركان».

الاستخبارات العسكرية مرت بفترات مد وجزر منذ تأسيسها عند بداية العهد السوفياتي منذ أكثر من خمسين سنة. كانت دائماً في صراع مع الشرطة السرية التي كانت هيكلاً واحداً مع الاستخبارات المدنية، فكانت تتعرض حيناً للتصفية وحيناً آخر للانتعاش.

في العشرينات كان على الاستخبارات العسكرية أن تشق طريقها بصعوبة نظراً الى مقاومة الشرطة السرية لوجودها ولتشابك الصلاحيات. وفي الثلاثينات حل عليها غضب ستالين الى حد انه همَلها ثم قضى عليها تقريباً.

لكن الاستخبارات العسكرية كافحت من أجل اثبات وجودها وتثبيت قدميها فقدمت خدمات جلى عند بداية الحرب العالمية الثانية اذ استطاعت أن تحصل على المعلومات المفيدة عن أوضاع الحرب في أوروبا الوسطى والغربية وعن الاستعدادات الحربية الالمانية لغزو الاتحاد السوفياتي.

الاستخبارات العسكرية اقنعت ستالين بفائدة وجودها وعملها عندما نقلت من روما ومن قلب صالونات عشيقة موسوليني كلارا بيتاتش أخباراً عن استعدادات الألمان للهجوم على الاتحاد السوفياتي، خاصة بعد زيارة مولوتوف لبرلين أوائل ١٩٤١.

حينذاك نقل على لسان ستالين انه لم يصدق الخبر وانه اعتبره دسيسة بريطانية وطلب انزال العقاب الشديد بمروجه. وللتحقق من الخبر أرسل عميلاً كبيراً للاستخبارات العسكرية يدعى اسماعيل أحمدوف الى برلين تحت اسم جيورجي نيكولاييف وكمراسل لوكالة تاس للتحقق من مدى صحة «الاشاعة».

أحمدوف هرب الى الغرب في ما بعد وقص قصته وما فيها من غرائب بسبب تصرف السفير السوفياتي في برلين ديكانوسوف الذي قيل انه كان متآمراً مع بيريا.

ومنذ ذلك الحين استعادت الاستخبارات العسكرية مكانتها لدى ستالين وفرضت وجودها كضرورة قصوى لأمن الدولة وقواتها المسلحة.

وهي منذ الحرب العالمية الثانية تطور نفسها بشكل متعاظم، لا على صعيد التجسس العسكري فحسب بل كذلك على صعيد ما يمكن تسميته ترسيخ النفوذ وتحقيق الأهداف ضمن القوات المسلحة السوفياتية. فلما كان الجيش الأحمر في ذاته قوة سياسية لا يستهان بها داخل الاتحاد السوفياتي، الى جانب قوته العسكرية بالطبع، فان استخباراته تكتسب بالتالي قوة لا بأس بها في وجه الاستخبارات المدنية.

لذلك فان الاستخبارات العسكرية لها هي أيضاً جواسيسها في الخارج من «شرعيين» في السفارات والممثليات التجارية والثقافية وغيرها و «غير شرعيين» من أشخاص يعملون على مختلف المستويات.

ومقر الاستخبارات العسكرية في موسكو هو في ساحة ارباتسكايا التي دخل منها نابوليون العاصمة في أيلول ١٨١٢ والواقعة قبالة الكرملين. وبالاضافة الى هذا المقر فان مسؤولي الاستخبارات العسكرية يعملون كذلك من مكاتب المبنى الرئيسي الهائل لوزارة الدفاع عند نهر ماسكفا في شارع موريس توريز الرقم ٣٤.

وبالطبع ليست هنالك أرقام معقولة يمكن الركون اليها حول حجم الاستخبارات العسكرية، مع انه يقال أن بعض الاستخبارات الغربية لديها أرقام تقريبية عن ذلك تحجز عليها في خزائنها. من وجهة عامة، يمكن القول أن الاستخبارات العسكرية هي أصغر من الاستخبارات المدنية، لكنها مع ذلك عالم واسع ونشيط للاستخبارات الخاصة بها

والاستخبارات العسكرية يقال أن كبار المسؤولين فيها هم من المتعلمين كثيراً

ومن خريجي الاكاديمية العسكرية للجيش، وهي أهم كلية حربية لدى الجيش الأحمر تدرّس، الى جانب المواضيع العادية، الكتابة السرية والتصوير على الافلام الصغيرة جداً وكيفية التعامل مع العملاء.

وللاستخبارات العسكرية بضع مدارس موزعة في ضاحية موسكو لتدريب العملاء «غير الشرعيين»، بينها واحدة قائمة في مبنى سكني يقع في شارع دورو غوميلو فسكايا بولشايا في موسكو.

وجميع هذه المدارس والمؤسسات التابعة للاستخبارات العسكرية، ليست لها أرقام هاتف مدرجة في دليل الهاتف.

وبين أهم الجواسيس الذين عملوا للاستخبارات العسكرية بنجاح، كان الألماني ريتشارد سورج الذي ترأس حلقة الاستخبارات العسكرية السوفياتية في اليابان من أيلول ١٩٣٣ الى تشرين الأول ١٩٤١. سورج كان من الناحية الرسمية مراسلاً لصحيفة فرانكفورتر تسايتونغ وكان يتمتع بالثقة التامة للسفارة الألمانية في طوكيو كما كان زميلاً في لعب الشطرنج للمحلق العسكري ثم للسفير الجنرال أويغن أوط. وعن طريق السفارة الألمانية في طوكيو، استطاع سورج أن يطلع على مخططات القيادة الألمانية في برلين.

وقد منح سورج بعد الوفاة أعلى وسام سوفياتي وهو بطل الاتحاد السوفيات فيما سمي أحد شوارع موسكو باسمه، بالاضافة الى تكريمه باصدار طابع بريدي يحمل صورته.

سميرش دائرة المتخصصين بالقتل

بين أفظع ما لدى الاستخبارات السوفياتية هو ما يسمى «سميرش».

سميرش هي اختصار لكلمتين مدغمتين هما «سميرت شبيونام» أي «الموت للجواسيس». وبالتالي فان سميرش هي، بتسمية أخرى، مؤسسة القتل الرسمية لدى الحكومة السوفياتية.

سميرش كانت قائمة خلال الحرب العاليمة الثانية ولو على نطاق أضيق مما تفتقت عنه خيالات الكثيرين. أصل هذه المؤسسة يعود الى العام ١٩٢١ عندما تولت «المفوضية فوق العادة لمكافحة اعداء الثورة والقضاء على التخريب» تشكيل وحدات في قلب الجيش الأحمر دعيت «أوسوبيي أوتدل» أي «الفرع الخاص» للتجسس على العسكريين و «لتصريف» العناصر غير الموالية.

رجال الفرع الخاص كانوا يعرفون برقمي الصفرين باللغة الافرنجية، وهما الحرفان الأولان من كلمتي «أوسوبيي أوتدل» باللغة الروسية، وكانوا موزعين بين القوات السوفياتية على مختلف مستويات وحداتها. وخلال الحرب العالمية الثانية، زيد أعضاء هذا الفرع حتى تضخم عددهم كثيراً وأعطوا الاسم الجديد: سميرش.

سميرش كانت لها صلاحيات أوسع بكثير من تلك التي كانت لسابقتها. فبالاضافة الى مهماتها الأساسية، كان عليها التفتيش والعثور على المظليين الألمان الذين يتم انزالهم وراء خطوط الجيوش السوفياتية وكذلك القاء القبض على السوفيات الفارين من وحداتهم العسكرية وعلى جواسيس العدو.

وسميرش زودت بالصلاحيات الكاملة لاجراء محاكمات فورية للجواسيس على

الجبهة ولتنفيذ عقوبة الاعدام الصادرة عن محاكمها.

وفي أواخر الحرب وبعدما بدأت القوات السوفياتية تحتل الأراضي في أوروبا الشرقية، في طريق زحفها الى الأراضي الالمانية، كانت سميرش تتولى مهمة العثور على عملاء الألمان وقتلهم.

ولكن، عام ١٩٤٦، ألغيت مؤسسة سميرش كمؤسسة شبه مستقلة وألحق أفرادها بالاستخبارات حيث لا تزال لها حتى اليوم دائرة خاصة تحت اسم «مكافحة التجسس». ومع ذلك فان المهمة لا تزال هي ذاتها، وهي بث العيون حول القوات المسلحة نفسها.

من وجهة عامة ومهما تغيرت الأسماء بحسب ظروف السلم والحرب، فان لدى الاستخبارات السوفياتية حالياً فرقة خاصة متخصصة بالقتل. اجمالاً كان القتل جزءاً لا يستهان به من مهمات الاستخبارات السوفياتية منذ نشأتها كما كان له دائرة أو دوائر تغير اسماؤها أو تتعدل بحسب الظروف، بغية تنفيذ الاغتيالات في الخارج عن طريق أشخاص متخصصين.

ومن قصص هذه الجماعة الخاصة في قلب الاستخبارات السوفياتية ما يعتبر انموذجاً أو أساساً لعدد وفير من القصص الخيالية أو البوليسية الفعلية.

منها مثلاً هذه القصة التي حدثت في نيويورك:

والتر كريفيتسكي، الذي كان ذات يوم رئيساً، للاستخبارات العسكرية السوفياتية في أوروبا الغربية، أصبح معروفاً بعدما هرب الى الغرب عام ١٩٣٨. بعد تلك الفترة بقليل، وفيما كان يتناول طعامه في أحد مطاعم مانهاتان في قلب نيويورك، تعرف الى وجه عميل سوفياتي يدعى سيرجي باسوف. فلما نهض كريفيتسكي وغادر المطعم، لحق به باسوف بغية اغتياله. ولم يستطع كريفيتسكي أن ينقذ نفسه من الموت الا بعدما هرب الى قلب المبنى الذي تقع فيه صحيفة «نيويورك تايمز».

في كانون الثاني ١٩٤١ شوهد في أوتوبيس مانهاتان في نيويورك مواطن هولندي يدعى هانز بروسه، وهو قاتل في خدمة الاستخبارات السوفياتية وممن كانوا يعملون لحساب كريفيتسكي. على الفور نبه كريفيتسكي الى وجود شخص خطر.

صباح ١٠ شباط دخلت الخادمة الغرفة الرقم ٥٣٢ في فندق بلفو الواقع على

مقربة من محطة القطارات فوجدت شخصاً مسجى في أرضها. عند التدقيق وجد أن الشخص مسجل في الفندق تحت اسم صموئيل غنزبيرغ، وهو اسم كريفيتسكي عند الولادة. الجثة كانت مشوهة لأن التحقيق أثبت أن الوجه مصاب برصاصة دمدم اطلقت من مسافة قريبة جداً من مسدس عيار ٣٨ هو المسدس نفسه الذي اشتراه القتيل لحماية نفسه يوم نبه الى وجود القاتل في أثره.

هذه الطريقة في الاغتيال، الذي يبدو وكأنه انتحار، هي احدى الوسائل التي تعمد الاستخبارات السوفياتية تنفيذها. وقد أيد هذا الكلام نيقولاي خوخلوف الذي هرب الى الغرب عام ١٩٥٤ بعد سنوات من الخدمة في صفوف الاستخبارات وبعدما طلب اليه تنفيذ اغتيال وصفها هو على النحو التالي:

السفير السوفياتي في واشنطن من ١٩٤٧ الى ١٩٥٢ الكسندر بانيوشكين أصدر إليه شخصياً الأمر باغتيال جيورجي أوكولوفيتش، وهو أحد زعماء منظمة معادية للسوفيات من المهاجرين القدامى تدعى «الاتحاد الوطني للمتعاونين الروس».

بانيوشكين أشرف شخصياً على اعداد مسدس خاص لا صوت له ويعمل بالكهرباء وله شكل يشبه علبة السجائر، يطلق القذائف المصنوعة من سيانيد البوتاسيوم.

وبعد تجربة هذا المسدس بنجاح على فخذ خروف، طار خوخلوف الى فرانكفورت في شباط ١٩٥٤ لتنفيذ العملية وتصفية أوكولوفيتش. وبدلاً من أن ينفذ الخطة ويصفي الرجل، فقد توجه خوخلوف الى «الاتحاد الوطني» وطلب من الموظفين هناك مساعدته على اخراج زوجته وطفله من الاتحاد السوفياتي.

وفي الوقت المناسب تدخل عملاء الاستخبارات المركزية الأميركية الذين لم يستطيعوا أن يصدقوا أن هذا الرجل المثقف هو ضابط في الاستخبارات السوفياتية والذين لم يغيروا رأيهم باعتقادهم الا بعدما أثبت لهم ذلك بتسليم المسدس الخاص الذي يشبه علبة السجائر.

وانتقل خوخلوف الى الغرب من غير أن يستطيع الأميركيون مساعدته على اخراج زوجته وابنه من الاتحاد السوفياتي.

وبعد انقضاء ثلاث سنوات على ذلك، أي عام ١٩٥٧، تمكن العملاء

السوفيات من دس مادة سامة قوية في فنجان القهوة خلال مؤتمر للمهاجرين في فرانكفورت. ذلك السم كان التاليوم ذو الاشعاع الذري، وهو معدن نادر ذو بياض يميل ى الزرقة ويستعمل بالدرجة الأولى في صنع السموم المضادة للجرذ وفي صنع الضوء الأخضر في علامات السير المضيئة.

وعلى الفور تحول جلد خوخلوف الى خليط من الخيوط الرمادية والبقع السوداء فيما تساقط شعره وتحول دمه الى بلاسما. ومن حسن حظه أنه أسعف طبياً على الفور وأعطي دماً جديداً فعاش.

وهناك قصة أكثر غرابة في عالم الاغتيال التابع للاستخبارات السوفياتية.

انها قصة بوغدان ستاشينسكي وهو القاتل المحترف في خدمة الاستخبارات السوفياتية الذي حكمت عليه المحكمة الاتحادية العليا في مدينة كارلسروه بالمانيا الغربية بالسجن ثماني سنوات عام ١٩٦٢.

قصة هذا الرجل مستخلصة من وقائع جلسات محاكمته ومن حيثيات الحكم الصادر عليه.

عام ١٩٥٧ طلبت الاستخبارات السوفياتية من ستاشينسكي، وهو عميل سوفياتي في الأراضي الالمانية، ان يصفي ليف ريبيت، وهو زعيم أوكراني منفي يقيم في مدينة ميونيخ. ولاتمام العملية أعطى ستاشينسكي اسم سيغفريد دريغر، المواطن الألماني المولود على مقربة من بوتسدام، المدينة الواقعة الى الجنوب من برلين (ستاشينسكي مولود في جنوب أوكرانيا).

وعلى الأثر قام الرجل بجولته الاستطلاعية الأولى الى ميونيخ في نيسان وراقب ريبيت لدى خروجه من مكتبة الواقع في كارلز بلاتس ثم لحق به الى الحافلة الكهربائية التي صعد اليها. خلال ذلك كان ستاشينسكي يضع على عينيه نظارتين سوداوين، تنفيذاً للأمر الصادر اليه بهذا المعنى. لكنه، عندما لاحظ انه الشخص الوحيد في الحافلة الكهربائية الذي يضع النظارتين السوداوين، شعر بالارتباك.

وعاد ستاشينسكي الى ميونيخ مرتين آخريين في أيار وحزيران في سبيل أنجاز تصفية ريبيت وفي كلتا المرتين، استأجر غرفة في فندق غرونفالد يستطيع منها أن يراقب مكتب ريبيت في المقر الذي تصدر عنه صحيفة المهاجرين الأوكرانيين، وهو مكتب كان

يمضي فيه ريبيت بعض الوقت يومياً قبل أن يتوجه الى مكتبه الرئيسي في كارلزبلاتس.

وحل شهر أيلول فوصل الى كارلزهورست، وهو مقر القيادة السوفياتية العليا لألمانيا الشرقية في برلين الشرقية، خبير من موسكو ليشرح كيفية استعمال السلاح الذي سيتم به الاغتيال.

هذا السلاح ورد وصفه في المحكمة الألمانية على النحو التالي:

كان السلاح أنبوباً معدنياً بسماكة الاصبع البشرية وبطول ١٧ سنتيمتراً لكنه مؤلف من ثلاث قطع تجمع بعضها الى بعض. في المنطقة السفلى كان هناك زناد للاطلاق يلهب كمية من البارود مما يؤدي الى تحريك قطعة معدنية في الأنبوب الأوسط والى انطلاقها عبر زجاجة عند مخرج الأنبوب الثالث. هذه الزجاجة تحتوي على سم يبدو كالماء ويخرج من الأنبوب على شكل بخار، فاذا ما استعمل هذا السلاح ضد وجه الضحية ومن مسافة نصف متر فان الشخص يموت فوراً بمجرد تنشق البخار.

هذا السم هو الأسيد البروسيك وهو لا لون له وهو النوع السائل من السيانيد، أحد أقوى أنواع السموم التي عرفها الانسان. قدماء المصريين كانوا يصنعونه بغلي أوراق شجر الدراق وبزره بعد خلطها بأنساب معينة. والترياق الخاص للحماية هو تيوسلفات الصوديوم وهو على شكل بودرة بيضاء.

وجاء ستاشينسكي الى ميونيخ بطريق الجو من برلين الغربية في ٩ تشرين الأول ١٩٥٧ تحت اسم سيغفريد دريغر وحل في أحد فنادقها وبدأ لمدة ثلاثة أيام يتناول الترياق المضاد للسم عند الصباح.

في اليوم الثالث، وهو ١٢ تشرين الأول، رأى ستاشينسكي ضحيته يحاول دخول مبنى مكتبه فلحق به عند الدرج ووجه الى وجهه أنبوبه القاتل وأطلق السم عليه فقتله للحال دون أن يصدر عن الضحية أي صراخ أو أن يحصل أي نزف دموي. كل ما صدر كان صوتاً بسيطاً بعد الضغط على الزناد.

انهار ريبيت على الدرج بكل صمت وخرج ستاشينسكي من الباب وأسرع الى كسر زجاجة الترياق المضاد للسم لتناول ما فيها. وبعد قليل رمى ببقية السلاح الذي في يده في مكان لا يهتم له أحد ثم سافر بالقطار من ميونيخ الى فرانكفورت ومنها بالطائرة الى برلين.

ريبيت عثر عليه جثة هامدة على الدرج حيث أغتيل واعتبرت الشرطة في ميـونيخ أنه توفي بالسكتة القلبية.

ولما كانت العملية ناجحة الى حد مـذهل فقـد قررت الاستخبـارات السوفيـاتية ارسال ستاشينسكي من جديد الى ميونيخ عام ١٩٥٩ للعثور على اسطفـان بانـديرا، وهو مهاجر أوكراني مرموق.

ستاشينسكي عثر على عنوانه حيث يقيم تحت اسم اسطفان بوبل.

وفي ١٥ تشرين الأول كـان ستاشينسكي بـانتظار ضحيتـه مزوداً بمسـدس مماثـل لمسدسه السابق ولو أنه أكثر تطويراً. فما ان وصل بانديرا الى المنزل وانصرف الى زرابـة سيارته في الكاراج حتى كان ستاشينسكي ينتظره عند باب الدرج من الداخل.

وصل بانديرا الى باب الدرج حاملاً سلة من البندورة. فلما هم بفتح الباب بيده اليسرى كان ستاشينسكي يطلق عليه القـذيفة السـامة من وراء صحيفـة كانت تغـطي المسدس.

على الأثر كـرر ما فعله في السـابق اذ رمى في مكان لا يكـترث له أحـد وانطلق بالقطار الى فرانكفورت ومنها بالطائرة الى برلين.

هذه المرة جرى تشريح للجثة تبين فيه وجود بعض التقطع في وجه الضحية ناتج عن نتف الزجاج. أما الوفاة فقد أعلن انها نتجت عن التسمم بالاسيد بروسيك.

ستـاشينسكي أفـاد في المحكمـة في مـا بعـد ان شيليبين، وهـو آنـذاك رئيس الاستخبارات السوفياتية، كـافأه شخصيـاً على مـا قام بـه وقلده وسام العلم الأحمـر في موسكو خلال كانون الأول ١٩٥٩.

بعد ذلك بدأت العناصر الأنسانية الشخصية تلعب لعبتها.

ستاشينسكي بدأ ضميره يوبخه على جريمتيه بالاضافة الى انه وقـع في غرام فتـاة المانية شرقية تدعى اينغه بول سمحت له الاستخبارات بالزواج منها في نيسان ١٩٦٠. ولكن، ولما كانت الزوجة قد اشتاقت لرؤية أهلها، فقد سمحت لها موسكو بالسفر الى المانيا الشرقية حيث وضعت وليدها في آذار ١٩٦١ فيما شعرت الاستخبارات في الوقت نفسه بأن ستاشينسكي بدأ يستعد للهرب الى الغرب فحرمت عليه اللحاق بزوجته.

في ٩ آب ١٩٦١ أخبرت اينغه زوجها بالهاتف بأن الصبي قد مات، فسمحت الاستخبارات له بالسفر جواً الى المانيا الشرقية للمشاركة في الدفن ولكن تحت حراسة قوية. ولما وصل الى بلدة دالغوف الواقعة على مقربة من برلين لتحضير الدفن اتفق مع زوجته على الهرب الى الغرب يوم الدفن، أي ١٢ آب ١٩٦١.

ما جرى بعد ذلك هو خروجهما من باب خلفي للمنزل، بسبب وجود المراقبة السرية في ثلاث سيارات متوقفة أمام البيت في الشارع، ثم الركض في الأحراش والأراضي الزراعية ثم الانطلاق بسيارة تكسي الى فالكنزي الواقعة في ضاحية برلين ومن هناك بسيارة تكسي أخرى الى برلين الشرقية ومن ثم بالمترو الى برلين الغربية.

والغريب انه لو قرر الزوجان الهرب في اليوم التالي، اي ١٣ آب ١٩٦١، لما استطاعا ذلك لأن جدار برلين بدىء انشاؤه في ذلك اليوم بالذات.

ومن ناحية أخرى، ثمة تناقض في الرأي حول الأسم الجديد لفرع القتل ضمن الاستخبارات.

المسؤول السوفياتي في الاستخبارات الهارب الى الغرب ديريابين شهد أمام احدى لجان الكونغرس الأميركي في آذار ١٩٦٥ بأن الفرع كان حتى وفاة ستالين يدعى سبيتسبيرو، أي المكتب الخاص ثم أعطى تسمية جديدة هي الشعبة التاسعة في مديرية التجسس الخارجي. أما في العام ١٩٦٥ فقد أصبح اسمها الشعبة الثالثة عشرة وان أهم مهماتها الاغتيال والارهاب.

وبالاضافة الى ذلك فان رجال الاستخبارات السوفيات، عندما يتحدثون عن الشعبة الثالثة عشرة يطلقون عليها تسمية «دائرة الشؤون المبللة» (بالروسية «موكريي ديلا»). الاجانب أخذوا الأسم وحوروه الى «دائرة الشؤون القذرة».

على صعيد آخر، حشر رئيس الاستخبارات المركزية الاميركية الأسبق آلان دالس انفه في التسمية وقال ان هذا الفرع يدعى فرع «العمل التنفيذي». كما قال ان رئيس الفرع هو الجنرال نيقولاى رودين الذي استعمل اسماً مستعاراً هو الجنرال كوروفين عندما كان ملحقاً بالسفارة السوفياتية في لندن من ١٩٥٣ الى ١٩٦١

ويضيف دالس ان رودين كان في لندن مشرفاً على جاسوسين كبيرين للسوفيات في بريطانيا هما جورج بليك ووليم جون فاسال. ولكن بعد القبض على فاسال، اصبح رودين في موقف محرج فنقل الى موسكو حيث تسلم رئاسة فرع القتل.

الاستخبارات والحكّام السوفيات

من المهم جداً الحديث عن الاستخبارات السوفياتية، من جهة كونها اداة هائلة للنفوذ ضمن أراضي الاتحاد السوفياتي، نسبة الى ما لها من وسائل مخابرات ومواصلات، ووثائق ومئات ألوف العملاء وحراس الحدود وأسلحة سرية.

بكل بساطة، يمكن التساؤل: كيف يستطيع زعماء الاتحاد السوفياتي التحكم بهذا الجهاز للافادة منه بدلاً من الانصياع له؟

الأجوبة كثيرة، لكن بعضها يقول أن الزعماء لا يتحكمون بالاستخبارات في كل حين وكما يشاؤون.

ستالين، من جهته، كان مشرفاً اشرافاً قاسياً على الشرطة السرية واستخدم الارهاب والتنكيل لتدعيم ديكتاتوريته كما استخدم الدسائس في قلب المؤسسة لتحقيق الدسائس في قلب المؤسسة لتحقيق التوازن بين العناصر المتسلطة.

بعد وفاة ستالين عام ١٩٥٣ قل الاشراف الأعلى المباشر على الجهاز. تنحية خروتشوف كانت من الدلائل الواضحة على أن جهاز الاستخبارات لا يسير في ركاب كبار الحكام السوفيات.

من حيث المبدأ فان احدى المهمات الأساسية هي حماية زعماء الكرملين.

ولما كان جهاز الاستخبارات يشرف اشرافاً دقيقاً على جميع وسائل الاتصالات والمواصلات، فانه قادر في كل لحظة على معرفة ما يجري. ومن حيث المبدأ أيضاً فان سميتشاسني كان قادراً عام ١٩٦٤ على أن ينبه خروتشوف الى ما يجري من

استعدادات ضده وعلى أن يستخدم جهاز الاستخبارات لخنق التكتلات المعارضة لخروتشوف في الكرملين وهي لا تزال في مهدها.

من حيث الواقع، لم يحدث أي شيء من كل هذا. سميتشاسني كان على علم بكل ما كان يحاك ضد خروتشوف في الكرملين، والأرجح انه تصرف وكأنه كان منحازاً ضد رئيس الحكومة، ولو بحذر شديد.

والفريد في الأمر أن خروتشوف استخدم الاستخبارات السوفياتية كوسيلة للاتصال السري المباشر مع الرئيس كينيدي خلال أزمة صواريخ كوبا في خريف ١٩٦٢. الأمين الصحافي السابق في البيت الأبيض بيار سالينغر قال في مذكراته انه أجرى اجتماعاً سرياً في فندق كارلايل النيويوركي في أيلول ١٩٦١ مع مسؤول سوفياتي يدعى جيورجي بولشاكوف سلمه رسالة من ست وعشرين صفحة من خروتشوف الى كينيدي.

بولشاكوف كان مقيما في واشنطن بصفته محررا في مجلة «الاتحاد السوفياتي» الصادرة باللغة الانكليزية، لكنه كان في الوقت نفسه مسؤولا كبيرا في الاستخبارات السوفياتية.

سالينغر قال ان بولشاكوف ابلغه ان الرسالة سرية للغاية وان السفير السوفياتي نفسه في واشنطن ميخائيل منشيكوف لم يعرف بأمرها.

تيودور سورينس، وهو مساعد آخر في البيت الأبيض خلال تلك الحقبة، قال في مذكراته أيضاً إن بولشاكوف سلّمه رسالة من خروتشوف إلى كينيدي ضمن صحيفة مطوية فيما كان الاثنان يتمشيان في أحد شوارع واشنطن.

الافتراض في البيت الأبيض آنذاك كان أن خروتشوف ربما لجأ إلى هذه الوسيلة في الاتصال الشخصي السري من أجل إبعاد رسائله عن بعض الأشخاص في الحكومة وربما بعض الأشخاص في رئاسة الحزب أو كبار العسكريين.

من الناحية الرسمية، فإن الاستخبارات السوفياتية هي بمثابة لجنة تابعة لمجلس الوزراء، رئيسها هو رئيس الحكومة السوفياتية بالذات، ومن الناحية الرسمية أيضاً فإن اللجنة مسؤولة أمام رئاسة مجلس السوفيات الأعلى أي أمام رئيس الدولة. ومن الناحية الرسمية أيضاً وأيضاً فإن رئاسة مجلس السوفيات الأعلى تنتخب في جلسة مشتركة لمجلس السوفيات الأعلى.

من الناحية العملية، فان لعبة القوى لحقيقية هي من أعلى الى أسفل وترتكز على أجهزة الحزب التي تتوازى مع أجهزة الحزب التي تتوازى مع اجهزة الادارة الحكومية. والواقع أن كلا من الحكومة والحزب يشرف بطريقته على الاستخبارات.

في أمانة سر الحزب دوائر كثيرة تزيد في عددها على الثلاثين، منها واحدة مشرفة باسم الحزب على الاستخبارات المدنية والعسكرية معاً.

الشخص المسؤول في الدائرة الحزبية عن الاستخبارات كان حتى تشرين الأول ١٩٦٤ الجنرال نيقولاي رومانوفيتش ميرونوف. كان في هذا المنصب منذ ١٩٥٩ بعدما كان زعيماً كبيراً للحزب في لينينغراد.

ميرونوف كان الشخص الحزبي الذي كان سميتشاسني مسؤولاً أمامه. في حال الاقرار بأن الاستخبارات كانت على علم بالحركة ضد خروتشوف، لكان على ميرونوف أن يعلم بذلك. كذلك كان عليه من حيث المبدأ أن يبلغ بذلك خروتشوف، المسؤول الأكبر في الحزب.

ومهما يكن من أمر، فان ميرونوف كان يعرف أشياء كثيرة.

في ١٩ تشرين الأول، بعد تنحية خروتشوف بأربعة أيام، سافر ميرونوف برفقة الجنرال بيريوزوف رئيس أركان القوات المسلحة، أي الشخص المهم الثالث في وزارة الدفاع، في رحلة الى بلغراد للاشتراك بالاحتفال السنوي العشريني لتحرير عاصمة يوغوسلافيا من الاحتلال الألماني على يد الجيش الأحمر.

على متن الاليوشن ـ ١٨ كان هنالك خمسة ضباط آخرين واحد عشر شخصاً بين ملاحين ومضيفين ورجال أمن سريين.

بيريوزوف ساعد في تحرير بلغراد بصفته قائداً يومذاك للجيش السابع والثلاثين، كما أنه ترأس القوات الاستراتيجية الصاروخية السوفياتية حتى أوائل ١٩٦٣. ولكن بعد انتهاء أزمة صواريخ كوبا، عينه خروتشوف بديلاً للجنرال زاخاروف كرئيس للأركان.

وعندما اقتربت الطائرة من بلغراد وكانت على علو ١٥٠٠ متر، كان الطقس ممطراً وسرعة الريح قوية. لذلك نصحها برج المراقبة بأن تنزل الى علو ١١٠٠ متر وان

تقترب من المطار من الناحية الغربية. بعد مرور أربع دقائق على ذلك كانت الطائرة محطمة شر تحطيم على تلة علوها ۱۲۰۰ متر كما قتل جميع من فيها.

الاستنتاجات والتفسيرات كثيرة وكلها ليست قليلة الأهمية. طيار سوفياتي هارب الى الغرب قال ان آلة ضبط العلو في الطائرات السوفياتية هي أضعف نقطة فيها وأسهل شيء يتعرض للتعطيل المتعمد.

بعد كل هذا، كل التفسيرات معقولة.

أميركا الصغرى في الاتحاد السوفياتي

أفظع ما لدى الاستخبارات السوفياتية هو تلك البلاد الصغيرة التي تدعى الولايات المتحدة الصغيرة. هنالك ما يسمى ميني ولايات متحدة في الأراضي السوفياتية، وهي منطقة يرجح وجودها على مقربة من بحر البلطيق مخصصة بكاملها لتكون نسخة طبق الأصل عن الولايات المتحدة.

هنا نيويورك، وهناك سان فرنسيسكو وهذه شيكاغو وتلك ميامي.

الأشخاص فيها يتروقون الحليب مع الكورن فليك ويشربون القهوة الاميركية ويدفعون الثمن بالدولار والسنت، يتغدون الستيك أو الهمبرغر أو التشيزبرغر مع الفرنش فرايز ويشربون الآيس تي ويلعقون بعد ذلك الساندي أو الآيس كريم.

الدفع دائماً بالدولار والسنت والحديث باللهجات الأميركية الصرفة، تمريقاً لها عن الانكليزية الصرفة. النيويوركي يتحدث بلهجته الخاصة والتكساسي بلهجته المميزة. النيويوركي يعرف مانهاتان وبروكلين وكوينز وبرونكس ويتحدث في البرامج الثقافية والمسرحيات التي تمثل كل يوم في برودواي. يتأفف من كثرة الازدحام في السابواي وينزعج من الهيبي في سنترال بارك. يتمشى في وول ستريت في داونتاون مانهاتان ويقود سيارته البويك الى الابتاون عند جامعة كولومبيا ويمر عبر حي هارلم اليوم ويتجنبه غداً.

نيويورك المصغرة تقوم في تلك الولايات المتحدة المصغرة فوق أرض الاتحاد السوفياتي. كذلك سان فرنسيسكو وكذلك ديترويت وكذلك سينسيناتي وكذلك أية مدينة أو أية قرية.

هذه الولايات المتحدة المصغرة هي من انتاج واخراج الاستخبارات السوفياتية

لتدريب أفضل الجواسيس الذين سيدخلون الولايات المتحدة بمثات الوسائل المختلفة وكأنهم من أبنائها الذين ولدوا فيها ودرسوا في مدارسها وترعرعوا في ربوعها.

السوفياتي الذي يخصص للاقامة في الولايات المتحدة الصغرى ينسى انه سوفياتي. لا يأكل طبخة سوفياتية ولا يرتدي بزة سوفياتية ولا يركب سيارة سوفياتية ولا يسكن في منزل سوفياتي. في الولايات المتحدة المصغرة كل شيء أميركي من البيت الى المطبخ الى غرفة النوم الى التدفئة والتبريد المركزيين الى أفلام رعاة البقر الى الموسيقى الحديثة الى كل المجلات والصحف الصادرة في أميركا الى اللباس الى الكتب الى المدرسة الى الغزل في السيارة الى البيع بالتقسيط الى السوبرماركت الى الباركينغ.

السوفياتي في الولايات المتحدة المصغرة يشتري الأسهم عبر البروكر في وول ستريت. اسهم كرايزلر ارتفعت وأسهم بوينغ على حالها وأسهم فورد ستتحسن وأسهم لوكهيد قد لا تقوم لها قائمة وأسهم بنسلفانيا سنترال على وشك الانهيار. كل يوم يدور النقاش في الكافتيريا حول الأسهم بين هذا «الاميركي» وذاك «الاميركي».

قيل الكثير والى حد الخيال عن الولايات المتحدة المصغرة هذه. ما من أحد من الغرب وصل اليها. لكن بعض السوفيات الهاربين تحدثوا عنها وبعض العملاء السوفيات وصفوا بعض أحوالها وأخبارها. جواسيس «مشاهير» في الولايات المتحدة، مثل رودولف آبل، هم من خريجها.

هؤلاء الجواسيس ينتهي بهم المقام في الولايات المتحدة الحقيقية وبأسماء أميركية ويصبحون «مزروعين» هناك للقيام بكل ما يطلب منهم.

كيف؟

خريجو الولايات المتحدة المصغرة يحصلون على جوازات سفر أميركيين متوفين ويدخلون الولايات المتحدة بشكل طبيعي جداً. اذا قال الروسي أنه من نيويورك فهو من نيويورك فعلاً، يعرف أحياءها وأصغر أزقة الحي «الذي يقيم فيه». لهجته ولكنته وتصرفه ممتعضاً أو مبتهجاً هي كلها من جو نيويورك أو مبتهجاً هي كلها من جو نيويورك ونيويورك وحدها.

اذا قال الروسي انه من شيكاغو فهو من شيكاغو حقاً. وهكذا الأمر مع سان فرنسيسكو أو ميامي أو مينيابوليس أو نيواورلينز. الأميركي صاحب الأسم الأصلي مات

والـروسي يحل محله. رجـل الحدود في المطار يرى أمـامه جـواز سفر أمـيركياً وشخصـاً أميركياً بلباسه ومنطقه وتفكيره، ولا يستطيع أن يقرر أن صاحب جواز السفـر الحقيقي شخص ميت وملغى من سجلات النفوس.

عشرات السـوفيات وربما المئات والألـوف هم الآن في الولايـات المتحدة. انهم يمارسون اشغالاً عادية مثل سائر المواطنين الحقيقيين. هذا تاجر وذاك مـوظف في شركة طيران وذاك معلم في مدرسة. هذا مـوظف في دائرة الضرائب وذاك مـوظف في البلدية وذلك سائق سيارة تاكسي.

أوائل الستينات حـدث في مدينـة أميركية أمر شيَّب رؤوس رجال الاستخبـارات الأميركية.

كـولونيـل في الجيش الأميركي، لـه مداليـات استحقاق كثـيرة، تعرض لحـادث اصطدام في سياراتـه. أضاع الـرشد وهـو ملقى في الشارع وراح يتمتم. في المستشفى بقي يتمتم.

التمتمة كانت بالروسيـة. عند فقـدان الرشـد والوعي تحضر من العقـل الباطني أمور غريبة.

تبين بالنتيجة أن الكولونيل الذي حارب في كوريا وهنـا وهناك بـاسم الولايـات المتحدة، ليس الا شخصاً سوفياتيـاً «مزروعـاً» في الولايـات المتحدة منـذ نهاية الحـرب العالمية الثانية.

أكـثر من خمس عشرة سنة بقي هـذا السوفيـاتي في الولايـات المتحـدة وخـدم في جيشها وترقى في رتب ضباطها وحارب الشيوعيين في كوريا وربما قتل العشرات منهم، ومـا ذلك الا تنفيـذاً للأوامـر الصادرة اليـه من موسكـو اتمامـاً لانجاح عمليـة محكمـة التخطيط.

وشابت رؤوس كثيرة في واشنطن وفقد النوم كثيرون.

ثمة أمر مهم تجدر الاشارة اليه بالنسبة الى الاستخبارات السوفياتية.

الحديث عن «أميركا الصغرى» هو واحد من الأمثلة الحية الثي تعطي في مجال الحديث عن التطور الكبير الذي حدث ضمن مؤسسة الاستخبارات هذه.

في تاريخ الاستخبارات السوفياتية، مرت حقبات كان الهواة والأصدقاء والمحبون الرومنسيون يشكلون عنصراً فعالاً جداً من عناصر الجهاز.

الأعضاء المنخرطون في الأحزاب الشيوعية الموزعة في بلدان العالم كانوا «يتبرعون» للاستخبارات السوفياتية بما يعرفونه من أخبار وما يتلصلصون عليه من معلومات وما يسرقونه من وثائق. والاصدقاء المحبون كانوا يقومون بالمهمات نفسها وكذلك الهواة المهووسون.

ولكن الغلطة الرئيسية لهؤلاء كلهم كانت في أنهم لا يتقيدون بنظام وفي أنهم كانوا يضايقون موسكو كثيراً. مخططات كثيرة تتزحلق على قشرة موز الغيرة غير المنظمة والتصرف غير المدروس.

منذ أواسط الخمسينات قررت موسكو أن تعيد الى استخباراتها والى جهاز عملائها التنظيم المبني على أساس مهني صارم، خاصة بعدما أصبحت الظروف تتطلب في هذا الحقل تخصصاً بارعاً وكاملاً. وقد ساعدها في التنظيم الجديد ما عثرت عليه من لوائح بأسماء كبار الجواسيس المحترفين القدامى وهيئات التجسس الجديدة، بالاضافة الى ما كانت تحتفظ به في أحد الأقبية من لوائح كاملة بالجواسيس جيء بها في قطار خاص من برلين فور احتلالها عام ١٩٤٥.

ومنذ ذلك الحين بدأت موسكو تتخلى تدريجياً عن عملائها الهواة والمحبين والأصدقاء وعن بعض الشيوعيين، متنبهة في ذلك الى الخطر الكامن في بعض الأشخاص عند التخلي عنهم. بعض هؤلاء الأشخاص سلموا لقمة سائغة الى الاستخبارات المنافسة لتزج بهم في السجون، أو جرت تصفيتهم بالاغتيال.

وعادت موسكو الى الوسائل الكلاسيكية في تربيط العميل، أي الى الرشوة المالية والضغط المعنوي الساتر لفضيحة معينة واستغلال المنحرفين جنسياً واستثمار الحاقدين على بلدانهم. وهؤلاء كلهم يتلقون الأوامر وينفذونها ولا يجرأون على التذمر أو التلكؤ لأن قبضة موسكو الحديدية تشدهم من أعناقهم.



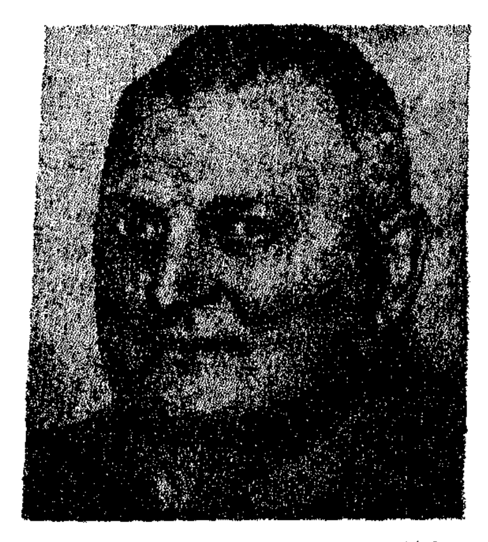
بليك



هيس



فرنتسل



فيلفه

جواسيس عملوا للسوفيات

الـ K.G.B.
من عصر القوة الى الانحطاط

«في السابق كنّا نملك القليل من الخبز والكثير من الكرامة، لكننا اليوم لم نعد نملك لا الخبز ولا الكرامة». هذا الكلام لجنرال سوفياتي لخّص واقع الاتحاد السوفياتي الحالي.

فمن عصر القوة... عصر المنافسة مع القوة العظمى الثانية الولايات المتحدة الأميركية إلى عهد التبعية وتحويل الاتحاد السوفياتي إلى دولة تشحذ من الطعام والمال من أجل إطعام شعبها واستمرار مؤسساتها.

هذا الواقع جعل العالم كله يعيش وحدانية القرار بدل ازدواجيته ووصع كل مصائر شعوب العالم وكأنه رهن بكبسة زر من البيت الأبيض الأميركي.

انعكس هذا الانقلاب الخطير على عمل أجهزة الاستخبارات الروسية فأضحت بين ليلة وضحاها ذلك الحمل الوديع الذي لا قدرة له على مواجهة ومنافسة التنين بعد أن خسر كل مواطىء أقدامه خارج روسيا وبالذات دول الكتلة الشرقية ودول كثيرة كانت تعتبر تاريخياً حليفة بل مساندة للمدّ الماركسي الشيوعي.

لا مبالغة في القول إن العالم اليوم أصبح عالماً أميركياً يتحكّم بكل قراراته وحتى بلقمة عيشه المفتاح الأميركي وذلك حتى إشعار آخر.

مع سقوط «العظمة» السوفياتية بعد التغييرات الجذرية والتحوّلات الخطيرة داخل المجتمع السوفياتي نتيجة لسياسة البيريسترويكا جر هذا السقوط على كل المؤسسات العسكرية والمخابراتية فأضحى المئات من رجالات الـ K.G.B. يتدافعون على أبواب السفارات الأجنبية في أوروبا ليقدّموا كل ما لديهم من معلومات وسرد كل

المهام التي كُلِّفوا بها سابقاً أو لعرض الجديد من خدمات وللإجابة عن كثير من الاستفسارات والتساؤلات عن عمليات مخابراتية سابقة تورّطوا بها أو إيجاد حلول لألغازها.

هذه الطوابير(*) من الجواسيس يقف الكل بانتظار دوره، وحسب المعلومة التي يقدّمها، يحصل مقابلها على حفنة من الدولارات، أو لعل بعضهم يطمح لأكثر بإيجاد وظيفة له في الغرب الأميركي حتى لو كانت وظيفة مخابراتية ضمن المخابرات المركزية الأميركية.

فاللجوء المخابراتي الشرقي وتحديداً للغرب سيعدم بلا شك أي فعالية لهذا الجهاز المخيف الـ K.G.B. الذي استطاع خلال فترة السبعينات والثمانينات أن يصل إلى مخادع أكثر المسؤولين الأوروبيين والغربيين وأن يبقى هاجس بطشه وقدرته الفائقة ظلالاً على كل أنحاء الكرة الأرضية.

ووداعاً للـ K.G.B. فالحاضر والمستقبل وحتى إشعار آخر هو للتنين الذي لا يتورَّع عن افتراس الذراع بالكامل غير مكتفٍ بلحس الإصبع.

(*) راجع كتاب «جواسيس للبيع» إصدار ١٩٩٠ ـ دار الحسام: بيروت.

الوجه الحقيقي لعميل مزدوج غورديفسكي يكشف من مخبئه أسرارا وروايات

يبدو هذا الرجل الانكليزي بالنسبة إلى جيرانه في لندن ساكناً هادىء الطبع. لكن «أوليغ غورديفسكي» يخفي حقيقته ويبدل لحيته باستمرار، فالصورة التي نشرت له في الصحف أظهرت رجلاً ذا لحية كثيفة وشعر أملس أشقر اللون، ويرتدي نظارات عريضة، وها هو اليوم على حقيقته من دون زيف بشعره الفضي الخفيف ونظاراته الصغيرة الدقيقة، قصير القامة، سمين، إنه رجل الـ «ك. ج. ب» الذي ترك جهاز الاستخبارات السوفياتي والذي لديه الكثير ليخبرنا إياه...

حياته قصة تُروى. وقد رواها بالفعل في كتاب أسماه «قصة الـ «ك. ج. ب» الداخلية» بالتعاون مع المؤرخ كريستوفر اندرو. ما الذي دفع العميل السابق في جهاز الاستخبارات السوفياتي إلى الكشف أخيراً عن حقائق لا تزال مجهولة وهو الذي اختفي في ١٩ تموز ١٩٨٥ في غابة بالقرب من موسكو ثم عاد وظهر مجدداً في لندن بعد أيام عدة. «إنه التاريخ، كما يقول، لأجل التاريخ ولأجل زوجتي «ليلى» وابنتي «ماريا» (١٠ سنوات) و«آنا» (تسع سنوات) اللواتي بقين في الاتحاد السوفياتي. وفي آذار الماضي فقط، سُمح للعائلة أن تحادث «غورديفسكي» هاتفياً. لكن هذه المحادثات تخضع للمراقبة وتبقى منقوصة ومشوهة ذلك أن الموضوع الهاجس، وهو انضمام العائلة إلى الوالد في لندن، يبقى في الأذهان دون اللسان.

وحتى العام ١٩٨٥، كان «غورديفسكي» أحد أهم عملاء الـ «ك. ج. ب» في أوروبا الغربية. واحد أهم الركائز... في أجهزة الاستخبارات الغربية. عميل مزدوج كشف عدداً من عمليات التجسس السوفياتية في أوروبا، وعكس، حسبما يؤكد عدد من الخبراء، الأفكار الغربية على الكرملين السوفياتي.

«في بداية الثمانينات، ساد الهذيان أوساط موسكو بسبب عملية «ريان» أو هجوم الصواريخ النووية. وفي تشرين الثاني ١٩٨١، تلقى العميل السابق رسالة بالشيفرة من الـ «ك. ج. ب» تطلب من جميع جواسيسها إيلاء مراقبة المسؤولين الغربيين الذين قد يكونون مرتبطين بالتحضير لعملية عسكرية الأهمية القصوى

ويروي العميل السابق تفاصيل هذه الحقبة فيقول: «أصبح ليونيد بريجنيف كالمجنون. فالإصرار الأميركي على نشر صواريخ متوسطة المدى في أوروبا جعله يتأكد أن الحلف الأطلسي يحضّر لحرب مقبلة، وظل هذا الاعتقاد سائداً حتى بعد وفاة بريجنيف في تشرين الثاني ١٩٨٢. وبلغ الهذيان أوجه بين ٢ و١١ تشرين الثاني ١٩٨٣ حينما استعرض الأميركيون، في أثناء إجراء مناورات تقليدية، كيفية إطلاق القنبلة الذرية. مما أدى إلى هلع شديد في الأوساط السوفياتية كاد أن يتسبب باندلاع حرب جديدة».

أخبار ووقائع عاشها «غورديفسكي» في الكرملين، فوضع كتاباً عنها لو قرأه ريغن باكمله، لخفف من حدة مشاعره المعادية للسوفيات. لماذا يخون الرجل وطنه؟ ربما بسبب والدته. فوالدة «غورديفسكي» لم تكن روسية بل تركمانية وما أحبّت السوفيات يوماً. أما والده فعمل في أحد الأجهزة التابعة للـ «ك. ج. ب» وبدوره التحق العميل السابق الذي كان دائماً يتمنى أن يهاجر، بجهاز الاستخبارات السوفياتي. فالحق بمنطقة «كوبنهاغن» حيث اصطاده رجال الاستخبارات البريطانيون. وما لبث العميل السوفياتي إن كشف أسماء العملاء السوفيات في «كوبنهاغن» ومن بينهم رئيس الفنلنديين السابق «Kekkonen» وعدد من النروجيين داخل الحلف الأطلسي.

وبعد فترة، نقل «غورديفسكي» إلى لندن ولعب دوراً مهماً في حرب المالوين في الأرجنتين. ولم يتورع العميل السابق عن كشف اسم رئيس «الخليّة» السوفياتية في لندن. فعينّ الكرملين «أوليغ غورديفسكي» خلفاً له...

لكن الشكوك بدأت تظهر في موسكو فاستدعي العميل وعائلته إلى الاتحاد السوفياتي حيث خضع للاستجواب. لكن «غورديفسكي» لجأ إلى لندن كمنشق سياسي.

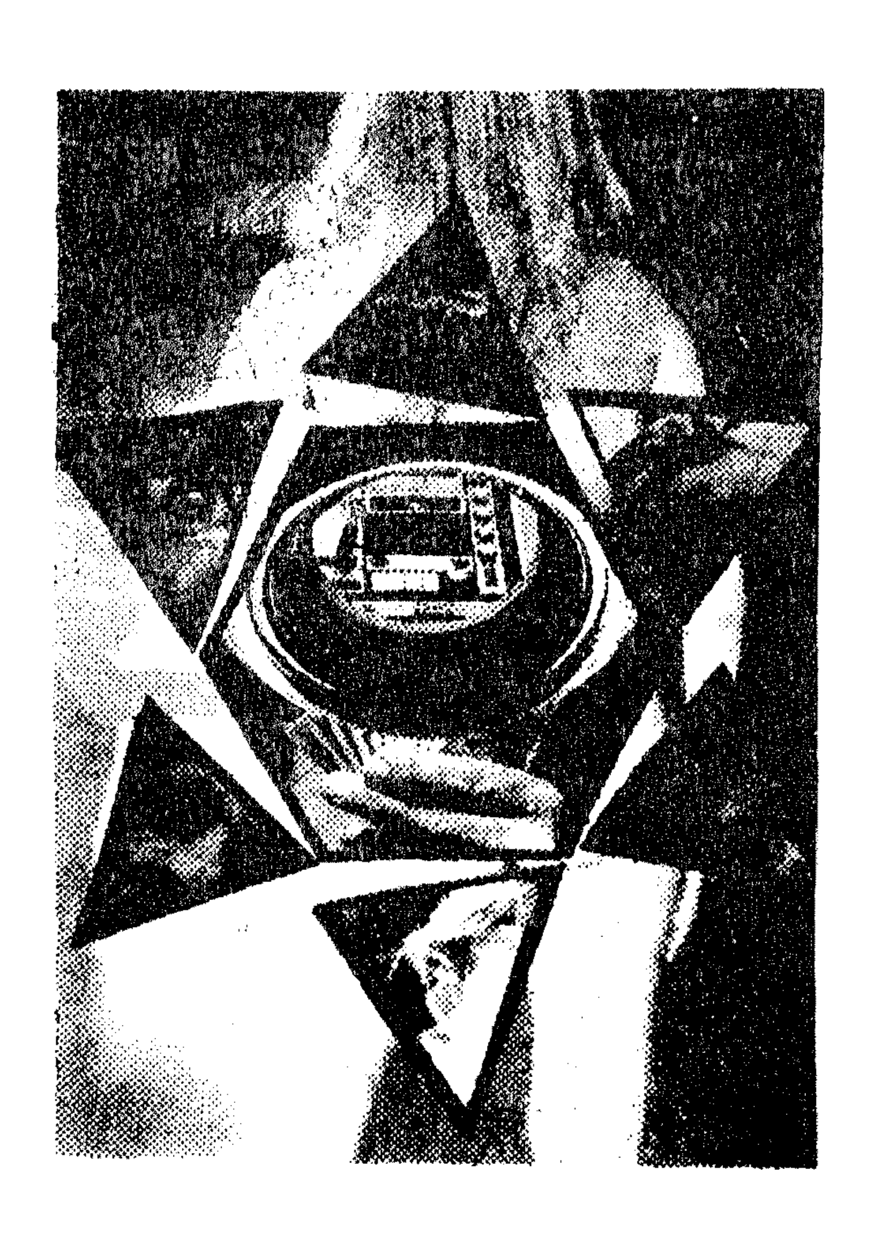
ومنذ ذلك التاريخ استقر العميل المنشق في لندن حيث عمل خبيـراً في الشؤون السياسية السوفياتية. كما ألقى أضواء مهمة على عدد من المسـائل التي كـانت لا تزال غامضة ومنها مسألة «Farewell» وهي الشيفرة التي يُقصد بها العميل الذي زوّد، حتى عام ١٩٨١ «إدارة مراقبة الأراضي» الفرنسية (أي جهاز الاستخبارات الداخلية والأمن العـام) بأكـثر من ثلاثـة آلاف ملف ومستند حـول عمليـات التجسس التكنـولـوجيـة الروسية. فكشف «غورديفسكي» الاسم الحقيقي للعميل «Farewell» وهو السوفيـاتي «Vladmir ippolitovitch vedrov» الذي أعدم في كانون الأول ١٩٨٤.

وتطرق العميل السابق إلى فشل الفـرنسيين في كشف الحجم الحقيقي للتغلغـل الروسي داخل الأجهزة الفرنسية قبل الحرب وبعدها.

كما حاول وضع حد للجدل الذي نشأ حول هوية «الرجل الخـامس» البريـطاني الـذي شكل مـع كل من العمـلاء، «بيرغس» و«فيلبي» و«مـاكلين» و«بلانت» الفريق الشهير «Magnificient Five» وكشف كذلـك أن «جون كـارنكروس» الـذي عمل في وزارة الخارجية البريطانية والذي يعيش اليوم في عزلة في فرنسـا كان عميلاً سوفياتياً من الطراز الأول. فهو الذي أبلغ موسكو بقرار بريطانيا حول صنع القنبلة الذرية.

«أوليغ غورديفسكي» يعيش اليوم متخفياً مختبئاً. فالحكم بـالإعدام صـدر بحقه في موسكو لكن يبقى له حلمه الوحيد وهو أن تنضم إليه عائلته في أوروبا.

الموساد «جهاز المخابرات الاسرائيلية السري»



(الموساد)

«جهاز المخابرات الاسرائيلية السري»

في السنوات التي أعقبت حرب عام ١٩٤٨ وتهجير الفلسطينيين من أرضهم ووطنهم وانشاء دولة اسرائيل كانت هناك خمسة فروع للاستخبارات الاسرائيلية، الفرع الأول: فرع «شاي»، وهو القسم التابع للهاغاناه، والفرع الثاني «ش. ب.» وهو القسم المسؤول عن الأمن الداخلي، والفرع الثالث «علياه بيت» وهو القسم الذي كان مسؤولاً عن تهريب المهاجرين غير الشرعيين إلى فلسطين، والفرع الرابع تابع لوزارة الخارجية، أما الفرع الخامس فكان مسؤولاً عن شؤون البوليس.

إزاء التنافس والحسد بين فروع الاستخبارات أخذ بن غوريون على عاتقه عام ١٩٥١ إعادة تنظيم جهاز الاستخبارات وتعزيزه وأبقى على فرع «عليه بيت» وفرع «ش. ب.» دون تغيير.

أما سائر المسؤوليات الأخرى فقد جرى تقسيمها بين منظمتين كبيرتين كانت احداهما فرعاً للاستخبارات العسكرية أطلق عليها اسم (امان)، أما الفرع الآخر فلقد أطلق عليه لقب «الموساد» الذي يختصر تعبير «مؤسسة الاستخبارات والمهام الخاصة»، وغاية الموساد الأساسية هي جمع المعلومات من الخارج وتحليلها وذلك في أي ميدان قد تكون (لاسرائيل) مصلحة ما فيه وكذلك من مهامه القيام بعمليات غير عادية تقع خارج ميدان عمل أجهزة الحكومة الأخرى سواء أكانت عسكرية أم مدنية.

ويقوم الموساد حسب القاعدة التي وضعها أيسر هرئيل الذي بقي رئيساً لهذا الجهاز مدة طويلة من الزمن، يقوم بتجنيد أعضائه من بين الأشخاص الذين تحركهم دوافع وطنية ومثالية قوية التأثير ومن الذين يعرفون بالتعصب الأعمى لدولة إسرائيل ويعتبر جهاز «الموساد» اليوم من الأجهزة الاستخبارية العالمية المهمة.

ونظراً للسرية والكتمان الشديدين حول هيكلية ووظائف أجهزة الموساد حتى

باتت هذه السرية تطال أسماء مسؤولي الموساد إذ أن اسم المسؤول الأول لهذا الجهاز لا يعلن مطلقاً إلا بعد وفاته فان جميع المعلومات المستقاة حول هذا الجهاز تبقى محدودة جداً في اطار الكتمان والسرية الشديدتين المفروضتين حول هذا الاخطبوط الممتد شروره إلى كل قارات العالم.

ويتميز الموساد بعلاقات وثيقة مع أكثر جهاز مخابراتي في العالم ويتمثل هذا التحالف بتعاون كامل مع وكالة المخابرات المركزية الاميركية ومع جهاز السافاك الايراني (أيام حكم الشاه).

ولقد أوضح كيرميت روزفلت في كتابه «الانقلاب المضاد» أنه كانت هناك علاقات ممتازة وإن كانت غير رسمية بين ايران واسرائيل منذ عام ١٩٥٣. وأضاف قائلاً «وقد ازدادت هذه العلاقات توثقاً في الاعوام التالية، عندما انضم بعض الأصدقاء الاسرائيليين بشكل سري إلى جهاز المخابرات المركزية للمساعدة في تنظيم وترشيد جهاز الأمن الايراني الجديد. وتمت هذه الخطوة الاسرائيلية كلية فيما يسمى «تحت المائدة» أي عملية سرية بالضرورة لكنها كانت بمثابة عون كبير للايرانيين».

وقد بدأ رئيس الوزراء الاسرائيلي أنذاك دافيد بن جوريون. بطرح أول مبادرة على الشاه من خلال المساعي الحميدة للوكالة المركزية للمخابرات، عن طريق مدير مخابراته مائيراميت. ولم يكن الشاه في حاجة لكثير من الإقناع لأنه كان يعرف المزايا التي ستجنيها البلدان من هذا التعاون، ليس في مجال المخابرات فقط وانما في مجالات أخرى، فهنا يوجد بلدان غير عربيان، واحدة تقع على الخليج والأخرى على البحر المتوسط، يفصلهما بحر من القومية العربية تلك القوة الأساسية، التي جعلت كلا منهما لديه من الأسباب ليخشاها، وتركت الانجازات الاسرائيلية انطباعاً إيجابياً على الشاه الذي كان يرى أن الاسرائيليين قد أثبتوا أنهم على مستوى عال من الكفاءة. ملمين بآخر التطورات التكنولوجية فكان على استعداد للتعلم منهم خاصة فيما يتعلق بالأمن. لذا انتقى بعض الضباط الأساسيين، بما في ذلك بعض أفراد الحرس الملكي وأرسلهم للتدريب في اسرائيل.

من أرشيف «الموساد»



الكولونيل غيبلي: قرار بالتخريب في مصر



الضابط الاسرائيلي افري العاد المنفذ لعمليات التخريب


فيكتورين في قاعة المحكمة


مرزوق في قاعة المحكمة


ناتانسون: اعتقال بالصدفة بعد أن أحرقت القنبلة ثيابه

لوتس مروض الخيول
(عين تل أبيب في القاهرة)

ولد لوتس ولغفانغ في المانيا عام ١٩٢١ من أم يهودية وفي ظل تصاعد العداء ضد اليهود في المانيا هاجرت هذه العائلة إلى فلسطين مع بداية عام ١٩٣٣. بعد انقضاء سنوات قليلة في فلسطين التحق لوتس بجيش الهاغاناه السري ثم بالجيش الانكليزي واستطاع من خلال هذا الالتحاق أن يلم باللغات الالمانية والانكليزية والعربية والعبرية، قبل قيام دولة اسرائيل عمل لوتس على تهريب الأسلحة للهاغاناه وحين أعلن عن قيام هذه الدولة شارك ولغفانغ من خلال انخراطه بالجيش في كل المعارك الحربية حتى أصبح آمراً للواء مشاة أثناء حملة السويس.

بعد انتهاء حملة السويس اتصل رجال الموساد به لتجنيده ضمن صفوفهم وبعد خضوعه لساعات عديدة يومياً من التدريب لاتقان مختلف جوانب الجاسوسية وتلقيه لدراسات مكثفة لتاريخ مصر سياستها وثقافتها صدر القرار بارساله إلى القاهرة ليتمكن من جمع معلومات عن الأسلحة السوفياتية لمصر وكذلك لمراقبة المستشارين الالمان الذي أخذوا في تلك الفترة يفدون إلى مصر بمختلف الاختصاصات وبالذات مهندسو الطائرات والطيران.

بيد أنه من الضروري تأمين تغطية مضمونه لشخصيته قبل مضيه في مهمته هذه فلقد تقرر أن يحتفظ باسمه الحقيقي وسيدعي أنه بقي في المانيا منذ مولده وأنه انضم لجيش رومل في افريقيا وخصوصا أنه بات يعرف الكثير عن هذا الجيش من خلال استجوابه للأسرى الالمان سابقاً فضلاً عن اتقانه للغته الأم.

بعد الحرب انتقل ولغفانغ كما شاءت له التغطية إلى اوستراليا وعاش فيها احد عشر عاماً وهو يربي الخيول ويروضها ثم عاد إلى المانيا ومنها سافر إلى مصر حيث وصلها في كانون الثاني عام ١٩٦١.

وشرع هذا الجاسوس ـ السائح الثري في الاتصال بأندية السباق المحلية وكان أول من تعرف عليه هناك يوسف علي غراب رئيس الشرطة العسكرية المصرية الذي قربه بعد فترة من أثرياء المجتمع المصري فأضحى ضيفاً دائماً على كل حفلات وسهرات هذا المجتمع.

بعد قضاء ستة أشهر من انتدابه للقاهرة بدأ لوتس بإرسال التقارير والمعلومات الى اسرائيل حتى أضحى:
عين تل أبيب في القاهرة.

التقى لوتس خلال احدى زيارته لأوروبا لتقديم تقاريره بشقراء فاتنة تدعى فالترود مارتا نويمان وهي لاجئة من المانيا الشرقية مقيمة في اميركا وكان بينهم شركة حب وغرام انتهت بزواج دون علم رؤسائه في الموساد الذي اعترضوا باديء الأمر خشية أن يؤثر هذا الزواج على مهام عمله لكن التقارير والمعلومات التي كان يقدمها والتي اتسمت بالدقة جعلت رؤساءه مرغمين على مرافقة زوجته له للقاهرة.

عاد لوتس للقاهرة التي لحقته زوجته الجديدة إليها بعد أسابيع ليجد استقبالاً حافلاً من أصدقاه الذين غمروه بالهدايا والورود له ولزوجته.

وانطلق الزوجان في حياة اجتماعية حافلة بالنشاط والمرح مع توسيع دائرة معارفهم حتى أضحت شبكة هذه المعارف تضم الجنرال فؤاد عثمان والكولونيل محسن سيد وكلاهما لعبا دوراً أساسياً في الاستخبارات العسكرية المصرية ولتشمل الكثير من الالمان الذين يعيشون في القاهرة.

مضت أيام وأشهر ولوتس يمضي أيامه في تربية الخيول ومشاكلها وكذلك في ارساله بكل المعلومات والتقارير التي يحصل عليها من شبكة معارفه عبر اللاسلكي لتل أبيب. لكن سرعان ما اكتشف أجهزة الترصد المصرية أن هناك بثاً لاسلكياً غريباً يبث في غير الأوقات المعروفة لبث السفارات الأجنبية والتي كانت متواجدة بكثرة قرب سكن لوتس وكذلك فهذا البث اللاسلكي يرسل رموزاً غير مألوفة..

وبعد اجراء التحريات المطلوبة أيقن رجال المخابرات المصرية أن هذا البث مصدره سكن لوتس.

اقتحمت مجموعة من الجنود مسكن لوتس لسؤاله عن مصدر الارسال اللاسلكي

ودهش ضابط الأمن عندما قال لهم لوتس ببرود: ستجدون الجهاز تحت بلاط الحمام وكذلك متفجرات في ألواح الصابون وهناك أجهزة أخرى، وكذلك هناك أوراق نقدية تصل قيمتها إلى ٧٥ ألف دولار.

بدأ على الفور استجواب لوتس من قبل المخابرات المصرية الذي حاول أن يوهم المحققين معهم أنه كان ضحية الموساد اضطر لمسايرتهم وارسال تقارير لهم عن وضع مصر لأن الموساد وعدته باقامة مؤسسة لتربية الخيل مساعدة له جزاء تقديمه لهذه المعلومات وأنه لم يكتشف الحاح الاسرائيلين بطلب المعلومات وارسال الرسائل الملغومة إلى العلماء الالمان إلا مؤخراً.

وكرر الرواية التي كان قد لفقها اياه الموساد في حال افتضاح أمره من أنه الماني خدم ضمن جيش رومل في افريقيا.

عرضت السلطات المصرية لوتس على طبيب اخصائي لتحديد هل هو يهودي أم لا فأكد الطبيب أنه غير مختون وأنه بالتالي غير يهودي (لم تكن والدة لوتس ذات اعتقادات دينية رغم كونها يهودية ولهذا فلقد تغاضت والدته وكذلك والده عن ختانه).

لم يكن المصريين متلهفين لاعدام لوتس حيث أنهم كانوا بوارد تحسين العلاقات مع المانيا الغربية، وكذلك كانت الصحف العربية في ذلك الوقت مفعمة بالحديث عن ايلي كوهين الجاسوس الاسرائيلي الآخر الذي اكتشف بسوريا وسوء العلاقات التي كانت قائمة بذلك الوقت بين سوريا ومصر بعد الانفصال عام ١٩٦١ جعلت السلطات المصرية تخفف من الحديث عن هذا الجاسوس الذي مالت هذه السلطات إلى الاعتقاد أنه الماني كان يتجسس لحساب اسرائيل.

في أثناء المحاكمة وجه لوتس رسالة عبر وسائل الاعلام يؤكد فيها جنسيته الالمانية وأنه نادم على ما فعل شاكراً للمصريين حسن معاملته في السجن «واذا أراد الاسرائيليون مستقبلاً أن يبعثوا الجواسيس إلى مصر فليرسلوهم من بين قومهم ولا يجندوا الالمان الشرفاء للقيام بتلك المهام».

أنكرت زوجة لوتس خلال المحاكمة علمها بعمل زوجها التجسسي وأعلنت أن واجبها يقتضي منها الوقوف معه في أوقات المحن والشدائد.

خلال هذه المحاكمة أيضاً وردت رسالة من محام في ميونيخ واسمه الفرد زايدل

بصفته محامياً عن عائلات ضحايا الرسائل الملغومة كشف في رسالته هذه حقيقة لـوتس بأنه مواطن اسرائيلي وان أمه يهودية وملفٌ كامل مدعوماً بالبراهين والوثائق.

لكن المحكمـة رفضت كل تلك المعلومـات من زايـدل لأنها تهـدف إلى تجـريـح المتهم.

في ٣١ آب ١٩٦٥ أصدرت محكمة القاهرة أحكامها عـلى لوتس بـالسجن المؤبد مـع الاشغال الشـاقة وبغـرامة مـالية وقيمتهـا ٣٢٥٣٩,٥ جنيه مصري وعـلى زوجتـه بالسجن ثلاثة سنوات وبغـرامة ألـف جنيه مصري. ولم ينفذ حكم الاشغال الشـاق على لوتس بل عزز وضعه داخل السجن وحـظي بامتيـازات استثنائيـة في سجن ـ ليمان طـره ـ التقى لوتس بعـدد من السجنـاء اليهـود منهم فيكتـور ليفي وفيليب نـاتـاسـون وروبرت داسا.

بعد حرب الـ ١٩٦٧ قاد السكرتير العام للأمم المتحدة أوثانت ومساعـده غونار يـارينغ مفـاوضـات بـالغة التعقيـد بين الحكـومتين المصريـة والاسرائيلية لـلافـراج عن المسجـونين بكـلا الطرفـين كـان من نتيجـة هـذه المفـاوضـات الافـراج عن عشرة من جنرالات مصر بالإضافة إلى كبار الضباط من الجيش المصري مقـابل إعـادة الجواسيس الاسرائيليـين العشرة إلى إسرائيل وقـد تصـدر قـائمـة أسـماء هؤلاء الجـواسيس أسـماء ولفغانغ وفالترود لـوتس وللمرة الأولى كشفت تـل أبيب النقاب عن الحقيقـة مما أذهـل المصريين بحقيقة جنسية لوتس.

أطلق سراح لوتس وزوجته يوم ٤ شباط ١٩٦٨ وتوجهوا إلى أثينا ثم تل أبيب.

بعد سنوات قليلة توفيت زوجة لوتس وقرر بعدها السفر إلى أميركـا حيث افتتح مـع شريك آخـر وكالـة للتحقيقات الخـاصة، وتـزوج هناك من امـرأة اسرائيلية تدعى نأومي، أفلست هذه الوكالة وبقي معيله الوحيد هو المبلغ التقاعدي الذي يقبضه من الموساد والبالغ قيمته ٢٠٠ دولار شهرياً.

بعـد زيارة السـادات للقدس تضـاربـب الأمواج وتـلاطمت في ذهن لـوتس كـما سماها:

«لعلهم يسمحـون لي بالعـودة إلى مصر لأقيم مدرسـة لركـوب الخيل عـلى ضفة النيـل، قد لا يسمحـون لي بذلـك، فقد استغفلتهم كثـيراً، وما أظنهم يغفـرون ذلك أبداً».

المخابرات الاسرائيلية في مصر
فضيحة لافون: انفجارات وقنابل في القاهرة والاسكندرية



لافون : وزير الدفاع الاسرائيلي هل أصدر الأوامر؟؟



عازار



داسا



لافي

ـ البداية ـ

١٩٧٢ في منتصف شهر تشرين الثاني (نوفمبر) صرحت غولدا مئير، رئيسة وزاء اسرائيل لاحد المراسلين، بأنها دعيت الى حضور حفل زواج يهودية من اصل مصري، كانت قد قضت ١٤ عاماً في سجون القاهرة بتهمة التجسس لحساب اسرائيل. سرى النبأ كالبرق اثارت ملاحظة مئير ضجة كبيرة، خاصة عندما ظهر ان العروس لسيت سوى فيكتورين نينيو، احدى اهم اعضاء شبكة تجسس خطيرة، ادارها ونظمها جهاز الاستخبارات العسكرية الاسرائيلية في مصر. وعندما رفعت الرقابة الصحافية عن الموضوع بشكل مؤقت، علم الاسرائيليون للمرة الاولى ان اربعة من اعضاء هذه الشبكة التجسسية الذين زاولوا نشاطاتهم في مصر، تم استبدالهم في العام ١٩٦٨ باسرى مصريين. وان هؤلاء الاشخاص الاربعة يعيشون الان في اسرائيل. ان قصة شبكة التجسس الاسرائيلية في مصر قديمة جداً، وتعود الى ما قبل عام ١٩٤٨، ولكن اكتشاف السلطات المصرية امرها في العام ١٩٥٤، وبالتالي نسف العملية التجسسية الاسرائيلية في مصر، اثار ضجة سياسية عظمى في اسرائيل كادت تنزلزل الدولة اليهودية. اشتهرت القصة بأسم «قضية لافون» او«فضيحة لافون» الذي كان وزيراً للدفاع في ذلك الحين وظلت المضاعفات والاثار المترتبة عن اكتشاف الشبكة تتفاعل في اسرائيل بشكل خطير.

ولكن لم يكشف النقاب البتة عن هذه المضاعفات وما ادت اليه.

حتى ان الرقابة الصحافية لم ترفع عن قضية لافون سوى عشرة ايام فقط، عادت من بعدها الرقابة الجديدة مرة اخرى، فتم زواج فيكتورين نينيو دون التقاط الصور التقليدية، ومنعت الصحافة عن ذكر اسماء الزعماء السياسيين والعسكريين الذين حضروا حفل الزفاف، كما منعت الصحافة من ذكر قصة حب فيكتورين التي انتهت بالزواج.

فقبل سبعة عشر عاماً، وفي تموز (يوليو) ١٩٥٤، امر رئيس جهاز الاستخبارات العسكرية الاسرائيلية، الكولونيل بنيامين غيبلي احد اعوانه الميجور افري العاد واسمه المستعار بول فرانك بتكوين شبكة تجسس يكون نواتها الصهاينة المصريون، وهدفها عرقلة ومنع حدوث اي تقارب بين الولايات المتحدة ومصر.

وهكذا، ولمدة ثلاثة اسابيع، هزت انفجارات القنابل مدن القاهرة والاسكندرية.

ولكن، بعدما انفجرت احدى القنابل في يد احد الاهاربيين، تمكنت الاستخبارات المصرية، من رصد الشبكة التجسسية، واعتقال ١١ شخصاً من اعضائها، احد هؤلاء انتحر والاخر مات في السجن.

اثنان آخران أعدما بعد محاكمتهما، واثنان برئا من التهمة، أما الستة الباقون، فقد حكم عليهم بالسجن. وحكم على فيكتورين بالسجن أيضاً لمدة ١٤ عاماً.

بعض هؤلاء اكمل مدة محكومته، والبعض الاخر لم يكملها اذ جرت مبادلته مع اسرى الحرب المصريين، اما الشخص الاسرائيلي الذي نظم الشبكة، وخطط عملياتها، فقد تمكن من الهرب.

المهم في الموضوع انه بعد افتضاح امر هذه الشبكة، واعتقال السلطات المصريه افرادها، استقال وزير الدفاع الاسرائيلي بنحاس لافون، وانكر ان يكون قد اصدر الاوامر بتكوين هكذا شبكة في مصر.

وثارت الضجة في الاسرائيل، وفرض الجيش رقابة مشددة على جميع التقارير المتعلقة بالحادثة، وظل النزاع السياسي حول من اعطى الاوامر بتكوين هذه الشبكة التجسسية في مصر، دون حل طوال سبعة عشر عاماً، بالرغم من تشكيل تسع لجان تحقيق لهذا الغرض، بالرغم من الاستفسارات العسكرية العديدة المتعلقة بالموضوع.

ونشب اثر ذلك صراع رهيب على السلطة، استمر سنوات بين بن غوريون و«الاتراك الشبان» في حزب الماباي من جهة، وبين «الصهاينة القدامى» الملتفين حول بنحاس لافون من جهة اخرى.

وفي الوقت نفسه نشب صراع مشابه بين الجناح المدني، والجناح العسكري داخل مؤسسة الاستخبارات الاسرائيلية، مما ادى بالنتيجة الى تعيين ايسر هارل مديراً للامن العام والاستخبارات الاسرائيلية.

وبعدما الصقت التهمة بضابط الاستخبارات الاسرائيلية افري العاد، واجبر على كشف خفايا وملابسات تكوين الشبكة التجسسية ونشاطتها، برئت ساحة وزير الدفاع السابق لافون نهائياً.

ومع ذلك، استمرت الحادثة في اثارة الكثير من الشكوك في اسرائيل، وادت الى تغيير العديد من الحكومات، واستقالة بن غوريون، ووقوع انشقاق في صفوف حزب

المباباي الحاكم. وبالرغم من الانباء المتسربة من وقت لاخر، ظلت الحقيقة عن فضيحة التجسس، مجهولة تماماً، وظل الصراع السياسي الذي نشب في اسرائيل في اعقاب اكتشافها مستورا.

كيف تكونت شبكة التجسس الاسرائيلية في مصر، وكيف زاولت نشاطاتها، والمضاعفات السياسية التي نشأت عنها، وذلك من خلال تفاصيل ثابتة اخذت عن الملفات السرية المصرية والاسرائيلية، من خلال تحقيق دقيق واسع شمل العالم باسره.

القلق الاسرائيلي

في عام ١٩٥١ جمع الكولونيل حاييم هرتزوغ رئيس الاستخبارات العسكرية الإسرائيلية رؤساء منظمة وكان البند الوحيد على جدول أعمال هذا الاجتماع الطارىء هو «التجسس في مصر» ولأكثر من ساعة بحث ڤيڤيان ـ الإسم المستعار لحاييم هرتزوغ ـ مسألة كيفية تعزيز مصادر المعلومات التجسسية عن مصر. علماً أن الوكالة اليهودية وفي عام ١٩٤٤ قد أقامت محطة استماع في القاهرة تحت ستار ناد للجنود استغل مدير النادي ويدعى يعقوب زور رواد النادي هذا ليجمع التقارير المنتظمة عما يتحدثون فيه من معلومات ليرسلها مباشرة للزعماء الصهاينة.

وفي أواسط ١٩٤٥ تمكن داڤيد هاميري كان قد أشرف على الهجرة اليهودية غير الشرعية من البلاد العربية من إنشاء مركز في مصر وضعه تحت إشراف عميلة للهاغانا تدعى روث كليجر مهمتها إنشاء وتجنيد أول شبكة تجسسية لصالح العدو.

بعد هزيمة المانيا في أوروبا تحولت عمليات استخبارات الهاغانا في مصر إلى أمرة شخص يدعى ليڤي أبراهامي ليشكل شبكة ليس هدفها فقط التجسس السياسي والعسكري بل أيضاً لتقوم بعمليات التخريب والتدريب على السلاح.

في عام ١٩٤٨ وبعدما قامت الجيوش العربية بدخول فلسطين طلبت المخابرات العسكرية الإسرائيلية من رجل الموساد الدكتور ڤيكتور سعدي وهو طبيب يعمل في المستشفى اليهودي في القاهرة أن ينظم خلية تجسس جديدة. ونجح سعدي في إقامة هذه الخلية من عدد صغير من الصهاينة داخل مصر، استطاعت هذه الخلية نقل معلومات عسكرية مهمة إلى داخل إسرائيل.

بعد قيام ثورة ١٩٥٢ استطاعت الاستخبارات العسكرية الإسرائيلية زرع أحد أكفأ عملائها في القاهرة وهو الكابتن موشيه بينيت واسمه السري «ماكس» وذلك بعدما أرسلته الاستخبارات الإسرائيلية إلى ألمانيا وحصوله على الجنسية الألمانية ليدخل بها للقاهرة تحت ستار ممثل لشركة لصنع الأطراف الإصطناعية.

خلال هذه الفترة تم إحلال الكولونيل بنيامين غيبلي مكان حاييم هرتزوغ في رئاسة الاستخبارات العسكرية الإسرائيلية. الذي وجد بدوره أنه لا بد من إنشاء شبكة تجسس جديدة بالقاهرة تغذي الجهاز القائم وتدعمه. من هنا تم إرسال الكابتن أبراهام دار لإنشاء هذه الشبكة الجديدة والذي وصل للقاهرة حاملاً جواز سفر بريطانياً باسم مستعار.

استطاع دار والدكتور سعدي ضم ڤيكتورين نينو وعمرها ٣٤ عاماً وهي لاعبة أولمبية من والد تركي وأم يوغوسلافية لتكون نواة الشبكة الجديدة ونشطت ڤيكتورين في توسيع هذه الشبكة حيث ضمت لها الدكتور موريس مرزوق الذي بدوره استطاع ضم إيلي يعقوب ناحيم ونصير جوزيف كوهين ومئير مايوماس ومئير زعفران للعمل ضمن هذه الشبكة.

وبمساعدة ڤيكتورين تم إنشاء خلية الاسكندرية من ڤيكتور لاڤي وصموئيل عازار وفيليب ناتانسون ولاحقاً إيلي كوهين.

سافرت شبكة مرزوق وعازار إلى إسرائيل سراً للتدرب على السلاح وزرع المتفجرات وكذلك على إدارة عمليات البث بالراديو لتوصيل المعلومات.

في ذلك الوقت بدأ القلق الإسرائيلي من تقارب بريطاني ـ أميركي ـ مصري تمثل في بيع طائرات بريطانية إلى مصر فضلاً عن الوصول لاتفاقات حول الجلاء عن قناة السويس وعن السودان كذلك بدا أن هناك سعياً أميركياً لتكوين صداقات مع زعماء الدول العربية عبر الطرح الأميركي بتدويل القدس وتزامن كل ذلك مع دعم حكومة جمال عبد الناصر لغارات الفدائيين داخل إسرائيل ومع تعزيز القوات المسلحة المصرية.

الشبكة تتحول إلى أعمال التخريب

راجع بن زور مع غيبلي التقارير السرية الـواردة من شبكة التجسس في مصر في القاهرة والاسكندرية وقدروا أن الوضع قد حان للقيام بنوع جديد من المهام : تخريب المنشآت الأميركية والبريطانية وإظهار هذه الأفعال بأنها من صنع الشيوعيين.

لكن لافون وزير الدفاع بعد علمه بـالمهام الجـديدة لشبكـات التجسس عارض هذه المهام التخريبية لكن أمـام إصرار دايانْ وبن غـوريون بـدأ تحضير هـذه الشبكات للقيام بالعملية وقد كلف الكـولونيـل أفري ألعاد بترؤس الخـلايا التجسسيـة في مصر المنوطة بها عمليات التخريب والتفجير وصل أفري ألعاد إلى مصر وبحوزته جواز سفـر ألماني مزور باسم پول فرانك بعد أن نزعت عنه آخر دلائل يهوديته ففي عملية جراحية مؤلمة أعيد الأمر إلى ما كان في السابق وكأنه لم يختن.

استـطاع ألعاد أن يـدخل سريعـاً إلى قلب المجتمع المصري متـظاهـراً بمعـاداتـه العنيفة للصهيونية كونه ذو ماضٍ نازي كما ادعى حتى أن الحاج أمين الحسيني دعاه مرة إلى الغداء.

كان باستطاعة أفري ألعاد خلال المدة القصيرة التي قضاها بأول زيارة له للقاهرة أن يجمع معلومات دقيقة عن المواقـع المصرية في سينـاء والتي أثبتت فعاليتهـا في الحملة الإسرائيلية على سيناء عام ١٩٥٦.

قنابل في «علب» النظارات

يوم الاثنين الموافق ١٢ تموز (يوليو) استلم افري الاوامر للقيام بعمليات التخريب من خلال صوت اذاعة اسرائيل حيث أذيعت إشارة متفق عليها - «الكعكة الانكليزية» - ضمن برنامج يومي خاص بربة البيت.

وكان افري قد اختار المكتبات الاميركية في القاهرة والاسكندرية، ضمن المرحلة الثانية من عمليات التخريب، وبعد تلقيه الاوامر من تل ابيب، عمد الى استنفار لافي للعمل.

امره ان يختار فريقا من رجلين للقيام بالقاء القنابل في كل من المدينتين. ووعد بان يجتمع الى الفريق العامل في القاهرة قبل يوم واحد من قيامه بعملية التخريب الجديدة.

ويوم الثلاثاء، ظهراً، جلس افري في مقهى «جروبي» القريب من محطة السكك الحديدية يبحث في الامر مع لافي وناتانسون.

اقترح ان يقوم ثلاثتهم باكتشاف الاهداف التي سيجري نسفها، ورافقهما الى المكتبة الاميركية (٦شارع الشيخ بركات) التي تبعد مسيرة ١٠ دقائق من «جروبي».

لم يخف الشابان اعجابهما بهدوء افري وهو يبين لهما الاماكن التي يجب وضع المتفجرات فيها، ويؤكد ان العملية سهلة. وعليهما ان يتصرفا، قبل وقت قصير من موعد اغلاق المركز، للتأكد من عدم وجود احد عندما تنفجر القنابل، الشيء الذي سيسمح للنار بان تنتشر على نطاق واسع قبل ان يلاحظها احد.

وبعد ان غادروا المكتبة، لاحظ افري ان حراس الباب يدققون في الرزم الكبيرة. فارتأى ان لا توضع القنابل في صناديق خاصة بالمطهرات، بل في علب نظارات توضع في الجيب. وتباحث في هذا الامر مع مرؤوسيه الاثنين، فوعد لافي بان يرتب عملية شراء علب النظارات.

حضروا القنابل داخل سيارة

لقد ساور القلق شبكة التجسس بسبب نفاد مواد التفجير منها، خاصة بالنسبة الى حامض الكبريتيك. واثار افري مسألة تزويدهم بهذه المواد مع المركز في تل ابيب. فوعدت تل ابيب بارسال ما يحتاجون اليه من هذه المواد، لكن هذا الموعد لم يتحقق.

ولم يلبث لافي ان طمأنه لتطوع عازار بتقديم خدماته للحصول على المواد الكيماوية الضرورية من مختبر المدرسة التي يعمل فيها.

ابتسم افري، وربت على ظهر لافي بكثير من الحب والاعجاب مقترحا ان يجتمعوا مرة ثانية بعد ظهر اليوم التالي لتحضير القنابل. وبالفعل حمل عازار المواد الكيماوية الى ناتانسون، في وقت مبكر من يوم الاربعاء، كما وعد، لكن عندما وصل الى المكان المتفق عليه كان عازار قد غادر المكان.

ولم يبق امام لافي وناتانسون سوى دقائق فقط للحاق بالقطار المتوجه الى القاهرة، فاستقلا سيارة الى المحطة.

وفي الساعة ٢,٤٥ بعد الظهر دخل القطار السريع الاتي من الاسكندرية محطة القاهرة متأخرا عدة دقائق كما هي العادة.

وجد الرجلان ان الوقت لا يزال مبكر على مقابلة افري حسب الموعد، فقررا حضور فيلم اميركي جديد يعرض في سينما «راي». ولم يكملا مشاهدة الفيلم الى نهايته، اذ كان عليهماان يقابلا افري في الساعة الخامسة والنصف في زاوية الشارع حيث تقع سينما «راي».

سأل افري عن الحامض، «وحافظات» النظارات، اوعلب النظارات:.

فاوما لافي براسه مشيرا الى انها موجودة.

وكان افري قد اوقف سيارته في شارع هادىء، يطل على النيل، وعلى مسافة قريبة من المكتبة الاميركية المنوي نسفه.

لقد اختار افري، خصيصا، مكانا ضيقا، لينكمش داخل السيارة، فلا يستطيع احد معرفة رقم السيارة وان امكن معرفة لونها وماركتها. وفضل ان يخرق اجراءات الامن، على ان يخاطر باستئجار غرفة في فندق.

وخلال العشرين الدقيقة التالية، كانوا جميعاً جالسين داخل السيارة يحضرون القنابل. وعندما انتهوا من عملهم تطلّع افري إلى ساعته فوجدها تشير الى السادسة وخمس دقائق.

وقبل ان يسمح لـرجالـه بالانـطلاق، تأكـد من انهم لا يحملون شيئاً يـدل على هـويتهم، وامـر لافي ان يقـابله في الاسكنـدريـة في وقت متـأخـر من صبـاح الخميس للتشاور في نتيجة العملية.

ثم تمنى لهم حظا سعيداً، وودعهم «بشالوم» حارة!
وعندما اختفوا خلف الزاوية، ابتعد بسيارته.

حرق المكتبات الاميركية في القاهرة الاسكندرية

لم ينتبه الحراس عنـدما دخـل لافي وناتـانسون المكتبـة، لانهما لا يحملان طـرودا ظاهرة للعيان.

توجها رأسا الى دليل البطاقاث، واختارا بعض الكتب، وقدما البطاقات لعامـل المكتبة.

وانتظر الرجلان بضع دقائق قبل ان يسلمهما امين المكتبة الكتب التي اختاراها..

وهكـذا جلس لافي وناتـانسون يقـرأن وكانهما لا يحفـلان بكل مـا يجري حـولهما وعنـدما رن جـرس الانصراف، واستعد امـين المكتبة لاغـلاق مكتبته، وضـع كل من الرجلين قنبلته على الرف خلف الكتب، وخرجا وهما يتجادلان، وكانهما غارقان بنقاش مهم، وقبل الساعـة الثامنـة مساء بقليـل، ركبا البـاص عائـدين الى الاسكندريـة. في الوقت نفسه وصل داسا وعازار الى المكتبة الاميركية في شارع فؤاد بالاسكندرية. وكان داسا الذي حضر القنابل في الشقة التي تستعمل مركزا لقيادة الشبكة بالاسكندرية، قد وضع «حافظات النظارات» على رفين مختلفين، بينما جلس عازار في غرفة المكتبة يراقب المكان للتأكد من عدم وجود أحد يراقبهما.

وفي الساعة ٩,٢٠، رصد ضابـطا بوليس تنـاوبا الحـراسة في المنـطقة المجـاورة للمكتبة الاميركية في القاهـرة، اللهيب المنبعث من المكتبة، فـأسرعا الى استنفـار رجال المطافيء.

وبعد ثلاثين دقيقة تمكن رجـال الاطفاء من اخمـاد النيران، ولكن بعـد ان كانت قـد اتت على المصـابيح، وصنـاديق الكتب، واتلفت نحو ٥٠٠ كتـاب. وقـد قـدرت الخسائر وقتها بـ ١٥٠٠ دولار، وساد الاعتقاد في باديء الامر ايضا بـان عقب سيجارة كان السبب في الحريق.

لكن بعد يومين فقط، عندما كتب ضابط الامن في السفارة الاميركية الى مدير بوليس القاهرة عن اكتشافه آثار مواد تفجيرية بين الحطام، اعتبرت السلطات المصرية رسميا الحادث عملية تخريب.

وفي الاسكندرية اكتشفت الشرطة في وقت لاحق ان سرية الاطفاء وصلت بعد خمس واربعين دقيقة من اغلاق المكتبة ابوابها.

لكن اللهيب كان بارزاً حتى انه اكتشف بعد بضع دقائق من تصاعده ولم تظهر اية دلائل على وجود حريق متعمد، كما لم يتسبب الحريق في اية اضرار.

وقال شهود عيان ومخبرون صحافيون ان النار انتشرت من قاعة المطالعة الرئيسية الى قاعة عرض الافلام في المكتبة، والتهمت عدداً كبيراً من الافلام والكتب قبل اطفائها.

لم يعد اي مكان محصن ضد القنابل

تصاعد الخوف في كلا المدينتين بينما كانت صفارات سيارات الاطفاء تزعق وترسل عويلها بين الشوارع.

لم يعد مكان عام يعتبر محصناً ضد المتفجرات. ولم تتوافر دلائل لدى المسؤولين في الشرطة عن تورط الجماعات المتطرفة في هذه الاعمال. وقامت حلقة الاسكندرية بالعمل مرة اخرى في الاسبوع الثالث من تموز (يوليو). ففي الثالث والعشرين من الشهر، قام الفريقان اللذان عملا قبل اسبوع بمحاولة نسف اهداف جديدة. امر داسا وعازار بنسف محطة السكك الحديدية في القاهرة، ودارين للسينما ايضا، كما امر لافي ناتانسون بنسف دور السينما فقط في الاسكندرية.

ولهذا الغرض وضعت حقيبة ملابس تحتوي على متفجرة داخل صندوق، بالاضافة الى بعض الملابس لزيادة وزنها، في مخزن الامانات في محطة السكك الحديدية في القاهرة. وكان متوقعا للنار التي ستندلع نتيجة الانفجار ان تمتد الى مخزن اخشاب مجاور، مما يزيد في الاضرار.

اما بالنسبة الى دور السينما، فقد كان من المقرر ان يدخل اعضاء الشبكة اليها قبل نهاية العرض الاول يضعوا في كل منها حافظة نظارات تحتوي على قنبلة حارقة،

على ان يتم وضع القنبلة بين حواشي المقاعد، ثم يغادرون المكان قبل نهاية العرض.

وقد اختار افري مع لافي الاهداف المنوي نسفها في الاسكندرية، وكما حدث من قبل، فضل ان يراقب نتيجة العملية من القاهرة.

عطلة الاسبوع مع عشيقة

وبعد ظهر يوم الجمعة الموافق ٢٣ تموز (يوليو) وبعد ٢٥ دقيقة من وصولها الى القاهرة، تقابل داسا وعازار مع افري في تقاطع شارع فؤاد الاول بجوار «الغراند اوتيل».

اعاد الجاسوس الاسرائيلي اوامر المهمة، وحدد الاهداف التي سيجري نسفها: سينما راديو، وسينما ريفولي: وتعود ملكية هذه الدور الى الاخوين محمد ومصطفى جعفر، وشركائهما الاميركيين.

وبعد ان تأكد من ان تعليماته ستنفذ حرفياً، رافقهم بضع خطوات الى فندق «دو روز» (٣٣ شارع سليمان باشا) حيث تسجل الرجلان باسمين مستعارين.

وما ان غادرهما افري، حتى قاما بتحضير القنابل المحرقة ووضعاها في «حافظات النظارات». وتركا الغرفة، ومعهما القنابل في الساعة السادسة مساء، لكنهما لم يعرفا بان داسا، الذي كان قد وضع ترتيباته لقضاء عطلة نهاية الاسبوع مع عشيقته كارولين، لن يعود الى المنزل قبل اليوم التالي.

واعتقل ناتانسون بطريقة الصدفة

وضعت حقيبة الثياب في محطة السكك الحديد المركزية تحت اسم «البرت» واخذ داسا ايصالا بالحقيبة رقمه ٩٨٦١٤.

بعد ذلك بخمسة عشرة دقيقة، استأجر كل من الرجلين سيارة اجرة من امام المحطة ليصلا الى دور السينما في الوقت المحدد.

واشترى عازار بطاقة بلكون في الصف السابع، كرسي رقم ٣٠ في سينما راديو، اما داسا فقد جلس في الصف الثاني (بلكون ايضاً)، كرسي رقم ٤ في سينما ريفولي.

وبخلاف الاوامر الصادرة اليهما، وضع كل منهما حافظة النظارات التي تحتوي على القنبلة تحت مقعديهما. وفي التاسعة مساء رجع داسا الى الفندق، فقد كان في

طريقه الى المنزل. لم يوفق لافي في محاولة نسف المترو في الاسكندرية اذ لم يتمكن من الحصول على بطاقة لان حفلة «الماتينيه» كانت مخصصة للسيدات فقط، لذلك قرر تأجيل العملية. اما ناتانسون فعندما وصل الى سينما ريو، كانت قوة من البوليس معززة بوحدات من رجال الجيش تحيط بالمكان. وكان رجال التحقيقات الجنائية بثيابهم المدنية يراقبون كل بناية عامة في المدينة. الكابتن حسن زكي المناوي من محطة شرطة العطارين اخذ موقعا له بالقرب من السينما بعد ساعة السابعة مساء بقليل.

كان يقف امام مكتب التذاكر يراقب الجمهور، عندما سمع فجأة صرخات استغاثة، وشاهد شابا علقت النار في سترته يركض خارجا من السينما.

أسرع مفتش الشرطة وطرحه أرضا في محاولة لاطفاء النيران. ابان ذلك وقعت حافظة نظارات من جيب سترة الرجل، وأنتشر من الحافظة مسحوق أسود على الرصيف، ففحص المنياوي المادة بدقة، وعرف فورا إنها مواد أساسية تستعمل في صنع المتفجرات محليا.

الشاب الذي عرف نفسه بانه فيليب ناتانسون أصر على أنه لم يصب بسوء. قال للمفتش: ان والدي طبيب ويستطيع ان يعنى بحروقي. لكن المنياوي رفض اطلاق سراحه. وكلف قوة من رجال الشرطة نقله بسرعة الى المستشفى المجاور، حيث لم يجد المسئولون لدى تفتيشه ما يكشف عن هويته، ما عدا بعض الحاجيات الخاصة.

بعد ذلك نقل ناتانسون الى مركز الشرطة في «المنشية» لاستجوابه. وكان اعتقاله للشرطة السرية المصرية بمثابة رأس الخيط لاكتشاف حقيقة القنابل الغامضة مما ادى الى اكتشاف شبكة التجسس الصهيونية كلها فتح حارس السجن في مركز الشرطة المنشية الباب الحديدي السميك في نهاية الرواق، وتنحى جانباً ليدخل احد المخبرين.

كانت الزنزانة معتمة، ورطبة، وكان من الصعب على المخبر الذي يرتدي الملابس المدنية ان يميز الشخص الجالس على الارض في الزاوية.

امره المخبر بالنهوض، فاطاع الشاب متثاقلا، وتبع المخبر على الدرج. ثم عبر رواقاشبه بالكهف الى مكتب غير منظم في الطبقة الثانية حيث كان اثنان من المفتشين ينتظران.

وقبل ان يقبل فيليب ناتانسون الجلوس على الكرسي المقدمة له، فتح الباب،

ودخل سمير درويش، رئيس قسم التحقيقات الجنائية في الاسكندرية، يتبعه بعض رجاله.

حياه المفتشان باحترام بالغ، بينما تراجع المخبر. وامر درويش بان يبدأ الاستجواب وقد وقف فترة، ينصت بهدوء لانكار ناتانسون ان تكون له اية علاقة بحوادث تخريب دور السينما والمكتبات التي وقعت اخيرا. ثم ما لبث ان استشاط غضبا وتدخل بعنف يسأل السجين عن الجهة التي امرته بالقيام بحملات التخريب.

هنا ظهر الاضطراب على ناتانسون الا ان اضطرابه لم يستمر طويلا فسرعان ما استجمع قواه وعاد ليكرر براءته، في حين وقف الرجال في الغرفة صامتين تماما. ثم غادر درويش المكان مع رجاله وطلب اكمال التحقيق وتزويده بالنتيجة.

طرف الخيط

وقبل منتصف الليل، ظهر ان الاستجواب وصل الى الباب المسدود.

فعاد درويش ليكمل التحقيق المبدئي، وكان على وشك ان يامر بنقل ناتانسون الى سجن طره الى ان يقرر مصيره، عندما عاد فريق من المخبرين كان قد امرهم بتفتيش منزل السجين، ومعهم نتائج غير متوقعة.

لقد ادى التفتيش السريع للمنزل الى اكتشاف رسائل جاء فيها ذكر «رجل يدعى بول، وظهر من فحوى هذه الرسائل انه شخص مهم جداً» بالاضافة الى صور فوتوغرافية من روبرت داسا، لفكتور لافي.

وأدرك درويش فوراً طرف الخيط في قضية «متفجرات شهر تموز (يوليو) السرية» بات في يده وواجه السجين بالقرائن المتوفرة.

أصر على أنه شيوعي

ازاء ذلك، غير ناتانسون افادته وأصر بعناد كبير على أنه شيوعي وأن أوامر صدرت اليه للقيام باعمال ارهاب عشوائية ضد النظام.

لكن درويش غير من تكتيكه، فاغرى السجين بتحسين اوضاعه اذا ما وافق على الاعتراف بكل ما يعرف، ووعده المفتش بانه اذا اختار طريق التعاون، فانه سيعمل على انقاذ حياته.

وظل ناتاسون مصراً على أقواله.

وبأشارة من درويش بدأ استجواب من الدرجة الثالثة! لكن ناتانسون تحمل هذ النوع من الاستجواب دون ان يغير اقواله، ولم ينهر الا عندما أخبره درويش بأن أمه اعتقلت بتهمة الشك في اشتراكها باعمال التخريب، فافضى باعتراف كامل كاشفا عن شريكه بيار الذي قام معه باعمال التخريب.

ووقع لافي في الفخ

وفي الساعة الحادية عشرة والنصف من ليلة الجمعة، أي بعد مرور خمس ساعات على اعتقال ناتانسون كتب المحقق تقريره الاول مشيرا الى ان السجين هنري اشترك مع شخص آخر يدعى بيار في نسف المكتبة في القاهرة بتاريخ الرابع عشر من تموز (يوليو)، وانهما ابتاعا «حافظات النظارات» من متجرين في الاسكندرية يملكهما اختصاصي العيون موران حايك.

وبالرغم من ان التقرير اكد على ان الدلائل لم تعزز من قبل ناتانسون، ولما كان السجين لم يعترف الا قبل وقت قصير من بزوغ الفجر، فقد تبين بوضوح ان البوليس كان يملك معلومات من مصدر خارجي.

وبعد مضي ساعتين على كتابة التقرير، عرفت دائرة التحقيقات الجنائية اسم بيار الكامل وصدرت مذكرة اعتقال بحق فكتور لافي فوراً، وقد تم اعتقاله في الساعة الرابعة صباحا. وكان لافي قد عاد مبكراً الى منزله بعد محاولته الفاشلة تلك الامسية، ورجع الى الشقة، مقر الخلية التجسسية من اجل اجتماع مع عازار كان قد تقرر مسبقا لتقييم الوضع. ولما لم يجد زميله في الشقة، حاول الاتصال به تلفونيا لكن دون جدوى، لذا ترك مذكرة، وغادر المكان.

في طريقه الى منزله سمع لافي بالشائعات عن اعتقال ناتانسون، فتخلص سريعا من القنبلة التي كانت في حوزته، والتي لم يتمكن من زرعها في سينما «مترو»، وقرر ان ينتظر حتى الصباح، قبل ان يطلب تعليمات جديدة من افري.

ظهر يوم السبت، وبعد استجواب طويل وشاق، أستسلم لافي أخيرا للمحققين، وكشف عن علاقته مع روجر ـ داسا.

عازار يرتعد وافري يطمئنه

وأما افري، الذي لم يكن يعلم شيئا عن الاعتقالات، فقد وصل الى الاسكندرية، قبل العاشرة صباحا بقليل، وقاد سيارته الى مقهى في منطقة «العطارين» حيث كان قد اتفق مع لافي على اللقاء للبحث في الموقف.

ولما تعذر على رئيس الحلقة التجسسية في الاسكندرية المجيء في الموعد، ذهب افري بعد ساعتين الى مكان بديل، اتفقا عليه مسبقا.

وهناك أيضاً انتظر دون جدوى، فقرر الذهاب إلى المقر العام للحلقة، لكنه عندما لم يسمع أية أصوات من الداخل، ترك للافي رسالة في صندوق البريد محدداً فيها موعداً جديداً للقاء.

هذه المرة أيضاً، فشل لافي في الظهور.

وبدا أفري يخشى حدوث تعقيدات غير متوقعة.

عاد الى الشقة في الخامسة مساء. وانتظر عبر الشارع اطلالة إحد من الحلقة. واثناء وقوفه في مدخل احدى البنايات، رأى عازار يهرول عبر الشارع. فاتخذ احتياطات الامن اللازمة، وبعد ان تأكد من ان احداً لا يحلق بعازار، اتصل به. ولم يكن عازار يملك أي تفسير لغياب لافي. فأمره أفري بأن يبحث عنه في منزله. لكن الشاب المذعور ادعى بانه لايعرف عنوان منزل رفيقه. فاقترح افري بان يبحث عازار عن ناتانسون بدلا من لافي.

وبعد ساعة، عاد واخبر افري بقلق شديد عن اعتقال ناتانسون، وقال ان احد الاصدقاءالعاملين في مركز الجمعية اليهودية إخبره بهذا الامر.

عندها حاول افري تطمين عازار المضطرب، وتهدئة روعه قائلاً ان اعتقال شخص من الشبكة لا يعني اكتشاف امر الشبكة كلها وعلى الاثر عكف على تقييم الوضع ثم قرر اتخاذ الخطوة التالية: .

عليهم اولا ان يتخلصوا من اي دليل لا يزال موجودا في شقة القيادة، ثم يستطلعوا ما حدث للافي.

وامر افري، عازار بالذهاب لجلب مفتاح الشقة. وفي الوقت نفسه عليه ان يتسقط اخبار لافي.

اعلام تل ابيب بالاعتقالات

بعد ساعة، التقى الرجلان في المكان نفسه للمرة الثالثة في تلك الامسية، كان عازار في حالة رعب رهيبة عندما اخبر افري ان لافي اعتقل بينما كان يغادر منزله.

واضاف عازار قوله: «لقد فتشوا شقته، لكنهم لم يجدوا شيئاً» ودون اي تعليق طلب افري من عازار ان يلحق به.. وقد اتلفا بسرعة الوثائق الموجودة في شقة القيادة ونزعا جهاز التقاط وجهاز ارسال دقيقاً. وعهد افري بهما الى عازار امراً باتلافهما واحتفظ بجهاز راديو دقيق غالي الثمن.

ولان افري كان يعرف بوجود جهاز أرسال أخر مثبث في كتاب لدى لافي، حث عازار على ايجاده. فوعد عازار بان يحاول. لكنه اصر على وجوب عمل شيء قبل ان تتمكن الشرطة من الوصول الى الاعضاء الذين لا يزالون طلقاء.

لكن افري رفض اختيار طريق محدد للعمل قبل اجتماعهما في اليوم التالي. وامره ببرود بالرجوع الى المنزل.

وقد وافقه عازار متردداً. وما كادا أن يذهبا حتى وصلت قوة كبيرة من الشرطة الى المكان.

وفي وقت متأخر من ليلة السبت علم افري بأن السلطات تضيق الخناق على الشبكة، فقرر أن يعلم المركز في تل ابيب بتفاصيل الاعتقالات.

وبسبب فقدانه جهاز الاتصال مع مقر قيادة الاستخبارات العسكرية. ارسل تلغرافاً مفتوحاً الى المانيا هذا نصه: افلس «بيار» - لافي - انتظر لانقاذ الاستثمار. ووقع البرقية بأسم ابنه. وهكذا ارسلت البرقية الى تل ابيب، بواسطة البريد العادي.

بعد ذلك بثمان واربعين ساعة امر جهاز الاستخبارات العسكرية ماكس بينيت بمغادرة القاهرة. لكن ماكس كان يشعر بأمان كاف، فقام فقط بارسال عائلته، وظل هو في القاهرة.

مواصلة اعمال التخريب لتضليل التحقيق

وصباح الاحد الباكر، أسرع عازار لملاقاة أفراي في المكان المتفق عليه. وقال عازار ان داسا لا يزال في القاهرة، ولكن افري كان مهتماً بالموجودين رهن الاعتقال

وأكد الحاجة إلى تجديد أعمال التخريب لوضع الشرطة في مأزق، وإخفاء شبهة الجريمة عن الرجلين المعتقلين.

وأمام اصرار عازار على عدم التورط من جديد، وعد افري بجمع العناصر الموجودة في مصر، لمتابعة عمليات التخريب. وقال: أننا نملك كثيراً من هذه العناصر. وفي اجتماع صباح الاثنين، وصل عازار وهو في حالة مضطربة للغاية. لقد اتصل بمنزل داسا وعلم من اهله بأمر اعتقاله.

وكان داسا قد قضى عطلة نهاية الاسبوع في القاهرة ثم ركب القطار المتوجه الاسكندرية صباح الاثنين. وكان عدد من المخبرين في أنتظاره في محطة سكك حديد الاسكندرية. فاعتقل وأرسل الى مركز بوليس المنشية حيث قام باستجوابه السيد درويش.

وعلم افري في وقت لاحق، أن داسا أنكر معرفته بعمليات التخريب، لكن لدى مواجهته بكل من ناتانسون ولافي اللذين اعترفا بتورطه، عاد فأكد اشتراكه في العمليات.

وبعد اعتقال ثلاثة من أعضاء الحلقة، اصبح اعتقال عازار محتماً لذلك اقترح عليه أفري أن يغادر البلد برفقته.

تردد عازار في البداية، ثم ما لبث ان وافق. وقد اتفقا على الاجتماع مرة اخرى في ٢٨ تموز (يوليو) ومن ثم يغادران مصر معاً كما اقترح أفري.

لم يقع افري في الفخ

بعد ظهر يوم الاربعاء الموافق ٢٨ تموز، وقبل موعد اللقاء اخرج أفري سيارته من الكاراج حيث ابقاها يومين لاعادة طلائها. وقبل الثالثة مساء بوقت قصير أوقفها خلف فندق «سيس» ومشى باتجاه شارع البنوك القريب.

وعندما اتجه نحو الناصية، رأى عازار يقطع الشارع جيئة وذهاباً في حالة عصبية دون أن يحمل حقيبة ثيابه. ولما رآه عازار لم يبذل أي جهد في تحاشي القيام باتصال مكشوف معه بل مشى نحوه دون أية مقدمات أخبره بانه يجب أن يبقى في مصر. وقال له أنه لايستطيع أن يترك أمه المريضة ويغادر البلد.

وحاول افري اقناعه أن يغير رأيه، لكن عازار رفض بعناد. ومع ذلك قرر افري أن يمنحه فرصة اخرى فحدد تاريخاً أخر للقاء هو ٢ آب (اغسطس). وبعد مرور الايام الخمسة وصل افري الى مكان اللقاء المتفق عليه بالقرب من سينما مترو قبل الوقت المحدد.

وكان على وشك أن يقترب من زاوية الشارع، حيث من المقرر أن يقابل عازار، عندما شاهد رجال الشرطة.

بعد ذلك بلحظات جاءت سيارة السجن تنقل عازار، وأنزله البوليس في المكان المحدد لملاقاة افري. لكن افري كان قد غادر المكان بهدوء.

وبقيت الاوضاع المحيطة باعتقال «جاك» عازار غامضة وتلفها السرية.

وقد ذكر تقرير البوليس في وقت لاحق أن اعتقال عازار تم قبل أربعة أيام أي الخميس الموافق ٢٩ تموز، في الساعة العاشرة والنصف، عندما كان راجعاً الى منزله. وقام رجال دائرة التحقيقات الجنائية معززين برجال الامن العام بأستجواب عازار ليلاً، نهاراً.

وعندما فتشوا شقته ووجدوا في حوزته الاجهزة التي أمره افري بالقائها في البحر، أعترف بدوره في حوادث القاء القنابل، وقال أنه قابل «روبرت» - افري - الذي لا يعرف سوى أسمه المستعار، وكان عليه أن يلقاه مرة ثانية في الثاني من آب اغسطس - فحاولت زرع عازار بمثابة الطعم «لروبرت».

مرزوق يعترف بدور فيكتورين

أتهم عازار بأنه السبيل الى أعتقال أعضاء حلقة القاهرة للتجسس. فمن خلال أعترافاته، تمكنت الشرطة من أعتقال «زعفران» و«ميوهاس». كما أن أعتقال هذين الشخصين أدى الى القبض على أعضاء أخرين هم نعيم، وكوهين، ومرزوق.

وعندما سئل زعفران عما اذا كان يعرف شيئاً على «بول» المذكور إسمه في الرسائل التي ضبطت في شقة ناتانسون، أجاب ببساطة: «بالتأكيد، انه الاسم الذي كان يتستر به الدكتور مرزوق». وبالرغم من معرفته بالاعتقالات التي تمت في القاهرة والاسكندرية، ظل الجراح الشاب، مرزوق يذهب الى العمل في المستشفى الى أن

أعتقله مخبرو دائرة التحقيقات الجنائية ورجال المخابرات. في الاستجواب الاول، كشف مرزوق بعض التفاصيل عن الالة الصهيونية، أو الجهاز الصهيوني في مصر. واعترف أن الشقة التي استعملت كمركز للقيادة في الاسكندرية، «لم تستعمل فقط لنقل الاشارات والرسائل اللاسلكية، بل كانت أيضاً مكاناً للقاء ضباط الاستخبارات الاسرائيلية الذين كانوا يأتون الى مصر دورياً لغرض التفتيش».

وادعى مرزوق أن أحد هؤلاء الضباط الاسرائيلين موجود حالياً في القاهرة لكنه لا يستطيع أن يدل الشرطة عليه، لانه كان يتصل به من خلال «كلود» - نينو - الواسطة بين حلقتي شبكة التجسس، وبين المركز في اسرائيل وكان اسم فيكتورين سابقاً قد تردد على السنة المتهمين الاخرين، فصدرت فوراً مذكرة بأعتقالها.

وتبين أن الفتاة المعروفة عادة باطلاعها الوثيق، لم تعلم عن الاعتقالات الا بطريق الصدفة.

حاولت الاتصال «ببينيت» عن طريق رسالة تركتها في مكان متفق عليه، لكن عندما لم يظهر في الاجتماع، اعتبرت انه من الخطورة بمكان بقاءها في المدينة.

وهكذا أخذت إجازة بحجة البقاء الى جانب والدتها المريضة، وتسللت بهدوء الى الاسكندرية. لكن قلقها أثار الانتباه.

فبعد وقت قصير من مغادرتها المكتب، تلقت شرطة القاهرة الرسالة هاتفية من احدى رفيقاتها في العمل كانت قد امتعضت من شهرة في القاهرة رسالتها الاجتماعية، حتى أصبحت تشك في تصرفاتها.

وفي الوقت الذي اندفع المخبرون الى شقتها، كانت هي قد غادرت الشقة، ولكن الشرطة وجدت في الشقة أكثر مما كانت تتوقع: وجدت جثة جارها، الياهو أرماند كارمونا، الموظف في الشركة هليوبوليس معلقة باحدى دعامات سقف الحمام.

(ادعت فيكتورين في وقت لاحق أن الياهو انتحر لان ابنته تعيش في اسرائيل، وخشي أن تشك السلطات بأن له ضلعاً مع الصهاينة).

ولحق رجال التحري بفيكتورين الى منتجع بالقرب من الاسكندرية، وأقتحموا غرفتها في الوقت الذي حاولت القفز من النافذة.

ولدى مواجهتها بالقرائن التي أدلى بها رفاقها المتآمرون، أعترفت أخيراً بدورها في الشبكة، لكنها أنكرت معرفة المكان الحقيقي لماكس بينيت. وقالت انها تعرف فقط رقم سيارته.

اعتقال بينيت

وكانت فيكتورين قد اقتربت مرة من «بينيت» بشكل غير حذر عندما كان بصحبة بعض رجال الاستخبارات. احدهم تذكر هذه المقابلة.

ومن خلال هذه المعلومات، بالرغم من ضالتها، أمكن الترصد لبينيت. فقد قامت الشرطة بالبحث في منطقة الزمالك الى أن وجدت سيارته الشفروليه الزرقاء، وبعد اجراء تفتيش دقيق في شقته، اكتشف رجال التحري وجود ارسال في خزان الزيت، وأقاموا كميناً له في الكاراج.

ويوم ١٢ آب اغسطس، في الثالثة صباحاً، عندما حاول بينيت الاتصال بتل ابيب، اعتقل متلبساً بالجرم المشهود لعدم معرفته بأعترافات أعضاء الشبكة، حاول افري أرباك البوليس، بالاستمرار في القاء القنابل بنفسه.

وهكذا في الرابعة من مساء يوم ٢٧ تموز (يوليو) ركب الى شاطىء «المكس» بجوار القاهرة وفجر بقنبلة مولوتوف خط أنابيب الزيت وخزانات البنزين التابعة لشركة شل.

وبعد ذلك بيومين أستعار سيارة صديق له، وسافر بها الى الاسماعيلية.

وعند بدء العشية، وبينما كان ماراً بمخيم للجيش البريطاني في منطقة القناة، قذف الحراس بالقرب من البوابة الأمامية بقنبلة يدوية، وأسرع بالهروب.

بعد اعتقال عازار، توصل افري الى القناعة بأن اعتقاله سيسيء الى الاستخبارات الاسرائيلية أكثر من هجرة الشبكة وكان من الضروري أن يغادر مصر. ولخوفه من احتمال اقدام البوليس على غلق الحدود، عدل عن الخطة السابقة بالهرب عن طريق ليبيا، وعلى سبيل التضليل، اشترى بطاقة سفر على ظهر الباخرة اليونانية «أغامنون»، واعلم كل اصدقائه الالمان بأنه سيبحر في الحادي والعشرين من آب (اغسطس).

وعن طريق وسيط يدعى «كيل»وهو يوغوسلافي، صاحب كاراج، أجرى الترتيبات لبيع سيارته. وبكل هدوء أجرى المعاملات الجمركية اللازمة، وقبض ٩٠٠ دولار مقدماً، ووقع أوراق تحويل ملكية السيارة الى السيد مسعد حسن حسنين.

ويوم ٤ آب، اغسطس، قام افري باخر رحلة له للقاهرة، وهناك سلمه احد الالمان وثائق مصرية سرية خطيرة، برهنت عن قيمتها العظمى ابان حرب السويس في العام ١٩٥٦. بعد ذلك بثمان واربعين ساعة ركب طائرة الخطوط الجوية العالمية «تي - دبليو - اي» من مطار القاهرة الدولي الى روما.

التستر على كوهين

بدأ البوليس المصري بحثه عن «روبرت» بعد وقت طويل من مغادرة افري مصر. بينيت، اخر من أعتقل، كان خلف القبضان منذ أسبوع، عندما توافرت لدى المحققين المعلومات عن بول فرانك ويوم ٢١ آب، اغسطس، وبعد أن ثبت ضلوع فرانك في حوادث القاء المتفجرات، صدرت مذكرة باعتقاله.

وعلاوة على افري، حاول فيكتور سعدي، وايلي كوهين وأعضاء اخرون في الشبكة لم تعرف هوياتهم، مراوغة البوليس.

وفي اليوم الذي اعتقل فيه عازار، توقف كوهين في مقهى في الطريق الى منزله، قادماً من المكتب. جلس يحتسي القهوة، عندما تقدم منه احد رجال التحري الذي يعرفه جيداً وأخبره عن اعتقال صهيوني محلي كان متورطاً في حوادث القاء القنابل الاخيرة.

مثل كوهين ببراعة متظاهراً بالصدمة أن يهودياً في هكذا عمل، وبعد محادثة قصيرة مع رجل التحري، غادر القهوة مسرعاً والشيء الغريب مثلاً ان لا احد من أعضاء الشبكة ذكر في التحقيق اسم عامل جهاز اللاسكلي «الكس» وهو اسم الشيفرة الذي كان يستعمله كوهين.

تورط كوهين في وقت لاحق من خلال وثائق ضبطت في شقة عازار، واعتقل مع ١٥٠ أخرين من يهود القاهرة والاسكندرية، كلهم كانت لهم سجلات صهيونية، وعرفوا بعلاقات صداقة مع المتهم، وتعرض هؤلاء جميعاً للاستجواب.

وبرغم براعة المحققين في محاولة الحصول على اعتراف من كوهين، فان الاخير أصر بشكل قوي على عدم معرفته بالحلقة وعملياتها.

ولكن البوليس حوله الى سجن في صحراء «سيوه» بالقرب من الحدود الليبية. وبعد أسابيع من الاستجوابات الدورية، وفشل البوليس في ايجاد اية رابطة بين كوهين وبين المتهمين امر باطلاق سراحه، مع ٢٠ اخرين من المشتبه بهم.

التحقيق العسكري

وبعد انتهاء التحقيق الاولي الذي قامت به دائرة التحقيق في الجرائم، ومديرية الامن العام، حول المخربون الاحد عشر الى مركز للجيش في القاهرة حيث سلموا الى قسم التحقيقات العسكرية.

وضعوا في الانفراد، واستمر التحقيق معهم ٤٣ يوماً، ليلاً ونهاراً بواسطة فريق من المحققين على رأسهم المدعي العام العسكري أمين أبو العلا.

اعترفوا جميعاً بانتسابهم الصهيوني، ومع ذلك رفضوا التعاون بالرغم من الوثائق الجرمية الدامغة التي وجدها البوليس بحوزتهم.

ان أعضاء جهاز مكافحة التجسس الذين قاموا بتفتيش منازل أعضاء الشبكة في القاهرة والاسكندرية عثروا على ثروة من «الادوات والمعدات» - وثائق، خرائط، صور، افلام، ميكرو - نسخ عن مراسلات مع الاستخبارات العسكرية الاسرائيلية في اوروبا، شرائط تسجيل، متفجرات، وحتى موزع اوارق أوتوماتيكي.

الشيء المحير بشكل خاص، هو عدد اجهزة الارسال. بالرغم من أن بينيت كان مدير ثلاثة من هذه الاجهزة، فقد ذكر رجال الامن العام أنهم صادروا ستة أجهزة اخرى، بين القاهرة والاسكندرية خبئت في زجاجات المربى، وخزانات الوقود في السيارات، وحتى ضمن كتاب التوراة.

فيكتورين حاولت الانتحار

وفي ١١ آب، اغسطس، وعندما كانت فيكتورين تنتظر وصول المحقق، سمعت طرقة على الباب.

وعندما وقف الحارس ليرد على الطارق، قفزت فيكتورين في حركة سريعة من

النافذة محاولة الانتحار. لكنها سقطت من الطبقة الاولى فقط، واصيبت بكسر في رجلها وجراح بسيطة.

وبعد جهد متواصل، تمكن المحققون من الحصول على اعترافات ممهورة بتواقيع السجناء الاحد عشر. وعقب ذلك بوقت قصير حول السجناء الى سجن مدني بالقرب من محطة سكك حديد القاهرة. واستعد السجناء للمثول امام محكمة علنية.

راديو دمشق كان الأول في اعلان نبأ «اكتشاف العصابة الصهيونية التي هددت سلامة مصر الداخلية». ولكن البيان الرسمي عن القضية، اذاعه وزير الداخلية زكريا محي الدين، من راديو القاهرة يوم ٦ تشرين الأول (اكتوبر).

قال ان تحقيقات البوليس اكتملت باعترافات صريحة من المتهمين، وان باستطاعته الان الكشف «عن المؤامرة الاسرائيلية لنشر الفتنة والفوضى في مصر» وقال زكريا محي الدين ان «الهدف من القاء القنابل هو اساءة العلاقات بين مصر وكل من بريطانيا، والولايات المتحدة».

واصبح واضحاً أيضاً ان اليهود الذين يعيشون في مصر قد اجبروا على العمل في الشبكة التجسسية، بالرغم من رغبتهم البقاء موالين للحكومة.

وقالت مجلة «المصور»: على يهود مصر أن يتتبعوا باهتمام نتيجة محاكمة الجواسيس ويعيدوا القصة على أطفالهم مئات المرات. وهكذا يمكنهم أن يروا أن اسرائيل تريد منهم خيانة البلد الذي عاملهم بكرم أخلاق».

ويوم ٦ كانون الثاني ١٩٥٥ صدرت الأحكام بالشنق حتى الموت على كل من مرزوق وسامي عازار والسجن المؤبد لڤيكتور لاڤي وفيليب هرمان ناتانسون والسجن ١٥ عاماً لڤيكتورين نينو وروبرت داسا والسجن مع الأشغال الشاقة لمدة سبع سنوات لكل من مائير زعفران ومايو هاس وبرئت ساحة إيلي نعيم وسيزار كوهين.

وقامت السلطات بتنفيذ الأحكام يوم ٣١ كانون الثاني إذ اقتيد مرزوق وعازار إلى حبل المشنقة.

● أين هم الآن؟ ●

أما المشتركون الأساسيون في قضية لافون، فلم يتأثروا مباشرة بالفضيحة. الكولونيل بنيامن جيبلي خدم كملحق عسكري في لندن، قبل أن يترك الجيش في كانون الثاني (يناير) ١٩٦١. وبالرغم من الأدلة الثابتة التي عرضت على عدة لجان بأنه زور وثائق «المودين»، وأجبر مرؤوسه على تغيير شهادته، لم يحاكم أبداً. انما عرضت عليه رئاسة صناعة شيمين للزيوت، وهو يرئس الآن مجمعاً للأغذية في حيفا. الكولونيل يوشافاط هاركابي أصبح كاتباً ومعلقاً سياسياً، موتسي بن زور، ويوسف هاريل استقالا من الجيش ويحتلان الآن مناصب مرموقة في الصناعات الخفيفة. عزرا هاريل استقال من رئاسة أجهزة الاستخبارات والأمن في العام ١٩٦٣ بعد عراكه مع بن غوريون حول عملية أخرى وقد خدم كمستشار رئيس الوزراء ليفي اشكول في شؤون الأمن، قبل أن يتقاعد من الخدمة الحكومية ويشكل شركة استشارية خاصة. وبعد حرب حزيران، رأس لجنة لمنع عودة الأراضي المحتلة، وانتخب عضواً في الكنيست.

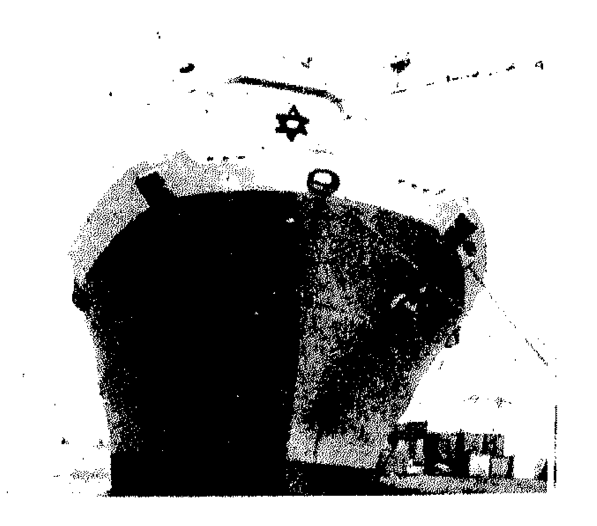
وبعد سبع سنوات قضاها أفري العاد في السجن، طلب اعادة النظر في مدة الحكم نظراً لتصرفه الحسن، فرفضت لجنة العفو طلب استجابة لرأي الأمن العام «شين بيت». ولما أطلق سراحه فتح محلاً للأدوات الكهربائية في تل أبيب. وتلقى تحذيراً بأن يبقى ساكتاً حول دوره في كارثة ١٩٥٤. ثم استقر في لوس انجيلوس حيث عكف على كتابة مذكراته.

أما الأعضاء الآخرون في شبكة التجسس، فلم يكن حظهم أحسن حالاً. مائير مايوهاس، ومائير زعفران قضيا سبع سنوات في السجن ثم أنشأ مايوهاس شركة للتصدير إلى افريقيا، بينما عمل زعفران في بلدية حيفا كمهندس معماري.

وأربعة أعضاء من الشبكة جرى تبادلهم في العام ١٩٦٨ مع الأسرى المصريين. فاستقرت فيكتورين ميمو في «رامات أبيب» ودرست الفنون واللغة الانكليزية في جامعة تل أبيب، وفي شهر تشرين الثاني (نوفمبر) الماضي تزوجت من الكولونيل ايلي يوجر وأصبح فيليب ناتانسون مصوراً صحفياً لمجلة الجيش الاسرائيلي الاسبوعية

«باهامان». وتزوج فيكتور لافي صديقته القديمة ودرس الهندسة الزراعية في «راجابوت»، وأنهى روبرت داسا دراسته عن شؤون الشرق الأوسط في جامعة تل أبيب.

وأما بقايا جثث مرزوق وعازار وكارمونا فلم تعد إلى إسرائيل. جثة بنيت فقط أعيدت خلال تبادل أسرى الحرب بعد حملة سيناء في العام ١٩٥٦ وقد دفنت بهدوء في المقبرة العسكرية على جبل هرتزل في القدس.



عملية يخت «سويلن»
آخر إنجازات الموساد

اعتاد الاسرائيليون المثول أمام المحاكم المصرية منذ بدء تطبيع العلاقات بين البلدين عام ١٩٧٨ حتى اليوم، كمتهمين في قضايا محدَّدة مثل ترويج الدولارات المزيَّفة وحيازة المخدرات خصوصاً الهيروين وسرقة الآثار النادرة والتبديد في الصفقات التجارية.

وفي ٣٠ حزيران (يونيو) ١٩٩١ ابتكر الاسرائيليون أسلوباً جديداً لنهب الثروات والكائنات المائية النادرة في منطقة شرم الشيخ. وتمكَّن رجال الأمن المصريون من كشف الواقعة. وكانت المفاجأة في العثور على سبعين كيلوغراماً من الكائنات البحرية والشِعَب المرجانية داخل ثلاَّجة يخت اسرائيلي، وهي تعتبر من أندر الكائنات البحرية في العالم. وتمّ القبض على عشرة من أفراد القارب وأخلي سبيلهم بكفالة مالية مقدارها عشرون ألف جنيه.

ولكن ما الهدف من هذه «اللعبة» الاسرائيلية، وهل هي محاولة استخبارية عسكرية، أم مهمة علمية تجسسية؟

تفيد وثائق جهاز المخابرات الاسرائيلية أن المكاتب العلمية تتبع رئيس الجهاز مباشرة وتتولّى جمع المعلومات عن كل ما يتعلّق بالتكنولوجيا والتقدم، خصوصاً أجهزة الكومبيوتر، والاستيلاء عليها ونقلها إلى اسرائيل لإجراء الأبحاث والتجارب والانفراد بالنتائج والتفاوض مع الدول الراغبة في تبادل المعلومات حول أمور معيَّنة في المعامل الكيماوية.

من العمليات العلمية الاستيلاء على الأبحاث الخاصة بعلاج السرطان والإيدز. ولعل هذا هو التفسير الوحيد لعملية «رأس محمد» التي تمّت يوم

١٩٩١/٦/٣٠ عن طريق أحد القوارب الاسرائيلية الذي دخل المياه الإقليمية لمصر في منطقة جنوب سيناء عن طريق شرم الشيخ وكان يقلّ ١٣ شخصاً بحجة السياحة وممارسة رياضة الغوص والتزحلق على الماء. والحقيقة أنهم جاؤوا لنهب بعض ثروات هذه المنطقة العالمية التي تخصص السوق الأوروبية المشتركة مبلغاً كبيراً سنوياً لحمايتها ومنع صيد الكائنات الحيّة أو نقلها أو إزعاجها باعتبارها ثروة عالمية. وقد تمّ اختيار محمية «راس محمد» لعقد الدورة المقبلة لاتحاد نوادي الغوص العالمية في أيلول (سبتمبر) المقبل وفرضت سلطات الأمن ودوائر السياحة المصرية إجراءات مشدّدة لتنظيم عملية الدخول إلى هذه المنطقة.

قصة اليخت «سويلن»

أما العملية فيمكن أن تروى كالآتي: فجر ١٩٩١/٦/٢٨ وصل إلى ميناء شرم الشيخ يخت بحري اسرائيلي على درجة كبيرة من الرفاهية يحمل اسم «سويلن» ويستقلّه ١٣ فرداً بينهم فتاتان، وتقدّموا بطلب إلى سلطات أمن الموانىء للحصول على إذن بالدخول لممارسة الرياضة المائية. وتبيّن من فحص أوراق اليخت أنه وصل إلى المياه الإقليمية من دون إخطار سابق لوزارة الخارجية، وأن المدة التي طلبها أعضاء اليخت هي أطول مدة يسمح بها للبقاء في المنطقة وهي أسبوع بعد السماح له بالدخول تبيّن أنه اختفى عن الأنظار ثم غيّر خط سيره عن الخط المحدّد له مسبقاً، كما هرب من دورية المرور والتفتيش المفاجىء.

وأثار هذا السلوك شكوك سلطات الأمن المصرية التي بلغتها معلومات تفيد أن اليخت الاسرائيلي الذي وصل إلى مصر يوم ١٩٩١/٦/٢٨ جاء في مهمة استخبارية وليس لمهمة سياحية.

في ضوء ذلك صدرت التعليمات لضبط اليخت فتم ذلك، ثم بدأت المفاجآت تتوالى وظهرت مجموعة كبيرة من الأكياس فضلاً عن أوانٍ وأحماض وأحواض. وشكّلت لجنة علمية لفحص ما ضبط وجاء في التقرير الفني المبدئي أنها تحتوي على طحالب وكائنات بحرية وشِعب مرجانية نادرة لا تقدّر بثمن ومحظور الحصول عليها. وفي الاستجواب الأولي لأفراد اليخت ظهرت أكثر من مفاجأة، منها أن ربّان اليخت فرنسي الجنسية يدعى جيروم تروفاني اعترف أنه استأجر اليخت هو ومجموعة من

الدارسين في جامعة تل أبيب برئاسة البروفسور كشهان الاسرائيلي وأنهم حضروا لأغراض علمية بحتة ومنها أيضاً اعتراف أفراد اليخت الـ ١٣ أمام نيابة الطور بأنهم خرجوا عن خط السير المسموح لهم، وأنهم استولوا على شعب مرجانية من محمية رأس محمد وقالوا إنهم نزلوا تحت سطح الماء إلى عمق ٢٥ متراً، وادعوا أن الاستيلاء على المضبوطات تمَّ في المياه الدولية وليس في المياه الإقليمية.

ومنها كذلك أن الفحص المبدئي للعيِّنات أثبت أنها خاصة بالأبحاث التي تتم حالياً للتوصل إلى علاج جديد لمرض السرطان وأن اختيار العيِّنة والمنطقة والتوقيت والمكان تمَّ وفقاً لأصول علمية دقيقة.

وأصدر وكيل نيابة الطور قراراً بإخلاء سبيل عشرة من أفراد طاقم اليخت بكفالة مالية، كذلك بإخلاء الفتاتين بعد حجز جوازي سفرهما. وقام القنصل الاسرائيلي بتسديد الكفالة وبعد الاتصال بالخارجية المصرية تمَّ السماح للمتهمين بمغادرة البلاد.

رافق عملية القبض والتفتيش والتحقيق والإفراج والترحيل اهتمام إعلامي غير عادي من الإذاعة الاسرائيلية التي قدَّمت مجموعة من التحليلات والأخبار للتمويه على هذه العملية الاستخبارية، فذكرت أن السلطات المصرية احتجزت قرب شرم الشيخ سفينة اسرائيلية على متنها عشرة أشخاص أعضاء طاقم أبحاث، وأن الاسرائيليين وصلوا إلى هذا المكان للقيام بأبحاث بحرية، وأنه تم عرضهم على النيابة التي وجهت إليهم تهمة التسلّل إلى المنطقة وإلحاق أضرار بالمحميات.

فضيحة هزت تل أبيب
اسرائيل بير صديق بن غوريون
ومستشاره العسكري جاسوس سوفياتي



اسرائيل بير

امتعض اسرائيل بير أو بيكه كما لقبه الناس أشد الامتعاض لاستدعاء ايسر هرئيل له، فقد كانت الرسالة التي تسلمها منه فظة غليظة: تعال الى مكتبي:

وكان بير الذي اشتهر بأنه خبير في الشؤون العسكرية وواحد من أقرب المقربين الى بن غوريون، شخصية بارزة في الحياة الاسرائيلية العامة.

وخرج بير من الجيش في عام ٩٥٠ ليمتهن السياسة، ولكنه حافظ على اهتمامه بالأمور العسكرية وعلى صلته بها. وكان يحضر اجتماعات رئاسة الأركان البالغة السرية، ويحصل على ما يشاء من معلومات، وكانت خطط الجيش ومخططاته ووثائق الدفاع ذات الأهمية القصوى تجد سبيلها الى يده. وفي عام ١٩٥٥ طلب منه أن يكتب تاريخاً رسمياً لحرب الاستقلال، وخصصت له غرفة في وزارة الدفاع ليقوم بابحاثه فيها.

وشاعت شهرة بير بوصفه خبيراً عسكرياً حتى في خارج اسرائيل، وكان بير في جولات محاضراته بالمانيا ينبه جمهور الشبان المستمعين اليه أشد التنبيه الى واجبهم تجاه وطنهم والى الحاجة لجعل المانيا دولة ديموقراطية قوية في مواجهة «الخطر الشيوعي القادم من الشرق.

واستحوذ بير على اعجاب قيادة حلف شمال الأطلسي - الناتو - في أوروبا للتحليلات البارعة التي قدمها عن الاستراتيجية اللازمة في حالة نشوب حرب برية في أوروبا. وقد أثنى عليه موظفو وزارة الدفاع الفرنسية علانية، لتفهمه الواسع المدى لمختلف الشؤون العسكرية..

ولم يكن من المستغرب اذن أن يمتعض بير عندما استدعاه ايسر بخشونة ذات مساء من خريف ١٩٦٠، اذ لم يبد هرئيل من الاحترام ما يتفق مع مكانته البارزة.

ولم يقم بير بأي جهد لاخفاء انزعاجه عندما مشى في مكتب ايسر والسيجار في فمه، ثم القى نفسه في الكرسي المقابل لمكتب رئيس الموساد، ونفض بير الرماد عن سيجاره بنقرة من ابهامه تدل على الازدراء، ثم انحنى في كرسيه الى الأمام وقال ببساطة: لندخل في صميم الموضوع، فأنا مستعجل.

وحدق أيسر الى العينين اللتين لا تطرفان في رأس البروفسور الأصلع، وكانت جميع ملامح وجه الزائر، ذي الشارب الأصفر المميز الذي بدت فيه آثار رماد السيجار تشير الى الاحتقار الموجه الى هرئيل، ولكن هذا لم يكن ممن يفزعون بسهولة، فواصل التحديق الى وجه بير، وهو يوجه اليه سؤالين موجزين قصيرين:

لماذا واصلت زيارتك الى برلين الشرقية؟ ولماذا سافرت الى بولندا؟

وظهر أيسر بمظهر الديكتاتور الذي يتخذه أحياناً، ورفع صوته قائلاً: ألم أحذرك قبلاً من الاختلاط بالشيوعيين؟.

وضرب المنضدة التي أمامه بقبضتي يديه بشدة وصاح: انني احذرك يا بير، وأمنعك من السفر الى أوروبا.

وعندئذٍ وثب البروفسور على قدميه غاضبا، فلم يكن أحد، حتى بن غوريون نفسه يجرؤ على التحدث اليه على هذا النحو، وأجاب صائحاً:

اهتم بشؤونك الخاصة، فسوف أشكوك الى رئيس الوزراء، بل سأشكوك الى الحزب أيضاً.

وعندئذٍ اندفع خارجاً من مكتب أيسر.

وأنقضت عدة دقائق، ورئيس الموساد يفكر في صمت، فقد كانت الشكوك

تساوره بشأن اسرائيل بير عدة سنوات. كان هذا قد كتب سلسلة من المقالات المعادية لامريكا في أثناء الحرب الكورية وكان أيسر يعلم أن بير، برغم انضمامه الى حزب بن غوريون (الماباي) الآن، كان منتمياً فيما مضى الى جماعة المابام، وهي الجناح اليساري الأكثر تطرفاً. وكان للبروفسور نشاط قوي في مناصرة الشيوعية آنذاك مما أدى به الى تلك الجماعة أخيراً. ولم ينضم الى التحالف الحاكم ـ برئاسة بن غوريون ـ الا متأخراً، وأصبح نهجه الجديد هو: قل يعيش بن غوريون، ثم افعل ما تشاء.

ولم يكن أيسر ليحارب بير على انتمائه السياسي، ولكنه كان يعجب لقدرة الرجل على تغيير انتمائه على ذلك النحو السريع الحاسم. أما رئيس الموساد فلم يكن منتمياً الى أي حزب ولكنه يعي ما يعتقده وعياً تاماً، وكانت انتهازية الرجل تثير الشكوك في نفسه.

وبعد رحيل الخبير العسكري المفاجىء، انزعج أيسر الجالس في مكتبه مرة أخرى لشيء قاله، الا وهو التحذير الذي وجهه بير حال مغادرته بقوله سوف أشكوك الى الحزب. فما الذي يقصده بذلك؟ كان بير يعلم أن أيسر لا ينتمي الى أحزاب.

كان للطريقة الطائشة التي ألقى بها بير عبارته الغريبة الى أيسر ما لتلك العبارة نفسها من مفاجأة، وبدا ذلك التحذير ارتكاساً ذهنياً محضاً صادراً عن رجل اعتاد تمثيل شخصية المحلل المنطقي، البعيدة عن الانفعال، واذن، فقد وثبت الغريزة من مكمنها، وبرزت من قناع التعقيدات الفكرية الذي تميز به بير.

ومن قبل أحس أيسر بالانزعاج بشأن بير، كما أحس بضرورة اطلاع بن غوريون على ذلك، وقد نقل اهتمامه الى رئيس الوزراء، ولكن هذا كان يثق ببير أكثر من أي وقت مضى، لقد كان رئيس الوزراء يظن أن أيسر يصدر في أمره هذا عن غيرة من شهرة بير ونفوذه. بيد أن أيسر لم يتراجع لذلك. فذهب في الحال لمقابلة رئيسه وطرح أمامه الأسباب الكامنة وراء الشكوك التي تساوره، وقال:

«يقوم بير منذ زمن بجمع معلومات عسكرية لا تتصل به في شيء، وهو يزور المدن الشيوعية في رحلاته الى أوروبا وتربطه صداقة ـ مسرفة ـ مع الدبلوماسيين الروس العاملين في اسرائيل الذين يقابلهم كثيراً».

وقد بدت في حياة بير الاجتماعية بعض الجوانب الغريبة مؤخراً، فهو ينفق أموالاً

طائلة، تزيد عما يكسب، في ملاهي تل أبيب. وعندما كان في ميونيخ مؤخراً دفع مبلغ ٢٠٠ دولار دون ادنى اهتمام. وقد كان يشتري لنفسه ولعشيقاته، ومنهن من يشك في سلوكهن، ملابس كثيرة غالية الاثمان. أما علاقاته مع زوجته رفكا فهي سيئة جداً. وهو يقضي لياليه يعاقر الراح في الحانات كحانة ـ أتوم ـ في شارع بن يهودا. وكان صوت أيسر مفعماً بالغضب لفساد أخلاق بير. فهو لم يعرف الانغماس في هذه الرذائل طيلة حياته.

وقال أيسر:

من الجلي عندي، أن بير يعاني من اجهاد ما، هو اجهاد العميل الذي يمثل دورين في الحياة، ومنذ وقت قريب تورط في فضيحة عامة: فقد هاجمه زوج احدى عشيقاته، ووجه اليه لكمات في وجهه، وهشم بعض أسنانه.

وكان بير قد أخبر رئيس الوزراء بانه فقد تلك الأسنان في حادث سيارة واختار بن غوريون تعليله ذلك على ما قاله أيسر، وبقي راسخاً في عدم الاقتناع بدعاوي أيسر.

ورد بن غوريون بهدوء:

من واجبك أن ترتاب في كل شخص كائناً من كان، أما أنا فثقتي مطلقة بهذا الرجل.

وانتهت المقابلة بينهما بذلك، ولكن المسألة بقيت قائمة لدى أيسر، فأمر عملاءه بتشديد الرقابة على بير. وأخذ فريق لأعمال التحري ينقب في ماضيه للتأكد من وجود جوانب مريبة، أو انصاف حقائق في سيرة حياته كما خبر بها أصدقاءه وزملاءه.

كان أيسر يسعى للتحقق من واحد من ـ تخميناته ـ المشهورة.

سجا ليل ٢٨ آذار ١٩٦١، بعد حوالي ثمانية أشهر من المواجهة الدرامية التي تمت بين أيسر هرئيل وبين يسرئيل بير في مكتب رئيس الموساد. كان اليهود يحتفلون بعيد الفصح، وهو احد من اخصب الأعياد وأحبها الى اليهود، ففيه يحتفلون بالخلاص من العبودية في مصر، وفي منازل اليهود في جميع أرجاء العالم، تجلس العائلات حول الموائد لتناول ـ السيدير ـ وهي وجبة عيد الفصح التقليدية التي تتلى معها حكاية الخلاص.

في الساعة الثامنة من ذلك المساء، خرج رجل من شقته الواقعة في ٦٧ شارع براندیس في تل أبيب، وكان المساء دافئاً، ولكن النسيم البليل الذي يهب من البحر الأبيض إلى الشاطىء حمل ذلك الرجل إلى تزرير معطفه، وكانت في يده حقيبة أوراق جلدية.

وأسرع الرجل خطاه في الشارع الخالي من المارة، وهو يتلفت من حوله، كما لو أراد التأكد من أن أحداً لا يقتفي خطاه واستدار الى شارع جانبي وتوقف قليلاً في ظل حجيرة للهاتف، وكان يهلث آنذاك بالرغم أنه لم يبتعد أكثر من ٢٠٠ متر عن شقته التي خرج منها، وتوقف لحظات قليلة لالتقاط انفاسه، ثم تلفت من حوله مرة أخرى. ولما لم يلحظ أحداً في الجوار انطلق منحدراً في الشارع الى مقهى صغير في أقرب زاوية من زواياه.

وسعد صاحب المقهى الذي كان يجلس وراء الباب بمشاهدة أول زبون يراه في ذلك المساء وطلب هذا الزبون زجاجة كونياك، ومضى بها الى منضدة في زاوية الحانة، بعيداً عن أضواء الشارع الساطعة، ووضع حقيبة أوراقه الجلدية على مقعد مجاور. ولما حاول صاحب المقهى أن يفتتح مع الزبون محادثة ودية، أجابه هذا اجابة جافة، معبرة عن عدم رغبته في الحديث، ومضى يحتسي الكونياك في صمت. ثم أشعل الرجل سيجارة ونظر بقلق الى ساعته.

وبعد خمس دقائق، دخل رجل آخر المقهى، وكان يرتدي بذلة سوداء قاتمة، وعلى رأسه قبعة ذات حافة عريضة وبعد أن لوح بيده للزبون الجالس، اقترب منه وجلس على كرسي مقابل له حول المنضدة.

ولم يتبادل الرجلان شيئاً من الحديث، وبعد لحظات من الجلوس نهض الوافد وخرج من المقهى.

وفي يده كانت حقيبة أوراق الرجل الآخر.

وبعد ثوا معدودات، نهض الزبون الأول، ودفع ثمن الشراب، وبدون أن ينبس ببنت شفة غادر المقهى، ليلفه الليل، في حين شرع صاحب المقهى في كنسه وتنظيفه.

وفي الخارج، تلفت الرجل الطويل حوله مرة أخرى، قبل أن يسير نحو منزله،

وعاد أدراجه في الطريق الذي جاء فيه، وان كان صفر اليدين الآن.

وعندما بلغ الرجل الطويل باب المبنى، الذي تقع فيه شقته دخل منه دون أن يكلف نفسه عناء التلفت فيما حوله، كان مطمئناً الى أن أحداً لم يتعقبه. وبعد أن صعد الدرج المؤدي الى شقته، دخل فيها واتجه صوب مكتبته، التي تعمر جدرانها كتب من عدة لغات، وهناك جلس يرتقب.

منتصف الليل. صوت سيارة مسرعة يمزق سكون الليل في ذلك الشارع. وعند رقم ٦٧ أوقفت السيارة ونزل منها الرجل الغريب ذو القبعة، وهو الرجل الثاني الذي زار المقهى القريب قبل بضع ساعات.

وكانت في يده حقيبة الأوراق التي أخذها من صاحبه وسار هذا الرجل الى باب المبنى رقم ٦٧، ودخل بدون أن يطرق الباب، ومن الواضح أن قدومه لم يكن مفاجئاً، وانه لم يتوقع المكوث طويلاً، فقد ترك محرك سيارته بدون توقف.

دق جرس الهاتف في منزل أيسر هرئيل وتناول أيسر السماعة على الفور، فقد كان ينتظر هذه المكالمة، التي عرف فيها صوت واحد من كبار عملائه، ولم يكن من داع للاعتذار عن المكالمة في ليلة العيد تلك:

«جرت مقابلة بين رجلنا، وبين رجل الاتصال الروسي للمرة الثانية في هذا المساء، فقد تقابلا في المقهى الصغير الذي تعرفه، وكان مع رجلنا حقيبة أوراق سلمها الى رجل الاتصال، ثم افترقا.

وقمت بتعقب خطى رجلنا حتى المنزل، وأنا الآن في خارج المكان، وقد دخل الرجل الروسي قبل لحظات ومعه حقيبة الأوراق التي تسلمها في المقهى، وهو مع رجلنا الآن في الداخل».

وكان أيسر بالغ القلق، ولكنه لم يفاجأ بما حدث، فرقم ٦٧ شارع برانديس هو عنوان اقامة: يسرائيل بير.

قرر أيسر أن الوقت قد حان ليضرب ضربته. ولكن، ينبغي أن يتم كل شيء بطريقة صحيحة وبارعة، فالقاء القبض على البروفسور الان وهو متلبس بتسليم الوثائق الى أحد الدبلوماسيين السوفيات الذي عرف عنه أنه أكبر جواسيس روسيا في اسرائيل، سيكون له انعكاسات دولية وربما أدى الى اسقاط حكومة بن غوريون.

وقرر أيسر الانتظار حتى يغادر الدبلوماسي منزل بير قبل الشروع في العمل، وفي أثناء ذلك طلب من عميله الحصول على أمر بالتفتيش في منزل يسرائيل بير واعتقاله. ينبغي أن يتم كل شيء بصورة قانونية أو ألا يحدث البتة.

وبعد أن وضع أيسر سماعة الهاتب رفعها على الفور مرة أخرى واتصل ببن غوريون. مل تستغر محادثتهما أكثر من عشر دقائق، قال فيها أيسر: سألقي القبض على يسرائيل بير هذه الليلة.

وتردد بن غوريون لحظة ثم قال: قم بواجبك.

وانتهت المحادثة بذلك.

كانت الساعة تشير الى منتصف الثالثة في الصباح ويسرائيل بير جالس يقرأ في مكتبه وحقيبة الأوراق ملقاة على المنضدة القريبة، في الموضع الذي تركها فيه بعد مغادرة زائره دون المساس بشيء من محتوياتها. وفجأة سمع طرقة على الباب.

وقبل أن يتمكن بير من اخفاء الحقيبة، أو حتى النهوض من كرسيه العتيق، انكسر الباب وكانت ضربة - معلم - وحيدة كافية لخلعه من مفصلاته.

واندفع صف من سبعة رجال في داخل الشقة، ووقفوا من حول بير الذي كان يجلس منتصباً متجمداً في كرسيه، وقال له أحدهم بهدوء:

انك معتقل الآن، ولدينا أمر بتفتيش الشقة.

وشاهد بير الضابط يوجه بصره الى حقيبته، وأجاب بهدوء بتلك الكلمات التي تفوه بها بن غوريون قبل ساعات في المكالمة الهاتفية مع هرئيل: قم بواجبك.

وكان بير يعلم حق العلم من هو ضابط الاستخبارات المضادة الذي تحدث اليه، فقد كان يعرف اسمه الشخصي منذ عدة سنوات، ولم يزد على أن قال: هل تمانع في أن أدخن؟.

كان ضابط الموساد المسؤول عن اعتقال بير يعلم أنه يتعامل مع رجل من أبرز رجالات البلد، فقد كان بير محاضراً في مدرسة الجيش التي يتدرب فيها الضابط، وكان كولونيلاً في الاحتياط ومستشاراً ناصحاً لوزارة الدفاع ورئيس الوزراء نفسه، وقد أحس الحاضرون بالصدمة جميعاً، اذ لم يكن العملاء يصدقون أن الرجل الذي قدموا

لاعتقاله انما كان واحداً من جواسيس السوفيات. . . الا يمكن أن يكونوا مخطئين في شأنه؟ لقد كانوا يتمنون ذلك. . .

بيد أن شكوكهم، مهما كان أمرها، سرعان ما تبددت عندما فتح الضابط حقيبة الجلد التي كانت ما تزال ملقاة على المنضدة القريبة من بير. وفي داخل الحقيبة شاهد الضابط عدداً من الوثائق البالغة السرية ومنها قائمة مفصلة لمصانع الأسلحة الكبرى في اسرائيل، وفوق ذلك كله شاهدوا مفكرة بن غوريون الخاصة، التي استعارها البروفسور حين عبر له عن رغبته في كتابه سلسلة من المقالات عن فلسفة بن غوريون في القيادة والحكم، ولم تكن هذه المفكرة تحتوي على أكثر أفكار بن غوريون الخصوصية فحسب، بل كانت تحتوي فوق ذلك على عدد من أسرار الدولة التي كان وزراء الحكومة يجهلون بعضاً منها. عندما قدم أيسر هرئيل مفكرة بن غوريون اليه، علق رئيس الوزراء على ذلك متبرماً: كنت غارقاً في محيط من الأكاذيب. ومن الواضح الجلي أن الحادث كان أليم الوقع على نفسه. وقد أحجم أيسر عن الاشارة الى أنه أعرب عن ارتيابه من بير في وقت مبكر يعود الى ١٩٥٣، ومن الأمور التي تسجل له ولموشيه دايان أن كلاهما قد قاوم رغبة بير في الالتحاق بالجيش وان بير قد اتكأ على صداقته مع بن غوريون في مقابل ذلك ليتم تعيينه مستشاراً رسمياً في وزارة الدفاع ليتسنى له الوصول الى جميع ما لها من وثائق.

اطمأن أيسر الآن الى أن بير قد كان يعمل لصالح موسكو عدة سنوات. ولكن هذا لم يعترف بشيء في أيام الاستجواب الأولى، وبقي يكرر تلك الصورة التي يرسمها لسيرة حياته أمام أصدقائه وزملائه عدة سنوات.

وفقاً لرواية بير عن سيرة حياته، ولد في فيينا عام ١٩١٢ وهاجر والداه الى الولايات المتحدة، ولكنهما عادا الى أوروبا بعد وقت قصير، ودرس بير الانسانيات والأدب الألماني في جامعة فيينا حيث تتلمذ - كما زعم - على يد ماكس راينهاردت، رجل المسرح المعروف، وفي أثناء دراسته بالجامعة انضم الى الطلاب الذين تمردوا ضد الديكتاتور انغلبرت دولفوس، واشترك في حرب الشوارع ضد النازيين في عام ١٩٣٤، وتدرب بير في أكاديمية - فينز نويشنات - العسكرية، كما قال وأصبح ضابطاً في - الشوتسباند - أو حلف الدفاع النمساوي.

وفي عام ١٩٣٦، كما قال بير، ذهب الى اسبانيا للقتال الى جانب لواء الأمميين

ضد الفاشيين في الحرب الأهلية الاسبانية، وقد خوله تدريبه العسكري أن يصبح مدرباً هناك، وتعرف بير على جميع كبار العسكريين الشيوعيين واشترك معهم في معركتي مدريد وغوادا لجارا الشهيرتين وساهم بير أيضاً في معركة تيرول الضاربة. وفي أوائل عام ١٩٣٨، حين تبين أن الحرب ستكون خاسرة، هرب من اسبانيا وطلب منه السفر الى موسكو ليتلقى تدريباً اضافياً. ولكنه بدلاً من ذلك، عاد الى فيينا، حيث تأثر بالفكر الصهيوني، وبعد وقت قصير صح عزمه على الهجرة الى فلسطين. وقال بير لآسريه متحدياً:

هذه هي قصة حياتي. مثلما تعرفون جميعاً.

وفي ذلك اليوم الرابع من بدء الاستجواب، زاره أيسر هرئيل وكان هذا يعلم أن الأسير لا يبدي أي تعاون من جانبه، فدبر شيئاً ما لمواجهته.

وحدق هرئيل الى عيني بير، كما فعل في لقائهما الأول، قبل عدة أشهر، وقال له في نبرة هادئة، وعنيدة في الوقت نفسه:

أنا أعرف أنك جاسوس سوفياتي، أخبرني بالحقيقة، اذا تعاونت معنا فسوف تسهل الأمر على الجميع، وعلى نفسك أيضاً. أخبرني حكايتك الحقيقية.

وفي مواجهة هذا التحدي، أعاد بير القصة ذاتها مرة أخرى حتى اذا فرغ منها قال له هرئيل بهدوء: «كذاب».

(ولم نجد أي أثر لوالديك في النمسا، ولو كانا يهوديين نموذجيين، كما تدعي، فلماذا لا تكون مختوناً)؟.

«لقد فحصنا جميع السجلات النمساوية، فتوصلنا الى انك لم تقاتل في متاريس الشوارع، ولم تحصل على شهادة الدكتوراه كما تدعي، بل انك لم تدرس في الجامعة، ثم انك لم تذهب الى الأكاديمية العسكرية، فقد كان هذا محظوراً على اليهود آنذاك. وقد طلبنا دراسة قوائم الأسماء فلم يعثر على اسمك فيها، وليس اسمك موجوداً في قوائم الشوتسباند كذلك.

«ونقبنا في سجلات لواء الأمميين، ولم نعثر على اسمك فيه، انك لم تحارب قط في اسانيا، والواقع انك لم تساهم في أية حملة عسكرية في أي مكان من العالم.

«والآن قل لي: من أنت؟ أخبرنا الحقيقة».

واتضح لبيران الموساد قد عرى زيف ادعاءاته، فانهار، وفي الأيام الثلاثة التالية أملى تقريراً وافياً بنشاطاته التجسسية.

وكان هرئيل قد اشتبه في أن موسكو قد ـ نشطت ـ بير بعيد حملة السويس في عام ١٩٥٦، وألحت عليه منذئذٍ في تقديم أية معلومات يمكنه الحصول عليها، وعندما كانت فرنسا تزود اسرائيل بالأسلحة نقل بير تفصيلات كمية ونوعية ما يصل الى اسرائيل منها، وكذلك فعل بصدد الأسلحة التي اشترتها اسرائيل من المانيا، كما أنه جمع ما استطاع من المعلومات عن دور المانيا في حلف الأطلسي ـ الناتو ـ في أثناء سفره الى المانيا. وكانت أبحاث بير العلمية الخاصة، في التكنولوجيا النووية خصوصاً، أحد الموضوعات التي يحتمل أن يكون رؤساء بير في موسكو قد طالبوه بتقديم معلومات عنها.

وبقي بير يمزج الحقيقة والوهم، حتى في أثناء بوحه باعترافاته، فقام عملاء الموساد وحلفاؤهم في اسرائيل وأوروبا، ومنها البلدان الشيوعية بالتحقق من كل كلمة تفوه بها، وأثبت البحث الدؤوب الذي قاموا به بطلان الكثير من ادعاءاته.

بدأت محاكمة بير في حزيران ١٩٦١ وأدت طبيعة الكثير من الأدلة في قضيته الى بقائها سراً، وكذلك بقيت بعض اعترافاته بشأن الطريقة الدقيقة التي نقل بها المعلومات الى موسكو سراً مكتوباً حتى يومنا هذا، ومن المعلوم على كل حال، أنه قد نقل للروس خططاً عسكرية تتصل بتكتيك القتال، كما نقل قوائم عن منشآت عسكرية سرية، فضلاً عن معلومات حول من يزودون اسرائيل بالأسلحة من الأجانب.

وفي أثناء المحاكمة، دافع بير عن نفسه بأنه فعل ما فعله لاعتبارات وطنية، وقال:

ـ لقد شعرت بأن من واجبي المساهمة في انقاذ اسرائيل من الوقوع في قبضة القوى الغربية.

ـ واعتقد أن على اسرائيل التحالف مع البلدان الشيوعية، وأنا لم أخن اسرائيل قط وانما كانت جميع جهودي رامية الى ابعادها عن الطريق المؤدي بها الى كارثة سياسية.

التجسس الاسرائيلي لا يزعج البيت الابيض



الجاسوس اليهودي: بولارد

قنبلة جديدة ـ غير مدوية ـ تفجرت في العلاقات الاميركية الاسرائيلية، وتم احتواؤها بين مسؤولي الطرفين، انها قنبلة الحكم على الجاسوس الاسرائيلي الاميركي جوناثان بولارد الموظف في البحرية الاميركية والصادر عن محكمة اميركية في واشنطن بالسجن مدى الحياة بسبب تسريبه معلومات اميركية عن القوة العسكرية العربية والسوفياتية الى اسرائيل، كما حكمت على زوجته ألن بولارد بالسجن خمس سنوات لمساعدة زوجها في نقل معلومات سرية إلى العدو الصهيوني.

وجاء في مذكرة وزير الدفاع الاميركي كاسبار واينبرغر إلى المحكمة أن الجاسوس اليهودي الاميركي أكد أنه يشعر وكأنه طيار اسرائيلي، وان ولاءه لاسرائيل هو أكبر من ولائه لاميركا.

والذين تابعوا قضية بولارد ـ خصوصاً من المسؤولين الاميركيين ـ يدركون أن الوثائق السرية التي نقلها بولارد إلى الاسرائيليين تكفي لشغل المخابرات الاسرائيلية لزمن طويل آت، وكما كشفت التحقيقات فان هذا اليهودي الاميركي كان يمد اسرائيل بانتظام بمعلومات اميركية غاية في السرية، تتضمن أسراراً لصنع القنابل النووية والشفرة السرية للاسطول السادس الاميركي في البحر الأبيض المتوسط وكل تفاصيل المعلومات الاميركية عن أسرار تسليح وامكانيات مصر والاردن والسعودية.

وهذه الفضيحة التجسسية لم تخجل اسرائيل، وان حاولت دبلوماسياً وحتى لا يغضب الشعب الاميركي التقليل من آثار الفضيحة، فقد صرح اريل شارون بأنه ليس لدى الولايات المتحدة ما تقوم به اسرائيل، وانما العكس هو الصحيح. . وأنه يكفي أن اسرائيل هي التي ساعدت اميركا طوال سنوات قيامها بما يساوي ١٢٦ مليار دولار في النفقات العسكرية، ومن بينها معلومات تجسسية تساوي ٢٨ مليار دولار

أعطتها اسرائيل إلى الولايات المتحدة عن السوفييت والعرب في سياق تبادل المعلومات.

وقد أكد مسؤول في الاستخبارات الاسرائيلية «نحن قادرون على أن نحصل على ٩٥٪ من المعلومات التي نحتاج إليها من الولايات المتحدة».

وكشف كتاب «جواسيس نهاية العالم» للمؤلف مايكل سابا الذي صدر في الولايات المتحدة عام ١٩٨٤ حقائق ومعلومات واقعية مدعومة بالأسماء والوثائق عن المافيا الصهيونية في الادارة الامبركية وأساليب عملها في سرقة أخطر الأسرار من البنتاغون وتزويد اسرائيل لها.

ففي أواخر الخمسينات وأوائل الستينات اختفت كميات هائلة من اليورانيوم من المختبرات الاميركية ولم تحرك الادارة الاميركية ساكنة رغم علمها بأن عملاء اسرائيل داخل الولايات المتحدة هم الذين سرقوا هذه الكميات لتعزيز الصناعات الذرية في الكيان الصهيوني.

ملف التجسس العربي
في اسرائيل



المؤلف يشعياهو لفيط



الكتاب: «قصة التجسس العربي في اسرائيل»

ملف التجسس العربي في إسرائيل

«حرب الظلال»

حتى بعد مرور أسبوعين وأكثر على إعلان الناطق الرسمي باسم شرطة العدو، نبأ «كشف شبكة تجسس داخل إسرائيل تعمل لصالح المخابرات السورية»، فإن هذا النبأ، وتحت هذه التسمية، ما زال شغل الإسرائيليين الشاغل، سواء في ذلك الرسميون منهم، والصحافيون وقراؤهم.

وحتى الآن ما زال جميع الإسرائيليين ـ بدءاً بوزير الشرطة شلومو هيليل، وانتهاء بأصغر مخبر صحفي ـ يصرون على رد اهتمامهم البالغ بهذه «الشبكة» لسببين اثنين:

١ ـ تشعبها وكثرة عدد أعضائها.

٢ ـ وجود شباب يهود إسرائيليين فيها.

وفي إطار هذا الاهتمام، وزعت الأجهزة الإسرائيلية المسؤولة على جميع الصحف ووكالات الأنباء العالمية، كميات كبيرة من «التفاصيل» التي تبرعت بعض وسائل الإعلام العربية بتعميمها و«بأمانة» مطلقة!.

من تلك التفاصيل، أن السيد حبيب قهوجي هو الذي يرأس هذه «الشبكة» ويديرها من الخارج، بينما يقودها من داخل إسرائيل السيد داوود سمعان تركي.

● القهوجي بين التيئيس والمتهم ●

فمن هو حبيب قهوجي؟

إنه أحد الأسماء التي لا تنسى في تاريخ الحركة الوطنية الفلسطينية، حيث كان جزءاً أساسياً من شعلة فلسطين التي لم تنطفىء تحت ظل الاحتلال الصهيوني، الأمر

الـذي عرضـه لمطاردة مستمـرة من قبل سلطات الاحتـلال حتى قبـل أن يبـدأ العمـل لتأسيس حركة «الأرض».

وتمثلت هذه المطارة التي لم تنقطع، في طرده من عمله كمدرس للغة العـربية من أكثر من مدرسـة، ثم في اعتقالـه إدارياً مـرات ومرات، إلى أن طـردته تلك السلطات بعد أكثر من عام على الاحتلال الجديد سنة ١٩٦٧ إلى خارج الأرض المحتلة، بعد أن يئست من الوصول إلى أحد مطلبيها الأساسيين: تيئسه أو إثبات أية تهمة ضده.

وفي قبرص ـ التي أبعد إليها ـ أقام حبيب قهوجي إقامة غير مشروعة، دون هوية أو جواز سفر، وأمضى هناك شهوراً في حياة رتيبة، يصفها أصدقـاؤه بأنها كـانت سجناً من نوع مختلف.

وبعـد قـبرص جـاء حبيب قهـوجي إلى بـيروت ليعمـل في مـركـز الأبحـاث الفلسطيني، حيث ألف كتابه المرجعي: «العرب في ظل الاحتـلال الإسرائيلي منـذ عام ١٩٤٨».

أمـا داوود سمعان تـركي فمعروف في أوسـاط اليسـار في إسرائيـل منـذ أواخـر الأربعينات. وكان سكرتيراً لفرع الحزب الشيوعي في قريته «المغار» التي هاجر فيها بعد إلى حيفا، لكنه ترك الحزب إثر الانشقاق الذي حدث في صفوفه سنة ١٩٦٥، وانضم إلى مجموعات مؤيدة للصين.

ولعل هذا هو ما دفع أجهزة الإعلام الإسرائيلية، لأن تصفـه بقولهـا أنه «امتلك من الخبرة في الماويـة ما أعـطاه القدرة عـلى إلقاء محـاضرات لعدة سـاعات حـول كتب الرئيس ماو».

ومن هذه التفاصيـل أيضاً، أن الأعضـاء اليهود في «الشبكـة» ـ وعددهم أربعـة عـلى الأقل ـ هـم من اليسـار الإسرائيلي الجـديد، ومن أعضـاء «المنـظمـة الاشـتراكيـة الإسرائيلية ـ ماتسبين»

● مكاسب «الشرح» الإسرائيلي ●

وبنشر هذه التفاضيل التي راحت صحف العدو تتوسع فيها «وتشرح» مدلـولاتها لتصل بقرائها إلى استنتاجـات وقناعـات محددة، بـدأت سلطات العدو تحقق مكـاسب أبرزها التالية:

١ ـ تشويه وتزوير حقيقة المناضلين العرب داخل الأرض المحتلة منذ سنة ١٩٤٨، عن طريق طمس دور حبيب قهوجي النضالي، وهو ذلك الدور الذي يعترف له به كل المناضلين الفلسطينيين والعرب المتتبعين لتبلور وتطور خط الحركة الوطنية في صفوف عرب الأرض المحتلة، وتصوير حبيب قهوجي بهذا «الكشف» وكأنه عميل لمخابرات هذه الدولة العربية أو تلك!.

٢ ـ تشويه صورة اليساريين العرب داخل الأرض المحتلة، واستعداد المواطنين اليهود العاديين ضدهم، عن طريق تقديم هؤلاء اليساريين ـ تحت اسم السيد داوود تركي ـ على أنهم «جواسيس» وتصوير نشاطهم السياسي عبر الحركات اليسارية وكأنه «ستار» يخفون خلفه حقيقة أعمالهم ونشاطاتهم «التجنسية»!.

٣ ـ توجيه ضربة قد تكون قاضية لمنظمة «ماتسبين» اليسارية الثورية، وغيرها من منظمات اليسار الإسرائيلي الجديد.

فمنذ أن تأسست منظمة «ماتسبين» سنة ١٩٦٢ وحتى الآن، وهي تشكل إزعاجاً كبيراً لسلطات العدو، وتفرض نفسها بقوة على الرأي العام الإسرائيلي، والعالمي أيضاً، بمواقفها الثورية، وإيديولوجيتها المناقضة للإيديولوجية الصهيونية.

على أن جمع المراقبين، الذين يعرفون حقيقة عدم التناسب المطلق بين أثر هذه المنظمة وعدد أعضائها، لم يفاجأوا بعنف حملات أجهزة القمع الإسرائيلية ضدها، نظراً لما تميزت به هذه الحركة الثورية عن كل ما عداها من حركات الاحتجاج والرفض داخل إسرائيل، مثل حركة «الفهود السود» مثلاً، والتي لم تتمكن من بلورة أيديولوجية ثورية أو شبه ثورية خاصة بها رغم الإقبال الكبير على الانضمام إلى صفوفها من قبل اليهود الشرقيين في إسرائيل.

ولقد قطفت أجهزة القمع الإسرائيلية هذه أولى ثمار إدعاءاتها على أعضاء في حركة ماتسبين، حين بدأت الصحف الإسرائيلية بعد أقل من أربع وعشرين ساعة على «الكشف» تستعدي السلطات على الحركة وقادتها، وبرزت بين تلك الصحف جريدة «دافار» شبه الرسمية التي كتبت تقول:

«لقد تخطى كثير من أعضاء اليسار المتطرف ذلك الحاجز الذي يفصل بين الأيديولوجية والتخريب»... ودعت الصحيفة إلى «إجراء تحقيق في دوائر الماتسبين

واليسار الإسرائيلي الجديد، لتحديد مسؤوليات زعماء هذه الحركة الذين لا يمكن أن يكونوا جاهلين بما يدبره أعضاؤها»!

هل يكون «اكتشاف الشبكة» إذن مناسبة تستغلها سلطات الاحتلال للقضاء نهائياً على التحرك اليساري الثوري في الشارع اليهودي في إسرائيل؟ وهل يستخدم هذا «الكشف» سوطاً لتخويف عرب الأرض المحتلة و «تهويش» اليهود ضدهم؟

● أسرار إسرائيل مقابل حفنة من الجنيهات ●

وإذا تجاوزنا ـ ولو مؤقتاً ـ ما سيصل إليه تحقيق سلطات الاحتلال مع هؤلاء اليساريين المعتقلين وحاولنا فتح «ملف» شبكات التجسس التي كشفتها إسرائيل من قبل، لاتضحت أمامنا صورة مغايرة تماماً وبشكل مطلق، لجميع ادعاءات إسرائيل.

داخل سجون إسرائيل ومعتقلاتها الكثيرة، عشرات من اليهود الإسرائيليين الذين عملوا لسنين طويلة جواسيس حقيقيين ـ لا كأعضاء في «الشبكة» الجديدة ـ فنقلوا للأجهزة العربية المختصة أخطر أسرار إسرائيل، مقابل حفنة من الجنيهات. كما تؤكد ذلك المراجع الإسرائيلية نفسها.

من تلك المراجع كتاب يشعيا هو لغيط الصحافي الإسرائيلي المعروف بصلاته الوثيقة مع أجهزة مخابرات العدو، وهو كتاب «حرب الظلال»، الذي صدر في تل أبيب في شهر نيسان سنة ١٩٦٩.

في هذا الكتاب الذي يحكي «قصة التجسس العربي في إسرائيل» يقول المؤلف في مقدمته: «أن هذا الكتاب لا يدعي ـ ولا يستطيع أن يدعى ـ الإحاطة بجميع نشاطات المخابرات العربية وغيرها داخل إسرائيل، منذ إنشاء الدولة إلى ما بعد حرب الأيام الستة...».

وبرغم أن الكتاب ليس كتاباً إحصائياً، وبرغم اقتصاره على تقديم عينات فقط لبعض نشاطات المخابرات العربية، ونوعيات المتعاونين معها، فإن قارىء الكتاب ـ وخاصة العربي المبهور بصورة «السوبرمان» الإسرائيلي ـ يفاجأ بأسماء العشرات من اليهود الإسرائيليين، الذين يصفهم الكتاب «بالخونة»، بعد أن ثبت تعاونهم وعملهم في خدمة المخابرات العربية وغيرها، وحكموا بالموت أو بالسجن مدداً مختلفة.

● جواسيس من نوعيات مختلفة ●

إن طرح هذا الموضوع، يصل بنا إلى السؤال: ما هي نوعية ودوافع هؤلاء اليهود الإسرائيليين الذين عملوا جواسيس على «دولتهم» لصالح الدول العربية وغيرها؟.

والإجابة على هذا السؤال ـ من المصادر والمراجع الإسرائيلية أيضاً ـ تقول بأنهم من نوعيات مختلفة ومتعددة، فمنهم الضابط في الجيش ومنهم مالك السفينة أو قبطانها، ومنهم صاحب المصنع الذي كاد يصبح عضواً في الكنيست، ومنهم الشرطي والسجان ومنهم.. ومنهم...

وكما اختلفت النوعيات، اختلفت كذلك الدوافع، التي راوحت بين كونها مادية بحتة، أو انتقامية.. أو نتيجة شوق جارف لوطنه الأصلي وبلدته التي أحب.. الاسكندرية.

من أين نبدأ إذن؟

من قصة شالوم زخاريا المظلي في جيش إسرائيل؟

من قصة شالوم إسحق باروخ؟

من قصة رحاميم موشي حجاج؟

أم من قصة الكسندر يولين؟

لكن.. لعل الأفضل أن نبدأ من البداية.. من سنة ١٩٤٧، متجاوزين الجواسيس اليهود الذين خدموا في الحرب العالمية الثانية في أجهزة المخابرات النازية.

قبل إعلان قيام «دولة» إسرائيل، في منتصف شهر أيار (مايو) ١٩٤٨ بأكثر من سنة، كان رجال مخابرات قوات المقاومة في حيفا قد تمكنوا من تجنيد إسحق شلوسكي للتجسس لصالحهم.

وعمل شلوسكي الذي «كان معبوده الواحد والوحيد هو المال» كما يصفه كتاب «حرب الظلال»، شهوراً متواصلة في خدمة القوات العربية.

وفي مطلع شهر كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٩٤٧، أمعن في تضليل قوات الهاغانا اليهودية حتى وصل إلى عرض نفسه للعمل في «خدمات المعلومات» أي جهاز مخابرات الهاغانا.

وقبل ذلك الجهاز عرض شلوسكي شاكراً، وأثبت هذا «قدرته» على التردد على ذلك الجزء من حيفا الذي كان تحت سلطة القوات العربية.

ولكن بعد أن أحكمت الحواجز بين جزئي المدينة، أثارت «قدرة» شلوسكي على تخطي جميع الحواجز ليلاً، شكوك قوات الهاغانا.

وبعد إحدى عملياته «الناجحة» وعودته من الجزء العربي من المدينة، اعتقلته مخابرات الهاغانا، وحققت معه، فاعترف بالتجسس للعرب وتزويدهم بالمعلومات التي طلبوها، وكانت النتيجة أن حوكم شلوسكي، وحكم بالإعدام الذي نفذ فيه.

حايا زايد نبرغ: الحب أقوى

وفي يافا تمكن داوود ياسميني، الذي كان ضابط مخابرات «منظمة النجادة العربية» في السنوات ٤٧ ـ ١٩٤٨، من تجنيد اليهودية حايا زايد نبرغ التي كانت تعمل ممرضة في المستشفى الحكومي في يافا، وتقيم في «حولون» إلى الجنوب من تل أبيب.

ويقول يشعيا هو لقيط مؤلف كتاب «قصة التجسس العربي في إسرائيل» في كتابه، أن حايا كانت مغرمة إلى أبعد الحدود ومنذ سنة ١٩٤٢ بداوود ياسميني، الشاب الجميل المظهر والأنيق.

وعندما أقام ياسميني في فندق كونتيننتال في يافا، حيث قيادة النجادة، ازدادت علاقته بحايا، ولم تتردد هذه في قبول طلبه إليها التجسس على الهاغانا.

وعندما تحولت الحدود بين تل أبيب ويافا إلى خط جبهة لا يمكن عبوره بسهولة، أصبحت معلومات حايا الدقيقة عن جميع مواقع الهاغانا في تل أبيب قطعاً نادراً، بالنسبة إلى القوات العربية.

وظلت حايا تعبر الحدود بشكل متواصل، مستفيدة من كونها يهودية وممرضة دون أي اعتراض، إلى أن كشف أمرها، ونفذت فيها عصابة «ليحي» حكم بالإعدام رمياً بالرصاص في اليوم الأول من شهر شباط (فبراير) ١٩٤٨.

لكن حقيقة أسلوب كشفها، ما زالت ضائعة حتى الآن بين روايتين:

تقول الرواية أن شابة عربية موظفة في دائرة بريد يافا، كانت تحب داوود ياسميني وتغار عليه، وفي إحدى مكالماته التليفونية تمكنت تلك الموظفة من معرفة

الاسم الأول للممرضة اليهودية حايا، فأبلغت صحافياً أجنبياً بما لديها من معلومات ليوصلها إلى الهاغانا.

ولم يخب ظن موظفة البريد، حيث أخبر الصحافي الهاغانا بقصة الجاسوسة اليهودية حايا، لكن هؤلاء تأخروا في التوصل إلى هويتها الكاملة وعندما عرفوها، وحاولوا القبض عليها، عثروا عليها جثة هامدة في مؤسسة دفن الموتى اليهودية. وقرأوا خبر إعدامها في بيان الصفقة أعضاء عصابة ليحي على جدران تل أبيب.

أما الرواية الثانية فتقول أن جهاز الاستماع التابع لعصابة ليحي، تمكن يوم ٣٠ كانون الثاني (يناير) ١٩٤٨ من التقاط مكالمة بين حايا وياسمين، الذي طلب من الجاسوسة إدخال سيارة متفجرات إلى قلب تل أبيب، فوعدت هذه بالتنفيذ خلال يومين.

وهنا أيضاً لم يعرف إلا الاسم الأول للجاسوسة، فأجرت عصابة ليحي سباقاً مع الزمن، وتوصلت إلى هوية حايا الكاملة وعنوانها، فذهبوا إلى بيتها، وطلبوا إليها مرافقتهم بعد أن قدموا أنفسهم كأعضاء في الهاغانا وليس في ليحي، وذلك في مطلع شهر شباط (فبراير).

«... وأحضرت حايا إلى بيت منفرد قرب هدار ـ رماتايم (شمال تل أبيب) حث حقق معها، فاعترفت، وأعدمت بطلق ناري».

وإذا كانت حايا قد كشفت فقتلت، فإن عشرات غيرها من اليهود الذين تجسسوا لصالح العرب قبلها وبعدها لم يكشفوا ولم يقتلوا، ولم تنشر قصص تجسسهم.

ڤيرادوكس: حديث المقاهي

جميع الفلسطينيين، والأجانب الذين مروا ويمرون في مدينة القدس، يتذكرون الحرب العالمية الأولى، والجيش البريطاني، وقائده في تلك الفترة اللورد اللنبي، عندما يمرون أمام «مقهى اللنبي».

لكن قليلين من بين هؤلاء، يعرفون أنه بين كراسي ذلك المقهى وطاولاته ظلّت تخطو بدلال خلال أشهر متواصلة من سنتي ١٩٤٧ و١٩٤٨، واحدة من أوائل الجاسوسات التي قدمت للقوات العربية خدمات لا تنسى.

أمور عديدة جعلت من مقهى اللنبي في القدس، أحد أماكن اللقاء والراحة

المفضلة بالنسبة إلى عدد كبير من ضابط وأفراد العصابات الصهيونية، مثل الهاغانا وإيتسل وليحي، ومن بين تلك الأمور موقع المقهى في وسط المدينة الجديدة خارج السور، واستمرار العمل فيه حتى ساعة متقدمة من الليل.

إن أكثر ما جعل ضباط وأفراد العصابات الصهيونية يفضلون مقهى اللنبي في القدس بفلسطين. على سواه، كان دون شك عمل تلك المضيفة الجميلة فيه، وهي السيدة «اليهودية» فيرا دوكس التي كانت تعاملهم ببرود ظاهر، وتفوقهم اتقاناً للغة العبرية، إضافة إلى الإنكليزية والألمانية.

وكان جميع رواد المقهى «يعرفون» أن السيدة الجميلة دوكس، مطلقة يهودية، هاجرت من تشيكوسلوفاكيا مع طفلها، ضمن موجات المهاجرين اليهود، واستوطنت القدس حيث بدأت عملها كمضيفة في المقهى.. مما رشحها لأن تكون موضع «تنافس» بين رواد المقهى، لا موضع شك.

واستفادت فيرا دوكس من مؤهلاتها هذه أشهراً عدة، كانت تسجل خلالها على أوراق المقهى الخاصة طلبات الزبائن، وتسجل في ذاكرتها ما يصل إلى سمعها من أحاديث الزبائن عن مواقع ومعسكرات العصابات الصهيونية وتحركاتها، وتنقل في نهاية كل يوم عمل، ما حفظته على أوراق تتحول إلى تقارير تجد طريقها بسهولة إلى قيادة القوات العربية في المدينة.

وبطريق الصدفة فقط، ألقى أفراد عصابة «ليحي» القبض على فيرا دوكس، حيث اعترفت هذه بأنها مسيحية لا يهودية، وبأنها كانت ترفع يومياً إلى القوات العربية، تقريراً مفصلاً عن مواقع وحواجز العصابات الصهيونية في الطالبية ورحافيا.

● العلم الغريب ●

وإذا كان الإعلام الصهيوني قد نجح في التقليل من أهمية هذه القصة في أعين اليهود بحجة أن بطلتها ليست «خائنة» بل مدسوسة على اليهودية، فإن ذلك الإعلام قد وقف عاجزاً أمام قصة أخرى، كان بطلها هذه المرة مهاجر من تشيكوسلوفاكيا، ولكنه يهودي غير مزور.

حتى أواسط سنة ١٩٥٦ كانت جميع الكتب الإسرائيلية عن حرب ١٩٤٨، وخاصة المصورة منها، تهتم كثيراً بتاريخ ١١ آذار (مارس) ١٩٤٩، وترد ذلك إلى ثلاثة أسباب:

١ ـ أنه في ذلك التاريخ انتهت آخر معارك الاحتلال قبل توقيع اتفاقية وقف إطلاق النار الثانية في زودس.

٢ ـ أنه في ذلك التاريخ أيضاً وصلت قوات الاحتلال إلى خليج العقبة على البحر الأحمر، وتم احتلال أم الرشراش، التي أصبحت تعرف فيها بعد باسم «إيلات».

٣ ـ إن المجموعة الأولى من قوات الاحتلال التي وصلت إلى شاطىء البحر الأحمر، لم يكن معها علم عادي لدولة الاحتلال، فرفع هؤلاء علماً غريباً رسموه بالحبر الأزرق على كوفية أحدهم:

وكان مع أحد أفراد المجموعة آلة تصوير سجل بها بعض اللقطات، التي كانت أهمها صورة رفع العلم الغريب.

لكن ما أضحك الإسرائيليين كثيراً، هو أنه خلف صورة رافعي العلم، ظهرت صورة مؤخرة الكسندر يولين، أحد أفراد المجموعة وهو عار تماماً ويركض باتجاه الموج.

ومع تكرار نشر الصورة، أصبحت هذه «اسم علم» وموضوع تسلية بالنسبة إلى الإسرائيليين، إلى أن كانت سنة ١٩٥٦ وتبين أن صاحب تلك المؤخرة العارية في الصورة «التاريخية» وهو ألكسندر يولين الذي يعرفه أصدقاؤه باسم ساشكا بوليتروك ـ رغم أن اسمه الأصلي نواح فيدل ـ جاسوس جندته مخابرات إحدى الدول العربية فيما بعد.

وكان يولين ـ كما ورد في كتاب يشعيا هولضبط «قصة التجسس العربي في إسرائيل» ـ قد ولد سنة ١٩١٦ في الاتحاد السوفياتي، حيث أنهى أن هناك دراسته الثانوية وتخصص في الصحافة. ومع نشوب الحرب العالمية الثانية تجند في «الجيش الأحمر» وتخرج بامتياز من كلية الضباط وعمل في «الفرع الرابع» وهو الاستخبارات السوفياتية.

بعد إنهاء خدمته في الجيش الأحمر ـ التي قام خلالها بأعمال عديدة خطوط القوات

الألمانية ـ هاجر يولين إلى بولونيا ومنها إلى تشيكوسلوفاكيا، وعين هناك حاكماً لإحدى المدن، إلى أن اتصل بمبعوثي «الهاغانا» وهاجر إلى فلسطين سنة ١٩٤٨.

وخدم يولين في جيش الاحتلال وشارك في عمليات عدة ـ ومنها عملية احتلال أم الرشراش ـ ولم يترك الجيش حتى بعدما أنهى خدمته الإجبارية فيه برتبة ملازم أول.

وفي سنة ١٩٥٦ سافر يولين ـ بعد طلاقه من زوجته الثانية ـ إلى سويسرا، ثم إلى فرنسا حيث اتصل بسفارة عربية في باريس، وأعرب لها عن استعداده تقديم معلومات عن جيش إسرائيل مقابل مبلغ من المال.

ويتابع لفيط في كتابه: ولم يكتف المسؤولون العرب في الحصول على تلك المعلومات القيمة، بل قرروا أن يستفيدوا من ذلك «الكنز» إلى أقصى حد ممكن. فأرسله الملحق العسكري في السفارة العربية في باريس إلى أثينا، حيث كان هناك في ذلك الحين ـ كما يقول الكتاب المذكور ـ قاعدة سريه لتجنيد عملاء لدولته.

في أثينا أعطي يولين جواز سفر ألمانياً سافر به إلى عاصمة بلد الملحق العسكري حيث قضى هناك غالبية أيام شهر آب (أغسطس) ١٩٥٦، وتدرب على تحليل الشيفرة والكتابة بها وكذلك على البث باللاسلكي والكتابة بالحبر السري، ثم أعيد إلى أثينا وسلم هناك جواز السفر الألماني واستعاد جوازه الإسرائيلي الذي عاد به إلى إسرائيل».

وظل يولين يعمل لصالح المخابرات العربية، إلى أن وقع في خطأه الأول ـ والأخير ـ باقتراحه العمل لمصلحة المخابرات الإسرائيلية كعميل مزدوج، فاضطر إلى الاعتراف عن «طيبة خاطر» بعلاقته بالعرب، فحوكم وحكم عليه بالسجن خمس سنوات، ولم يخفف الحكم رغم استئناف يولين ضده إلى المحكمة العليا في القدس.

● المحاضر الجاسوس ●

قبل أن يتمكن الإعلام الإسرائيلي الرسمي من التقليل من أهمية عمل ضابط في جيش إسرائيل لمصلحة المخابرات العربية، فوجىء جميع الإسرائيليين بالكشف عن جاسوس أخطر وأهم بكثير من يولين.

وكان هذا الجاسوس الجديد هو أهارون كوهين الذي اعتقل في تل أبيب يوم ٢٦ آب (أغسطس) ١٩٥٨، حسب كتاب لفيط ويوم ١٧ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٥٨

بحسب كتاب بارزوهر، وأحدث اعتقاله صدمة عنيفة للعديد من الذين عرفوه عبر دراساته ومقالاته وكتبه.

فمن هو أهارون كوهين؟
وقبل ذلك: كيف تم كشفه؟.

يقول ميخائيل بار زوهر في كتابه «المشرف: إسرهرئيل وملحمة المخابرات»:

في مطلع سنة ١٩٥٨ لم يبق شك لدى رؤساء أجهزة الأمن بخصوص وجود جاسوس سوفياتي في شمال البلاد. ولم يكن هؤلاء يعرفون أي شيء آخر. لم يعرفوا من هو ذلك الجاسوس أو أين يقيم أو حتى طبيعة المعلومات التي يعطيها. وضاعت كل جهودهم عبثاً.

كان مصدر هذه القناعة بوجود جاسوس سوفياتي هو الملاحقات. فأكثر من مرة خرجت من تل أبيب باتجاه الشمال سيارة تابعة للسفارة السوفياتية، تمكنت من تضليل ملاحقيها في شوارع وطرق الشمال. وفي إحدى المرات تمكن الملاحقون من مراقبة السيارة السوفياتية إلى أن وصلت هذه إلى حيفا وضاعت هناك آثارها.

يوم ١٧ نيسان (أبريل) ١٩٥٨ لاحظ شاويش شرطة وجود سيارة تحمل لوحة ديبلوماسية وتقف في مكان ليس بعيداً عن الطريق الموصلة إلى كيبوتس «شاعر هعمكيم» - أي بوابة السهول -، وتذكر الشاويش أنه رأى في المكان ذاته وقبل شهر تقريباً سيارة شبيهة للسيارة المتوقفة هناك.

وكتب الشاويش تقريراً وصل إلى المخابرات يوم ٢٥ نيسان (أبريل)، ليفاجأ هؤلاء بأن تلك السيارة تابعة لسفارة الاتحاد السوفياتي، وهي السيارة ذاتها التي ضللت ملاحقيها في شوارع الشمال.

وبمراجعات سريعة، عرف ضباط مخابرات العدو أن السيارة لممثل إحدى المؤسسات العلمية السوفياتية في إسرائيل، الذي يتستر بإعداد أبحاث علمية وهو في الواقع يعمل على إعداد أبحاث «من نوع مختلف تماماً» كما يقول بار زوهر.

في ١٥ أيار (مايو) ١٩٥٨ كشفت دورية مراقبة خاصة هوية السيارة التي تقدمت على الطريق وهي مطفئة أنوارها الكاشفة، ثم انحرفت عن الشارع الرئيسي وتوقفت

حيث نزل منها ذلك الممثل للمؤسسة العلمية، وضاع بين بيوت الكيبوتس.

وفي ١٥ تموز (يوليو) ١٩٥٨ عادت السيارة مرة أخرى ورأى المراقبون الممثل السوفياتي ينزل منها ويلتقي بشخص كان ينتظره، ويدخلان معاً أحد بيوت أهارون كوهين.

وعندما علم أركان المخابرات بهوية صاحب البيت أصيبوا بخيبة أمل كبيرة، إذ ليس يعقل أن يكون كوهين جاسوساً للسوفيات.

في سنة ١٩٣٧ كان قد هاجر أهارون كوهين من صربيا إلى فلسطين وانضم إلى اليسار المتطرف في حزبه «المبام»، ولم يتركه إثر الانشقاق الكبير الذي حدث فيه سنة ١٩٥٣.

● كتاب «الشرق العربي» ●

وأصدر كوهين كتابه الأول «الشرق العربي» سنة ١٩٥٥، وأصدر كتابه الثاني «العالم العربي في أيامنا» سنة ١٩٥٨، وكتب قبل وأثناء ذلك العديد من المقالات حول الشرق الأوسط، وحاضر حول هذه المواضيع في وحدات جيش إسرائيل، وكان كوهين - ٥٢ عاماً - معروفاً لدى الإسرائيليين كمستشرق وصحافي وباحث وواحد من زعماء حركة «هشعير» وأحد رجال حزب «مبام» المركزيين.

لكن جميع الصفات والمواصفات لم تمنع مخابرات العدو من اعتقاله بعد استدعائه بالخدعة إلى مكتب العلاقات في وزارة الخارجية في تل أبيب، للمحافظة على سرية الاعتقال.

وتبين في التحقيق أن اتصالات أهارون كوهين بالموظف السوفياتي قد بدأت منذ سنة ١٩٥٥، وهي «السنة التي تم فيها التقارب الكبير بين دول المعسكر الشرقي والدول العربية» على حد تعبير لفيط.

وبرغم ثبوت تعامل كوهين مع المخابرات السوفياتية، والعربية بالتالي - كما تقول المصادر الإسرائيلية ذات العلاقة بالمخابرات - فإن خبر الاعتقال قد أدى إلى تحرك أعضاء حزب «مبام» للدفاع عن زعيمهم، بعدما أفاق هؤلاء من حدة المفاجأة.

وفي يوم ١٢ تشرين ثاني (نوفمبر) مثل كوهين أمام المحكمة المركزية الإسرائيلية

في حيفا، وحوكم بتهمتين: أولاهما جمع معلومات قد تفيد «العدو»، وثانيهما من بندين يتعلقان بتسليم تلك المعلومات إلى عميل حكومة أجنبية.

وظلت محاكمة كوهين تؤجل مرة بعد مرة، إلى أن صدر الحكم عليه بالسجن خمس سنوات في شهر كانون الثاني (يناير) ١٩٦٢، ثم خفضت المحكمة العليا مدة السجن لسنتين ونصف السنة، رغم قناعتها وإدانتها للمتهم بكلا التهمتين.

● المهندس العكاوي ●

بعد أشهر قليلة على اعتقال كوهين، برز على صدر صفحات صحف العدو- وذلك في صيف ١٩٥٩ . اسم جديد هو المهندس إسحق زلبرمان من عكا، الذي كان الحلقة التالية في مسلسل الجواسيس اليهود داخل إسرائيل.

وبرغم أن اسم زلبرمان لم يكن مشهوراً ومعروفاً مثل اسم كوهين، فإن اعترافه بالتجسس لمصلحة دولة أجنبية (من الدول الشرقية) قد هز إسرائيل مثل اعتقال كوهين لسببين هما طول مدة عمله كجاسوس دون أن يكتشف ـ من سنة ١٩٥١ إلى سنة ١٩٥٩ ـ ثم لخطورة المعلومات التي نقلها وهي تلك المعلومات التي حصل عليها في أماكن عمله المتعددة، والتي كان آخرها وأخطرها في «قرية الصلب» التابعة لشركة «كور» قرب عكا، حيث عمل هناك كمهندس وكانت وظيفته رسمياً تحت اسم «مخطط كبير» فكان على اطلاع كامل بكل إنتاج للصناعة الحربية الإسرائيلية.

في الثاني من تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩٥٩ حكم على زلبرمان بالحبس مدة سبع سنوات، لكن استئناف المدعي العام لدى المحكمة العليا في القدس أدى إلى إضافة سنتي سجن إلى السبع السنوات التي حكم بها من قبل.

● كوهين العربي ●

على أن أسلوباً آخر من أساليب التجسس طالما تفاخرت إسرائيل باتقانها له، لم يكن حكراً عليها وحدها فقط.

ذلك الأسلوب هو المسمى أسلوب «زرع الذئب المنفرد» حيث تكون علاقة ذلك الذئب ـ الجاسوس مباشرة مع الدولة التي يعمل لمصلحتها من أراضي الدولة التي

يقيم فيها بعد أن يكون قد حصل من قبل على وثائق مزورة، «تثبت» أنه واحد من مواطني الدولة التي يعمل ضدها.

وأبرز أمثلة ذلك الأسلوب هو إيلي كوهين، الذي أقام في سورية تحت اسم «كامل أمين ثابت»، وساعد على هذا الإبراز مبالغة إسرائيل في تقدير ذلك الجاسوس ومجاراة أجهزة الإعلام الأجنبية لهذه المبالغة، وكذلك «انبهار» المواطن العربي العادي الذي ظل هدفاً مكشوفاً أمام أسهم العدو الإعلامية السامة التي كتبت الكتب عن «بطولات» كوهين وأبرزت قصته في روايات وأفلام، وأطلقت اسمه على أكثر من شارع ومدرسة ومستشفى في أكثر من مدينة من مدن الأرض المحتلة.

وإذا كانت للإعلام العربي هفوات وهفوات فإن سكوته عن قضية وشرح وإبراز قصة «إيلي كوهين» العربي أكبر من هفوة وأخطر من خطأ عادي عابر.

و «إيلي كوهين» العربي هذا، هو الشاب المصري الأرمني كيبورك يعقوبيان الذي ولد في القاهرة سنة ١٩٢٨ وظل فيها حتى سنة ١٩٥٩، مصوراً عادياً، إلى أن جندته إحدى المخابرات العربية وأوكلت إليه واحدة من أخطر المهام في عالم التجسس، فأتقنها على أحسن وجه وبنجاح قل نظيره.

كانت مهمة يعقوبيان دخول إسرائيل بهوية يهودية مزورة وباسم مستعار، ودخول الجيش الإسرائيلي - وإذا أمكن في سلاح المدرعات على وجه التحديد، كما ذكر فيما بعد -.

بعد تجنيد يعقوبيان مباشرة، بدأ خبراء متخصصون كل في مجاله، يعلمون يعقوبيان اللغة العبرية، وتاريخ اليهود والصهيونية والديانة اليهودية، والتعرف على عادات وتقاليد الإسرائيليين، إضافة إلى دروس في التصوير - وهي مهنته - بآلات صغيرة الحجم واستعمال الحبر السري وما شابه ذلك من استخدام أجهزة البث والاستقبال.

وللتيقن من إمكان اندماج يعقوبيان في الوسط اليهودي، أرسل هذا في مساء أحد أيام الجمعة إلى كنيس يهودي في بلد عربي، وقدم نفسه للمصلين هناك على أنه يهودي تركي يقوم بزيارة عادية للبلد العربي. ولما لم يثر في تصرفه أثناء الصلاة أي شك، اقتنع ضباط المخابرات العرب بأن يعقوبيان قد شارف على «التخرج».

وبعدما أجريت له عملية الختان، أبلغه ضباط المخابرات العرب أنه منذ تلك اللحظة عليه أن ينسى اسمه «السابق» كيبورك يعقوبيان، ويعتاد على اسمه الجديد «إسحق كوتشك» ويقدم نفسه للجميع على أنه يهودي ولد في تركيا في سنة ١٩٣٥ وأقام فترة شبابه في مصر.

وبهذا «الإخراج» المتقن، أراح ضباط المخابرات نفسهم من ضرورة تزوير هوية باسم إسحق كوتشون، وكل ما كان عليهم هو إخراج جواز سفر وهوية عربيين باسم شخص غير موجود.

وفي سنة ١٩٦٠ دخل يعقوبيان ـ كوتشك إلى مكتب رعاية اللاجئين التابع للأمم المتحدة في عاصمة عربية، وقال للمسؤولين هناك :

«أن السلطات تلاحقني بسبب يهوديتي، وهي ترفض حالياً تمديد إقامتي بحجة أنني مولود في تركيا، وأرجو لذلك أن تعطوني «شهادة ـ لاجىء» لأتمكن من الهجرة من هنا».

ولم يمض شهر على طلبه هذا حتى تحقق، فأخذ الشهادة وتوجه بها إلى القنصلية البرازيلية، وطلب إذن هجرة إلى البرازيل.

وفي مطلع سنة ١٩٦١ نزل «كوتشك» من السفينة في ميناء ريو دو جانيرو، ولم تثر أجهزة وآلات التصوير التي حملها في حقائبه أي شك، وخصوصاً أن مهنته التصوير الفوتوغرافي.

وبعد توجيه من مسؤولي المخابرات العرب، غادر كوتشك عاصمة البرازيل إلى مدينة برازيلية أخرى، ثم عاد إلى العاصمة وبدأ العمل هناك كمصور.

ومن دون إثارة أية شبهات، بدأ إسحق كوتشك التقرب من الشباب اليهود في مدينة ريو دو جانيرو، ويتبرع بجزء من دخله إلى وكالة الجباية اليهودية الموحدة، إلى أن تقدم بعد أشهر إلى مكتب الهجرة التابع للوكالة اليهودية في البرازيل، وقدم نفسه إلى المسؤولين هناك، مردداً ما علمه إياه ضباط المخابرات العرب.

قال كوتشك لمسؤولي الهجرة في البرازيل أنه لم يكن صهيونياً في يوم من الأيام، لكن مطاردة العرب لليهود هناك أيقظت فيه المشاعر القومية. وبعد هذه «اليقظة» لم

يتمكن حتى من بلوغ الراحة والسعادة في البرازيل، ووصل إلى قناعة تقضي بضرورة الهجرة إلى «أرض الجدود».

وبأذرع مفتوحة استقبل موظفو الهجرة في ميناء حيفا المهاجر الجديد من أصل تركي، الشاب إسحق كوتشون، ونقله هؤلاء مباشرة إلى مدرسة تعلم اللغة العبرية في كيبوتس «نغفا» في النقب.

وفي بداية سنة ١٩٦٢ بدأ يعمل كوتشك كمصور، دون أن يخفي رغبته في أن يصبح في يوم من الأيام مصوراً صحافياً «ليخلّد الأحداث السياسية والعسكرية الهامة».

ومن حسن حظ كوتشك أن الوكالة اليهودية والمسؤولين عن إسكان المهاجرين الجدد، اختاروا له «تخشيبة» في الحي الجنوبي من مدينة عسقلان القريبة من قطاع غزة، مما سهل عليه عملية الاتصال بالمخابرات العربية.

وظل كوتشك ذئباً منفرداً ومتميزاً وناجحاً في مهمته إلى أبعد الحدود، دون أن يتمكن أحد من كشف حقيقة مهمته وهويته، وأكثر من ذلك أنه طلب يد فتاة يهودية من كيبوتس «نغفا» التي توطدت علاقتها به منذ أن تعارفا في الأسابيع الأولى لقدومه إلى «أرض الجدود»، ووافقت الفتاة وكاد الزواج أن يتم لو لم يكن موعده بعد التاسع عشر من كانون الأول (ديسمبر) ١٩٦٣.

ففي ذلك اليوم، وصلت سيارة مدنية صغيرة عبر الطريق إلى آخر تخشيبة في جنوب مدينة عسقلان، ورقمها ١/٦٨٩، ونزل الركاب من السيارة وعادوا إليها بعد لحظات مع المعتقل أو كيبورك يعقوبيان.

وكان أطراف ما في رواية المخابرات الإسرائيلية، أنها كانت تعرف حقيقة هوية وعمل يعقوبيان من قبل، ولم تعتقله إلا في ذلك اليوم لتريح فتاة «نغفا» من إشكالات قد يتسبب بها اعتقال يعقوبيتان فيما بعد!.

ولم يتمكن حتى المقربون من أجهزة مخابرات العدو، من «ابتلاع» هذه الرواية، وتساءل لفيط في كتابه عن قصة التجسس العربي في إسرائيل: «منذ متى أصبحت الرغبة في منع مآسي شخصية واحدة من قواعد سياسة محاربة التجسس لمصلحة العدو؟».

ألماني حاكموه وأبعدوه من إسرائيل
فانتحل شخصية يهودي آخر وعاد

يقول يشعياهو لفيط، مؤلف كتاب قصة التجسس العربي في إسرائيل، عن أولريخ شنافط ـ الذي كان اسمه مرة غفريئيل زيسمان، ومرة أخرى دافيد فايتسبرغ ـ أنه كان بالإمكان اعتباره سائحاً ـ جاسوساً، وكان بالإمكان أيضاً اعتباره خائناً ـ بالمقاييس الإسرائيلية طبعاً ـ وتخصيص فصل له من فصول «الخونة»، كما كان بالإمكان كذلك اعتباره جاسوساً محترفاً مثل يعقوبيان ـ كوتشك. ومع ذلك فإن شنافط لم يكن ملائماً لأي من هذه الأطر، لأنه كان جميعها معاً مضافاً إليها شيء آخر إلى درجة جعلته، عن حق، مؤهلاً لاحتلال صفحة متميزة في تاريخ التجسس العربي في إسرائيل. قصة حياة أولريخ شنافط بدأت كما تبدأ قصة حياة كل ذكر يهودي، أي بفصل خاص عن حفلة الختان.

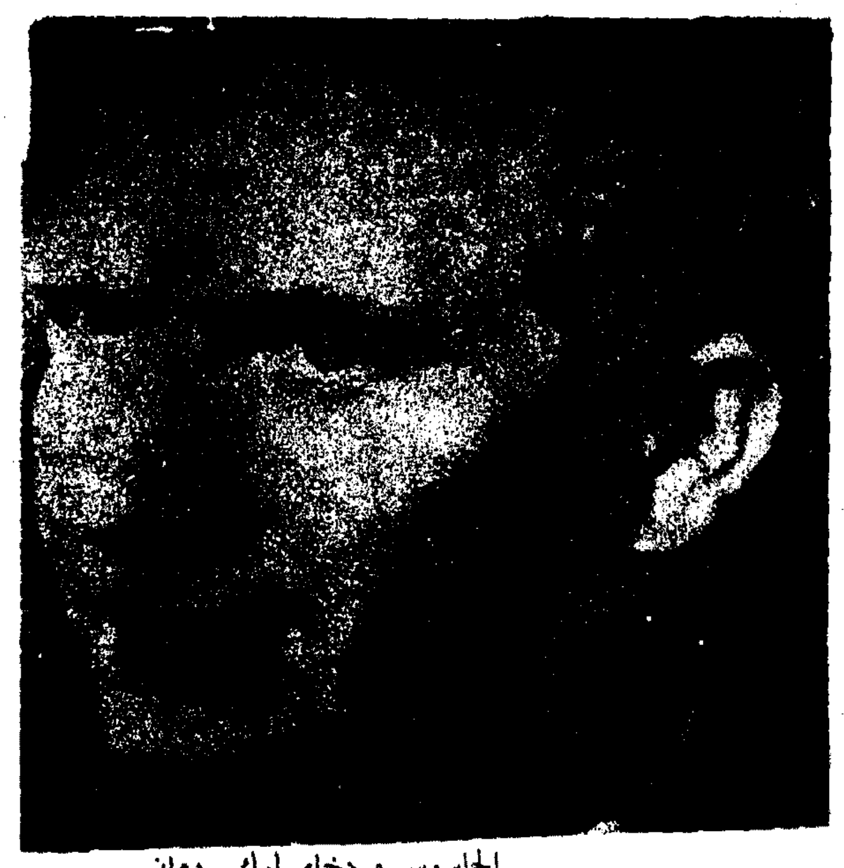
لكن ختان أي يهودي آخر غير شنافط تبدأ في أيام حياته الأولى بينما بدأ فصل ختانه هو عندما كان في الثانية والعشرين من عمره، وهو معتقل في معسكر للأسرى الألمان في شمال إيطاليا، وذلك في ربيع ١٩٤٥.

قبل ذلك التاريخ كان شنافط قد أصيب بشظية وهو يقاتل مع غيره من الجنود الألمان على الجبهة الشرقية، فأعيد إلى ألمانيا، حيث عولج وأرسل إلى سهل البو في إيطاليا حيث أسره الأميركيون.

وكان من حسن حظ شنافط أنه ـ قبل أسره بلحظات ـ تمكن من إبادة كل الوثائق الرسمية التي تثبت هويته الألمانية، فأسر على أساس الشك في ألمانيته وليس الثقة بها



أهارون كوهين: الجاسوس المثقف



الجاسوس مردخاي لوك ـ دهان.

● تقمص شخصية اليهودي ●

وقبيل انتهاء الحرب العالمية الثانية، خطرت في ذهن الأسير شنافط فكرة ذكية تساعده على الخلاص من الأسر، وما بعد الأسر أيضاً، وكانت الفكرة باختصار أن يتقمص شخصية يهودي ألماني عادي.

أولى الخطوات العملية على طريق تحقيق هذه الفكرة كانت أن ينهي عملية الختان دون طنطنه، وقبل أن يتم فرز الأسرى نهائياً. .

وكما كانت الفكرة جهنمية، كان التنفيذ أيضاً. وبعد أشهر معدودة من «الختان ـ على سنة إسحق وإبراهيم» أصبح شنافط يتجول في أوروبا، مشرداً مثل غيره من الذين شردتهم الحرب العالمية الثانية، دون أن يخطر بباله ولو للحظة أن يعود إلى بلده الأصلي كينغسبرغ، التي كانت في حينه قد سقطت في يد الجيش الأحمر، وذلك خشية اكتشاف حقيقته وهويته الأصلية.

لكن حياة التشرد لم ترق ـ على ما يبدو ـ لشنافط، وقاده تفكيره إلى قناعة تقول بأن أكثر الأماكن أمناً بالنسبة إليه ليست إلا «دولة إسرائيل».

وبعد أشهر من الإعداد الدقيق، وصل شنافط إلى مكاتب وكالة «هياس» في كيلن وقص على المسؤولين هناك قصة حياته التي ملخصها أن والديه اليهوديين قد أبادهما النازيون، وأنه شخصياً أرغم على العمل بالسخرة في مصنع ألماني صغير قرب برلين.

وكانت «قصة» شنافط شبيهة تماماً بآلاف القصص والروايات الأخرى التي منحت أصحابها «حق» الهجرة إلى فلسطين.

وبالفعل، وصل شنافط إلى الأرض المحتلة في شباط (فبراير) ١٩٤٩، وأصبح بعد أيام من وصوله جندياً عادياً في «جيش الدفاع الإسرائيلي»، تحت اسم غفريئيل زيسمان.

وبعد انتهاء الخدمة في الجيش، برتبة ملازم في سلاح المدفعية، بدأ شنافط ـ زيسمان ـ وبناء على طلبه ـ العمل في الزراعة، وكان جميع معارفه وجيرانه في بلده الجديد في النقب يحبونه، ويقدرونه بعدما لاحظوا جودة عمله وإنتاجه.

في سنة ١٩٥٤، وفي أحد أيام شهر ايار (مايو) بالتحديد، سافر زيسمان ـ كعادته في نهاية كل أسبوع ـ إلى تل أبيب، حيث تعرف هناك إلى فتاة يهودية، وبنى معها علاقات صداقة وود.

● بيرة الوطن ●

وبعد تناول العشاء في مساء ذلك اليوم، ظل زيسمان مواظباً على طلب زجاجات البيرة، واحدة تلو الأخرى إلى أن سكر تماماً، وفقد القدرة في السيطرة على تصرفاته.

وفي إحدى تلك اللحظات سمعت الصديقة زيسمان وهو يقول، وكأنما يتحدث لنفسه:

«هذه بيرة هذه؟ ها؟ هذه ليمونادة... في الوطن كان عندنا بيرة حقيقية»!

وسألت الصديقة: أي وطن؟

وأجابها زيسمان دون تردد: ألمانيا طبعاً!... ماذا؟ ألا تصدقين؟... انظري إذن...

وأخرج زيسمان من حقيبته صورة صغيرة ظهر فيها وهو بلباس الجيش النازي، وخلفه كنيس مشتعل.

بعد أيام من تلك الحادثة، اعتقلت الشرطة الإسرائيلية غفريئيل زيسمان، وسلمته إلى المخابرات، حيث اعترف هناك بأنه ليس غفريئيل زيسمان وإنما هو الألماني أولريخ شنافط.

وبرغم جميع التحقيقات معه، فإنه لم يدل بكلمة واحدة عن حقيقة نشاطاته خلال سنواته الأربع التي قضاها في العمل كمزارع، في حين تابعت الصحف الألمانية التأكيد على أن شنافط كان خلال تلك السنوات على علاقة واتصال بأجهزة المخابرات العربية في دولة قريبة من بلده الجديد في النقب.

وإزاء استمرار صمت شنافط، لم تتمكن أجهزة العدو من تقديم شنافط إلى المحاكمة، واكتفت بسحب جنسيته الإسرائيلية التي كان قد حصل عليها مثل أي يهودي مهاجر آخر، وطردت تلك السلطات شنافط من الأرض المحتلة بعدما زودته بوثيقة سفر صالحة لسفرة واحدة، وصل بها وبتذكرة السفر التي أعطيت له إلى إيطاليا.

ولم يمض وقت طويل، حتى كان شنافط قد وصل إلى سفارة الدولة العربية التي كان يعمل لمصلحتها في سني إقامته في إسرائيل باسمه اليهودي.

وبعد أسئلة عديدة للتيقن والتأكد من حقيقة هوية شنافط أرسل هذا إلى عاصمة ذلك البلد العربي، حيث أقام فيها أشهراً عديدة من سنتي ١٩٥٦، و١٩٥٧، وقدم هناك خدمات لا تحصى،، ولم يكن أهمها تعليم اللغة العبرية وتدريس طبيعة الأرض المحتلة لدورات عدة من ضباط الجيش العرب.

● العودة إلى إسرائيل ●

قبل نهاية عام ١٩٥٧، قبل شنافط اقتراحاً جديداً من المخابرات العربية، يقضي بعودته ثانية إلى الأرض المحتلة.

وفعلاً وصل شنافط من جديد إلى ميناء حيفا قادماً من أوروبا بجواز سفر مزور تحت اسم دافيد فايتسبرغ، وأقام في مدينة حيفا نفسها، متخذاً إياها منطلقاً للعمل لمصلحة المخابرات العربية، ومستفيداً من إتقانه للغة العبرية ومعرفته لجميع المدن والقرى والكيبوتسات والطرق في الأرض المحتلة.

لكن السكر الذي أفشله في المرة الأولى عاد وأفشله في المرة الثانية.

إذ بعد انتهاء إحدى جولاته الليلية، مر بأحد البارات في شارع «الاستقلال» ـ الذي كان قبلاً «شارع الملوك» ـ في مدينة حيفا قرب الميناء.

وبعدما سكر شنافط ـ فايتسبرغ، أخرج من جيبه مسدساً على شكل قلم حبر، ليثبت للبحارة في ذلك البار أنه شجاع مثلهم.

وعندما لم ينفعل البحارة وينبهروا بمسدس شنافط الذي كان قد سكر، اشتاط غضباً، وبدأ يشتمهم ويؤكد قدرته على قتلهم جميعاً.... ومؤكداً أيضاً أنه.. «قتل كثيرين منهم في الحرب العالمية الثانية أيام جيش الفوهور».

ولم يتأخر رد الفعل، حيث عاد أحد البحارة الأميركيين بعد دقائق ومعه شرطيان إسرائيليان، اعتقلا شنافط الذي حاول الخروج من المعتقل بمساعدة جواز سفره المزور.

لكن بصمات أصابع شنافط كشفت حقيقة هويته، فأخذ إلى التحقيق، حيث اصر هناك من جديد على عدم التحدث عن سنوات عمله في جنوب الأرض المحتلة، مكتفياً بالقول: «كنت مزارعاً». . ! .

في المحكمة لم تنفع شنافط ـ زيسمان ـ فايتسبرغ، ولم تساعده أيضاً روايته عن حب فاشل ربطه بفتاة يهودية إسرائيلية ودفع به ـ على حد قوله ـ إلى الانتقام من إسرائيل بعمله ضدها، وصدر عليه الحكم بالسجن سبع سنوات، طرد بعدها من الأرض المحتلة، بعدما وزعت صوره على مخافر الشرطة في الأرض المحتلة، لمنع عودته من جديد.

● قصة سامي باروخ ●

وإذا كانت قصة تجسس شنافط لمصلحة المخابرات العربية قد شغلت الإسرائيليين من باب كونها قصة خطيرة وطريفة، فإن قصة تجسس سامي باروخ للمخابرات العربية أيضاً قد شغلت الإسرائيليين، من باب كونها قصة خطيرة، وخطيرة للغاية، أثبتت لهم جميعاً أن المجتمع الإسرائيلي ليس مجتمعاً منزهاً كما تحاول أجهزة إعلامه أن تصوره، بل هو أكثر من مجرد مجتمع فاسد، يعمل في التجسس عليه، ولمصلحة عدوه، أفراد عديدون من الذين يعتبرون «علية القوم».

وليس أمراً عادياً أن يعمل في التجسس ضد بلده وجيشه، شخص مثل سامي باروخ الذي كان مهندساً وصناعياً كبيراً، ومن وجوه المجتمع الإسرائيلي المعروفة. أكثر من ذلك، كان مرشحاً لاحتلال مقعد في الكنيست ـ برلمان إسرائيل.

وإذا كان تعبير «سمكة تجسس» يطلق عادة على من يندمج تماماً في مجتمع ما ويتجسس عليه فإن مخابرات إسرائيل وسلطاتها استصغرت هذا التعبير، ووصفت سامي باروخ بأنه «حوت تجسس»! .

فمن هو سامي باروخ؟

ولد سنة ١٩٢٤ في القدس العربية، لعائلة يهودية غنية تحمل الجنسية الفرنسية.

وعندما بلغ شموئيل باروخ ـ المعروف أكثر باسم سامي باروخ ـ سن الشباب، أرسله والده إلى إحدى مدارس بريطانيا، لكنه في سنة ١٩٤٦ أوقف تعليمه، وتجند في الجيش البريطاني الذي خدم فيه أربع سنوات كاملة.

وفي سنة ١٩٤٦ تسجل سامي باروخ في «الكلية التكنولوجية» في لندن وتخرج منها بعد ثلاث سنوات بشهادة مهندس نسيج، وبنى مصنعاً للنسيج في مدينة مانشستر البريطانية وتزوج من فتاة يهودية ابنة إحدى عائلات تلك المدينة الغنية.

وبعد تسع سنوات من اطراد نجاح مصنعه، قرر سامي باروخ الهجرة إلى الأرض المحتلة، فهاجر وأقام مصنعاً للنسيج في «كريات غات» في جنوب فلسطين، وسماه مصنع «اراغدين».

● ١٨ سنة سجناً ●

لكن مصنع سامي باروخ الجديد، لم ينجح، وأعلن إفلاسه في شهر شباط (فبراير) ١٩٥٩، أي بعد أشهر معدودة فقط من إقامته، دون أن يؤثر ذلك بأي شكل على مستوى وأسلوب حياة سامي باروخ الخاصة.

تقول الرواية الإسرائيلية: وفي كانون الأول (سبتمبر) ١٩٦٣ سافر سامي باروخ إلى سويسرا، واتصل هناك بسفارة إحدى الدول العربية، وعرض عليها عرضاً قبلته على الفور، ويقضي بأن تساعد تلك الدولة العربية سامي باروخ على إعادة تشغيل مصنعه، مقابل استيعابه في هذا المصنع كله من ترسله إليه المخابرات العربية على أنه خبير في أعمال النسيج، وعلى أن يساعد هؤلاء «الخبراء» على الاندماج في المجتمع الإسرائيلي.

وعندما سأل سامي باروخ مسؤول المخابرات العربية، عن رأيه في عمله السياسي كعضو بارز في حركة «إسرائيل الشابة» ـ شجعه ذلك المسؤول على الاستمرار في عمله، بل وطلب منه زيادة ومضاعفة نشاطه في تلك الحركة.

وبمجرد عودة سامي باروخ إلى الأرض المحتلة، بدأ إرسال التقارير إلى المخابرات العربية على عناوين متفق عليها في أوروبا، وتنوعت هذه التقارير وتعددت، بين تقارير عن الوضع العسكري، إلى تقارير عن الحالة السياسية والوضع الاقتصادي وما شابه.

وظل سامي باروخ في حركة «إسرائيل الشابة». . . وتسلم مسؤولية الحركة من الناحية المالية، وكان أحد مرشحيها إلى الانتخابات البرلمانية.

لكن نشاط سامي باروخ المتشعب والمهم أوقف فجأة عندما عثرت مخابرات العدو في حقائبه وهو مسافر عبر ميناء حيفا يوم ٢٥ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٦٤، على مستمسكات أثبتت عمله التجسسي ضد إسرائيل. فاعتقل، وقدم إلى المحكمة التي قضت يوم ٨ كانون الثاني (يناير) ١٩٦٥ بسجنه لمدة ١٨ سنة.

● جاسوس نعم.. لص كلا ●

على أن مخابرات العدو، حاولت أن تخفف من الصدمة التي أصيب بها الإسرائيليون باكتشافهم أن أحد زعمائهم يعمل جاسوساً لمصلحة العرب بإلصاق تهم مشينة به معتقدة أن سامي باروخ الذي حكم ١٨ سنة لن يكون شديد الحماسة للدفاع عن نفسه، وهو يعرف مسبقاً أن الحكم عليه بأية تهمة أخرى لن تزيد من المدة التي فرض عليه قضاءها في السجن.

ولكن المدعي العام الإسرائيلي، الذي قدم سامي باروخ إلى المحكمة الجنائية بتهمة سرقة شيك بمبلغ ٢٥٠٠ ليرة إسرائيلية فوجيء بسامي باروخ ينقض بضراوة مدافعاً عن نفسه، ويثبت للمحكمة بالدليل القاطع براءته من هذه التهمة، ولم تر المحكمة مفراً من الحكم بالبراءة.

وعندما استأنف سامي باروخ الحكم بالتجسس أمام المحكمة العليا في القدس نظرت تلك المحكمة في قضيته من جديد فصادقت على تجريمه بالتآمر لتسليم معلومات «للعدو» بهدف الإخلال بأمن الدولة وبتسليم معلومات من هذا النوع، وكذلك بجمع معلومات جديدة بهدف تسليمها، وثبتت الحكم عليه من جديد بالسجن ١٨ سنة، وهو واحد من أقسى الأحكام التي صدرت في إسرائيل في مثل هذه التهم.

● جاسوس في ثياب أستاذ الفيزياء ●

لم يكن ورود اسم مانشستر في سجلات قضايا التجسس على إسرائيل، ومن داخلها، في قصة سامي باروخ هو الأول.

فقبل ذلك بسنوات كان اسم هذه المدينة البريطانية يشكل نقطة في قصة تجسس أخرى وبطلها البروفيسور كورت سيتا التشيكوسلوفاكي.

فهذا البروفيسور الذي شغل المناصب:

١ ـ رئيس فرع الفيزياء في معهد الهندسة التطبيقية ـ التخنيون في حيفا.

٢ ـ المدير المساعد لقضايا الأبحاث في ذلك المعهد.

٣ ـ الخبير الأول لأبحاث الفضاء في المعهد...

كان قد ولد في تشيكوسلوفاكيا سنة ١٩١٠، ودرس في الجامعة الألمانية في براغ، وتزوج هناك من فتاة يهودية.

وعند احتلال النازيين لتشيكوسلوفاكيا اعتقل سيتا، ولم يفرج عنه إلا بانتهاء الحرب العالمية الثانية.

بعد فترة من عودة سيتا إلى حياته الطبيعية إثر انتهاء الحرب، حصل على منحه من بريطانيا حيث درس في جامعة ادينبرغ، وانتقل منها إلى جامعة مانشستر.

وفي سنة ١٩٥١ انتقل سيتا إلى الولايات المتحدة وعين أستاذاً للفيزياء في جامعة سيراكوز، ونالت أبحاثه إعجاباً كبيراً، ولكن أصله التشيكي أدى إلى منع السلطات الأميركية ـ أيام المكارثيه ـ من تجديد إقامته فيها، فسافر إلى البرازيل، وحاضر في جامعة سان باولو.

واستمر سيتا في عمله ذلك، إلى أن دعاه معهد الهندسة التطبيقية الإسرائيلي ـ التخنيون في حيفا للعمل فيه، فهاجر هذا إلى إسرائيل سنة ١٩٥٤.

ومنذ تلك السنة وحتى العام ١٩٦٠ ظل البروفيسور سيتا يقدم تقاريره الجاسوسية إلى تشيكوسلوفاكيا ـ كما ادعت مصادر التحقيق الإسرائيلية فيما بعد ـ، وهي تلك التقارير «التي كانت ترسل إلى تشيكوسلوفاكيا وهي الدولة التي تقيم علاقات خاصة وفريدة مع إحدى دول العدو»!.

وبعد أن اعتقل البروفيسور سيتا في ١٤ حزيران (يونيو) ١٩٦٠، حكمت عليه المحكمة في شباط (فبراير) ١٩٦١ بالسجن لمدة خمس سنوات.

وعند انتهاء سنوات السجن، غادر البروفيسور سيتا الأرض المحتلة «فخسرت إسرائيل عالماً كبيراً. ولكن مكسبها الأمني عوض عليها تلك الخسارة» كما قال الصحافي الإسرائيلي يشعيا هو لفيط.

قصة رجل الحقيبة
في مطار روما

في أحد أيام سنة ١٩٦١ عيل صبر مردخاي لوك، ونفذ ما كان يحلم به عندما تسلل عبر حدود الأرض المحتلة، وسلم نفسه إلى المخابرات العربية، وزودها بمعلومات عسكرية وأمنية هامة.

لكن المخابرات العربية أبقت مردخاي في السجن، وتابعت التحقيق معه على محورين: التحقيق في ما رواه عن نفسه وهويته وهدفه، والتحقيق في المعلومات العسكرية التي قدمها.

وعندما تبين صدق روايته عن نفسه - ابتداء من ولادته في المغرب وانتهاء بعبوره الحدود، مروراً بمجريات حياته في الأرض المحتلة - وصدق ما نقله من معلومات عسكرية وأمنية، بدأت المرحلة التالية من مراحل قصته.

وكانت هذه المرحلة هي تدريب مردخاي لوك على أساليب التجسس الحديث، ثم إعداده للسفر إلى الخارج بجواز سفر مزور حمل تحت صورته اسم «يوسف دهان».

وفي النصف الثاني من سنة ١٩٦٣، سافر دهان بامر المخابرات العربية إلى فرانكفورت في ألمانيا الغربية، ثم نقل بعد ذلك بأسبوعين إلى مدينة نابولي في إيطاليا.

وبوصول يوسف دهان إلى نابولي، أقام في أحد فنادقها الرخيصة في ساحة غاريبالدي، ثم نقلته المخابرات العربية إلى غرفة استأجرتها له في بنسيون هادىء في شارع أنونتسياتا رقم ٣٠.

وتغطية لحقيقة عمل دهان، فقد أمرته المخابرات العربية بأن يسجل نفسه في سجلات الشرطة في تلك المدينة على أنه طالب جامعي.

وزيادة في ضمان عدم انكشاف حقيقته، بدأ يوسف دهان العمل في أحد مكاتب السفريات المحلية.

وطوال الأشهر المتبقية من سنة ١٩٦٣، والأشهر العشرة الأولى من سنة ١٩٦٤، واظب لوك ـ دهان على رفع التقارير إلى المخابرات العربية، وكانت مهمته الأساسية في تلك الفترة، مراقبة تحركات سفن سلاح بحرية العدو التي كانت تتردد على ميناء نابولي، وكذلك سفن الأسطول الأميركي السادس في البحر المتوسط، الذي كانت نابولي إحدى قواعده.

وبعد انتهاء هذه الفترة، جاء دور المرحلة الثالثة، وهي اللغز الأكبر الذي لم يكشف حتى الآن.

في بداية هذه المرحلة انتقل لوك ـ دهان إلى روما، واختفى هناك عن الأنظار، ليظهر فجأة داخل الحقيبة الكبيرة التي أخذت تتدحرج كسفينة وسط بحر هائج، وهي فوق الشريط المتحرك في مطار روما.

وقد استفادت المخابرات الإسرائيلية من هذا الغموض إلى أبعد الحدود، حيث راحت «تسرب» إلى الصحف الصهيونية في إيطاليا وغيرها إشاعات تقول أن لوك دهان كان عميلاً إسرائيلياً، أو في أحسن الأحوال عميلاً مزدوجاً.

وعندما أعرب لوك ـ دهان عن استعداده وتمنيه العودة إلى إسرائيل، بعد ترديده أمام محققي الشرطة الإيطالية، أنه ليس لديه ما يصرح به، كادت إشاعات مخابرات العدو أن تتحول في أذهان المتابعين إلى حقائق.

لكن خاتمة قصة مغامرات لوك ـ دهان، جاءت لتثبت بما لا يدع مجالاً للشك في تلك الاشاعات وبطلانها، إذ بعد «فترة نقاهة» أعيد هذا الجاسوس إلى إسرائيل، فاعتقل في مطار اللد بمجرد وصوله، وقدم إلى المحكمة الإسرائيلية التي قضت بسجنه إحدى عشرة سنة كاملة.

ومع صدور الحكم عادت الصحف إلى قصة لوك ـ دهان مؤكدة أنه كان جاسوساً للمخابرات العربية، إذ لو لم يكن كذلك بالفعل لأفرجت عنه السلطات الإسرائيلية، أو على أقل تقدير كانت أصدرت بحقه حكماً مخففاً للغاية بدل ذلك

الحكم الـذي كان ثـالث أقصى حكم يصدر ضـد جـاسـوس يهـودي إسرائيلي يعمـل لمصلحة المخابرات العربية.

ورغم انطواء قصة الجاسوس لوك ـ دهان، فـإن السؤال الذي مـا زالت تطرحـه جميع الصحف يدور حول عدم استبعـاد أن تكون المخـابرات العـربية، قـد طلبت إلى لوك ـ دهان العودة إلى إسرائيل، فرفض التنفيذ خوفاً من انكشافه، ورفض العـودة إلى الدولة العربية التي كان يعمل لمصلحتها خوفـاً من العقاب لـرفض الأوامر، ونتـج عن كل ذلك تلك التطورات التي جعلت من الحقيبة اسم علم.

● أبحر بسفينته ليعمل جاسوساً ●

وإذا كان لوك ـ دهان قد اتخذ من ميناء نابولي الأوروبي مركزاً للتجسس لمصلحة المخابرات العربية، فإن جاسوساً يهودياً إسرائيلياً آخر قد اتخذ لـه «مركـز عمل» ميناء أفريقيا هو ميناء «مصوع» على البحر الأحمر.

في أواخر الخمسينات اشترى يهوداً نتانئيل بـاخر سفينـة «كاليبسـو» وأقلع بها من إيلات إلى ميناء مصوع في أثيوبيا، وكان هو ربانها ومالكها.

وبوصول السفينة إلى ذلك الميناء تعطل محركها، فـألقت مراسيهـا فيه، ولم تـرفع إلى ظهرها شحنة الصدف التي تعهد يهوداً بنقلها إلى إيلات.

تـرك يهودا سفينتـه في ميناء مصـوع، وعاد بمفـرده إلى إسرائيل، وبـدأ يعمل في مناجم تمناع للنحاس في النقب حتى شهر آذار (مارس) سنة ١٩٦٠، حيث علم بقـرار السلطات الأثيوبية عرض سفينته للبيع في المزاد العلني، بعد تراكم رسوم الرسو عليها والتي لم تسدد.

في ذلك الشهر طـار يهودا بـاخر إلى أثيـوبيا، لمحـاولة تخليص سفينتـه، ولإقامـة «علاقة» بالمخابرات العربية.

وإذا كان هدفه الأول لم يتحقق، فإن هدفه الثـاني حقق نجاحـاً واضحاً، حـوله من ربان ومالك سفينة عادي، إلى ربان جاسوس.

وقام يهودا باخر بجولات عديدة رفع خلالها تقارير هـامة للمخـابرات العـربية. بعد أن انتقل من مصوع إلى اسمرا، التي أصبحت مركز عمله الجديد.

لكن فترة عمله جاسوساً على إسرائيل لمصلحة المخابرات العربية لم تطل كثيراً، حيث اعتقل في إسرائيل، وحقق معه وقدم إلى المحكمة المركزية في القدس المحتلة.

وقد تمكن المدعي العام الإسرائيلي من إثبات بطلان كل ادعاءات يهودا باخر، التي كان أولها إصراره على أنه «إسرائيلي وطني»، حيث عرض المدعي أمام المحكمة رسالة كان قد بعث بها يهودا من أثيوبيا إلى عائلته في الأرض المحتلة، وجاء في قوله: «لقد تخاصمت مع قنصل إسرائيل هنا، وأنا أعرف أن هذه الدولة (إسرائيل) قد ماتت بالنسبة إلي. لست مستعداً للاستمرار على هذا المنوال. . . إنني أكره هذه الدولة تماماً بقدر ما كنت أحبها من قبل».

وعندما حاول يهودا باخر تبرير تجسسه ضد إسرائيل لمصلحة المخابرات العربية بالضائقة المالية التي كانت تمر بها عائلته، أبرز المدعي العام وثائق تثبت أن زوجته يهودا تملك سفينة «دولفين» التي يقدر ثمنها بعشرات الآلاف من الليرات الإسرائيلية.

وإزاء هذه الحقائق، لم تتردد المحكمة في اعتبار يهودا باخر جاسوساً وخائناً ـ بالمقاييس الإسرائيلية ـ وحكمت عليه بالسجن سبع سنوات، لأنه حاول الاغتناء عن طريق «خدمة العدو» رغم كثرة أبواب الكسب المشروع التي كانت مشرعة أمامه.

● وزارة دفاع العدو
تمول جاسوساً للعرب ●

وإذا كان جميع من ورد ذكرهن من الجواسيس اليهود الإسرائيليين، الذين بدأوا عملهم لمصلحة المخابرات العربية وهم في خارج إسرائيل، قد مولوا رحلاتهم بأنفسهم، فإن وزارة العدو قد مولت رحلة الجاسوس اليهودي الإسرائيلي حاييم عكفا.

«ففي شهر آب (أغسطس) سنة ١٩٥٨ كان حاييم في روما ضمن بعثة من قبل وزارة الدفاع الإسرائيلية، دون أن يكون في نيته خدمة أمن الدولة» كما يقول كتاب يشعيا هو لفيط عن قصة التجسس العربي في إسرائيل.

لكن هذا لم يكن الأمر الوحيد الذي ميز حاييم عكفا عن غيره من الجواسيس اليهود، حيث ميزه أيضاً طلبه من المخابرات العربية مبلغ ٢٠ ألف دولار ثمن المعلومات الأولية التي قدمها لهم.

وبرغم أن رجل المخابرات العربية قد فوجيء بحجم المبلغ الذي طلبه حاييم، فقد عين موعداً للقاء به في مقهى فيافنتو في روما، ثم في شقة خاصة بعد ذلك، حيث حصل منه على المعلومات التي بحوزته، ومده بمبلغ أقل من المبلغ الذي طلبه، ووعده أن يستمر الدفع له باستمرار تقاريره عن جيش إسرائيل ومنشآته ومواقعه.

وقبل عودة حاييم عكفا إلى إسرائيل، زوده رجل المخابرات العربية برقم صندوق في روما أمره بالكتابة عليه تحت اسم روزماي مولين.

وطوال سنين عديدة ظل حاييم يعمل بنشاط لمصلحة المخابرات العربية، ولم يكشف إلا يوم ٧ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٦٧، حيث اعتقل، وقدم إلى المحكمة بعد أشهر وحكم عليه بالسجن لمدة عشر سنوات.

قبل أربعة أشهر من انكشاف حاييم عكفا، أي في شهر (يوليو) ١٩٦٧ كشفت سلطات العدو جاسوساً يهودياً آخر هو أفراهام دفني عمل لمصلحة المخابرات العربية طوال ثلاث سنوات.

ففي سنة ١٩٦٤، سافر أفراهام دفني، الذي كان شرطياً في إسرائيل لمدة أربع سنوات، إلى إيطاليا ثم ألمانيا الغربية، وأخيراً وصل إلى فرنسا حيث اتصل هناك بسفارة إحدى الدول العربية وعرض عليها العمل لمصلحة مخابراتها مقابل مبالغ من المال تدفع له، وتتلاءم مع أهمية ما تحويه تقاريره.

وبعد هذا الاتفاق، بدأ أفراهام عمله من فرنسا، ثم عاد إلى إسرائيل (سنة ١٩٦٦)، وانكشف واعتقل في شهر تموز (يوليو) ١٩٦٧.

أخيراً...

أن قائمة أسماء اليهود الإسرائيليين الذين عملوا في التجسس ضد إسرائيل، ما زالت طويلة، رغم أنها لا تحوي غير أسماء من كشف منهم، وهم ليسوا بالضرورة - كما تقول المصادر الإسرائيلية - غالبية اليهود الذين يعملون في التجسس لمصلحة العرب.

لكن أكثر ما يلاحظ في هذا المجال، هو وجود التنسيق التام بين أجهزة مخابرات العدو، وأجهزة إعلامه، حيث يعطي هذا التنسيق نتائج هي أخطر بكثير من نتائج نشاط العدو التجسسي ذاته.

من أرشيف المخابرات المصرية



رفعت الجمال أو رأفت الهجان



محمد نسيم أو نديم هاشم
قاد عملية تدمير الحفار الاسرائيلي

I

رأفت الهجان
عشرون عاما جاسوسا
لمصر في قلب اسرائيل

رأفت الهجـان أو ديفيد شـارل سمحون أو المنـدوب رقـم ٣١٣ هذين الاسمـين والرقم لبطل واحد من أبطال الأمة العربية الذين زرعوا في قلب الكيان الصهيوني ليمد القاهرة بكل المعلومات وأدق الأسرار عن الـوضع داخـل إسرائيل. في فـترة من الزمن كانت مصر معرضة لشتى أنواع الحروب والضغوط السيـاسية والاقتصـادية والعسكـرية من أجل ألا تقوم بالدور القومي الريادي الذي بقيت قيادة هذا الـدور منوطـة لها دون منازع خلال تلك الفترة.

وقصة هذا البطل تبدأ من تاريخ وفاته حيث وصلت برقية مستعجلة إلى الفـريق محمد سعيد الماخي مدير المخابرات العامة المصرية في ذلك الوقت تقول نصها:

«سيدي.. في اليوم السابع عشر من نوفمبر عام ١٩٧٨ توفي الهـر ديفيد شـارل سمحون»

التوقيع: «فراو سمحون»

ومن أرشيف المخابرات المصرية وبالذات في ملف المندوب رقم ٣١٣ يستعـرض عزيز الجبالي ضابط المخابرات والمنسق بين إدارة المخابرات العامـة وبين رأفت الهجـان والـذي بقي معه لمـدة عشرون عاماً ضابط ارتبـاط وعين سـاهرة لا تنـام حقيقة رأفت الهجان.

رأفت الهجـان ليس اسمه في مصر كـما أن ديفيـد شـارل سمحـون ليس اسمـه الحقيقي الذي عرف به في إسرائيل حيث ذهب إليها منذ ثلاثين عاماً كبـطل من أبطال الصهيونية وغادرها بعد عشرين عاماً كواحـد من أصحاب المـلايين ورجل من رجال أعـمالها البـارزين لكننـا أطلقنـا عليـه هـذا الاسم رأفت الهجـان فقط كـاسم كـودى للتخاطب معه.

في بداية عام ١٩٥٤ أوكل لضابطان مصريان هما حسن صقر ومحسن ممتاز مهمة إنشاء أول جهاز للمخابرات العامة المصرية وكان أول مهمة شاقة لهذا الجهاز زرع عيون لمصر في قلب إسرائيل، لكن أين هو هذا الفدائي الذي يستطيع أن يقوم بهكذا مهمة من أولى شروطها أن يكون ولاءه كاملاً لمصر وأن يكون من ضمن الوسط اليهودي داخل مصر أو يصلح لأن يكون يهوديا وأن يكون فدائياً في مواجهته لشتى الصعاب التي لا بد ستواجهه في وقت كان لإسرائيل مئات العيون داخل المجتمع المصري تراقب وتسجل وترسل لإسرائيل يومياً كل ما يدور ويحدث حولهم.

حتى كانت ليلة من ليالي أغسطس ١٩٥٤ اتصل في تلك الليلة ضابط مباحث صديق لمحسن ممتاز ليعلمه أن عنده ولد غريب موقوف في السجن ومن الأهمية أن يأتي ليراه.

هذا الولد الغريب حسب قول ضابط المباحث كان عقدة بحد ذاته في اسمه وجنسيته ومهنته، فهو شاب في الخامسة والعشرين من العمر قبضت عليه السلطات البريطانية في ليبيا على أنه يهودي هارب من مصر واسمه «ليفي كوهين» لكنه كان يحمل جواز سفر أميركياً وغير مزور باسم «جوني برات» وعندما وصل إلى القاهرة وأخذت بصماته عادت البصمات بتقرير يقول أن له اسماً آخر مصرياً ومسلماً هو رأفت علي سليمان الهجان ومن مكان آخر جاءت التحريات لتؤكد أن له سابقة تحايل في أحد فنادق القاهرة الكبرى التي ترك فيها جواز سفر فرنسياً باسم دانييل مارتان وعندما واجهوه بذلك قال بفرنسية طليقة كإنجليزيته الطليقة «أن هذا هو اسمي».. ثم وصلت إشارة من الإسكندرية التي كان قد وصل إليها عقب ترحيله من ليبيا تقوّل أن له ملفاً باسم عادل مرقص سيدهم وفق بصماته التي أخذت هناك. وكان الأمر محيراً تماماً فاضطروا في النهاية إلى السؤال عنه في الأنتربول الذي أفاد أن هذا الشخص مطلوب في بريطانيا وفرنسا وأميركا وألمانيا بتهم متعددة.

استمع محسن بانتباه شديد لكل هذه المعلومات ثم استأذن في الاطلاع على الأوراق وراح يقلبها ثم طلب عقد جلسة تحقيق عادية جداً يحضرها هو كواحد من الموظفين العاديين

كان الفتى غريباً بحق، صالحاً من ناحية الشكل تماما.

لكن هل كان يصلح من ناحية الموضوع؟ وإذا كـان يصلح من ناحيـة الموضـوع هل يقبل المهمة؟.

بعـد ترحيـل الفتى من سجن لآخر استقـر أخيراً في قسم الـزيتـون ليفـرج عنـه بكفالة عشرين جنيهاً دفعها عنه محسن ممتاز.

وهكذا بدأ استكشاف الفتى ثم امتحانه ثم غرسه في الوسط اليهودي في القاهـرة ظناً منه أنه سيكلف بمهمة مخابراتية ضمن اليهود في القاهرة.

استطاع رأفت خلال هذه الفترة أن يقيم علاقات وثيقة مع أركان الجالية اليهودية في القاهرة حتى شيع بين أفراد الجاليـة اليهوديـة أن هذا الفتى مـا هو إلا جـون دارلنج الذي تحول بين يهود مصر إلى أسطورة من الأساطير إذ كان واحـد من عملاء إسرائيـل الشديـدي الخـطر، تخصص وبرع في أعـمال التجنيد والتخـريب والتجسس وتهـريب الأموال وتهجير اليهود إلى إسرائيل.

كانت هذه الإشاعة وغيرها مدخل رأفت للدخول تحت اسم «ليفي كوهـين» إلى كـل الصالـونات اليهـودية الـثرية حتى وصلتـه دعوة من المليـونير اليهـودي السكندري «شارل سمحون».

كان شارل سمحون رجلاً من رجـال الأعمال الـذين سيطروا لـزمن طويـل على سوق المال في بورصة الإسكندرية وكان ثرياً بشكل خارق.

أجمعت كل الأوساط اليهـودية في القـاهرة عـلى ضرورة تهريب «ليفي كـوهين أو رأفت الهجان» إلى أرض الميعاد للاستفادة من طاقاته في بناء الدولة الفتية ودعوة شـارل سمحـون كانت في هـذا الاتجاه إذ أن بقـاءه في مصر بات يشكـل خطراً عـلى حياتـه. استطاع سمحون أن يؤمن للفتى جواز سفر باسم ديفيد الذي توفي وهو في الثالثة من عمـره ولـو أنـه بقي حيّاً لكـان في عمـر رأفت تمـامـاً إذ أنهم في ذلـك الـوقت لم يستخرجوا للفتى الميت وثيقة وفاة.

استطاعت المخابرات المصرية عبر الضابطان محسن وصقر أن تتابعا مسـيرة رأفت الهجـان لحظة بلحـظة وأن يكـون مـطيعـاً لكـل التعليـمات الأمنيـة التي أعـطاه إيـاهـا الضابطان.

وبعد الاتفاق على وسائل الاتصال ونقل الرسائل من داخل إسرائيل استطاع رأفت الخروج من ميناء الإسكندرية متجهاً إلى نابولي ومنها تم نقله من قبل الوكالة اليهودية إلى أرض الميعاد بعد أن رحب به في الميناء الإيطالي الشهير ترحيباً خاصاً وحافلاً.

بقيت المخابرات المصرية عبر رجالها في نابولي على اتصال تام مع رأفت ترتب معه بآخر لقاء قبل الاستقرار بإسرائيل احتياطات آمنه وسلامته وسبل الاتصالات وإرسال الشيفرة من قلب أرض العدو.

استقر رأفت الهجان بإسرائيل وبقي فيها عشرون عاماً يتنقل بين مختلف الطبقات السياسية والاجتماعية والاقتصادية وقد أهلته «وطنيته الصهيونية!!» إلى أن يدخل كل الصالونات والمؤسسات حتى بات شخصية مرموقة ضمن المجتمع الإسرائيلي قدر له أن يصبح نجماً بارزاً في الهستدروت وعندما رشح لأن يكون عضوبالكنيست جاءه جواب المخابرات المصرية بالرفض لهذا الترشيح وسحب ترشيحه بناءاً لطلب جهاز المخابرات.

عشرون عاماً وهو عين لمصر لا تنام، يجمع التقارير من كل المستويات التي فتحت له الأبواب لدخولها على مصراعيها ويرسلها تقارير مكتوبة عبر نسخها على ورق الزبدة على عناوين متفق عليها في دول أوروبا وبواسطة الحبر السري لاحقاً بعد أن طورت وسائل الاتصال.

كان مصدر معلوماته العسكرية تعتمد على شبكة مشكلة من: سبحان ألوف - مقدم في جهاز التسليح والتموين في الجيش الإسرائيلي وألوف مشينة - عقيد في المعلومات الاستراتيجية الإسرائيلية وراف سيرن - رائد في سلاح الجو الإسرائيلي والسيدة سيرينا أهاروني عضوة في الهستدروت، استطاع رأفت تدجين هؤلاء الثلاثة العسكريين بإغراقهم بالهدايا والمساعدات المالية حتى أصبحوا ملتصقين به التصاقاً كبيراً، وكانت الديون التي يقدمها لهم أداة ضغط عليهم للحصول منهم على معلومات فائقة السرية عن النشاط العسكري الإسرائيلي.

وتحت ستار وجود منظمة للعمل من أجل السلام العالمي تعمل للحد من الحروب بين الدول والشعوب استطاع تجنيد شبكتين من المدنيين وأصحاب المناصب السياسية والنقابية.

المجموعة الأولى تضم بعض العلماء والباحثين وأساتذة الجامعة، والمجموعة الثانية اقتصادية تضم بعض رجالات المال والأعمال والسياسيين ورجال الأحزاب ورؤساء الشعب في المستدروت.

كان هدف مصر قبل عام ١٩٦٧ الحصول على هيكلية تنظيم الجيش الإسرائيلي بكل فروعه وخصوصاً سلاح الطيران وقد استطاعت الشبكة العسكرية التي أنشأها رأفت الهجان من العسكريين الإسرائيليين الحصول على معلومات دقيقة حول وضع هذا التنظيم (موقع المطارات بما يحويه من رادارات وأجهزة الدفاع، أنواع الطائرات وتسليحها، محددالطيارين والاحتياطيين وفترات التدريب ومستواه).

كما كان رأفت قد كشف خطة العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦ قبل أسبوع من بدأ الحملة. وكذلك استطاع كشف صفقة الطائرات الفرنسية الأولى لإسرائيل بواسطة خلطة كيماوية مدت على أرصفة هبوط مطارات جديدة استحدثتها إسرائيل وزادت في طول هذه الممرات، كان درس نوعية وتركيبة هذه الخلطة الكيماوية مؤشراً إلى الاستعداد لاستقبال نوعية حديثه من الطائرات استطاعت شبكة رأفت الهجان بالمتابعة أن تحدد أن هذه الطائرات ستكون فرنسية رغم السرية المطلقة التي فرضت على هذه الصفقة وهذا ما جعل حتى الفرنسيين مندهشين من علم المصريين بهذه الصفقة.

وتمكنت المخابرات المصرية أن تحصل على كلمات السر لاستدعاء العسكريين والاحتياطيين الإسرائيليين عبر الإذاعة وكذلك أن تحصل على خريطة ما يطلق عليه «نظام الدفاع الإقليمي» في إسرائيل وهو الذي يستند على كيفية دفاع المستعمرات الإسرائيلية المنتشرة عن نفسها وكيفيةطريقة الاتصالات فيما بينها كانت أعمال رأفت الهجان تتطور بشكل مستمر عاماً بعد عام عبر شركة ماجي تورز السياحية التي اتخذها وشبكته مقراً ومنفذاً لعمله الاستخباري وقد استطاعت هذه الشركة أن تغطي كامل نفقات هذا العمل التجسسي مع تحقيق أرباح كانت ترسل فوراً للقاهرة حيث أن مصاريف تأسيس هذه الشركة كان مصرياً.

مع بداية عام ١٩٦٧ كان هيكل بناء القوات المسلحة الإسرائيلية بكل فروعه تحت يد المصريين بالكامل.

في الأول من شهر يونيه عام ١٩٦٧، حمل رأفت الهجان تقريراً على قدر كبير من الخطورة والأهمية: إسرائيل ستهاجم مصر صباح الاثنين الخامس من يونيه بالطيران المنخفض وسيكون هدف الهجوم الأول المطارات الحربية ومن ضمنها مطار القاهرة الدولي.

بعد حرب الـ ١٩٦٧ نشط رأفت مع شبكته على عمل رحلات سياحية ضمن سيناء لتمد المخابرات المصرية بكل المواقع والتحركات العسكرية والتحصينات الإسرائيلية في هذه المنطقة المحتلة وبالذات على طول القناة. حتى أنه استطاع أن يعطي مندوب المخابرات المصرية في اوروبا نسخاً طبق الأصل من تصميمات خط بارليف.

وقد وصل الأمر إلى حد أنه في مكان ما من المخابرات الحربية المصرية، كما في المخابرات العامة سواء بسواء... كانت هناك خريطة مجسمة كاملة المعلومات لشبه جزيرة سيناء بكاملها... بكل ما فيها من مطارات، وطائرات، ومنشآت، وطرق، ودبابات، وسيارات مصفحة، ورادارات، وقوات دفاع، ومدافع، وصواريخ، وخطوط مواصلات... و... و... ولقد كانت هذه الخريطة المجسمة تحتل غرفة هائلة الاتساع... وفي غرفة مجاورة لها، كانت هناك خريطة أخرى، ذات حجم أكبر لخط بارليف بكل ما فيه وما حوله من تحصينات ومنشآت وأسلحة وأجهزة لاسلكي ومواسير المواد الحارقة التي كان المفروض أن تحول مياه القناة إلى جحيم عند العبور، وتوصيلات هذه المواد، ومساراتها ومخارجها ومضخاتها و... وحتى التفاصيل الصغيرة والتي تبدو بلا قيمة... كان رأفت يعمل ويعمل ويوجه وينفق ويقود ويبحث ويسأل ويثير ويضرب في كل اتجاه... ثم، ما يلبث أن يسأل:

«امتى حا نحارب؟!»
ويأتيه الجواب، نفس الجواب:
«كل شيء في وقته!!».

في تلك السنوات الثلاث التي أعقبت وفاة جمال عبد الناصر، بلغ نشاط رأفت الهجان الاقتصادي درجة جعلت من إقامته الدائمة في إسرائيل، أمراً شبه مستحيل... ولم تعد شركة «ماجي تورز» تمثل سوى جانب من جوانب نشاطه الذي تعدد وتنوع وتشعب في أوروبا ـ خاصة ألمانيا الغربية ـ وإسرائيل، مما جعل سفراته

المتعددة إلى الخارج تبدو طبيعية للغاية، ولا مجال للشك فيها بأي معنى من المعاني... وهكذا، أصبحت علاقة رأفت بجهاز المخابرات المصري، علاقة شبه يومية... كان يستطيع، بذلك الجهاز الصغير والذي عبارة عن مجسم لآلة حسابية صغيرة الذي تسلمه فرحاً، أن يكتب بالشيفرة تقريراً كاملاً من عدة صفحات، ثم لا يكلفه الأمر، بعد تخزين التقرير في ذاكرة جهازه السحري، سوى الضغط على زر صغير في الموعد المحدد لتصبح الرسالة في القاهرة خلال خمس ثوان... كما كان يستطيع أن يحمل معه تلك الخرائط والصور الفوتوغرافية - سواء أكانت صوراً عادية أو «ميكروفيلم» - في أية رحلة من رحلاته إلى أوروبا يسلمها يداً بيد.

وإذا كان قد أصبح نجماً بارزاً في الهستدروت. ورجلاً نقابياً تسمع كلمته ويعمل لها ألف حساب... وإذا كانت عضويته في حزب «الماي» - حزب الأغلبية الحاكم حتى حرب أكتوبر - قد ازداد تأثيرها المعنوي بعد رفضه ترشيح نفسه في الانتخابات لعضوية الكنيست، بناء لطلب من المخابرات المصرية وأصبحت صورته أمام الآخرين صورة من يحرص على الصالح العام دون مصالحه الخاصة... فإن مكانته الاجتماعية أصبحت، ومهما كانت طبيعة المجتمع الذي يعيش فيه، تحتم عليه الزواج!!.

تخطى رأفت الهجان الخمسين من عمره دون زواج وإذا كانت أمنية هذا الرجل منذ شبابه المبكر هي الزواج وإنجاب طفل يحمل اسمه فلقد آن الأوان كي تتحقق له هذه الأمنية.. خاصة أنه كان قد أمضى عشرين عاماً كاملة داخل إسرائيل عاصر فيها ثلاث حروب بين مصر وإسرائيل. طلب رأفت موعداً عاجلاً مع مرؤسيه في جهاز المخابرات لينقل لهم رغبتين من رغباته: الأولى زواجه من الألمانية هيلين والتي كان قد تعرف عليها في إسرائيل دون أن تعرف حقيقة جنسيته وديانته وبقي في ذهنها أنه يهودي وإسرائيلي الجنسية والثانية أن يعود للقاهرة التي أحب واشتاق إليها ويستقر فيها.

وإذا كان مرؤسيه قد وافقوا على الرغبة الأولى واعتبروها حق شرعي له فإنهم تحفظوا على الرغبة الثانية لأن المشكلة الملحة أنه قد أصبح على مستوى السوق الاقتصادية العالمية معروفاً باسم ديفيد شارل سمحون رجل الأعمال الإسرائيلي الجنسية اليهودي الديانة.. وفي أنحاء متفرقة من هذا العالم - وليس في إسرائيل وحدها - هناك صفقات وتعاقدات وعلاقات وشركات من الصعب إن لم يكن من المستحيل استمرار

التعامل بمفاجأتها بأنه مسلم مصري واسمه رأفت الهجان وأن الخسائر من جراء طرح الحقيقة هذه ستكون فادحة بالشركة التي أصبحت مؤسسة عالمية تفرض وجودها في كل قارات العالم.

اقتنع رأفت الهجان بطرح مرؤسيه وبمرارة أجاب:

«تصور إن بقي لي عشرين سنة وأنا في انتظار اللحظة دي، علشان أرجع بعدها مصر. ولما تيجي اللحظة ألاقي نفسي مش قادر أرجع مصر» «على كل حال إذا فرض وما قدرتش أرجع مصر تاني ما تسيبونيش مدفون بره، ابقوا ادفنوني في تراب بلدي».

عاد رأفت الهجان إلى إسرائيل كي يرتب أموره بسرعة وينقل أعماله كلها إلى ألمانيا الغربية بجوار زوجته التي أنجبت له طفلين.

توفي رأفت الهجان نتيجة لمرض بقي يصارعه لفترة طويلة إلا أن صرعه الموت.

وبالسرية المطلقة التي اتسمت بها مهام رأفت في إسرائيل كان لا بد للسرية ذاتها أن تصاحب نقل جثمانه من ألمانيا الغربية حيث دفن إلى القاهرة بناءً لوصيته.

ألوف من البشر كانوا يتزاحمون ويلتصقون وتتصادم أكتافهم، منهم من يقرأ قرآناً ومنهم من يتلو دعاء، كان الزحام شديداً في شارع طلعت حرب حيث خط سير الجنازة وباستيحاء كامل مال أحد المشيعين على جاره متسائلاً:

مين ده إللي مكتوب اسمه على الإكليل «فقيد الأمة، الشهيد: رأفت الهجان».

II

عملية «الحفار»
الصراع المرير بين
المخابرات المصرية والاسرائيلية

في عـام ١٩٦٩ كانت مصر تحـاول استخلاص النصر من بـراثن هـزيمـة كـانت مدوية . . وكانت حرب الاستنزاف في ذروتها عنـدما أعلنت إسرائيـل عن عزمهـا على شراء حفـار للتنقيب عن البترول في شـواطىء سيناء المحتلة ومنـذ اللحظة الأولى لهـذا الإعـلان، كان واضحـاً أمام الجميـع أن الغرض من شراء هـذا الحفار ليس اقتصـادياً فقط، ولا استيطانياً لتثبيت أقدام الاحتلال. . وإنما هو في الـدرجة الأولى لإذلال مصر أمام العالم أجمع، وإظهارها بمظهر العاجز حتى عن حماية مواردها الطبيعية في أرضها.

وكـما أحيط شراء الحفار بضجـة إعلاميـة هائلة شملت العـالم كله، فلقـد أحيط الحفار نفسه بسياج من السرية والكتمان، وسياج رهيب من الحراسة التي بـدت كحائط صلب من المستحيل اختراقه.

ولم يكن أمام مصر سوى طريق من اثنين: إما تدمير الحفار قبل أن يعبر مضيق باب المندب وإما تدميره بالطيران وتشعل نار حرب لم يكن الاستعداد لها قد اكتمل!.

وهكـذا أصبح على الرجـال في جهاز المخـابرات العـامة المصريـة أن يبحثوا عن الحفار في موانىء القارات الخمس وأن يعثروا عليه وتدميره.

وبدأت هذه الملاحقة ضمن أغرب وأعنف المعارك وأشدها تعقيداً في هذا العـالم الاستخباراتي المخيف، وكانت معركة مريرة اشتعلت فيها «حرب العقول» ووصلت إلى ذروة حبس بها العالم أنفاسه وكانت عملية الحفار واحدة من أهم العمليـات السرية في القـرن العشرين استطاع من خـلالها العنصر الاستخبـاراتي المصري أن يجنـد طـاقـات

هائلة بشرية ومعلوماتية من أجل ملاحقة هذا الحفار وتدميره.

ولأول مرة وقد مضى على هذه العملية أكثر من سبعة عشرة عاماً لزمت مصر خلال كل هذه الفترة الصمت حول تفاصيل هذه العملية كشفت مصر تفاصيل «الحفار» وكانت قصته كالتالي:

بعد عام ١٩٦٧ أصبحت الحرب الخفية بين مصر وإسرائيل ضرباً من الجنون أو الخيال، وراحت الأحداث تتسابق لتلقى فوق النار المتأججة مزيداً من الوقود، ومع إعادة بناء الجيش المصري، وتصدي مصر لبعض الاستفزازات العسكرية الإسرائيلية - رأس العش والمدمرة إيلات على سبيل المثال - ثم قيام حرب الاستنزاف، وعبور الفدائيين إلى سيناء لتدمير المنشآت الإسرائيلية وأسر الجنود ونسف المواقع... وصلت الحرب الخفية في المنطقة إلى ذروة مخيفة حقاً.

ووسط هذا الجو الملتهب، أعلنت إسرائيل عن عزمها على التنقيب عن البترول في سيناء، وشفعت هذا الإعلان بإعلان أكثر استفزازاً يقول إنها بالفعل استأجرت حفاراً لهذا الغرض. وأحاطت الدعاية الإسرائيلية هذا الحفار بضجة إعلامية شملت العالم كله... وبدا واضحاً للقيادة المصرية أن الغرض الرئيسي من شراء هذا الحفار لم يكن اقتصادياً، رغم حاجة إسرائيل في تلك الأيام إلى البترول فعلاً، ولم يكن سياسياً رغم أن وجود الحفار سيدعم خطتها بإنشاء مستوطنات تصبح مع الأيام منشآت ثابتة تكرس بقاءها في الأرض... وإنما كان الغرض الرئيسي هو إذلال مصر عالمياً، وإظهارها أمام الأصدقاء والأعداء بمظهر العاجز، لا عن حماية أرضه فقط، بل وموارده الطبيعية فيها...

وهكذا تحركت القيادة السياسية في مصر بسرعة، شملت حركتها جميع أركان الكرة الأرضية، وجرت اتصالات على مستوى عال مع تيتو وأنديرا غاندي - قطبى عدم الانحياز - كما جرت اتصالات أخرى مع بعض الدول الغربية، ومنها - بالتأكيد - الولايات المتحدة الأمريكية، كانت مصر تحاول أن توقف وصول هذا الحفار، ولقد قالت بوضوح في رسائلها: «أن المنطقة ملتهبة ولا تحتاج إلى مزيد من الوقود، لأن مصر لن تسكت حتى ولو أدى الأمر إلى ضرب الحفار بالطيران المصري في البحر الأحمر وقبل وصوله خليج العقبة».

كانت مصر جادة في عزمها، وكان معنى ضرب الحفار بالطيران المصري، أن

تندلع الحرب من جديد في المنطقة. . . وجاءت كل الردود، وبلا استثناء بـأن المساعي الدبلوماسية ـ رغم ضغطها وكثافتهـا ـ لم تأت بـأية نتيجـة، وأن إسرائيل مصممـة على استئجار الحفار، بل لقد استأجرته فعلاً!!.

ولقـد ظـل هـذا الحفـار، ولأسـابيـع طـويلة، ولا أحـد يعـرف مكـانـه عـلى الإطـلاق. . . كانت كـل المعلومات التي حصـل عليها المصريـون، في تحركهم العنيف والسريع الذي شمل مناطق شاسعة من بحـار العالم ومـوانيه، تؤكـد شيئاً واحـداً: أن الحفار موجود بالفعل!!.

ولكن أين؟!

اجتمع فريق العمل لتحديـد مخبأ الحفـار ومن ثم متابعـة سيره وقـد أسند مـدير جهاز المخابرات العامة أمين هويدي هذه المتابعـة لفريق عمـل برئـاسة طـاهر رسمي، ووسط أكوام البرقيات التي وصلت في ذلك الوقت كان هناك برقية موقعة باسم موريس آتية من كندا فيها الكثير من المعلومـات عن حفار اسمـه كنتنغ يـرسو في بحـيرة اسمها «إيري» وعند البحث عن موقع هذه البحيرة بدت أمام الرجال ذات طابع خـاص فهي بحيرة شبه محاصرة كان على هذا الحفار لكي يخرج إلى المحيط أن يمـر بقناة تصـل هذه البحيرة ببحيرة أونتاريو ثم يعبر بحيرة أونتاريو ليدخل بعد ذلك إلى طـريق البحر وأمـام يقين هذا الفريق أن الحفار مخبأ في مكان لا يخـطر على بـال أحد سلطت أضـواء فريق العمل هذا على هذه البحيرة.

أرسلت المخابرات المصرية شاباً وفتاة كـأنهما عروسـان يقضيان شهـر العسل إلى مكان قريب من البحيرة حيث يرسـو الحفار وبعـد سلسلة طويلة من التفتيش والتنقيب عن جنسية وماهية هذا الحفار.

أيقن فريق العمل المصري أن هذا الحفار هو هدفهم واكتشف هذا الفريق أيضاً أنهم أمام أخطبوط عالمي يحمي وضعية هذا الحفار فإذا أرادت مصر التعرض له فعليها أن تـواجه خمس دول مـرة واحدة اكتشفـوا بعـد البحث أن الحفـار كنـدي وإنجليـزي وأميركي وهولندي وإسرائيلي بنفس الوقت. كان الحفـار إنجليزيـاً لأن شركة «ميـدبار» التي تقوم باستغلال الحفار مقرها لندن وكان أميركياً لأن هـذه الشركة كـانت فرعـاً من شركـة أمـيركيـة مقـرهـا مـدينـة «دنفـر» وكنـديـاً لأن جنسيتـه كـانت كـذلـك وكـان

هولندياً لأن القاطرة التي استأجرت لسحبه كانت تتبع شركة «جكوب خان هيموكسراك» الهولندية. وبالنهاية لا بد أن يكون إسرائيلياً لأن إسرائيل هي التي استأجرته للتنقيب عن البترول في أرض تحتلها بالقوة. وكان مأزقاً فعلاً للمخابرات المصرية ضرب الحفار في ذلك الوقت كان يعني الحرب مع هذا الأخطبوط الخماسي وتراجعها عن ذلك يعني إذلال مصر كلها بالتنقيب عن البترول في أرضها وأمام عيون شعبها فكان أن اتخذ القرار المصري بالتريث ومراقبة دقيقة ومتواصلة لمسار هذا الحفار.

بعد شهر من هذا التريث خرج الحفار من مخبأه وبدأ مشواره عبر المحيط للوصول إلى سيناء واستنفر فريق العمل المصري لمتابعة وملاحقة هذا الحفار ولأن موضوع الملاحقة والمتابعة وتحديد ساعة الصفر لضربه كان يلزمها قراراً سياسياً على مستوى القيادة المصرية طلب أمين هويدي موعداً مستعجلاً من الرئيس جمال عبد الناصر لمناقشة القرار الخطير الذي يعتقد أنه قد اتخذ خلال هذا اللقاء وهو تفويض فريق العمل بتحديد ساعة الصفر زماناً ومكاناً لتدمير الحفار.

وضع الرجال أربع خطط جاهزة للتنفيذ لتدمير الحفار أو إتلافه حتى لا يمكنه العودة إلى العمل مرة أخرى والخطة الرابعة هي أن يتولى الطيران المصري التعامل معه فيما لو فشلت الخطط الثلاث الأولى.

في تقرير وضع أمام الرجال أن الحفار في طريقه لا بد أن يكون له ثلاثة محطات الأولى دكار في السنغال والثانية في أبيدجان في ساحل العاج والثالثة لاجوس في نيجيريا فالمصاعب والمخاوف والمشكلات السياسية لما سيخلفه عمل هذا الفريق ضمن هذه الموانيء الأفريقية نقلها رئيس المخابرات المصرية أمين هويدي إلى الرئيس جمال عبد الناصر مجدداً حيث أكد الرئيس ناصر بعد أن وضعت أمامه الصورة الكاملة عن وضعية الحفار واحتمالات التعامل معه. «إن العالم كله لا بد أن يعرف أننا رغم الهزيمة نرفض الإذلال» «وكل اللي أقدر أقوله أن كرامة البلد في أيديكم».

ثم تجنيد العشرات من رجال المخابرات المزروعين في كل أنحاء العالم لملاحقة ومتابعة الحفار وإرسال تقارير يومية عن تحركاته والموانيء المفترض الدخول إليها وكذلك ثم حشد مجموعة من رجال الضفادع البشرية مع مواد متفجرة لتكون على أهبة السفر والعمل لنسف الحفار ومن مطار القاهرة طار ثلاثة رجال تحت أسماء ومهن مختلفة.

الأول إلى السنغال عبر فرنسا والثاني إلى غانا عبر بريطانيا والثالث إلى مقديشو في الصومال عبر السعودية وهذه المحطات الثلاثة هي محطات الحفار المفترض أن يمر عبرها والثلاثة كان هدفهم واحد: الحفار.

عبر الحفار المحيط الأطلنطي ليحط رحاه في جزر الأزورس البرتغالية وسط حراسة مشددة من الموساد في كل المحطات التي سيحل فيها واستطاعت المخابرات المصرية عبر عيونها في البرتغال أن تكون ملازمة ومرافقة لمسار الحفار حتى وصل الحفار إلى دكار حيث دخل ميناءها بداعي القيام ببعض الإصلاحات وكأن الطريدة قد دخلت المصيدة.

في السادس عشر من فبراير (شباط) عام ١٩٧٠، تقرر أن تبدأ الحركة فوراً ودون انتظار.

تقرر أن يسافر نديم هاشم رئيس الفريق إلى دكار فجر اليوم التالي حاملاً معه ملابس الضفادع البشرية وكذلك معداتهم وكذلك أن يطير رجال الضفادع البشرية حسب الخطة الموضوعة صباح ١٨ فبراير (شباط) وأن يتم تدمير الحفار فجر الخميس ١٩ فبراير.

وصل نديم إلى دكار حيث ساهم رجال المخابرات المصرية والمتعاونين معهم في باريس ودكار إلى تسهيل مهمته مع الحمولة التي حملها معه من القاهرة.

وفور وصوله العاصمة السنغال عاين موقع الحفار في ميناء دكار فالصورة أمامه لم تكن مشجعة لتدمير الحفار في مكانه إذ أن زوارق طوربيد فرنسية كانت قريبة جداً من موقع الحفار.

انتظر نديم وصول رجال الضفادع البشرية ليقف على رأيهم بكيفية العمل لنسف الحفار دون إلحاق الأذى بزوارق الطوربيد الفرنسية.

في هذا الوقت كان مدير المخابرات المصرية أمين هويدي رغم مرضه يودع مجموعة الضفادع البشرية التي ستتولى مهمة التدمير والتي طارت مباشرة من مطار القاهرة إلى دكار عن طريق المغرب.

عاين نديم هاشم مع الرائد خليفه جودت قائد مجموعة الضفادع البشرية مكان

الحفار على الطبيعة واستطاع الرائد خليفه الاقتراب من الحفار لتحديد زاوية الرؤية متظاهراً كواحد من المتسولين الذين يملأون الميناء.

وعلا هتاف واحد من مجموعة الضفادع مع نديم هاشم «تحيا مصر» معلنين بدء عملية الغوص لموقع الحفار وتدميره لكن المفاجأة المذهلة فاجأتهم وهم على أهبة الغوص لاصطياد الحفار إذ بدأ الحفار عبر القاطرة التي تجره يغادر ميناء دكار محدثة صفارات متكررة تعني «مع السلامة».

كان المشهد في فجر يوم ١٩ فبراير عام ١٩٧٠ على هذا الشاطىء الأفريقي البعيد في ضوء فجر باهت يسعى حثـ ـثـ إلى هذا الجزء من كوكب الأرض.. مخيفاً تقشعر له الأبدان، ستة من الرجال تسمروا في أماكنهم ذاهلين، أربعة منهم يرتدون ملابس الضفادع البشرية السوداء مدججين بالسلاح والمتفجرات فبدوا كأنهم أسماك متوحشة خرجت من قلب المحيط الذي كان اسمه ذات يوم «بحر الظلمات»!.. ثم اثنان: أحدهما يرتدي ملابس خاصة تخفي خنجراً مرهف النصل من هذا النوع الذي يستعمله المحترفون.. أما الثاني: فلقد غاب عن المشهد في تيار عاصف من الأفكار.. فهو، هو وحده الآن الذي كانت الأسئلة ستنفجر في رأسه كمدفع سريع الطلقات في يد مجنون لا يعي.. وهو، هو وحده الآن صاحب القرار ومهما كانت مشاعره أو شكوكه أو انفعالاته فثمة أرواح مصيرها في كلمة قد تصدر عنه بلا روية فيحقق كارثة!!

بدأ الحفار على البعد وهو يتبع القاطرة، كالأمل يتبدد في الفضاء، سرى صوت آلات القاطرة المكتوم في سماء الميناء كالهدير البعيد.. شبحان يتبع أحدهما الآخر، هدأت العاصفة في المحيط ومرت، فاستكانت مياهه حتى الأفق ككرة بللورية في عالم مسحور وجاء صوت نديم مغموساً في حزن لم يستطع كتمانه:

«يا لله بينا يا رجاله!»
كيف خرج الحفار؟
ولم خرج في هذا الوقت بالذات؟
وما الذي دفع الإسرائيليين إلى التعجيل بالرحيل؟
هل هي مصادفة؟
أو أنه حدث مصنوع؟.

وإذا كانت المصادفة قائمة كحدث ممكن، فهل يصلح مثل هذا الحدث أن يكون «مصادفة»؟ كانت كل المعلومات التي تجمعت لدى الرجال في دكار تقول أن العطب الموجود في القاطرة «جاكوب ثان هيموكيراك» - نتيجة لإبحارها من جزيرة سان ميجل في جو عاصف - يستلزم على الأقل أسبوعاً حتى يتم إصلاحه... وهكذا راح المصريون يعملون بسرعة ولكن في هدوء وثقة. . ذلك أن مصدر المعلومات لم يكن واحداً بل كانت ثلاثة مصادر مختلفة واحد منها من قلب الشركة التي تقوم بالإصلاح. . فكيف أبحرت القاطرة وبها ما بها من عطب؟.

كيف أبحرت وهي تسحب من خلفها حفاراً يحتاج إلى آلات قوية وسليمة ولا عطب فيها وفي هذا الوقت من السنة حيث تنتاب المحيط نوبات هستيرية من العواصف والأمواج والرياح تدمر السفن وتتلاعب بها في وحشية. . وإذا كان هذا ممكناً وهو - على المستوى الهندسي - ممكن بالقطع. . فلماذا خرج الحفار أصلاً قبل أن يكتمل إصلاح القاطرة فيضمنون له السلامة؟.

باختصار: هل عرف الإسرائيليون شيئاً؟. . هل أحسوا بالخطر يحوم من حولهم؟ أو أنهم «عرفوا» أن الخطر يهددهم؟.

«أين ستكون المحطة التالية للحفار». سؤال شغل فريق العمل وكذلك شغل كل الجهاز في القاهرة!!.

كانت مهمة نديم هاشم بعد رحيل الحفار أن يعيد مجموعة الضفادع البشرية إلى القاهرة وهكذا كان إذ خرجت هذه المجموعة ضمن رحلات جوية مختلفة وإلى أماكن متنوعة لتصل بالنهاية إلى القاهرة والملفت للنظر أن هذه المجموعة قد خرجت بجوازات سفر جديدة وغير مصرية. وبقي في دكار نديم هاشم ومساعده محمود شوكت.

وكان لا بد لكل احتمالات رسو الحفار في أي من الموانىء الأفريقية أن تدرس وبعناية وأن يوضع لذلك الخطط لنسفه وإغراقه.

أحد هذا الاحتمالات أن يقصف هذا الحفار وهو في المياه الدولية في المحيط الأطلسي بصواريخ خاصة توضع على قوارب سريعة تنزلها إحدى السفن التجارية المصرية وقد أعطيت الأوامر لإحدى هذه السفن التجارية وتدعى نجمة يوليو للتوجه إلى أحد الموانىء الافريقية لتجهز لهذه المهمة على أن يعطى وجود أربعة عناصر من

الجيش المصري المدربة على إطلاق هـذه الصواريـخ ضمن وفد سينـمائي مصري كانت ستقلهم هـذه السفينة. لكن هـذا الاحتـمال استبعـد في اللحـظة الأخـيرة أمـام إصرار المخـابرات المصريـة على تـدمير هـذا الحفار وهـو في أبيدجـان رغم أن هذه العـاصمـة الأفريقية كانت في ذلك الوقت تعج بالمخابرات الأميركية والموساد نظراً للعلاقات المتينة التي بـدأت في ذلك الـوقت بين الحكـومتـين الإسرائيليـة وسـاحـل الحـاج والتي تجلت بتسليح إسرائيلي وبناء فنادق لهذه الدولة وتنشيط سياحي واسـع بين إسرائيـل وساحـل العاج.

لكن الحفـار لم يظهـر خلال هـذه الفترة لا في أبيـدجـان ولا في أي من المـوانىء المفترض أن يرسو في مياهها والتي تقع على طول الشـاطىء الأفريقي الأطلسي وهـذا ما جعل المخابرات المصرية تقف حائرة أمام المحطة التالية للحفار من جهة ومساره الحالي من جهة أخرى بعد أن اختفى في المحيط الأطلسي.

وسط هذا الغموض صاح طاهر رسمي المسؤول بالقاهرة عن العملية «إحنا ليه بنفكر في الموانىء الكبيرة بس؟!.

ليـه ما يكنش الحفـار سيرسـو في أي ميناء صغـير وغير معـروف زيادة في سريـة تحركاته».

ملاحظة طاهر رسمي هذه لم تأت من فراغ فلقد كانت هناك ملاحظة من إحدى العميلات وهي صحافيـة هولنـدية سمعت من مسؤول الإعـلام الأميركي وهي تتعشى معه في أحد المطاعم كلمة «بورت هاركوت» ولم تعرف مـدلولهـا ولا موقـع هذا المكـان وقد أرسلت هذه الكلمة في تقريرها.

وبدأ طاهر ونديم بالبحث عن موقع هذا المـرفأ الصغـير فإذ هـو ميناء صغـير في أقصى الجنـوب الشرقي للسـاحـل النيجـيري لا يصلح لـرسـو السفن الكبـيرة والحفـار والقاطرة ليسا مراكب كبـيرة لكن ضرب الحفار في هـذا الميناء الصغـير مستحيل عملياً لأن المكـان كله مستنقعات وأي حـركة فيـه مهـما كـانت ستكـون مكشـوفـة للحـراس وللعيان.

ولهذا بعد أن رصدت العيون المصرية وجود الموساد بكثرة في ضواحي هذا المرفـأ الصغير تيقنت المخابرات المصرية أن الحفـار قد اختـير له هـذا المرفـأ للمبيت، وإجراء الإصلاحات.

ثم اعتياد خطة «تطفيش» لمنع الرسو له في هذا الميناء فلقد تم إرسال بعثة سينمائية مصرية إلى بورت هاركوت بحجة تصوير فيلم سينمائي هناك بجانب ظهور مكثف للدبلوماسيين المصريين في هذه القرية وبات الوجود المصري فنياً ودبلوماسياً في بورت هاركوت حديث كل الناس وهذا ما كان يريده طاهر رسمي.

عاد الحفار إلى الاختفاء وبدأ فريق العمل المصري يجهز نفسه للعمل ضده في أبيدجان خصوصاً أن برقية قد وصلت إلى مكتب طاهر رسمي من رجل الأعمال التركي عصمت كارجي تؤكد وجود الحفار مع القاطرة في عرض المحيط منذ أسبوع في انتظار تعليمات جديدة.

عاد نديم إلى أبيدجان ليقود مجموعة العمل المصرية بعد أن كان قد توجه للقاهرة في مهمة لم تتعدى الثماني وأربعون ساعة حاملاً معه حقيبتين مملوءتين بالمتفجرات الشديدة الانفجار.

وكما توقع المصريون لم يكن أمام الحفار أي خيار آخر غير الرسو في ميناء أبيدجان.

بعد عودة رجال الضفادع البشرية إلى القاهرة ثم استدعاءهم على وجه السرعة للتحرك إلى أبيدجان.

بعد كشف حسي على موقع رسو الحفار ثم تحديد ساعة الصفر: صباح الأحد ٨ مارس عام ١٩٧٠.

وفيما كانت عاصمة ساحل العاج تسهر للصباح احتفاءاً برواد الفضاء الأميركيين وافتتاح فندق «لافوار» الإسرائيلي كانت مجموعة العمل المصرية والمؤلفة من نديم هاشم قائد المجموعة والرائد خليفة جودت قائد مجموعة الضفادع البشرية الأربعة تجهز نفسها للغطس في مياه البحر حاملاً كل منهم شحنة ناسفة لإلصاقها في قعر الحفار وقبل تحرك المجموعة نحو الهدف هتف الجميع بصوت خافت: تحيا مصر.

كان الوقت المقدر لوصول الرجال إلى الحفار وتثبيت العبوات في أماكنها ثم العودة إلى الشاطىء قد قدر بساعة واحدة ومرت الدقائق كأنها دهور، وعاد الرجال إلى الشاطىء منجزين مهمتهم دون صعوبات ومع اقتراب الساعة من السابعة والخمسون دقيقة دون الانفجار الأول ليلحقه بدقيقتين الانفجار الثاني والثالث والرابع. وسرى

صوت نعيق سيارات الإطفاء في شوارع أبيدجان متجهة إلى الميناء في وقت كان الرجال متأهبين للعودة جواً إلى القاهرة كل بمفرده وبوجهة سير مختلفة عن الآخر.

توجه نديم هاشم إلى مقر القنصلية المصرية في أبيدجان ليرسل بالشيفرة في تمام الساعة العاشرة والنصف من صباح الأحد ٨ مارس عام ١٩٧٠ برقية إلى القاهرة تحمل كلمة واحدة «مبروك».



غلاف كتاب أسلحة الجواسيس

جاسوس يحكي عن الجواسيس وأسلحتهم
أسلحة الجواسيس

الاغتيال بالسكتة القلبية

«التجسس وأسلحة الجواسيس موضوع واسع متشعب. وما قمت به في كتابي أقرب إلى التعداد، وإعطاء الفكرة السريعة، منه إلى معالجة الموضوع تفصيلاً. وأملي أن يكون كتاب (أسلحة الجواسيس) قد ساهم في توضيح بعض الجوانب بالنسبة إلى أصحاب الإدارة الطيبة والنية الحسنة، من أبناء الشعوب، التي تحتاج إلى وقاية نفسها من شر الجواسيس...».

هذا ما يقوله ديوا دي بوي ـ مونتبرون، في نهاية كتابه الضخم. وقد تلمسنا في الكتاب الدقة العلمية في عرض أسلحة الجواسيس، الأفراد منهم والدول، ووسائلهم المتعددة والغريبة في كشف الأسرار وزرع ما يريدونه من أفكار وإشاعات في منطق الرأي العام. ويقول مؤلف الكتاب: «التجسس يعد للحروب ويغذيها ويطيلها: يتحدثون دائماً عن نزع الأسلحة النووية وسواها من وسائل التعايش وإحلال السلام في العالم. ويتجاهلون أن اليوم الذي تضيء فيه على العالم شمس مشرقة هو يوم تشل حركة جميع العاملين في حقل التجسس...».

● مؤلف الكتاب جاسوس ●

هذا، مع كون الكاتب ديوا دي بوي ـ مونبرون، ليس غريباً عنه عالم التجسس. بل وله فيه خبرة مديدة، اكتسبها من خلال نشاطاته ضمن أجهزة الاستخبارات المختلفة فقد قاتل في صفوف ثوار الكفاح المسلح. وقاتل ضدهم. وعمل مدرباً، ومظلياً، وغطاساً، وقائد طائرة وهيليكوبتر. وباختصار يمكن قول أنه خدم أو تعاون مع جميع الأجهزة الخاصة ومع الكوماندس، وتحت سماوات عدة، وعلى أراض مأهولة

كثيرة. ويرفض الكاتب أن يعتبره النقاد اختصاصياً في التجسس، لأن الاختصاصي في رأيه خبير عالم في موضوع محدد. أما هو فمثله مثل أي رجل عاش كثيراً وعمل كثيراً، فيعتبر نفسه ملماً باختصاصات كثيرة.

يقسم مونتبرون كتابه إلى ستة أجزاء كبرى، ضمن كل منها فصول عديدة، أو قليلة، تبعاً لأهمية الموضوع الذي تعالجه. وربما أوحى تعداد عناوين الأجزاء الرئيسية بما لهذا الكتاب من خطورة، وكم هو مثير للفضول. والعناوين هي: التجسس - أساليب جمع المعلومات وكشف الأسرار - أسلحة اليكترونية - الوقاية من التجسس - حماية الأجهزة الخاصة - تسميم الأفكار.

● «ثورة» في عالم التجسس ●

بعد الحرب العالمية الثانية اندلعت في عالم التجسس «ثورة» كبرى غيرت معالمه. فالإمكانات الجديدة التي يستغلها الجواسيس العصريون لم تكن لتتراءى لمخيلة إنسان منها بلغ جموحها واتسعت آفاقها. وبفضل تلك الثورة تطور حتى مبدأ التجسس.

كان التجسس في الماضي عملاً مشيناً، ملاصقاً للخيانة. وكان من خلال النظرة الشعبية نشاطاً غامضاً مخجلاً محتقراً منبوذاً من قبل العسكري الأصيل، تتجاهله الأرستقراطية وتلعنه البورجوازية، ويثير غضب الجماهير.

وكانت الدول، التي تستخدم التجسس، تنكر استخدامها له وتتهم به أعداءها. أما في أيامنا هذه فقد تغيرت نظرة الناس إلى التجسس تغييراً جذرياً. فالدول تعلن عن عمليات جواسيسها حي ن لا يضر هذا الإعلان بمصالحها، وتمنح الجواسيس أوسمة وتلقبهم بالأبطال، وتسمح لهم برواية مغامراتهم في الإذاعات والتلفزيون وبكتابة مذكراتهم، وتفاخر بانتصاراتهم وتتستر على فشلهم.

في اللغات الأجنبية تسميات متشابهة لفظاً ومعنى لكلمة جاسوس. فهي بالفرنسية «إيسبيون» وبالإنكليزية «سباي» وبالإيطالية «سبيوني» وبالإسبانية «إيسبيون» وبالروسية «شبيون» وبالألمانية «سبيون»... الخ. أما معنى الكلمة، فتتفق جميع الدول على قول أنه اسم لشخص يراقب ويكشف أخبار فريق أو شخص، لحساب فريق آخر.

● **التحيز تجاه الجاسوس** ●

على أن التعمق في تفاصيل المعنى يبرز فروقات أساسية. فالجاسوس في المفهوم السوفياتي، مثلاً، هو من يقوم بعمل ضد الدولة. ويعتبر عمله هذا جريمة كبرى، جزاؤها بالغ القسوة. أما الذي يجمع المعلومات من دولة خارجية ليرسلها إلى السوفيات، فهو ليس بجاسوس على الإطلاق وإنما هو «بطل قومي».

ويوجد مثل هذا التحيز في جميع الدول بلا استثناء. ومطالعة عدد كبير من المؤلفات والمنشورات الأميركية حول موضوع التجسس تثير الضحك الساخر. فالأميركيون يصفون الجواسيس السوفيات بأنهم «بلا أخلاق ولا مبادىء» وقد يكون الأميركيون على حق، وخصوصاً أن مقاييس جميع الأجهزة السرية لا مكان فيها للأخلاق ومبادىء الفروسية. لكن ما يضحك هو كون الاستخبارات المركزية الأميركية «سي. آي. اي» هي الأخرى لا تقصر عن أي استخبارات أخرى على صعيد إغفال «الأخلاق والمبادىء».

ويلاحظ أن كلمة «عميل سري» لا تعني جاسوساً بالمعنى الشامل. فالعميل السري هو من يعمل لحساب دولة بناء على طلب هذه الدولة. وسواء كان موظفاً أو متطوعاً، فإنه في نظر الدولة التي تستعمله «عميل»، حتى ولو خان بلده من أجلها. الوحيدون الذين يفرقون بين عميل وعميل هم الإنكليز. فتقاليدهم التي تفرق دائماً بين ما هو إنكليزي وغير إنكليزي دفعتهم إلى تسمية العميل الغريب «مخبراً». ووحده البريطاني بنظرهم، يستحق لقب «عميل».

● **عالم من زجاج** ●

التجسس أسطورة في نظر الكثيرين، أو هو موضوع تندر وتسلية للبعض الآخر، وسر غامض يجتذب فضول البعض الآخر. وهو في أكثر الحالات كلمة سحرية تحمل أكثر من الرومنطيقية واللامعقول. وربما عاد السبب في ذلك إلى روايات التجسس التي تمجد وتجمل، وتبالغ أو تقلل، من أهمية هذا الموضوع. على أن أخطر أسلحة التجسس هو انتفاء فكرة وجوده الواقعي من ذهن الناس.

والواقع هو أن أي إنسان قادر اليوم على مشاهدة ما يجري داخل جدران بيتك،

والاستماع إلى ما يقال داخل مكتبك، وتسجيل الاتفاقات السرية أو اللقاءات العاطفية أينما وحيثما تمت. وكل واحد منا معرض لعين رقيب أو خائن، أو معرض ربما لخطر الفرت. ذلك أن كلاً منا قد يثير إهتمام جاسوس، دون أن يدري.

التجسس واقع. وهو موجود منذ وجدت الإنسانية. أقدم الكتب تذكر الجاسوس ونشاطاته. وقد ورد في التوراة «أرسل يشوع بن جاسوسين بشكل سري. . .» وكانت مهمة الرجلين إطلاع يشوع على وسائل الدفاع عن جرش. وتصرفا تبعاً لأعرق تقاليد المهنة، إذ صادقا فتاة من الساقطات تدعى رحاب. وأصبحت رحاب عميلة لها تمدهما بالمعلومات وتحميهما، مقابل أن يحسنوا معاملته هي وأهلها بعد احتلال جيوش بلادهما لبلدتها.

وأقدم مؤلف عن فنون الحرب كتاب لسون تسو الصيني، عمره اليوم خمسة أجيال. وكان سون تسو أول من حدد تعريف التجسس، ونظم قوانينه. ويخصص جزءاً كبيراً من مؤلفه للعملاء السريين، وأساليب عملهم والأسلحة التي كانوا يستعملونها. وفي القرون الوسطى عرفت أوروبا مثلاً شعبياً شائعاً يقول: «حين تعرف ما سوف يفعله عدوك تضبح قادراً على التغلب عليه». وفي هذا المثل ما يختصر ويبسط مهمة التجسس وأهدافه:

● التجسس العصري شامل ●

التجسس الرسمي - أي تجسس دولة على دولة - كان في بدايته ذا طابع عسكري صرف. أما اليوم فالتجسس العسكري لا يشكل أكثر من نسبة عشرة بالمائة من التحسس الشامل، الذي يهتم بجميع مرافق الحياة وعناصر القوة في دولة ما، أو لدى فئة من الناس، والذي تجتذبه أسرار الأبحاث الذرية كما تجتذبه الموضة التي يطلقها كبار المصممين. فكل اكتشاف، أياً كان أهميته، وكل جديد وكل بحث وكل فكرة، هو شيء جدير بالسرقة.

العالم يتطور بالمعرفة. وكل دولة تريد معرفة ما اكتشفته جارتها. وهذا يوحي للقارىء، ربما، بنوعية وكمية وسائل البحث، أو «الأسلحة» التي يتزود بها رجال التجسس الصناعي والاقتصادي والعلمي والسياسي.

● ٢٠٠ ألف للجاسوسية الأميركية ●

يقدر عدد رجال الاستخبارات الأميركية المنتشرين في العالم بمئتي ألف رجل. ويقال أن رجال الاستخبارات السوفياتية يفوق عددهم أربعمائة ألف وحتى الآن لا نعرف شيئاً عن وضع الصينيين في هذا المجال، إلا أن توقعات بعض العارفين تقول أنهم سيبلغون قمة فن التجسس في وقت ليس ببعيد. والواقع أنه ليس من دولة في العالم تجهل هذا الفن. وحتى الفاتيكان هي من الدول التي تراقب وتتجسس وتحارب.

● الصين تحفظ أسرارها ●

أما في مجال حماية الأسرار، فيقال أن الولايات المتحدة تنجح في الاحتفاظ بنسبة ٨٠ بالمئة من أسرارها..

وأن السوفيات يحتفظون بنسبة ٩٠ بالمئة. أما الصينيون فيصلون إلى أرفع درجة من الحماية، ويساعدهم على ذلك بعد أراضيهم واختلاف لغتهم وتراثهم. وتعتبر الحماية الأوروبية ضعيفة إجمالاً. وأضعفها في هذا المجال داخل فرنسا، التي لا تتمكن من حفظ أسرارها إلا بنسبة ١٠ بالمئة.

● أسلحة الجواسيس ●

أول أسلحة الجواسيس هي المخيلة. ومنها تتوالد باقي الأسلحة. وعلى الجاسوس، عدا تفوقه الجسدي والنفسي والذهني، أن يكون ماهراً في استعمال يديه، وأن يتقن التزوير وعلم الكيمياء، والحفر، والسرقة وغيرها. وعليه أن يستغل أي طاقة أو مواد أولية متوفرة، إلى الحد الأقصى.

والأسماء الكبيرة التي انكشفت للجمهور في عالم التجسس اضطر أصحابها جميعاً لتعلم هذه المهن، حتى ولو كانت مهماتهم تبعدهم عن الاضطرار إلى ممارستها. فغد الجاسوس قد يضطره للقيام بأي عمل.

وإلى جانب الأسماء الكبيرة التي كشفها انتصار أو فشل هناك جيش من العاملين بصمت والمتسترين بالظل، ولو انكشف لنا عدد أفراده لأصبنا ربما بصدمة أورثتنا الشلل!.

حتى يلبي الجاسوس طلبات أسياده لا بد له وضع عينيه وأذنيه وحاسة الشم عنده، ويديه أيضاً، في تصرف ذكائه. ولن يلبث أن يحتاج أيضاً إلى أدوات فيخترعها، وتزداد اختراعاته وتتطور بلا توقف ولا حدود. وتتفق اختراعاته وتتطور بلا توقف ولا حدود. وتتفق الشعوب على تسمية واحدة تطلقها على هذه الأدوات، هي «غادجيت» ولكن الأميركيين الذين يظنهم الناس أصحاب هذه التسمية هم الوحيدون الذين لا يستعملونها بل يطلقون على أدوات التجسس اسم «الأشياء التي لم تعد صالحة للاستعمال» أو ما نسميه باللغة الدارجة «الحراتيق».

لدى مشاهدة الصور على صفحات هذا الكتاب ومطالعة النصوص المرفقة بها قد يخيل للقارىء أن اقتناءها واستعمالها أمر سهل. لكن تشغيل هذه «الأسلحة» يستلزم مراعاة بعض الظروف، وكثيراً من الحذر. فقد يصادف أحدنا مكبراً للصوت وآلة للبث مجموعين في إحدى الواجهات، ويؤكد له البائع أن هذه الآداة بالغة الحساسية فهي «تسمع وتسجل عن بعد عشرة كيلومترات» لكن البائع لن يعدد الشروط التي لا بد من توافرها لتؤدي الآلة مهمتها. لا يذكر مثلاً أن أي حاجز معدني أو أصوات تدخل مجال المكبر قد تلغي مفعول الآلة. فالآلة تسمع وتسجل بالفعل عن بعد عشر كيلومترات، لكن شرط أن لا يعترضها أي حاجز من حجر أو قرميد وشرط أن تكون الموجة المختارة (وهي عادة موجة قصيرة) غير مشغولة ببث موسيقى عصرية صاخبة، مثلاً.

ويمكن استعمال آلة الاستماع والتسجيل من بناء إلى آخر، شرط أن تسير موجة الاستماع في خط شبه أفقي وفارغ. فإذا وجدت الآلة في طبقة أعلى من مصدر الصوت بسبعة أو ثمانية أمتار من مفعولها يتعطل تماماً. وعلى مستعمل هذه الآلة أن يراقب بطارياتها، فلا شك في كون آلته تستمد قوتها من قوة البطارية.

ولا بد أخيراً من الأخذ بعين الاعتبار كون جميع الآلات والأدوات المصغرة هي في طبيعتها سريعة العطب ويتطلب استعمالها مهارة وخبرة. وجميع الآلات ووسائل الاستخبار والاستكشاف التي يستعملها الجواسيس تستلزم دقة في اختيار المكان المناسب لها. وهي وإن كانت متوافرة وجد متنوعة إلا أن اقتناءها ليس بالأمر السهل، وذلك لصعوبة الاهتداء إليها ولارتفاع ثمنها.

ـ قلم السكتة القلبية ●

وهنـا يكمن سر قـوة الاستخبـارات الـرسميــة التي تتصرف بميـزانيــة ضخمـة ومطاطة. فهي قادرة على اقتنـاء أدوات جد مصغـرة وتعمل بـالإليكترون وذات فعـالية مدهشة. نذكر منها على سبيل المثال «آلة البث» بيب ـ بيب، التي لا يزيد حجمها على حجم حبة الحمص والتي تثبت على دبوس الكرافات أو في إحدى المجـوهرات، وتمكن رجل الاستخبارات من معرفة مكان الإنسان الذي يحملها دون أن يدري، ومنها أيضـاً آلـة تصويـر بحجم وشكل علبـة الكبريت. وأيضـاً الآلـة التي تستمـع وتبث، ويمكن إخفـاؤها في «بكلة» صـدرية المـرأة. والآلة البـالغة الحسـاسية التي تـأخذ صـوراً عـبر الجدران والحواجز المعدنية. والقلم ـ المسدس الذي يطلق رصاصة «٥,٧»، أو غـازاً، أو أي مادة تسبب القتل «بالسكتة القلبية»، ولا تظهـر حتى عند تشريـح جثة القتيـل! وأيضاً الآلة التي تكشف لصاحبها أسلوب فتح أي خزانة أو صندوق حديدي. وأيضـاً المسجل الآلي للمكالمـات الهاتفيـة بين بلد وبلد. والمنـظار بالأشعـة ما تحت الحمـراء، الذي يسمح تبادل الأحاديث والإشارات ليلاً، وعن مسافة بعيدة.

لكن تعداد هذه الأدوات يجب أن لا يعطي القارىء فكرة خاطئة عن الجاسـوس العصري. فـالعميل السري أو المخـبر لا يتجول بـين الناس محمـلاً بهذه الأدوات، أو مالئاً بها جيوبه، أو الفراغ ما بين وجـه المعطف وبـطانته، فـالجاسـوس هو في الغـالب رجل هادىء، وموظف محترم، أو صاحب مركز مرموق، وأكثر أنواع نشاطاته يقـوم بها وهـو صفر اليـدين. ولا بد من تمييـزه عن أبطال الـروايات البـوليسية، الـذين يصيب الواحد منهم ورقة من ورق اللعب بخمس رصاصـات، وبظرف ثـانيتين، وهـو يطلق رصاصته من مسدسين، يحمل كل منهما بإحدى يديـه... وليس الجاسـوس أيضاً ذاك الدون جوان الباهر الانتصارات، والمتفوق في كل مجال، والمتجول في جميـع أنحاء العـالم باستمرار، وأمام أعين أعدائه، مسلحاً بغرور لا حد له.

● الجاسوس عادي المظهر ●

الجاسوس الحقيقي يعيش حياة المغامـرات التي تجتذب القـارىء، فيما لـو رويت لـه. ولكنه تقليـدي عادي المـظهر ونمط الحيـاة. لا يعيش في قصر وليس شعـره أشقـر أملس يداعب جبينه، وليست ضحكته مشرقة كالنهار ولا عيناه ساحـرتين، ولـو كانت له هذه الأوصاف لأبعد فوراً عن مهنة التجسس! فإذا كلف الجاسوس بعملية خطيرة،

كالقتل مثلا، فإنه يقوم بمهمته بصمت ودون أن يترك أي أثر وتكمن كل مهارته في تحويل الأنظار عن نفسه وفي تحميل سواه مسؤولية جريمته أو عمله التخريبي باختصار، وباستثناء حالات خاصة ونادرة، تبقى انتصارات الجاسوس في الظل، كما تبقى متابعه مجهولة.

والتجسس تنظيم كامل، ذكي، دقيق، علمي. ولا يتحمل أي انحراف مع التسلية أو الطرافة. والرجال الذين يختارهم التنظيم كعملاء له يجب أن يتحلوا بالحذر البالغ، والقلب البارد، أي أن يكونوا من نوع الرجل الآلي. وهم رجال فوق المستوى العادي، وقد تلقوا تدريباً بالغ القسوة.

وصف رودولف أبيل عميل الاستخبارات في «المولودي كوموتيست» عام ١٩٦٤، فكتب: «عميل الاستخبارت يعيش حياة خطرة ومملة في الوقت نفسه. ظروف عمله تضطره لأن يكون ماهراً خبيثاً ومتنبهاً باستمرار وعليه أن يخضع خضوعاً تاماً لقوانين المهنة، ويخلص لبلده إخلاصاً كاملاً. ويكون شريفاً ومنضبطاً. وعليه أن يضحي كثيراً ويأخذ المبادرة الصحيحة في الوقت المناسب، ويتغلب على جميع أنواع الصعاب، ويتحمل الحرمان ونمط حياته المتواضع... فالعمل في الاستخبارات ليس مغامرة رومانسية، ولا هو وسيلة السياحة في الخارج. إنه عمل دؤوب قاس، يتطلب قوة هائلة، وقدرة على الاحتمال والمقاومة، وضبط النفس، وإرادة صلبة، وثقافة واسعة وعميقة».

ولو أضاف أبيل إلى هذا الوصف للجاسوس صفات مثل «تعصب أعمى لبلاده أو لقضيته، وأعصاب من حديد، وانعدام الإحساس والتأثر»، لكن أعطى صورة كاملة عن الجاسوس في أي بلد وتحت أي سماء.

● فيلبي وعمليات الخطف ●

تتوافر برودة الأعصاب والانضباط لدى عميل الاستخبارات أكثر مما تتوافر لدى عميل التنفيذ، الذي يكلف مهمة خطرة ولفترة قصيرة. فالقاتل أو المخرب ـ وهو ما يسمى بالتوربيد ـ قد يقوم بالقتل ويتعرض للقتل. وهو يعرف حدود مهمته من منطلقها وحتى نهايتها. أما الجاسوس العصري، أو عميل الاستخبارات، فإنه يمشي باستمرار على رمول متحركة. فإذا تساءلتم ـ يقول المؤلف ـ أي من هذين الصنفين هو

أجدر بالاحترام، أو بالاحتقار، من الآخر. فإنني شخصياً لا أملك أي جواب عن سؤالكم

كان «ستاخينسكي» يقتل بأساليب المجرم العادي وبنفسية الجندي. وكان كيم فيلبي البريطاني، والعميل للسوفيات، يفضح عملاء كثيرين ويساهم في خططهم إلى المعسكر الاشتراكي، حيث يعذبون أو يقتلون.

فهل نتساءل أيهما يستحق الاحتقار أكثر من الآخر، الرجل الذي يقتله بيده أم ذاك الذي يتسبب بالقتل؟.

يقول أحد ضباط مكافحة التجسس البريطاني: «أحقر الجواسيس هم الخونة الذين يستسلمون للضغوط أو يطمعون بالمال... أما أخطر الجواسيس، فهم الذين يخونون بلدهم ليخدموا إيديولوجية».

والجدير بالملاحظة هو وجود مقاييس «أخلاقية» خاصة بالتجسس. وترتكز هذه المقاييس على فكرة أن العميل يخوض حرباً. وجميع الأساليب مشروعة في سبيل أن لا يتوقف ولا يتراجع. إذا كان ضميره مرتاحاً، فقد يتعب قلبه. لكنه مجبر على متابعة السير، محتقراً جميع القوانين البشرية وكل أنواع الضعف.

ويقول المؤلف: والأفضل لأي من قرائي، أن لا يقع يوماً بين يدي جاسوس!

«زرع» الجاسوس ليصبح قائداً

التجسس عمل يمر بثلاث مراحل: جمع المعلومات وإعدادها ونقلها. ونادراً ما يقوم العميل الواحد بالعمل الكامل. فالذي يتولى جمع المعلومات وحفظها ـ ولا تعني هذه الكلمة حفظها في ذاكرته فحسب، بل «تعليبها» وإعدادها للحفظ في السجلات ـ ونقلها، فسوف تكون مهماته معقدة ومرهقة. وقد يعرضه تنوع هذه المهمات وتكاثرها، للخطر.

وباستثناء «الأبطال» الذين انكشفوا للجماهير من أمثال آبيل وفيلبي يبدأ العميل عادة قطعة صغيرة في آلة ضخمة، يؤدي مهمة محددة ضمن مستواه المهني والاجتماعي، المتواضع. وغالباً ما يكون تابعاً لممثل رسمي لبلاده ـ أي ديبلوماسي ـ أو للشخص الذي استقطبه، أو لعميل آخر يتولى مهمة الاتصال به ونقل معلوماته لآخرين.

وأول مهمات العميل هي دخوله مكاناً محذداً يمكنه من الحصول على المعلومات. وهذا أساس التجسس. ويتم ذلك عملياً بالتقرب من جو معين أو الاتصال بشخص معروف، أو الوصول إلى وثائق هامة سرية. . . ولا بد لجمع المعلومات من أن يكون سرياً لا يوقظ الشكوك.

والجاسوس الناجح هو من استطاع دخول أجواء العدو والارتقاء فيها إلى مراكز الإدارة العليا، حيث تحفظ الأسرار. وتتم عملية «زرع العميل السري» خلال فترة جد طويلة. ولا يحدد له هدف واضح في البداية، بل يعمل على إدخاله البلاد، ثم يترك له المجال الكافي ليعيش ويتأقلم ويركز أوضاعه. وتبعاً لاختصاصه يتحرك في جو أو في آخر، ويطالب بمركز مهني، ويقيم علاقات محددة. أما إذا صدف واحتل مركزاً أفضل مما كان يتوقع فيترك له أمر اكتساب ما يشاء من امتيازات لشخصه. وكثيرون هم العملاء الذين انتسبوا إلى فريق، ولم يبدأوا عملهم الحقيقي إلا بعد عدة سنوات، حين لا يعود واحد من أعضاء هذا الفريق قادراً على اكتشاف هويتهم أو على الشك بهم. وكثيراً ما يستقطب العميل من بين المواطنين أنفسهم الذين قد يخونون بدافع عقائدي أو تحت التهديد والابتزاز، أو طمعاً منهم بالأموال. وأياً يكن نوع العميل، فإن عمله في البداية هو جمع المعلومات. أما كل ما يقع من معلومات دون تمييز ولا غربلة، أو بناء على توجيهات محددة.

العميل مثل محترف الصيد، يلجأ إلى أسلوبين أساسيين: الملاحقة والترقب. فإذا كان قد ثبت أقدامه في المركز الهام، فإنه يطلع على البرقيات والتقارير والوثائق السرية فيسجلها وينقلها. وهذا أسهل أنواع النشاطات. وبقدر ما تكون شخصية العميل قوية جذابة، بقدر ما يتمكن من توسيع نطاق عمله وصداقاته، وبالتالي من الاطلاع على العدد الأكبر من الأسرار والوثائق.

● فيلبي العميل الجذاب ●

أبرز مثال على ما نقوله قد يكون العميل كيم فيلبي المسؤول الكبير في وزارة الخارجية البريطانية والذي عمل لحساب السوفيات منذ أن استقطبوه إلى صفوفهم مع رفيقه بورغس وماك لين، وهو بعد طالباً في جامعة كمبريدج. وكان في السنوات الأخيرة السابقة لافتضاح أمره يقصد واشنطن مندوباً لقسم الاستخبارات التابع لوزارة

الخارجية البريطانية، ويشترك بهذه الصفة في مؤامرات قمة تعقدها الاستخبارات المركزية الأميركية!.

يشكل فيلبي ورفاقه نموذجاً لنعميل المتعاون مع دولة أجنبية ضد مصالح بلده، بدافع أيديولوجي. ولد هارولد أدريان راسيل فيلبي في الهند، يوم أول كانون الثاني ١٩١٢. والتقى في فرانسيس ومونسي بورغس ودونالد ديوارت ماك لين في مبريدج عام ١٩٣١. وفي تلك الفترة اعتنقوا الشيوعية. توظف ماك لين في وزارة الخارجية. وعمل بورغس في الصحافة، وانخرط أثناء الحرب العالمية الثانية في الآس. أو. أي (العمليات الخاصة) بصفة عميل منفذ، ويقال أنه بقي في ذاك السلك فترة طويلة. وكان فيلبي قد بدأ حياته صحافياً ثم صار عميلاً للاستخبارات الخارجية (أم. أي. جي) أثناء الحزب، وتحت غطاء ديبلوماسي. هؤلاء العملاء الثلاثة يشكلون نموذجاً للعميل المستقطب، المتفوق بفضل مواهبه الشخصية والذي يدين بالكثير من نجاحه وحمايته أيضاً للتنظيم الذي يستغله لحسابه. هل توجهوا في حياتهم المهنية ناحية الصحافة والخارجية، بناء على تعلميات أو أوامر؟ هذا ما لا يمكن أن نجزم به. لكن ما يلفت الانتباه هو «ديمومتهم» في عملهم نحو ثلاثين سنة، رغم اتهام اثنين منهم بالشذوذ الجنسي، هما بورغس وماك لين.. ورغم شكاوى كثيرة عن شخصيات مسؤولة ضد فيلبي.

والعميل بضفته «آلة لجمع المعلومات» بضاعة أثمن من أن تترك بلا حماية. لذلك تحاك من حوله شبكة متماسكة، مهمتها تقديم المساعدة له ووقايته من الأخطاء. وأحياناً يتم ذلك دون أن يدري به العميل نفسه.

● كروغر «يتقمص» في كوهين؟ ●

العميل المدسوس، أو الذي يدخل مجتمعاً ما أو بلداً أجنبياً، فقد تكون حالة الزوجين كروغر مثالاً نموذجياً عليه. فهما من صنف العميل الذي يتغلغل في جو غريب تدريجياً، ويحتل مركزاً ثابتاً بعد سنوات طويلة، بحيث يصبح تحديد هويته وأصوله أمراً مستحيلاً.

حين أوقف الزوجان كروغر في بريطانيا كانا مزودين بمجموعة التجسس الكاملة: كاميرات تصوير، مكبرات للصوت، شيفرة سوفياتية مصغرة، راديو

والخ . . . وكانت بحوزتها مجموعة كبيرة من جوازات السفر، أكثرها حقيقي لا أثر للتزوير فيه .

وكان الجاسوسان (آل كروغر) قد وصلا بريطانيا عام ١٩٥٤، قادمين من فرنسا، بعدما أقاما في النمسا وهونغ كونغ ونيوزيلاندا وأوستراليا، وكانا من قبل في الولايات المتحدة الأميركية، ولم يعرف مكان سكنهما خلال الفترة الواقعة بين إقامتهما في أوستراليا ومن ثم في أميركا. ويرجح أنهما استراحا خلال تلك الفترة أو تدربا في الاتحاد السوفياتي .

وأوقف الزوجان كروغر بتهمة تعاونهما مع الكولونيل آبيل، أحد أبرع العملاء السوفيات الذي قبض عليه في الولايات المتحدة الأميركية .

أما انكشاف آبيل فحدث بفضل هفوة قد يراها العامة بسيطة، ولكنها بالنسبة إلى التجسس بالغة الخطورة. أخطأ آبيل حين أدخل أحد عملائه إلى محترفه الخاص، وكان متعجلاً في تسليمه بعض الوثائق. وكان أن استسلم العميل للإدمان على الشرب، حتى تخوفت موسكو من نتائج ذلك، فاستدعته. وخاف العميل وكان اسمه هايانيم، وانتهز فرصة مروره بباريس في طريق عودته إلى بلاده، ليسلم نفسه للسفارة الأميركية هناك. وكانت النتيجة الحتمية أن كشف أسماء رفاقه. وعرف فيما بعد أن آبيل كان على علاقة مع أميركي يدعى موريس كوهين، الذي اكتشفت الاستخبارات المركزية الأميركية أنه ولد في نيويورك وتعلم في أحد معاهد ولاية ميسيسيبي، وأنه شارك في الثورة الإسبانية في صفوف كتيبة أبراهام لينكولن باسم مستعار. وأيضاً أن موريس كوهين خدم في الجيش الأميركي ثم تزوج من بولونية. واختفى كوهين بعد توقيف روزنبرغ، العالم الأميركي المتهم بنقل أسرار ذرية إلى السوفيات ولم تتمكن الاستخبارات المركزية من اقتفاء أثره بعد ذلك .

ويتكهن الباحثون بشأن علاقة كوهين بكروغر. فمنهم من يقول أن كروغر هو كوهين نفسه، ومنهم من يقول أن كوهين قتل في الحرب الأهلية في إسبانيا وأن كروغر أخذ هويته، وهذا كثيراً ما يحصل في عالم التجسس. وقد تعطينا حكاية آبيل ـ كوهين ـ كروغر فكرة مبسطة عن تعقيدات وتداخل شبكات التجسس، وعن علاقة كل عميل كبير من العملاء المحليين أو المدسوسين في بلد ما .

● التصوير بساعة اليد ●

ننقل الآن إلى الأدوات التي يستعملها العميل في سبيل جمع المعلومات. أدوات أخذ الصور وتسجيل الأصوات، التي أسميناها «أسلحة الجواسيس» والتي لولاها لما تمكنوا من أداء مهماتهم الصعبة.

لقد اتخذت كاميرات التصوير أشكالاً جد متنوعة وعريبة. قد ذهبت مخيلة كتاب الروايات البوليسية إلى أبعد وأغرب من الواقع الغريب، فجعلت من آلة التصوير زراً في بدلة أو حمالة البنطلون أو حجراً في خاتم. على أن الواقع يكفي لإثارة العجب. فالآلات المصغرة مخبأة عادة بغلاف جد صغير، وله شكل الأدوات المستعملة بكثرة والتي لا تلفت الانتباه ولا تولد رغبة سرقتها أو امتلاكها في نفس من يراها.

لعبت القداحات في هدا المجال دوراً كبيراً في الماضي، وقد استغنى عنها اليوم بعد افتضاح أمرها.

عملاء اليوم يستعملون ساعة اليد. فهم ينزعونها من معاصمهم، ويملأونها، ويتفحصونها ثم يرفعونها إلى آذانهم. ومن خلال هذه الحركات، لا يصعب عليهم تصوير شخص ما بين مجموعة من الناس. وفي الأسواق آلة تصوير بشكل ساعة اليد. ويمكن لمن يستعملها أن ينحني كأنه يتفقد الوقت، فيحدد إطار الصورة ويسجلها. لكن حتى الساعة هي متروكة للهواة ولا يمكن لعميل يعيش في جو عدائي أن يستعملها. ويمكن وضع آلة التصوير المصغرة في مقبض عصا، أو في قلم أحمر للشفتين أو في علبة بودرة للمرأة.

اكتشفت الاستخبارات الأميركية منذ سنوات حلية ـ آلة تصوير، تخص رينيه ليفان زوجة الفرنسي بيتر كرانيك الذي يعمل لحساب السوفيات. والحلية من نوع مدالية كبيرة، تتدلى من العنق بسلسلة. وكان بإمكان صاحبتها أن تتلاعب بها فتوجهها إلى حيث تضبط إطار الصورة.

وأحد الأسلحة المفضلة للعميل المصور هي العدسة المكبرة. وكثيراً ما حصل العميل على صور قواعد عسكرية جوية وبحرية، وعلى صور عملاء الفريق العدو وهم يدخلون مقر سفارة أو يغادرونه، وهو جالس في سيارته الواقفة على جانب طريق بعيد. وعرف عن دوغلاس رونالد بريتر الضابط البريطاني وعميل السوفيات، أنه كان

يستعمل كاميرا مخفية داخل علبة سكائر. وكان يخرج العلبة من جيبه ويقدم لزواره إحدى السكائر المصطفة أمام آلة التصوير، التي تعمل بفعالية حتى في الظلام.

● عيون الجاسوس كثيرة ●

من الآلات المعروضة على جمهور الهواة والفضوليين، المينوكس سي، وهي أقدم آلة تصوير مصغرة وأكثرها إتقاناً. وهي تعمل بالإليكترون وبشكل أوتوماتيكي، وتبلغ سرعتها واحد على ألف من الثانية. وهي مزودة بفلاش (باعث ضوء) ومكبر وركيزة، مما يجعل استعمالها سهلاً ومناسباً لشتى الظروف. أما أفلامها فمن نوع ٣٥ مليمتراً و ٩,٥ مليمتر. ولها أربع عدسات تراوح مساحتها ما بين ١٥ و ٢٥ مليمتر، وأقصى إمكانية فتحتها هي ٢,٨ أو ٣,٥. وتكبير صور هذه الآلة ممكن، ولكنه يقتضي مهارة ودقة. وهناك القلم - الآلة. فتحة عدسته ٣,٥، وسرعته واحد على خمسين من الثانية. وله فلاش وعداد أوتوماتيكي. ويمكن تكبير صورها الملونة حتى ٦×٦.

وهناك الروليف ١٦ أس، المزودة بعين إليكترونية تشير إلى كون الضوء كافياً أو غير كاف. وغالباً ما يستعملها المخبر الخاص أو رجال الشرطة.

وهناك المينولتا ١٦ أم: جي، مع عدسة روكور فتحتها ٢,٨/٢٠ مليمتر. وسرعتها تراوح بين واحد على عشرين وواحد على ٢٥٠ ثانية. مزودة بعين إليكترونية وأفلامها ١٦ مليمتراً تباع في كاسيت مقفلة.

وهناك أخيراً أنواع من المينوكس المبالغ في تصغيرها وإتقانها، والتي لا يستعملها سوى المحترفين. أحدثها المينوكس سي التي لا يزداد حجمها على حجم قلم الحبر الناشف، والتيسينا بشكل ولاعة مبسطة، والياشيكا التي يمكن أن يضعها العميل في قبضة يده دون أن تسترعي الانتباه.

وتختلف هذه الآلات عن تلك التي تشابهها شكلاً وتباعاً في الأسواق «كالستيلو فوتو» مثلاً، والتي لا تعطي نتائج مضمونة.

وليس تصوير الأشخاص والأمكنة هو عمل الجاسوس الوحيد. بل قد يكون عملاً ثانوياً من حيث الكمية، إذا قيس بجمع الوثائق وأخذ نسخ طبق الأصل عنها. وذلك إما «باستعارتها» لفترة قصيرة، أو بتصويرها حيث هي.

وأخذ النسخ لا يستطيع القيام به إلا من رسخت قدماه في جو عمله. مثل بينكوفسكي، الضابط في الجيش الأحمر الذي صار عميلاً للغرب بدافع أيديولوجي. بدأ بينكوفسكي يخدم الغرب في العام ١٩٦١، بمساعدة من غرافيل واين عميل الاستخبارات البريطانية. وخلال ستة عشر شهراً سلم بينكوفسكي أكثر من ستة آلاف وثيقة سرية للاستخبارت البريطانية والأميركية. وكان يلجأ إلى التصوير بالآلة وإلى طبع نسخ طبق الأصل. ثم يحملها إلى منزله حيث يحولها إلى ميكروفيلم، ويسلمها إلى المتصلين به من موظفي السفارة الأميركية في موسكو. وكان التصوير أحد أسباب افتضاح أمر بنكوفسكي. فقد نشط بحماسة جعلته موضع شك من جهاز الاستخبارت في بلده. ذات ليلة من تموز ١٩٦٢ كان على موعد مع زميله واين في إحدى غرف فندق في موسكو. وكانت الغرفة مجهزة بجميع أنواع المسجلات، لكن العميلين الحذرين تحدثا بشيفرة غريبة لم تتمكن الأجهزة السوفياتية من فك رموزها. إلا أن ما لم يحسب العميلان له حساباً كان آلات التصوير الخفية المثبتة إلى جانب المسجلات. ولا شك في أن تصرفات بينكوفسكي وواين قد شكلت برهاناً كافياً لإدانتها، أوقف الكولونيل بينكوفسكي في شهر تشرين أول وحوكم، ثم نفذ فيه حكم الإعدام رمياً بالرصاص في ١١ أيار من العام ١٩٦٣. أما واين فقد تمت مبادلته بعميل بريطاني كان يشتغل لحساب السوفيات.

● وثائق الإميرالية البريطانية في السفارة السوفياتية ●

ومن العملاء، الذين اعتمدوا آلات التصوير في عملهم، وليم جون فاسال الموظف في الأميرالية البريطانية، والذي كان ينقل الوثائق الهامة إلى السفارة السوفياتية، حيث يتم تصويرها. ومن ثم يعيدها إلى مكانها دون أن يتنبه أحد إلى «تغيبها» المؤقت. خاصة وأن فاسال كان هو ذاته حارس هذه الوثائق. وحصل أن زوده أرباب عمله بكاميرا «أكزاكاتا»، بهدف تقليص مخاطر مهمته. واكتفى فاسال بتصوير الوثائق وتسليم الأفلام دون تظهيرها. رغم ذلك، انكشف أمره.

ومعروف أن «الأكزاكاتا» أداة عمل أكثر العملاء السوفيات. وهي آلة بالغة الإتقان مصنوعة في دريسد. ومزودة بعدسة بسيطة، فتحتها ٣,٥.

إن إمكانات الآلات المصغرة وأساليب إخفائها بأشكال غريبة تسمح بإنجاز

أعمال باهرة. لكن مخيلة العميل ومهارته هما الأساس الضروري الذي لا بد منه لحسن استعمال هذه الآلات الإليكترونية. فرغم اتساع فتحة العدسة، ودقة الآلة وحساسيتها البالغة، فإن استعمال آلة تراوح سرعتها بين واحد على عشرين وواحد على خمسين ثانية يتطلب كمية معينة من الضوء. وتصوير الخرائط أو الصفحات المكتوبة أو المطبوعة يقتضي تركيزاً، وتقديراً صائباً للمسافة، ووضع آلة التصوير والأشياء المطلوب تصويرها في وضع معين. وكل هذا لا يتم من خلال نظرة سريعة.

ويستحيل استعمال الفلاش في مثل هذه الظروف. فنوره غير كاف أو غير موجه ومركز، وهو يترك انعكاسات على الصورة فيشوهها. فإذا لم يتمكن العميل من سحب الوثائق من مكانها ليصورها في محترفة فعلية أن يحمل إلى حيث توجد الوثائق، آلات وأدوات كثيرة. معها عدة لمبات ومرتكز لآلة التصوير ومقاييس وأسلاك وأدوات احتياطية لاستبدال ما قد يتعطل أثناء العمل. ويصعب على العميل أن يقوم بهذه المهمة بمفرده. فلا بد من مراقبة النوافذ والأبواب والشقوق التي فيها، والتي قد تفضح وجود أضواء أثناء التصوير. ومن عادة رجال الاستخبارات العاملين في بلادهم أن يأتوا بشاحنة صغيرة في داخلها مختبر متحرك يديره اختصاصيون، ويوقفون سيارتهم هذه في شارع قريب. ثم يتولى أحد العملاء أخذ الوثائق من مكانها ونقلها إلى السيارة. ويقضي العرف أن يتحمل العميل مسؤولية ومخاطر عمله هذا، بمفرده. وغالباً ما يكون «العميل ـ السارق» رجل ظل، يعمل في الليل. وقد توفر التقنية العلمية المتطورة باستمرار وسائل عمل أكثر سهولة وأقل خطراً من الآلات المعروفة حتى الآن، فأجهزة مكافحة التجسس تعمل على اكتشاف سائل يخفي معالم الوثيقة تماماً حين تسلط عليها أنوار عادية، ولا يظهرها إلا تحت أنوار خاصة.

● التصوير من خلف الجدران ●

وهناك في مجال سرقة المعلومات كاميرا تفوق سرعتها الصوت، وتأخذ صوراً عبر جدران سميكة أو حواجز من فولاذ. هذه الكاميرا كانت حتى وقت قريب حلماً علمياً، وفجأة برزت بشكل آلة معقدة التركيب، سهلة الاستعمال. في البدء كان حامل الكاميرا الأسرع من الصوت يأخذ صوراً عديدة بأوضاع مختلفة للأشياء الموجودة خلف الجدار أو الحاجز وطورت الكاميرا فيما بعد فأصبحت تعكس الأشياء المطلوب تصويرها على شاشة تلفزيونية، فيتمكن المصور من تصويب آلته عليها. المأخذ الوحيد على هذه

الكاميرا، ذات الإمكانات، الهائلة، هو كون حملها ونقلها لا يزال يلفت الأنظار. ولا يمكن توفير الوقاية من خطر هذه الكاميرا إلا بدهن الأشياء السرية بمادة لا نستطيع تسميتها، ولا كشف عناصر تركيبها، لأنها من أسرار الدفاع الفرنسي. ولم يعرف ما إذا كانت هناك دولة أخرى قد توصلت إلى اختراع وسيلة أخرى للوقاية.

● جمع المعلومات من الصحف ●

أخيراً لا بد من ملاحظة نعتبرها بالغة الأهمية وهي أن معلومات كثيرة تصل إلى العملاء بسهولة، ودون أن يحركوا ساكناً في سبيل جمعها. والذين يسربون هذه المعلومات ـ دون قصد أكثر الأحيان ـ هم الصحافيون، وخصوصاً العاملين منهم في مجلات مختصة، علمية أو عسكرية. وذلك حين ينشرون صورة قاعدة جوية أو سلاحاً سرياً، أو يعددون قائمة الأسلحة التي أوصى عليها الجيش من مختلف المصادر. قال الرئيس الأميركي ترومان ذات مرة: «٩٥ بالمئة من المعلومات السرية تصل إلى الخارج عن طريق الصحف». قد يكون ترومان مبالغاً في هذا الرقم، لكن خبراء التجسس يعتقدون بأنه لم يبالغ كثيراً!

الجواسيس «الشرعيون» والخداع الدولي

بقدر ما يهتم الجاسوس لجمع الصور يهتم أيضاً لتسجيل الأصوات. مشهد الفضولي الملصق أذنه بالباب يمثل أحد أقدم أساليب التجسس، ولا يزال هذا الأسلوب متبعاً حتى يومنا هذا. بل وهو الأكثر أناقة بين أساليب التجسس.

والجواسيس نوعان: الشرعيون وغير الشرعيين. والشرعيون هم أعضاء السفارة المحميين بحصانة السلك الديبلوماسي. وهم في الغالب الذين يوجهون نشاطات اللاشرعيين. ولكنهم يقومون هم أيضاً بنشاطات هامة أبرزها الإصغاء.

وسواء ظهروا بالبزات العسكرية البراقة، أو بزي السهرة القاتم، فالملحقون العسكريون والتجاريون والثقافيون والقائمون بأعمال السفارات والقنصليات والسكريتاريا الخ... يفتحون آذانهم جيداً في الحفلات الرسمية والخاصة والكوكتيلات وفي شتى أنواع المناسبات التي يتلقون دعوات لحضورها، ويلبونها بحماسة وامتنان بالغ.

فهـذه المناسبـات تفتح أمـامهم مجال الاحتكـاك بالنـاس وتبادل الآراء والنقـاش والمراقبة. وتمكنهم بالتالي من جمع معلومات قد تبدو عادية، وهي أكثر الأحيان مجـزأة، ولكنها بالغة الأهمية بالنسبة للمحلل القابع في مركز الاستخبارات، حيث يجمع ويقارن ويقطع ويلصق، فيستوعب ويصحح أو يعدل ما لديه من معلومات.

ولا يغفـل «الشرعيـون» عن وضـع مسجـل مصغـر في أحـد جيـوبهم، فلعلهم يحتاجونه صدفة. أو لعل توقعهم يصح، فيلتقون بالشخص الذي يهمهم أمره ويكـون حساساً تجاه الكحول والأجواء الاجتماعية المترفة، فينطلق لسانه!.

وغير الشرعيين يلجأون أيضاً إلى هذه الأساليب القديمة «الأنيقة».

وما نقوله عن الشرعيين أمر معروف. ولا يخفى على أحد أنهم موجودون خـارج بلادهم، ليفتحوا عيونهم وآذانهم جيداً. ولا خطر عليهم ولا ملامة. وكل مـا يصيبهم لدى افتضاح أمرهم هو تسفيرهم إلى بلادهم أو الخارج.

وبمـا أن الأذن البشرية محـدودة الطاقـات فقد جهـز الجـواسيس «بـآذان» تتفـوق طاقاتها على الأذن البشرية بمئات المرات. وجهزوا أيضاً «بأدمغة» تسجل حرفياً وبلا خطأ ولا نقصـان جميع الأصـوات. وبوجـود المسجل، والمسجـل البثاث وسـواهمـا، لم يعـد بـالإمكان إخفـاء أي صوت عمن يصر عـلى سماعـه، ويبذل في سبيـل ذلـك المجهـود اللازم. وأدوات الاستماع والتسجيل أكثر تطوراً من آلات التصوير ويمكن تصغيرها إلى الحد الأقصى بفضل تقدم علم الإليكترون ولا بد من ملاحظة وهي أن الفارق شـاسع بـين الآلة التي تصـدر صوتـاً فتمكن المراقب من تتبـع تنقلات حـاملها، وبـين نـاقـل الصوت الذي يرسله عبر أسلاك خاصة إلى مكبر، وبين المسجل البسيط وبـين المسجل البثاث، وهذا الأخير بمثابة محطة إذاعة مصغرة.

وأولى هـذه الأدوات ـ أي الآلة التي يصـدر عنها صـوت ـ هي بسيطة الصنـع، ويمكن تصغيرها حتى تصبح بحجم رأس الدبوس. لكن الحجم الأفضل، لكونه يحمل بطارية قوية تدوم فترة طويلة، هو حجم حبـة الأسبرين. ويمكن وضـع هـذه الآلـة في جيب شخص تـطلب مراقبتـه. أو يمكن صنعها بشكـل زر وتثبيتها في ثيـابـه. وهنـاك نساء، يخفين هذه الآلة في مكـان ما من جسـدهن، وبعض الناس يبتلعهـا. وتستعمل الآلة، واسمها «باليز»، إما لتتبع تنقـلات إنسان مشكـوك بأمـره. أو لحمايـة عميل عن طريق معرفة مكان وجوده.

● «الباليز» يكافح التجسس ●

خلال عام ١٩٦٨ استعمل جهاز مكافحة التجسس «الباليز»، بنجاح. ذلك عندما لوحظ أن أمري نابيت الموظف في حلف الأطلسي في بروكسيل، والذي كان موظفاً كبيراً في وزارة المال التركية، يسافر باستمرار إلى جهة مجهولة خارج العاصمة التركية. ولاحظ جهاز مكافحة التجسس أن نابيت ماهر خبير في التهرب من مراقبيه دون أن يشعرهم، أو يبدو عليه أنه أحس بوجودهم. وأخيراً وضعوا له «باليز» في حقيبة يحملها معه خلال تنقلاته. وتمكنوا من اكتشاف الأشخاص الذين كان يتصل بهم. وتبين أنه كان ينقل إلى السوفيات وثائق سرية عن حلف الأطلسي.

وتستعمل هذه الآلة أيضاً الشرطة المختصة بملاحقة عصابات التهريب.

ومن عادة رجال الاستخبارات أن يستعملوا المسجل بشكله العادي، شرط أن يتقنوا إخفاءه في غرفة أو سيارة أو أي مكان. والجواسيس لا يتحدثون عادة في أماكن غريبة كغرفة فندق، وداخل سيارة تاكسي، مثلاً. وإذا هم غابوا فترة عن سيارتهم الخاصة، وعادوا إلى استعمالها، فإنهم يفتشونها جيداً. وقد أصبح التجسس أمراً «طبيعياً لدرجة أن الضيف الرسمي لدولة أجنبية كثيراً ما يفضل أن ينزل في مبنى سفارة بلاده أو في منزل صديق، على أن يقيم في المقر المخصص لكبار الضيوف.

● أديناور ينام في القطار ●

وحين زار المستشار أديناور موسكو في أيلول من العام ١٩٥٥ سافر في قطار ألماني، ورفض عرض الحكام السوفيات لإنزاله في مسكن مريح، وأقام في «قطاره» طوال فترة الزيارة! ولا تفكر أي دولة في الاعتراض على تصرف كهذا، ولا هي تستغربه.

بالنسبة للمسجل البثاث هناك بعض الصعوبات في استعماله. فهو بحاجة إلى لاقط. وغالباً ما يكون اللاقط صغيراً ومخفياً. فقد يكون لؤلؤة تثبت في ربطة عنق، وقد يكون قشة مغروسة في حبة زيتون على مائدة، أو سلسلة نظارتين أو جزءاً صغيراً في قلم حبر. والمشكلة الوحيدة التي قد تعترض هذا النوع من المسجل، إلى حجم تكاد لا تلحظه العين، هي مشكلة البطارية، التي تتحكم بقوة البث.

في الأسواق العادية يجد الهواة مجموعات كبيرة من هذه المسجلات، التي يراوح حجمها ما بين علبة الكبريت وحجم طابع البريد. ويتم البث على الموجة المتوسطة والأف.م ويمكن التقاط ما تشته المسجلات الصغيرة، بواسطة أي راديو عادي يلتقط هذه الموجات على ذبذبات تراوح سرعتها ما بيم ٨٠ و ١١٠. وأشهر هذه المسجلات البثاثة وأبسطها السماعة التلفونية التي هي نسخة طبق الأصل عن السماعة العادية، وتبث المكالمات على مدار مائتين أو ثلاثمائة متر. وهناك محاولات لتطوير السماعة التليفونية بحيث تسجل وتبث كل ما يقال في الغرفة، حتى عندما يكون خط التلفون مقفلاً.

● التجسس على الهاتف ●

قد يلجأ التجسس على الأصوات إلى أشكال متعددة في استعمال التلفون فالاستماع إلى المكالمات ممكن فيما لو ثبتت وصلة على الخطوط العامة المارة فوق الشوارع أو تحت الأرض أو في المقسم الداخلي. لكن هذه العملية الأخيرة يصعب أن يقوم بها إنسان غريب عن المؤسسة. وهناك حادثة تثبت هذه النظرية. فيوم أوقف ثلاثة من رجال الاستخبارات المركزية الأميركية في عاصمة كوبا، وتبين أنهم كانوا يستمعون إلى المكالمات التلفونية التي تحدث داخل وكالة أنباء الصين الشعبية في هافانا، اكتشف المحققون أن عملية تثبيت الوصلة على خطوط الهاتف تمت بمساعدة سكرتيرة السفارة الصينية الآنسة مارجوري لينوكس.

وهناك كمية ضخمة من المعلومات التي يتم جمعها بفضل الآلات اللاقطة للرسائل اللاسلكية. ومن عادة المحطات الأرضية والبحرية والمركبات الجوية المزودة بآلات لاقطة أن تجمع شتى المعلومات، وتنقلها إلى مراكزها الأساسية.

ومن المسجلات ما يثبت على جدار أو على النوافذ من الخارج. لكن هذه الآلات بالغة الدقة، باهظة التكاليف وليست بالتالي في متناول كل يد.

● «النسر الأميركي» يتجسس على أصحابه ●

لعل أطرف حكايات التجسس بواسطة المسجل البثاث هي التي حصلت في مؤتمر واشنطن، حين قدم الوفد السوفياتي للمستر هاريمان سفير الولايات المتحدة

الأميركية تمثالاً مصغراً عن النسر المجسد للشعار الأميركي. حصل هذا في عام ١٩٤٨. وكانت الهدية تحفة فنية متقنة، منحوتة باليد على خشب. وقال رئيس الوفد السوفياتي أن الهدية «رمز للإعجاب والشكر على ما قدمته الولايات المتحدة الأميركية من خدمات للحرية». وتأثر السفير هاريمان وأجاب حرفياً: «تقديراً مني لأهمية الهدية التي ترمز إلى الصداقة القائمة بين بلدينا، أعد بأن تبقى هذه التحفة أمام عيني باستمرار ومن بعدي أمام عيني خلفائي».

ولم يكن للاستخبارات السوفياتية من مطلب أفضل من هذا الوعد. فقد كان التمثال الخشبي يحوي مسجلاً بثاثاً، ينقل الخطب الودية المتبادلة في تلك اللحظة إلى مبنى غير بعيد يخص الجهاز السري السوفياتي!.

ولم يفتضح أمر التمثال إلا بعد سبع سنوات وبعامل الصدفة، حيث اكتشف أحد سكرتيرية السفارة الأميركية أن التمثال الذي كان يتوسط كل الاجتماعات السرية مجهز بمسجل بثاث.

وقد عانى الأميركيون طويلاً من مهارة السوفيات في مثل هذا النوع من التجسس. ففي عام ١٩٦٤ حصل تسرب لكمية من المعلومات، وتوالت الصعوبات بحيث لم تعد تدع مجالاً للشك في أن الديبلوماسية السوفياتية باتت عليمة بنوايا واشنطن. عندئذٍ جرى تفكيك جميع «الهدايا» السوفياتية، لكن بدون جدوى. ودارت الشكوك حول السكرتيرات، والمستخدمين، والموظفين، حتى كادت تدرك السفير الأميركي نفسه.

وفي نهاية التحقيق تقرر أبعاد تهمة الخيانة عن موظفي السفارة الأميركية في موسكو، وتقرر فتح تحقيق من نوع آخر. وحضر إلى موسكو أمهر الاختصاصيين في طائرة خاصة، وراحوا يبحثون في الخزائن والجدران والأرض، وأخيراً انكشفت الحقيقة التي فاقت كل توقع.

● «زرع الآذان» في الحيطان ●

تبين أنه في عام ١٩٥٣، يوم قرر الديبلوماسيون الأميركيون السكنى في شارع تشايكوفسكي، امتلكوا بناء هناك فرمموه وأضافوا إليه ثلاث طبقات. وقام بأعمال البناء عمال سوفيات. وهكذا ثبتت داخل الجدران أربعون آلة تسجيل بثاثة!.

قد تبدو هذه الحكاية ومعها حكاية «التمثال الهدية»، مضحكتين. لكن لا يمكن لأحد أن يعتبر نفسه خادعاً أو مخدوعاً في هذه اللعبة المعقدة. وعزاء كل فريق حين يكتشف الخدعة هو في كون الفريق الآخر مخدوعاً هو أيضاً، بلا شك.

والمسجل البثاث كان السبب في هلاك عميلة الاستخبارات الأميركية في براغ، المدعوة نيتا كابيني. وكانت نيتا موضع شكوك الجهاز السري التشيكي، ولكن مراقبتها لم تسفر عن نتيجة وذات ليلة دخل منزلها عميل سري وقام بتفتيشه. ولم يدع أن قصده السرقة حتى لا يثير شكوك الجاسوسة. واطمأنت نيتا إلى كون الزائر الليلي لم يجد في منزلها ما يثبت التهمة عليها. وتوقعت أن تفتر حماسة التشيكيين في مراقبتها. وفي الواقع خفت المراقبة واستعادت نيتا نشاطاتها تدريجياً، من خلال لقاءاتها بالعميل المتصل بها. وكان تبادل المعلومات يتم بينهما شفهياً، أثناء نزهة أو سهرة حميمة. وكانت نيتا تحلي عنقها دائماً بعقد من اللؤلؤ الصناعي. وكان العميل قد دخل بيتها ليبدل هذا العقد بعقد مشابه له تماماً، صنع بعدما تم تصوير العقد الأصلي من جميع جهاته وبعد أن درست الصور طويلاً وبإتقان، من قبل خبراء.

ولم يكن العقد الجديد ليختلف عن القديم سوى بأنه يحوي مجموعة آلات مسجلة وبثاثة وبطاريات متصلة ببعضها، وبخيط العقد الذي يقوم بوظيفة لاقط.

قبض على نيتا كابيني في فندق الكرون في براغ، حيث كانت تجالس رجلاً غريباً، وتبدو لعين الناظر إليها كأي امرأة حلوة تتسلى برفقة معجب تقليدي.

● التجسس الصناعي ●

غالباً ما يلجأ الصناعيون إلى آلات التسجيل المصغرة وآلات التصوير وسواها، لسرقة أسرار منافسيهم. ونروي على سبيل المثال حادثة واقعية جرت في اليابان عام ١٩٧٠.

كان السيد. ت يستضيف ثلاثة مهندسين أوروبيين: انكليزيين وإيطالي واحد. وسبق الدعوة تبادل الهدايا واللياقات على الطريقة الشرقية، بعلم ومعرفة المؤسسات التي يعمل المهندسون لحسابها. وكانت تلك المؤسسات كلفت موظفيها بمحاولة استعمال شتى الوسائل في التجسس، من تصوير الوثائق إلى رشوة بعض السكرتيرات والخ.. لاكتشاف قوة وإمكانات المؤسسة اليابانية المنافسة، ولسرقة بعض اختراعاتها السرية إذا

أمكن. وكان السيد. ت قد جند ثلاثاً من أجمل فتيات الغيشا، لخدمة وتسلية ضيوفه. وخصص لهم مقصورة واسعة يتفرجون منها على الراقصات العاريات في الصالة أمامهن. فجأة فتحت «المطر السماوي» الكيمونو الذي ترتديه فظهرت عارية. ابتسم الإيطالي بلطف. وظل الإنكليزيان يحتسيان شرابهما دون اهتمام بالفتيات. وأشار السيد. ت إلى الفتاة الثانية «الأرز الجديد» بأن تقفل باب المقصورة ففعلت، وفتحت هي ورفيقتها «زهرة الخوخ» الكيمونو الذي يلف جسد كل منهما، ثم عادت كل من الفتيات فاكتفت بزيها وجلست في زاوية، أدرك الأوروبيون الثلاثة عندئذٍ أن الهدف لم يكن التعري للإغراء وإنما لطمأنة الضيوف إلى كون الفتيات لا يخفين آلات تسجيل تحت ثيابهن. واطمأن الأوروبيون وبدأ الحديث الجدي بينهم وبين السيد. ت، الذي عرض عليهم العمل في مؤسسته. ودارت المساومات، وكشف كل منهم خلالها عن معلومات كثيرة. ذلك والفتيات جالسات بصمت، وقد أحنت كل منهن رأسها باحترام زائد!.

ولم يدر أحد من المهندسين أن آلات التسجيل كانت مخفية في شعر معقوص لكل من الفتيات، إلا بعدما نزلت المنافسة اليابانية الأولى، لأشهر سيارات السباق الأوروبية. وذلك في بداية ١٩٧١.

● الضيف المريض جاسوس ●

كان الرجل صديقاً لرجال الجمرك، ولجميع سكان القرية الواقعة على الحدود. حين وصل إلى القرية عومل في البداية بحذر. ثم اعتاد الناس وجوده بينهم، واكتشفوا أنه مهذب ولطيف.

وحقق رجال الأمن في وضعه فلم يكتشفوا ما يثير الريب فيه. كان رجلاً مريضاً يحتاج إلى راحة طويلة. ولا يسمح له إلا بنزهة أسبوعية يسير خلالها على قدميه ببطء وتمهل، في الهواء الطلق.

ولم يكن بإمكان رجال جهاز مكافحة التجسس أن يشددوا الحراسة حول مركز التجارب العلمية هناك، حتى لا يجتذبوا إليه انتباه سكان تلك القرية الهادئة. واختصر ضابط الأمن الوضع بقوله: «حتى ولو كان هذا الرجل عميلاً لدولة أجنبية فهو لا يتصل بأحد على الإطلاق. وتجاربنا لا تهم أعداءنا، إلا إذا وصلتهم أخبار تطوراتها

مرة كل أسبوع على أقل تعديل. وجسم الأمر أحد العلماء المشتغلين في تلك التجارب بقوله: «أنه إنسان مريض ينشد الراحة، فلنتجنب عقدة الخوف من الجواسيس».

على أن الرجل المريض كان يملك المعلومات الكافية لفهم واستيعاب ما يراه ويسمعه ويلتقطه من رسائل سرية، بفضل آلات الالتقاط المخبأة في قبو المنزل الذي يسكنه. وكان ينقل كل ما تجمع لديه من معلومات إلى خارج الحدود أسبوعياً. أما طريقة النقل فقد حار رؤساؤه في اختيارها، ففكروا بالحمام الزاجل وبصديق يزوره ليتفقد تطور حالته الصحية، وبالشيفرة وبالراديو. وأخيراً قرروا عدم جدوى هذه الوسائل واعتمدوا أسلوباً جديداً مناسباً لظروف العميل.

كان العميل يجلس في زاوية هادئة يدفىء ساقيه المريضتين بأشعة الشمس، مديراً ظهره للقرية التي استضافته وأمامه الوادي الممتد خلف الحدود في الجهة المقابلة، حيث يجلس رجل آخر يستمتع بدفء الشمس أيضاً. ولم يكن أحدهما يعرف الآخر، ولكنهما تعارفا منذ اللقاء الأول بفضل جملة متفق عليها. وقد كانا يتحادثان من على مسافة ألفي متر، دون أن تصدر عنهما أصوات أو يسمعهما أحد.

كان الرجل المريض يضع على عينيه منظاراً مكبراً عادي الشكل، لولا العلبة السوداء الصغيرة المثبتة بين عدستيه. كانت العلبة تحوي جهازاً الكترونياً يعمل على بطارية، ويتدلى منها ميكروفون صغير يصل إلى مستوى الشفتين. وتنبعث من الآلة الالكترونية أشعة ما تحت الحمراء، تتماوج تبعاً للكلام الذي يلتقطه الميكروفون. وكان الرجل الجالس في الوادي المقابل يحمل هو الآخر منظاراً مكبراً يضبطه بحيث يستطيع رؤية الرجل المريض بوضوح، فيستطيع كل منهما عندئذٍ أن يتلقى موجات الأشعة ويترجمها كلاماً بفضل آلة أخرى الكترونية صغيرة تنقلها إلى أذنه.

واكتشف أمر الرجل المريض بسبب فضول راع شاب. وورد في تقارير ضابط الأمن الموضوع عن هذه الحادثة ما يلي: ... والمدهش هو كون الآلات التي استعملها العميل موجودة في الأسواق، وتباع كسلعة تجارية عادية».

والواقع هو أن الشركة البريطانية المسماة «مؤسسة الأبحاث والتنمية» تنتج نظارات تبعث أشعة ما فوق الأحمر ويمكن التخاطب بواسطتها عبر مسافة تراوح بين ١٥٠٠ و ٢٠٠٠ متر. وسعر إحدى هذه النظارات لا يتجاوز الخمسين جنيهاً إنكليزياً. .

الجاسوس الالكتروني يعري العالم

لا تنتهي مهمة الجاسوس عند حدود سرقة الصور والتسجيلات. فالمعلومات لا قيمة لها طالما أنها لم تصل إلى مستقرها. وقد تكون عملية نقل المعلومات أشد خطراً وصعوبة من عملية جمعها.

يبدأ الجاسوس بتصغير حجم صوره وتسجيلاته قدر الإمكان، ليسهل عليه إخفاؤها وقد يوصلها إلى أحد المتعاملين معه. وقد تمر على عدد من العملاء قبل أن تتسلمها يد المسؤول الأول عن الشبكة. وقد يتولى الجاسوس الذي جمعها أمر توضيبها وإرسالها مباشرة إلى مركز الاستخبارات.

ومشكلة نقل المعلومات من بلد عدو إلى بلد بعيد ليست سهلة ولا هي خالية من المخاطر. وقد درجت السفارات على إرسالها بالحقيبة الديبلوماسية، بعد إخفائها في كتاب ضخم أو مجلة. وبعض العملاء يخفي أفلامه وتسجيلاته داخل قطعة معدنية أو قطعة غيار لآلة ما، أو أي أداة تستعمل بكثرة. وهنا تلعب مخيلة الجاسوس دوراً أساسياً.

أما تقنيات تصغير حجم الوثائق والمعلومات فجد متقدمة. هناك مواد كالتيرفين مثلاً تمكن الصاعات المختصة من إنتاج أفلام لا تراها العين المجردة، فحجمها أقل من ملليمتر واحد.

يقال أن السوفيات هم أسياد هذا الفن. ويتوقع الخبراء أن لا يكون الصينيون أقل منهم مهارة، خصوصاً أن فناني الصين القدماء كانوا ينحتون عشرات آلاف الأحرف على مساحة من العاج لا تزيد على سنتمتر مربع واحد.

لقد توصلت تقنية تصغير الحجم إلى حد يسمح بتقليص صفحة مطبوعة على الآلة الكاتبة إلى مربع لا تتعدى مساحته نصف ملليمتر مربع واحد. ويمكن تصغير جميع الوثائق على هذا المنوال، وسواء كانت من نوع التخطيط والكتابة أو الصور... الخ يمكن فيها بعد تكبيرها لتستعيد حجمها الأساسي.

وأول مرة استعمل فيها الميكروفيلم (أو الفيلم المصغر) كانت في عام ١٨٧٠.

يومئذٍ كان الجواسيس يتراسلون بواسطة الحمام الزاجل، مما اضطرهم إلى البحث عن رسائل تصغير رسائلهم. وتوصلوا إلى تحميل الحمامة الواحدة مجموعة من الميكرو صور تعادل بفحواها ٣٥ ألف برقية أو وثيقة.

● من التجسس إلى الثقافة وبالعكس ●

مخترع تصغير الأفلام إلى هذا الحد هو رينيه داغرون. وقد أهمل اختراعه فترة، ثم استعمل من جديد في عام ١٩٢٠ لأهداف سلمية وثقافية، إذ اعتمد كأسلوب لتنظيم الأرشيف في المكتبات الضخمة، ثم لم يلبث أن عاد إلى قواعده الأولى، أي إلى عالم التجسس. وأهم اختراع في مجال تصغير الوثائق هو بلا شك نسخ الأفلام بالإلكترون. أي بدلاً من تظهير الفيلم بالضوء يتم تظهيره بتمرير خط إلكتروني عليه. وهكذا يتوافر عنصران أساسيان، عنصر التصغير وعنصر السرعة القصوى في التظهير.

وأساليب الاتصال جد متنوعة وبسيطة أكثر الأحيان. فماك لين كان يضع معلوماته في جيب معطفه الذي كان يعلقه عند مدخل مطعم يرتاده ويجد في جيوبه وثائق على شكل نسخ طبق الأصل أو صور مأخوذة بآلة مينوكس.

وكان ماك لين يتلقى التعليمات من رؤسائه بشكل أفلام مصغرة، موضوعة داخل علبة كبريت عادية.

وعرف عن عميلين أنهما كانا يعتمران قبعتين متشابهتين، ومن المقاس ذاته، ويدخلان مطعماً معيناً ثم يتبادلان قبعتيهما حين يغادرانه.

ويمكن استعمال الرغيف كمخبأ أو أنبوب معجون الأسنان، أو أي شيء مجوف كفرشاة الشعر أو آلة الحلاقة أو الحلية أو «بكلة» الزنار أو أي أداة أخرى. ويبقى الأهم في قضية نقل المعلومات أن يكون حاملها بعيداً عن الشكوك.

ويذكر أحد العملاء الأميركيين وضع علبه تحوي أفلاماً مصغرة تحت التبغ داخل غليونه وأشعل الغليون وهو يجتاز حدود إحدى دول أوروبا الشرقية. وتأمل رجل الأمن المكلف بتفتيش المسافرين ذاك الغليون طويلاً، فقال له الأميركي متحدياً:

ـ هل أعجبك غليوني؟ أظن أنه من الصعب عليك أن تجد شبيهاً له في بلادك!.

ونجحت الحيلة، إذ أن رجل الأمن قابل التحدي بتحد مماثل، فجابه: اطفىء هذا الغليون وتابع طريقك.

● دور الحذاء ●

إن هواة روايات أفلام التجسس يتحدثون كثيراً عن دور الحذاء في مجال إخفاء المعلومات أو السلاح. أما العملاء الحقيقيون والمدربون - كما يجب أن يكون كل عميل - فهم يعرفون تماماً أن وجود شفرة معدنية عادية في رأس الحذاء تكفي للتخلص من العدو بضربة قدم محكمة. كما يعرفون بالخبرة أن السلاح الأبيض يصعب انتزاعه من غمده أحياناً كثيرة وتصوروا لو أن عميلاً رفس عدوه بحذاء يخفي خنجراً، وهرب مسرعاً تاركاً الجثة المغروس فيها الخنجر والحذاء معاً!.

على أن الحذاء كثيراً ما استعمل لإخفاء الوثائق، وخاصة خلال الحرب العالمية الثانية. وأشهر شركة صنعت عدداً من هذه الأحذية، كانت «بالي شو» السويسرية، التي كان عملاؤها يتنقلون أثناء الحرب في البلدان المحتلة والمحايدة والمشتركة في النزاع، حاملين داخل أحذيتهم رسائل بالغة الأهمية. وكان كل منهم يعود إلى بلده وقد انتعل بالطبع حذاء آخر غير الذي انتعله حين غادرها.

وتنقل الرسائل القصيرة عادة بواسطة الراديو. وخلال الحرب الأخيرة كان العميل أو رئيس الشبكة يملك آلة معروفة بأحرف «و. هـ. ف» تبث على موجة قصيرة جداً، وعلى مسافة قصيرة أيضاً. وعند الضرورة بواسطة محطات اتصال تحملها غواصات تطفو ليلاً على سطح البحر قريباً من الشواطىء وقد اخترع البريطانيون أخيراً آلة بثاثة بشعاع أفقي، يتجنب الموجات التي يمكن التقاطها. سيئة هذه الآلة هي ضرورة إحكام توجيه الشعاع الذي تبثه، مما يستلزم تجهيزات معقدة وذات حجم مزعج. ولكن حسنتها الكبرى تكمن في أنه يستحيل التقاط ما تبثه.

ومن عادة العملاء والديبلوماسيين أن يبثوا رسائلهم بالشيفرة وبسرعة فائقة، بحيث يستحيل تفسيرها عند التقاطها.

● حرب «الحمامات العصرية»! ●

ربما كانت الطائرة الملقبة «بحمامة عصرية» هي أغرب وأذكى وسائل نقل الوثائق والمعلومات. ومخترع هذه الطائرة مهندس بريطاني، قصد سكوتلنديارد ذات يوم

ليقول: «لقد وفرت وسيلة مثلى ينقل بها الجواسيس معلوماتهم ووثـائقهم على مسـافات تتجاوز عشرات الكيلومترات. وذلك بأمان كامل».

وشرح كيف أن أشخاصاً عرضوا عليه تجهيز طائرات صغـيرة بآلـة تجعلها تتجـه تبعاً لتعليمات تأتيها من الأرض. وبآلة ثانية تجعلها تنزل في مكـان محدد. وكـانت تلك الطائرات صغيرة بحيث لا يلتقطها رادار ولا تراهـا العين المجردة، ويستحيل إيجادها بعد أن تحط على الأرض. واستلم الجهاز الخاص في بـريطانيـا تلك القضية ولاحقهـا. وفيما بعد تمكنت أجهزة الجنرال غيهلر من التقاط عدة طائرات من هذا الطراز، كـانت تعبر الحدود بين ألمانيا الغربية وألمانيا الشرقية.

● الالكترون ينهي «الشيفرة» ●

إن جميع الرسـائل والمعلومـات والوثـائق تنقل بـالشيفرة. وكـل البلدان يستعمل الشيفرة لنقل التوجيهات والمعلومات الديبلوماسية. والبلدان المتقدمة تنفق مبالغ باهظة على جهاز الاختصـاصيين في تـرجمة الـرسائـل الأجنبية المنقـولة بشتى أنـواع الشيفرة، وأسس الشيفرة مبنية على إمكان استبدال كلمة أو رمز بمجموعة من الكلمات أو الرمـوز أو الأفكـار الأخرى. وأيضـاً بالاستعـاضـة عن حـرف أو كلمـة بـرقم. وهنـاك أرقـام وحروف بسيطة تعني دائماً حرفاً واحداً. وهناك أيضاً أرقـام مزدوجـة ومعقدة، لا يمكن تفسيرها إلا بمقارنتها مع رسالة ثانية، ولا يستعمل تفسيرها إلا مرة واحدة لأنها ترمز في كل مرة إلى أشياء مختلفة. لكن الأدمغة الالكترونية تتوصـل إلى ترجمـة جميع النصـوص مهما بلغ تعقيد الشيفرة المستعملة في كتابتها. وتعتبر آلات ترجمة الشيفرة ومعها المراكب الفضائية أثمن أدوات التجسس فهي باهظة التكـاليف. على أنها لا تقـوم مقام الـدماغ البشري ومهارة الاختصاصيين في هذا الحقل.

● عيون الكواكب الفضائية ●

في عام ١٩١٥ أطلق جنود فرنسيون الرصاص على حمام طائر واكتشفوا أنه يحمل آلات تصوير مـوجهة نحـو الأرض، بحيث تلتقط صوراً واضحـة أثناء تنقـل الطائـر. وحمام النصف الثاني من القرن العشرين هو طائرات يقودها جواسيس الجو.

الطائرات الأميركية تتوغل منذ مدة طويلة في الأجواء السـوفياتيـة. كما وتتخـطى الميغ حدود بلادها على علو ٣٥ ألف قدم، فتواكبها الطائرات الغـربية وتعيـدها بلطف

إلى داخل الحدود. والمعاملة «اللطيفة» نفسها تلقاها الطائرات الغربية عندما «تتيه» عن خط سيرها فتجتاز الحدود. ولعل أشهر حوادث التجسس الجوي هي التي حصلت في أول أيار من عام ١٩٦٠. يومئذٍ حلقت طائرة أميركية في أجواء الاتحاد السوفياتي، وكانت انطلقت من باكستان على أن تحط في أقصى شمال النروج. أما قائدها فكان الكابتن ف.ج. باورز وحصل للطائرة «يو.تو» ما لم يكن في الحسبان. فرؤساء باورز توقعوا أن لا تصيب الأسلحة السوفياتية طائرة «اليو تو». وفي حال إصابتها، فلا بد وأن تنفجر على علو ٣٠ ألف قدم، فلا يبقى ما يدل على هويتها، أما فيما لو أصيبت الطائرة بعطل فكان على قائدها أن يختار بين ابتلاع سم قاتل، أو أن يحترق مع طائرته. لكن أثناء نزوله السريع نحو الأرض، بعد إصابة طائرته، راح باورز يفكر. والتفكير سيء بالنسبة إلى إنسان مكلف بتنفيذ أوامر دقيقة وواضحة. وبفضل هذا التفكير تسنى للعالم أن يكتشف جواسيس الجو.

وقد أصبحت «اليو تو» وزميلتها «اللوكهيد يو» وسواهما من أسلحة التجسس الكلاسيكية المحالة على التقاعد. ويعمل الأميركيون حالياً على إنجاز آلات، هي في الوقت نفسه طائرة ومركبة فضائية. تنطلق بصاروخ ثم تعود إلى الأرض بوسائلها الخاصة، وعلى متنها قائدان. وباستطاعة هذه الآلات أن تصل صحراء تسي كيانغ الصينية وتعود إلى مركز انطلاقها داخل الولايات المتحدة حاملة ما جمعته من معلومات وذلك خلال ساعة واحدة.

وهناك أيضاً الأقمار الفضائية التي ترتفع فوق مستوى الحدود والقوانين الدولية، فتضطر كل من الدول الكبرى إلى أن تتحملها بصمت. ومهمة هذه الأقمار الاصطناعية، لا تخدم بالطبع الأهداف الثقافية والجغرافية والعلمية، كما يدعي أصحابها. بل أن هذه الأقمار هي جاسوس الحاضر والمستقبل، الذي يبحث عن المعلومات فيصورها ويسجلها ويعلبها ويصغرها وينقلها إلى حيث يريد.

يملك السوفيات أكثر من أربعمائة قمر جاسوس. أولها كان كوزموس الرابع، الذي وصل مداره الفضائي في ٢٦ نيسان ١٩٦٢. كما يملك الأميركيون مجموعة ضخمة من طراز تيروس وميداس وديسكوفرر وفيللا وسواها. ولا تضيع سوى نسبة عشرة بالمئة من المعلومات التي ينقلها القمر الفضائي. وقيمة هذه المعلومات بالغة الأهمية كماً ونوعاً. فالتقنية المتطورة التي تحرك أقمار التجسس تجعل إخفاء أي بناء أو

قاعدة عسكرية أمراً مستحيلاً. ولكل قمر اختصاص معين. فمنها ما يقيس الطاقة اللازمة لمركز إنتاج، أو التي يولدها سد معين. ومنها ما يستجمع الأشعة الصادرة عن مراكز أبحاث نووية. ومنها ما يكتشف محطات تحت الأرض أو قواعد للغواصات تحت مياه البحر. وهي تصور وتسجل بدقة، تجعل كرة الغولف تبدو واضحة تماماً عند تظهير وتكبير الصور التي تأخذها من الجو.

وأقمار التجسس مجهزة بأدمغة كهربائية، تفكر وتختار وتربط ما بين الأسباب والنتائج.

ويتجسس بعض الأقمار الفضائية على بعضها البعض بوسائل مكافحة التجسس ذاتها المستعملة على الأرض. ويكتشف كل منها نوعية الكوكب الآخر ومهمته. وتدعي الولايات المتحدة الأميركية أنها تستطيع معرفة ما إذا كان أحد الأقمار الفضائية يحوي في داخله قنبلة ذرية.

إلى جانب آلات التصوير الكثيرة المعقدة تحوي الطائرات والمركبات الفضائية أجهزة استماع وتسجيل جد متطورة فآلات التجسس تعمل عمل الجاسوس الإنسان تماماً، أي بتسجيل الصور والأصوات. سنة ١٩٤٦، أكدت «النيويورك تايمز» أن الكوكب ساموس تمكن من تسجيل حديث جرى بين رئيس المجلس الاستشاري السوفياتي وسائق سيارته.

وأصبح ثابتاً اليوم أنه يمكن التقاط جميع الأصوات المتماوجة في الأثير، ولم يبق أي مجال للاحتفاظ بالأسرار بعد الآن. وأنه باستطاعة الأقمار الفضائية أن تلتقط الأصوات التي توجه الصواريخ والكواكب الاصطناعية والرسائل المتبادلة بالراديو، وكل ما تثبته المحطات الأرضية والبحريه.

● «الليبرتي» أيضاً وأيضا ●

كما فضحت «اليو تو» التجسس الجوي، فضحت قضية «بويبلو» التجسس البحري.

وكانت السفينة «بويبلو» مجهزة بآلات التقاط الكترونية متطورة، تسمح لها بتسجيل جميع الأصوات وباكتشاف الغواصات وتحديد مكانها بدقة كاملة.

وإحدى أحدث قضايا التجسس البحري كانت «الليبرتي» السفينة الأميركية

الضخمة التي هاجمتها الطائرات الإسرائيلية قرب الشاطىء المصري في حرب حزيران ١٩٦٧ وقتل فيها ٣٤ وجرح ٧٥ عسكرياً. ولم تتمكن الحكومة الأميركية يومئذٍ من إعطاء أي تبرير منطقي للصحافة العالمية، حول سبب وجود الليبرتي قرب الشاطىء المصري.

وهناك أيضاً الغواصات الذرية التي تبقى تحت المياه مدة ثلاثة أشهر، وتجمد في مكانها دون أن تصدر صوتاً يذكر. وهذه تعتبر محطة مائية مثالية لتسجيل الأصوات وتحديد أماكن البواخر وتحركاتها.

ويتحدثون في الأوساط التقنية عن «محطات تحت الماء» مستقرة في أعماق البحار والمحيطات وتقوم بمهمات التجسس بشكل كامل وفعال. ويقال إنها تقوم أيضاً بدور هجومي حين تمر غواصة عدوة من جانبها، فينطلق منها آلياً صاروخ نووي يصيب الغواصة فيفجرها. إلا أن حوادث كهذه لم تقع حتى الآن. والسبب هو اتفاق ضمني غير مكتوب ولا محكي، ولكنه معقود بين الفريقين المتنافسين على زعامة العالم، يقضي بأن لا تنفجر الأوضاع إلا إذا حصل اعتداء سافر وخطير. ومثل هذا الاعتداء أصبح أمراً نادراً.

الحرب العالمية الجاسوسية

منذ أن وجد التجسس الصناعي والتجاري والعلمي والسياسي وجدت معه أساليب الحماية منه ومكافحته.

وتتناول الحماية العصرية مجالات كثيرة أبرزها وأصعبها الحماية من التجسس الآلي والجوي والبحري. لكنها ضرورية أيضاً لحماية الأسرار من فضول الإنسان. فالإنسان رغم التطور العلمي الهائل لا يزال السلاح الأشد خطراً والآلة الأكثر تطوراً. كما وأنه قد يكشف أسراراً، عن ضعف أو لمصلحة، الأمر الذي يستحيل أن يسرقه إنسان آخر عن طريق الآلة.

ولكل دولة قانون للحماية خاص بها. وهو فعال بلا شك، فيما لو طبق بقساوة بحق الفضوليين أو السذج الذين يفضحون أسراراً خطيرة دون أن يدروا.

والدول الكبيرة تحمي نفسها من كواكب التجسس بإخفاء معاملها وتجهيزاتها. وكثيراً ما تشيد أبنية كبيرة في أعماق بعيدة تحت الأرض، لتحميها من أشعة ما فوق الأحمر.

أما الحماية من الطائرات والبواخر فتتم اعتماداً على إمكان اكتشافها من مسافات بعيدة. ويمكن اختصارها بأنها معارك رادار وضد الرادار. ولا يمكن شرح تفاصيل هذه المعارك لأنها من الأسرار التي تحرص الدول أشد الحرص على إخفائها. وهي من الخطورة في مجال الهجوم والدفاع، ويجري العمل على تطويرها وتضخيمها باستمرار، بشكل يوحي بأنها هي وحدها تحسم لصالح فريق دون آخر من الدول المتنازعة.

● الرادار البدائي ●

قبل اكتشاف الرادار كان المتنازعون يستعملون آلات تضخم الصوت، ليتمكنوا من ترقب طائرة مهاجمة. وكان المستمع يستطيع إلى حد ما تحديد علو الطائرة وسرعتها واتجاهها. وأول رادار اخترعه الألماني هولماير قبل الحرب العالمية الأولى. وكان آلة تسجل اقتراب باخرة من الشاطىء بواسطة موجات موجهة، تعود فتنعكس على الآلة ذاتها. وقبيل اندلاع الحرب العالمية الثانية كانت أكثرية الدول تملك الآلة المسماة وقتئذٍ «سد كهربائي ممغنط» والتي هي الرادار في حالته البدائية.

وقد طور البريطانيون هذه الآلة ابتداء من عام ١٩٣٥. وبفضلها أنقذوا بريطانيا في «معركة إنكلترا» الشهيرة. واستمر تطوير الرادار بفضل تقدم علم الالكترون حتى بلغ شبه الكمال، خلال سنوات الحرب الخمس.

ولا تزال أساليب الحماية والأساليب المضادة للحماية تتطور إلى ما لا نهاية. فاليوم يواجه الرادار، بآلة تعطل مفعوله. وتجابه هذه الآلة بانتقال فوري إلى موجات مختلفة، يستأنف الرادار عمله عليها. كما تزود الصواريخ المضادة للطائرات «بباحث» حساس على أشعة ما فوق الأحمر، مهمته اجتذاب الطائرة وشدها باتجاه الصاروخ. أما الطائرة فتحمي نفسها من الصاروخ بإطلاق أهداف معدنية تسير أمامها على مسافة معينة وتجتذب الصاروخ إلى هذه الأهداف فيحيد عن الطائرة.

● حماية الاتصالات اللاسلكية ●

في كل بلد مؤسسة مختصة مهمتها تعطيل أساليب التجسس، وحماية الاتصالات. فالتلفون ـ الراديو الموضوع في سيارة رئيس النولايات المتحدة الأميركية مزود بآلة تعطل مفعول من يحاول التقاط الأصوات داخل هذه السيارة. وكذلك

التلفون ـ الراديو المثبت داخل سيارة رئيس وزراء الاتحاد السوفياتي، وأيضاً تلفونات الكرملين والبيت الأبيض وغيرها.

ومثل هذه الآلات لا يوجد بالطبع في الأسواق، ولا حتى في حوزة الجاسوس العامل على أرض عدوه.

● هويات مزورة وماكياج ●

الهويات المزورة، والماكياج الذي يتوصل أحياناً إلى حد إجراء عملية جراحية لتغيير معالم الوجه كانت ولا تزال وسائل فعالة لحماية الجواسيس..

ومعروف أن تغيير الهوية ليس بالأمر الصعب ولا هو يستغرق وقتاً طويلاً. فكثيراً ما تطالعنا الصحف بأخبار تقول أن فلاناً ظل يقود سيارته طوال عشرين سنة وهو لا يملك إجازة سوق، أو «أن فلاناً يحمل اسم أخيه، الذي توفي منذ سنوات».

والمزورون يحققون المعجزات في مجال خلق هويات جديدة لأفراد العصابات المطاردين من قبل الشرطة. والتزوير وجد منذ القديم وتطور في كل زمان ومكان.

في عام ١٩٦٤ اضطرت السلطات الأميركية إلى إلغاء جميع الأوراق النقدية واستبدالها بغيرها. والسبب كان أن أكثر من نصف الأوراق المتداولة وقتئذٍ أصبح مزوراً.

والمزور غالباً ما يكون منطوياً على ذاته بعيداً عن مجتمعه، يعمل بصورة متواصلة وفي جو محفوف بالمخاطر. وتتطلب مهنة التزوير رأس مال هام من الحبر الملون والأوراق وسواها، وعلى المزور أن يكون حفاراً وكيميائياً وطباعاً ماهراً في وقت واحد. لكن المزورين العاملين في الأقسام التقنية التابعة لمراكز التجسس يقبضون أجراً يوازي أتعابهم ومواهبهم، وهم يعملون في جو هادىء أمين. على أن مراكز التجسس لا تزود سوى عملائها الكبار بالهويات اللازمة. أما العملاء الصغار، وخلاف لما هو شائع، فعليهم أن يتدبروا أمورهم بوسائلهم. وهم غالباً ما يلجأون إلى مزورين يعملون لحسابهم الخاص. ولا يكفي العميل أن يصنع لنفسه بطاقة هوية أو جواز سفر، ليطمئن إلى أنه تقمص فعلاً شخصية جديدة. بل عليه أن يفبرك رسائل توجه إلى عنوانه الجديد، وأن يلقي في بعض جيوبه تذاكر القطار أو الميترو أو سواهما من وسائل النقل، وبطاقات تشهد بعضويته في بعض النوادي، وبطاقات دعوة... والخ.

وحين يغادر الجاسوس مركز عمله الأساسي، بهوية جديدة، يحمل معه «حقيبة» كاملة. وعليه أن يحفظ عن ظهر قلب أحداث الشخص الذي «استعار»اسمه وهويته، وأن يعرف عائلته وأجداده والأماكن التي عاش فيها أو زارها.

في تموز ١٩٤٧ سافر الأميركي أندرو كابوتيس إلى أوروبا. كان يسكن ديترويت وله من العمر واحد وخمسون عاماً. تبادل بعض الرسائل مع أصدقائه الأميركيين، ثم لم يعد أحد ليسمع شيئاً من أخبار. في نهاية عام ١٩٤٨، نزل أندرو كابوتيس على الشاطىء الكندي قادماً من مرفأ الهافر الفرنسي، وقصد كويبك واختفى فيها. بعد فترة اكتشف أن أندرو هو نفسه الكولونيل آبيل العميل السوفياتي الشهير، الذي عمل فترة في الاستخبارات الألمانية أثناء الحرب. والذي عاش في بريطانيا كمواطن إنكليزي يحمل اسم مارتن. والذي انتقل إلى بروكلين باسم اميل غولدفوس. كما اكتشف أن اميل غولدفوس الحقيقي، المولود في نيويورك في ٢ آب ١٩٠٢، كان قد توفي وهو طفل. وقصة آبيل قد تعطي القارىء فكرة عن كيفية وسهولة تغيير هوية الجاسوس كلما اقتضى الأمر ذلك.

على أن الهوية المزورة والتنكر بنظارات واحية وتغيير معالم الوجه بعمليات جراحية لا تنقذ الجاسوس من ملاحقة جهاز مكافحة التجسس. فقامة الجاسوس أو تفاصيل صغيرة في مشيته وتصرفاته غالباً ما تعمم على ملاحقيه، وتكون دليلاً واضحاً عليه. فهانز برونز، مثلاً، الذي عمل في شعبة التجسس السوفياتي تحت أمر كريفيتسكي، كلف بملاحقة معلمه حين انتقل هذا الأخير إلى خدمة الغرب. هرب كريفيتسكي إلى شالوتسفيل في ولاية فيرجينيا الأميركية، ثم ترك تلك المدينة ليلجأ إلى واشنطن، ثم إلى نيويورك حيث يضيع أي رجل سهما كان معروفاً. وكان كريفيتسكي مسلحاً بصورة دائمة وشديد الحذر. ورغم ذلك اكتشفه هانز بروز في عام ١٩٤١، وكان ينزل في فندق بيلفو باسم ساموبل غينسبيرغ. صباح اليوم التالي وجدته خادمة الفندق قتيلاً في فراشه وقد اخترقت رأسه رصاصة من نوع «دوم دوم»، ومسدسه في يده.

لم يفده الماكياج ولا الهوية المزورة ولا الانتقال المتواصل من مدينة إلى أخرى.

● حماية عملاء المخابرات ●

مهمة مكافحة التجسس لم تعد مقتصرة على حفظ السجلات، والتحقيق في

ماضي المشكوك بأمرهم، وملاحقة عملاء العدو وتقديمهم إلى المحاكم، بل عليها أيضاً أن تبحث عن الجواسيس في بلادهم وأن تقطع حبل نشاطهم. ويطلب من مكافحة التجسس دعم وضع سياسي أو إنجاح مهمة دبلوماسية، أو العمل على إضعاف موقف العدو، وأحياناً الحليف! وفي سبيل الأهداف تعتبر جميع الوسائل شرعية، سواء كانت من نوع الابتزاز أو القتل أو تشويه السمعة، أو افتعال التخريب. ويقوم بهذه العمليات جهاز خاص، معروف بجهاز التنفيذ. وإذا كانت مكافحة التجسس قد ولدت من التجسس ذاته، فالتنفيذ هو التوأم الصاحب، الذي لا بد منه، لإنجاح تلك المكافحة. ويستعمل جهاز التنفيذ جميع أنواع الأسلحة والأدوات المستعملة في حقل سرقة المعلومات، بالإضافة إلى أسلحة فتاكة ملقاة بين أيدي رجال يجهلون معنى الشفقة.

وتخضع الأسلحة الفتاكة إلى عمليات تطوير وتحسين لا تنتهي. فالقتل لا تزداد نسبته في مجال مكافحة التجسس فحسب، وإنما تبذل جهود متزايدة لإخفاء الجريمة بمظاهر الموت الطبيعي أو الانتحار أو الموت بحادث حصل قضاء وقدراً. وعالم القتلة زاخر بالاختصاصيين والتقنيين المهرة.

منذ زهاء سنة كان كاتم الصوت هو نجم الأسلحة الفتاكة. أما اليوم فلم يعد يستعمل إلا في حالات الدفاع عن النفس. فالقاتل الواثق من «فريسته» يفضل استعمال مسدس الغاز أو آلة تنفث سائلاً قاتلاً أو نشاباً صغيراً مسموماً.

وليس من مركز لمكافحة التجسس إلا وله جهاز تنفيذ منظم. وذلك في جميع بلدان العالم تقريباً وفي جميع الدول الكبرى بلا استثناء. وعملاء جهاز التنفيذ في جميع البلدان من نوع المخربين أو خبراء الثورات والاختصاصيين في الكفاح المسلح وقائدي مختلف أنواع الطائرات ورماة من طراز النخبة وهواة استعمال الأسلحة الفتاكة على أنواعها. وهم جنود في ثياب مدنية يقومون بمهمات أغرب مما قد يتصوره خيال الروائيين وفي مثل هذه المهمات أساليب القتل تكتسب أهمية أكبر من القتل بحد ذاته.

وربما كانت حادثة ستاشينسكي تلقي أضواء كثيرة على أسلحة وأساليب عمل أجهزة التنفيذ. فقد قتل ستاشينسكي مهاجراً من أوكرانيا يدعى ليف ريبيت، ويعيش في ميونيخ. وذلك بسلاح سوفياتي، بشكل قسطل يراوح طوله ما بين ١٨ و ٢٠ سنتمتراً، في داخله بخاخ يقذف الأسيد البروسيل السام.

أقدم ستاشينسكي على قتل ريبيث على درج المبنى الذي يسكنه. ثم كسر أنبوب الغاز المضاد للسم وتنشقه وهو ينزل الدرجات بتمهل. وجاء في تقرير شرطة ميونيخ أن سبب وفاة ريبيث كان «توقف قلبه عن العمل فجأة».

وفي ١٥ تشرين أول ١٩٥٤ قتل ستاشينسكي مهاجراً آخر من أوكرانيا يدعى ستيفان بانديرا. لكنه أطلق غازه هذه المرة من مسافة خاطئة، تقل عن المسافة المطلوبة والتي تقارب خمسين متراً. وأدى ذلك إلى ظهور قطع صغيرة من زجاج الأنبوب في وجه الضحية، أرشدت الطبيب الشرعي إلى سبب الوفاة.

وحصل بعد مدة أن التقى ستاشينسكي فتاة ألمانية فأحبها. ودفعه الحب إلى القرف من مهنة القتل. ولما تزوج من حبيبته واسمها انفي بوهيل انتقل إلى ألمانيا الغربية، حيث روى قصة حياته. وتفاصيل تلك القصة تصلح لإنتاج فيلم بوليسي ممتاز.

ومما قاله ستاشينسكي أن تجارب الأسلحة السوفياتية الصامتة تجري على الكلاب أكثر الأحيان.

● «المسدس الصامت» أولاً ●

ويبقى السلاح الأشد ضمانة، هو «المسدس الصامت» الذي يطلق رصاصة دون أن يصدر عنه أي شعاع أو صوت.

ولا نقصد بهذا المسدس الآلة التي تأكل الصوت ويمكن تركيبها على أي سلاح بل نقصد به المسدس المصنوع بحيث يطلق رصاصة بلا صوت ولا ضوء ولا دخان على عكس ما يحصل للمسدسات التقليدية.

وخلافاً لما هو شائع وجد المسدس الصامت في الولايات المتحدة الأميركية منذ عام ١٩٤٤، بفضل جهود البروفسور هيمير وزميله روبيرت كينغ وسيبلينز.

على أن المسدس الصامت لم يسلم إلا لعدد قليل جداً من الرجال، مخافة أن يقع في أيد مجرمة. والجدير بالذكر هو وجود هذا السلاح بكثرة بين أيدي رجال العصابة الصهيونية التي هاجمت الفلسطينيين قبل ١٩٤٨ والمعروفة «بالهاغاناه».

وجرب الجنرال دونوفان مسدساً من طراز «كولت هاي ـ ستاندارد» عيار ٢٢ في مكتب روزفلت، بينما كان الرئيس الأميركي يملي كلاماً على سكرتيره.

وقال دونوفان بعد أن أصاب كيساً مليئاً بالرمل بعشر رصاصات: «لقد أطلقت عشر رصاصات يا سيدي الرئيس دون أن تدري». ولمس روزفلت فوهة المسدس فوجدها لا تزال ساخنة. وكان تأثر روزفلت لهذا الاختراع شديداً، وخاصة للطريقة التي قدم بها إليه. يومئذٍ قال لدونوفان: «أنت الجمهوري الوحيد الذي سأسمح له بدخول مكتبي، وفي يده مثل هذه الآلة».

وحرص روزفلت فيما بعد على عرض المسدس الصامت على الجمهور، ظناً منه أنه يقوي ثقته بانتصار الولايات المتحدة في نهاية الحرب.

وهناك مسدس دفاعي من نوع «ستينجر» اخترعه الأميركيون أيضاً، واستعمل منذ بداية التجسس الهجومي، أي منذ عام ١٩٤٢. وكان يومئذٍ مجرد فوهة ومكاناً للذخيرة. ولم تكن تعبئته ممكنة، فكان يستعمل مرة واحدة ويلقي بعدها في النفايات وهو يحوي خرطوشة واحدة من عيار ٢٢، ويكفي تحريك خاتم لين محيط به بضربة أظفر خفيفة حتى تصبح رصاصته جاهزة للانطلاق. وحالياً يستعمل هذا الجهاز المطمور في المسدس القلم والمسدس العصا، وسواه من الأسلحة المصنوعة بشكل أداة تستعمل في الحياة اليومية.

● السم في الصدارة ●

يحتل السم مركز الصدارة بين أسلحة الجواسيس، منذ القديم. ففي كل «مكتب سري» تابع لرئيس دولة كبرى كان هناك عدد من القتلة بالسم يعملون لقاء أجر معين، وفي حال افتضاح أمرهم لا تعود الدولة تتعرف عليهم. اليوم أصبحت لعملاء جهاز التنفيذ مكانة أرفع. على أن الجهاز كثيراً ما يستغني عنهم ويتنكر لهم عند الحاجة.

وتنوعت السموم وتطورت، وصار بالإمكان استعمالها بأشكال مختلفة. منها، مثلاً، ما يمزج بالطعام بكميات مدروسة، وبحيث يوحي للطبيب الشرعي بأن القتيل قد تسمم من طعامه. أو بأن وفاته كانت طبيعية. وتوصل بعض الأجهزة الخاصة إلى نقل السم باللمس، عبر الجلد. وعرف عن السوفيات استعمالهم لحقنة صغيرة مخفية داخل قلم حبر أو سيكار، وتقذف عبر ثقب لا يرى بالعين المجردة سائلاً ساماً.

ولعل أشهر حادثة في مجال التسميم هي التي حصلت لهورست سوينغمان،

الاختصاصي في الالكترون وعميل أجهزة ألمانيا الغربية. الحق سوينغمان في سفارة ألمانيا بموسكو بصفة ديبلوماسية. لكن مهمته الحقيقية كانت اكتشاف المسجلات الخفية المزروعة داخل مبنى السفارة. ذلك في الفترة التي اكتشف خلالها الأميركيون أربعين مسجلاً بثاثاً داخل جدران سفارتهم في العاصمة السوفياتية.

وكان سوينغمان في الخامسة والثلاثين من عمره، قصير القامة، سميناً، ومتواضعاً في مظهره. وقد توصل إلى تثبيت جهاز ينفث قذائف كهربائية، لها من القوة، بحيث تقتل أي شخص يحاول تركيب خط اتصال أو آلة ما على خطوط السفارة الألمانية. ويبدو أن الجهاز السري السوفياتي قد خسر بسبب مهارة العالم الألماني بعضاً من عملائه المخلّصين، فقرر أن يتخلص منه.

وكلف سوينغمان فيما بعد بمراقبة القطار الخاص الذي حمل المستشار أديناور إلى موسكو، فأعطى السوفيات الفرصة المرتقبة. بعد انتهائه من تفحص القطار وقبل عودته إلى بون أراد أن يزور دير زاغورشك الأثري، فقصده في سيارة السفارة الألمانية برفقة أربعة «ديبلوماسيين» مهمتهم حراسته. ويروي أحدهم ما حصل: «كان الكهنة يحتفلون بالصلاة. توقفنا لحظة أمام لوحة القيامة، ولفت انتباهي رجل مستغرق في صلاته. اقترب الرجل ووقف خلفنا. ولم تمض ثوان حتى أحاط الديبلوماسيون بالمهندس الألماني الذي يتلوى ويشكو من ألم هائل في فخذه. وانبعثت منه رائحة عفن رهيبة. نقل بسرعة إلى سفارة بلاده ثم إلى المستوصف التابع للسفارة الأميركية. وجاء في تقرير الطبيب الكابتن ستريت ما يلي: «جرح عميق سببه حقنة من النيتروجين».

والنيتروجين سم زعاف كان يدخل في تركيب الغازات السامة قبل الحرب العالمية الثانية. ونقطة واحدة منه تنفث من الغاز ما يكفي لقتل إنسان. أما المادة المضادة لهذا السم فهي الاتروبين المكثف.

وسائل التخريب، يمكن وصفها بأنها «شيطانية». وقد سمعنا عن الطاعون المنقول بواسطة الجرذان، والأمراض التي تحملها معها الطيور المهاجرة في مواسم معينة، والسموم الملقاة في الأنهار.

وقد كلفت فرقة من المقاومين بنسف قطار ألماني خلال الحرب العالمية الثانية. وتبين للمسؤول عن العملية أن القطار يتمتع بحماية فرقة كبيرة ومسلحة من الجنود. وأنه سيمنى بخسائر فادحة، فيما لو اشتبك رجاله مع رجال فرقة الحماية.

تجاه هذا الواقع أرسلت لندن عميل تنفيذ ماهراً. وبعدما درس المنطقة مدة خمسة عشر يوماً، قرر أن «عملية الأوز» وحدها يمكن أن تكون فعالة. وتقضي «عملية الأوز» بإدخال متفجرة «٨٠٨» في مؤخرة الأوزة المطاطة، مما يزعج الأوزة ويمنعها عن الطيران فتهرب راكضة على الأرض باحثة عن ملجأ. وتنتهي آخر صرخة ذعر تطلقها الأوزة في صخب انفجار هائل. ذلك أن خيطاً مشتعلاً يتدلى من مؤخرة الأوزة ويكون متصلاً بالمتفجرة. وقد استعملت في تلك العملية مئة أوزة ملغومة، وكانت كافية لنسف القطار ولبعثرة حماته. ولم يواجه قائد العملية سوى مشكلة واحدة. فقد كان على الحيوانات المسكينة أن تنفجر في الوقت ذاته، مما يقتضي ضبط طول خيوط المتفجرات، وإمكان إعادة إشعال ما ينطفيء منها في الطريق.

وأحياناً يلجأ العميل إلى حيلة مضحكة أكثر منها مأساوية، لينفذ بجلده، من مأزق خطر. وقد تكون «هيدي» أطرف «آلة - حيلة» من نوعها، وقد استعملها أندريه دوران في آذار ١٩٤٤. وكان على دوران أن ينقل وثائق في غاية الأهمية من مصدر إسباني إلى داخل فرنسا. والرزمة التي تسلمها في إسبانيا لم تكن صغيرة الحجم، إذ كانت ظروف الحرب والوسائل التقنية المتوافرة لا تسمح بتصغير الصور والأشرطة كما يحصل حالياً. اختار دوران اجتياز الحدود في القطار. وجلس في إحدى مقطورات الدرجة الثالثة المكتظة بالناس. وبما أنه لم يكن متجدداً في المهنة، فكان لا يحمل سلاحاً ويتحفز لاتخاذ المبادرة المناسبة للظروف وفي اللحظة المناسبة.

كانت الساعة العاشرة والنصف ليلاً حين دخل رجال الدرك والجمرك لتفتيش أمتعة المسافرين. وكانوا في تلك الليلة يتصرفون بعصبية ظاهرة، كأنهم متخوفون من حدوث «شيء ما».

بحركة مدروسة هادئة، وضع دوران الرزمة خلف ظهره، واستند إلى زجاج النافذة. ثم أخرج من جيبه الأوراق التي تثبت كونه عاملاً يجتاز الحدود باستمرار ليقصد مكان عمله. كانت بقربه امرأة عجوز لا تنفك تطرح عليه أسئلة، وهو يجيبها بحركة ما من يده مشيراً إلى أنه لا يفهم لغتها.

تأمل الضابط أوراقه وتمتم: «حسناً» في تلك اللحظة استيقظت العجوز من غيبوبتها القصيرة وأخرجت من حقيبتها رسائل فقال الضابط: «ممنوع». فراحت

تتوسل إليه أن يفتح الرسائل ويقرأها، وتؤكد له أنها «رسائل من أم إلى أولادها». لكن الضابط ردد: «ممنوع». عندئذٍ غضبت العجوز، وأشارت إلى جارها قائلة: «كان الأفضل لك أن تبحث عما يخبئه هذا الشاب خلف ظهره. فلا شك في أنه يهرب سجائر..».

التفت أحد الرجال نحوه. وكان زملاؤه قد ابتعدوا قليلاً، ولم يعد بإمكانهم الرجوع إلى الوراء بعدما عزلتهم حواجز كثيفة من البشر والأمتعة.

لم يكن بإمكان دوران أن يهرب، ولا أن يطلق الرصاص. وكان السلاح الوحيد الممكن استعماله، في مثل هذه الحالة، هو «هندي». وهي تشبه القلم وتعلق برزمة الوثائق.

امتدت يد العجوز إلى الرزمة فسحب دوران «القلم» وهو يتساءل بدهشة: «هذه؟ ظننتها سكائر؟» ولم يكمل جملته إذ كانت هيدي» وقعت أرضاً، وبدأت تتدحرج وتطلق صفيراً غريباً لا ينفك يتصاعد حتى يصبح «ضجيجه بقوة انفجار قنبلة من وزن ٥٠٠ كيلوغرام متفجرات» على حد تعبير الذين اخترعوا «هندي».

● حرب بين جاسوسين ●

هناك أنواع من المتفجرات مختلفة الأحجام والأشكال والنتائج. فهناك علبة الكبريت التي لو انفجرت في غرفة عادية الحجم لقتلت كل من فيها. وهي اختراع ألماني. وهناك أيضاً سلاح رأى النور خلال الحرب الأخيرة، وقد طور كثيراً ولا يزال عملاء التنفيذ يستعملونه في أيامنا.

والسلاح هذا علبة بلاستيكية صغيرة تحوي مادة جيلاتينية سريعة التفجر، وتحدث حرائق هائلة.

وهناك «البلاستيك» المعروف منذ القديم والذي يتخذ اليوم أشكالاً عديدة فيبدو كالعلكة أو كريم الحلاقة أو الصابون أو المربى أو الدهان.

في الماضي كان العميل المخرب يستعمل وصلة يضعها وسط المسافة الفاصلة بينه وبين المادة المتفجرة، اليوم، صار بإمكان العميل أن يلصق قطعة جيلاتين صغيرة على الجدار المدهون بالمادة المتفجرة، ويبتعد ضامناً انفجارها بعد حين.

وكثيراً ما يوكل إلى عميل أعزل أمر قتل منافس أو خائن، أو أمر الدفاع عن نفسه بوسائلة الخاصة. والأنسان كما سبق وذكرنا لا يزال هو السلاح الأمضى والأشد خطراً. ونهاية إيغور عميل التنفيذ في الاستخبارات السوفياتية هي واحدة من مئات القصص المتشابهة. فقد اجتاز إيغور حواجز الحماية التي كانت تمنعه من الوصول إلى الخائن المحكوم عليه بالإعدام، ليتولى تنفيذ هذا الحكم بالذات، لم يكن يحمل سلاحاً، فلم تكن الظروف لتسمح له بالاقتراب من عدوه وهو يحمل أي سلاح.

وصل إيغور إلى مسكن المحكوم بالإعدام بعد حلول الظلام فرآه يهم بالخروج. وهنا أسرع إلى الباب قبل أن يتم إغلاقه، وكان من الذين يعرفون بالتحديد المكان الصالح للضرب أو للكسر حتى تصاب ضحيته بالإغماء أو الشلل الموقت أو الموت. وتلك الليلة كان الموت هو الهدف.

أصيب المحكوم بضربة حادة على مؤخرة رأسه فانثنى على ركبتيه وقد تدلى رأسه إلى الخلف، وفي تلك اللحظة طالت مقدمة خذاء إيغور رقبة الرجل من الأمام فسحق زلعومه. ثم أمسكه إيغور من شعره وضرب صدغه بحافة الرصيف. ثم انحنى إيغور فالتقط مجموعة المفاتيح عن أسفل الدرج وجر ضحيته إلى خلف الباب، بحيث يظن رجال الشرطة أن الضحية قد سقطت عن السلم فاصطدم رأسها بإحدى الدرجات.

ودخل إيغور البيت وأقفل الباب خلفه بتأن وانتظر فترة ريثما تأكد له أن كل شيء هادىء، وأنه باستطاعته إشعال النور. ثم مد يده باحثاً عن مفتاح النور فوجده وشد بإصبعه عليه، واندلعت شرارة زرقاء أضاءت حول يده ثم رفعته عن الأرض انتفاضة مؤلمة ولم تلبث أن تقلصت عضلاته وتآكلت خلايا جسده تحت تأثير ألم هائل.

وانتشرت في مدخل البيت رائحة الأوزون، وغمرت جثتا الرجلين المتقاربتين.

فالرجل المحكوم بالإعدام كان يوصل التيار الكهربائي القوي بمفتاح النور قبل خروجه من البيت تحسباً للطوارىء. وبحيث يلامس إصبع الذي يضيء النور حلقة نحاسية فيصعقه التيار. وكل مستلزمات هذا الفخ القاتل كانت متران من السلك الكهربائي وقطعة قماش مصمغة وبنسة عادية صغيرة.

ولا يحتاج صانعو المتفجرات عادة إلى مواد نادرة أو صعبة المنال لينتجوا ما يريدون. لأن مئة رأس من رؤوس أعواد الكبريت، تضغط داخل ورقة معدنية مساحتها ديسيمتر مربع، تكفي لصناعة قنبلة صغيرة تفجر قفل باب، أو تسبب

بإحراق خزان من السوائل أياً كان نوعها. كما يمكن صنع «رغيف» متفجر بعجينة مؤلفة من بعض عدسات التصوير وطلاء الأظافر والماء الصافي.

أي صيدلي يستطيع أن يبيعك مزيجاً «مهدئاً للأعصاب» مؤلفاً من الكلور والأسيتون وبيرمنكانات البوطاس والغليسرين. وأي مزين نسائي يبيعك طلاء للأظافر أو سائلاً يزيل لون الشعر. وجميع هذه المواد تصلح لصناعة شتى أنواع المتفجرات.. هذا دون حاجة لذكر الأثير وهو متوافر بكثرة وفي كل مكان.

فن تسميم العقول

في العلوم العسكرية ما يسمى «برنامج تسميم عقل العدو». ويبدأ هذا البرنامج بالحيلة التكتيكية البسيطة، ليصل الى برنامج ضخم متماسك هدفه «بث الشعور بالخيبة» في صفوف العدو، أو «نشر الأخبار الكاذبة...» الخ.

وقد تعدى «تسميم العقول» النطاق العسكري ـ الذي ذكرنا سابقاً أنه أصبح جزءاً صغيراً في عالم التجسس ـ ليحتل اليوم مركز الصدارة بين أسلحة التجسس الفتاكة في المجالات الديبلوماسية والسياسية والاقتصادية.

تسميم العقول، حسبما فسره بعض خبراء هذا السلاح، هو عمل خبيث، أو ضغط على العقول، من أجل ترسيخ بعض الآراء والأفكار فيها، وذلك بهدف تحطيم المعنويات واحلال الضياع محل التصميم، والوهم والزيف محل الحقيقة والواقع.

وأداة التسميم هي جميع وسائل الاتصالات والاعلام، القادرة على توجيه العقول باتجاه فكري، يفيد الذي «يسمم» ويضر الذين «يتسممون».

أما أساليب التسميم فعمليات بطيئة تنفذ بمهارة فائقة، وتركز على ترسيخ فكرة معينة في ذهن قيادة عسكرية، أو سلطة، أو فريق سياسي، أو جزء من الرأي العام، أو كل الرأي العام من مثقفيه في قمة الهرم إلى رجل الشارع العادي الذي يمثل قاعدته. وهذا الأسلوب هو أحدث الأساليب العصرية وأخطرها.

من نتائج عملية التسميم الناجحة أن تقود الفريق الذي استهدفته إلى حالة من الضياع، يفقد معها كل قدرة على مقاومة أي عدو يهاجمه. وأحياناً يبلغ التسميم درجة تجعل المصاب بالتسمم يستنجد بعدوه، حاسباً اياه محرراً وليس محتالاً!

ويقال أن السلطات السوفياتية تعتبر استاذاً لا يجاري في حسن استخدام هذا السلاح، وأنها تعتمد على السيطرة والقوة. وسلطات الولايات المتحدة الاميركية لا تقل براعة عن السوفيات في هذا المجال، وان كانت تعتمد على المال بدلاً من السيطرة لتصل إلى أهدافها.

وقد اختصر بولغانين حرب تسميم العقول حين قال:

«ولى زمن الحروب الساخنة... وصار علينا أن نعد الدول الرأسمالية اعدادا نفسياً متقناً، حتى تنضج فتقع بين أيدينا من تلقاء ذاتها». وتاريخ تصريح بولغاين يعود إلى عام ١٩٤٥، حين نزعت موسكو من استراتيجيتها فكرة خوض حرب عالمية.

● دور علم النفس ●

ولا يمكن تسميم عقول شعب بكامله إلا بفضل معرفة عميقة بنفسية ذاك الشعب، وبعلم النفس بشكل عام. بفضل علم النفس يتم تحطيم معنويات المواطن، وارباك السلطات والجيش والشرطة، والأكثرية الصامتة التي لا تعود تتجرأ على ابراز ردة فعلها فتبقى مكبوتة حتى يصل النظام إلى هاوية الانهيار الكامل.

التسميم الديبلوماسي والسياسي قد يمهد لعمليات التسميم أو يرافقها، أو يعمل في مجال بعيد عنها ظاهراً، ومتصل بها اتصالاً عضوياً في واقعه. ويسير هذا التسميم باتجاه اقناع العدو بأن الاهتمام مركز على دولة بعيدة واقعة داخل منطقة نفوذ مختلفة عن التي ينتمي إليها بلد العدو. وأيضاً فان مشاكله متأتية من تلك الدولة بالذات. ويحقن ذهن العدو بمعلومات تأتيه من مصادر ملتوية ومتنوعة، بحيث يتصور أنه اكتشف سراً خطيراً حين وصلت إليه، وهكذا يقع في الفخ بسهولة.

وتكمن ميزات التسميم في الأساليب الذكية الخبيثة، وليدة التفكير العميق والتخطيط الصائب.

وغالباً ما تتبع التسميم، أو ترافقه، حملة تشويه وتكذيب. فبعد أن يبلغ المتسمم درجة من التضليل تفوق طاقته للاستيعاب، تبدأ عملية جره إلى الخلف. ويعني ذلك، بشكل عملي، جره إلى اعادة النظر في المعلومات والأخبار والمسلمات التي أعطيت له خلال فترة معينة، ومحاولة اقناعه بأن جزءاً منها كان خاطئاً مضللاً. والهدف هو اقناعه بأن ما بقي في الغربال هو، هذه المرة، الحقيقة الساطعة التي لا مجال للشك

فيها. وهكذا تطمئن ضحية التسمم ـ خاصة وأنها مرت في مرحلة الشكوك ـ وتأمن إلى «مرشدها الفكري» الذي التقى معها في الشك، وانتقل معها بعد ذلك إلى نور اليقين. وهذه العملية الأخيرة ـ أي «الجر إلى الخلف» ـ أشبه ما تكون بغسل الدماغ. والذي تعرض لها يصبح سهل الانقياد في اتجاه جديد، يتبعه دون تردد ولا حذر. وربما لو تكشف له هذا الاتجاه الجديد، منذ بداية عملية التسمم، فلوجد لديه تردداً أو مقاومة.

● تسميم العقول ●

الأساليب، والتأرجحات، والمداورات نفسها التي تستعمل في تسميم العقول، تستعمل في حملات التضليل أو «غسل الدماغ». على أن غسل الدماغ لعبة أدق وأشد خطورة من التسميم، بل هي ذروة التسميم الحاسمة.

وتسميم العقول موجود منذ أن وجد الانسان ووعى مصالحه. وبما أنه عمل ذهني في الأساس فقد تطور بتطور العقل الانساني ومدى ادراكه. عرفه انسان ما قبل التاريخ وانسان العصر الحجري والقرون الوسطى، كل على مستوى عصره. أما اليوم فعبارة تسميم العقول، موضة منتشرة، تجدها في التقارير العسكرية وفي تقارير الشرطة وفي وثائق الادارات الرسمية. وهي في الشارع وفي المنازل وعلى السنة زعماء الأحزاب وجميع الديبلوماسيين.

وليست الكلمة مقتصرة على المجال السياسي، بل أنها مستعمل في التجارة والصناعة. وأدوات التسميم الحديثة جد متنوعة. منها الصحافة والاذاعات والتلفزيون واللافتات والبيانات والمنشورات على اختلاف أشكالها وأنواعها.

المهتمون بدراسة ظاهرة تسميم الغقول يتفقون على أنها كانت في الماضي بسيطة بدائية، ولا تشكل أي خطورة: الهارب الذي كان يطلق حصانه في اتجاه، ويسير هو في الاتجاه المعاكس، ليضلل الذين يلاحقونه. والملوك والامراء الذين كانوا يعرضون ثرواتهم لم يكونوا ليفعلوا ذلك بدافع التباهي والمغامرة، وانما ليرسخوا في أذهان الناس مدى قوتهم وبسطوتهم. وفرقة الجيش التي تشعل حول مخيمها نيراناً كثيرة، لتوهم العدو بأن عددها كبير.

كل هذه كانت في الماضي أساليب فعالة لتسميم عقل العدو. وبعضها لا يزال فعالاً ودارجاً في عصرنا، مع بعض التطوير والتنويع.

ولبعض الباحثين في تسميم العقول نظرية تقول أن تلك الظاهرة كانت تمارس في مناسبات محددة خلال الظاهرة كانت تمارس في مناسبات محددة خلال الأجيال الماضية. والتاريخ لا يذكر لنا تفاصيل تثبت أو تنفي صحة هذه النظرية. لكن مما لا شك فيه هو أن الصحافة والاذاعة ـ السري منها والعلني ـ وسرعة وسائل الاتصال ونقل الأخبار. . . كل ذلك يجعل عمليات تسميم العقول سريعة ومتواصلة في عصرنا.

وتسميم العقول في عصرنا هو عمل جماعي وليس عملاً فردياً، وتعمل الجماعة بشكل فريق منسق النشاطات منظم منسجم، كالاوركسترا. ويبدأ العمل بتحديد وجهة العملية، وعرض ما يمكن أن يطرأ على مسيرتها من ردات فعل العدو ومدى تأثره بعنصر أو بآخر تأثيراً ذهنياً وعاطفياً.

يبدأ العمل بتحرك بطيء ومتواصل، لخلق المناخ المناسب. وتنطلق الاشاعة الأولى بحذر بالغ، ولا تكون واضحة حتى لا تولد صدمة. أما العملاء الذين يتولون نقلها ونشرها فمن الصنف الخبير المتمرس طويلاً في هذا المجال. ثم يجري تثبيت الاشاعة الكاذبة في الأذهان، برسائل وتفسيرات بريئة في مظهرها، تثبت من الاذاعات وتنشر في الصحف. ونرافقها أخبار تبدو للسامع والقارىء وكأنها أفلتت صدفة من منابعها وضد ارادة أصحابها.

فحين يهدف التسميم إلى اسقاط سلطة في بلد ما، مثلاً، فقد يبدأ بنشر تعليقات وملاحظات شفهية لها طابع اخباري منطقي منضبط موضوعي، وخال من أي تهجم أو عنف. ثم تلي ذلك مرحلة انتظار ريثما يكون الرأي العام قد استوعب الأخبار وراح يساهم في نشرها وتضخيمها!

ثم يتولى بعض العملاء توجيه النقمة إلى «مسؤول» محدد. وذلك بأسلوب الايحاء لا الفضح. وأخيراً يترك للناس أمر تنفيذ المخطط، حتى تحقيق هدفه النهائي. خلال الحرب العالمية الثانية كلف سيلتون ديلمان بوضع برامج اذاعية باللغة الالمانية تبث من بريطانيا.واقترح، من جملة ما اقترح من مواضيع لبرنامجه، أن تذاع «أخبار» توحي للمستمعين الالمان بأنها ليست موجهة إليهم. أي بحيث يظن الالماني

الذي يسمعها أنه قد اكتشف صدفة، اذاعة سرية تملكها السلطات الالمانية. وكانت «الاخبار» تهدف إلى تحطيم معنويات الشعب والجيش الالماني.

● العملاء في الاعلام ●

اليوم لم تعد الاذاعة السرية ضروية لمثل هذه الأعمال فالأسلوب الحديث يقضي بادخال بعض العملاء سراً إلى المؤسسات الصحافية الاذاعية والتلفزيونية، في كل دولة يراد تسميم عقول مواطنيها.

من عادة العسكر أن يعهدوا لعملية تسميم العقول إلى عميل مزدوج، يكلفونه اعطاء العدو معلومات خاطئة. على أن مثل هذا العميل، لا يصلح لتنفيذ مخطط جدي شامل. ذلك أن العميل المزدوج يوثق بإخلاصه في الغالب، مهما برهن عن مدى الاخلاص. وهو فضلاً عن ذلك، لا يتمكن من الاتصال بالشخصيات البارزة والمؤثرة.

العميل المختار لتنفيذ عملية تسميم جدية على مستوى عال لا بد له وأن يكون صاحب مواهب تجعل منه شخصاً مرموقاً، ومن صنف آخر. وهو لا يتجسس رغم كونه في الواقع من أخطر الجواسيس، أو أخطرهم على الاطلاق. ولا يظهر عليه أنه يستعلم عن أمر أو يبحث عن سر. ولا يبدأ يمارس دوره الفعال في عملية التسميم إلا بعد وقت طويل نسبياً، أي بعد أن يستكمل الشروط والعناصر التي تجعل كلامه مسموعاً وموثوقاً به. وهو ينشر «معلوماته» بالوسائل الطبيعية ودون اظهار أي اهتمام بها أو أي قصد منه بنشرها. وعليه أن يعايش الأوساط الثقافية والعلمية ذات المستوى الرفيع. وبالتالي لا يمكن أن يكون انساناً فاشلاً أو ضعيفاً. بل ولا بد له أن يكون شخصية بارزة ذات علاقات طيبة مع كلا الطرفين (أي الطرف واضع السم والطرف الذي يتلقاه) وحتى لا يثير الشكوك في أقواله وآرائه، لا بد له وأن يكون مطلعاً تماماً على خطة التسميم ومستوعباً تفاصيلها.

ولا بد لمستوى هذا العميل من أن يتصاعد باستمرار. فغالباً ما يستقطب العميل من أوساط المسؤولين التقنيين في كادرات الصناعة والجيش والادارة، ويرتقي ليصل إلى مرتبة عالم أو ديبلوماسي أو سياسي أو مثقف كبير.

وقد بات معروفاً أن المؤسسات المكلفة بتنفيذ عمليات تسميم العقول، ومثلها

مراكز الاستخبارات ومكافحة التجسس، تختار عملاءها من الأوساط الراقيـة جداً، في مجال العلم والثقافة والنفوذ السياسي وغيرها.

أشكال وأنواع التسميم التي حددها مركز الاستعلامات الفرنسي وطبقها بعد عام ١٩٣٩ لا تزال صالحة ومطابقة للكثير من عمليـات التسميم العصرية، ويمكن ايـرادها كمثل يوضـح موضـوعنا. تبـدأ مهمة العميـل بتكليفه بنقـل خبر صحيـح إلى العدو. ويسمى هذا العمل «خبر اتصال». وبالطبع غالباً ما يكون الخبر عتيقـاً لم تعد لـه أهمية فعلية، أو يكون لم تعد له أهمية فعلية، أو يكون انتقاله إلى العدو لا يشكل خطراً، أنه خبر من نوع «الاستثمار» الذي يقتضي التضحية بجزء من رأس المال.

وبعـد هذا الاتصـال بوقت، قـد يطول أو يقصر حسب الـظروف، تبدأ عمليـة التسميم الحقيقية. عملية بالغة الدقة، أخبارها نـاقصة بحيث تسمـح للعدو أن يبـذل مجهـوداً شخصيـاً في البحث والتنقيب، حتى يكملهـا. وتـدريجيـاً تتثبت ثقـة العـدو بالعميل. ويسمح لنفسه بالثرثرة أكثر فـأكثر. كـما تتكاثـر «المعلومات» الـواردة إليه من مستخدميه. وتقضي أصول اللعبة أن يعطي العميل من حين لآخر معلومات تبرهن أن هدفه ليس مجرد اعطاء المعلومـات. كما تقضي بـأن ينقل أخبـاراً تدل عـلى حسن نيته، وعلى جهله التام باهتمام العدو بأخباره وكيفية استخـدامه لهـا. وعليه أيضـاً أن يخطىء من حين لآخر وأن يعود فيصحح أخباره الخاطئة. ويركز خبراء التسميم على أهمية هذا «الخطأ» لأن العميل يبرهن بواسطتها عن كونه ينقل أخباراً لا يعي خطورتها ولا يتعمد نقلها، ولأن ثقة الاعداء تزداد كثيراً حين يرونه جاداً في عرض الاسبـاب والوقائع التي جرته إلى استنتاجات خاطئة.

هناك أمثلة كثيرة تبدو أشبه ما تكون بالأساطير والروايات الخيالية، لولا أنها قـد حصلت فعلاً، لولا أنها قد حصلت فعلاً: أحد الملحقين العسكريين للسفارة الفرنسية في برلين أرسـل تقريـراً، مستنداً إلى مصـادر موثـوق بها، يقـول أنه تلقى أخبـاراً من صـديق (لا بد أن يكـون عميل تسميم) وأنـه لاحق هذه الأخبـار بشتى الوسـائل حتى استكملها بنفسه. واستنتج أخيراً ما يلي: «أن المانيا لا تستطيع القيـام بهجوم من جهـة الغرب قبل سنة». ويضيـف: «... لو اتخذنا التدابير الـلازمة لتمكنـا من اسقاط هتلر بظرف سنة أو سنتين على أبعد تعديل» ويؤكد أخيراً: «... وفي جميع الأحوال ستطول المناوشات، وتتخللها فترات سلام». والجدير بالذكر هو أن التقرير كتب عام ١٩٣٩.

● الجثة العملية! ●

ومن أطرف حوادث التسميم العسكري حادثة «الرجل غير الموجود» التي رويت في كتاب وفي فيلم سينمائي. صاحب الفكرة كان قانونياً مجنداً احتياطياً، مكلفاً ادارة مصلحة أمن بسيطة. ومنفذ الفكرة كان الضابط البحري أيوين مونتاغو. أما عميل التسميم فكان هذه المرة رجلاً ميتاً.

كان على مونتاغو أن ينقل معلومات «بالغة الخطورة» إلى قيادة جيوش العدو. ولم يكن نقلها بواسطة عميل عادي أو سفارة أو أي انسان، لأنه لا يفترض أن يكون أي انسان مطلعاً على نيات ماونتباتن والجنرال ارشيبالدني والاميرال كونيغام والجنرال الكسندر.

بعد تفكير طويل خطر لمونتاغو أن يضع هذه المعلومات على جثة يلقيها بالقرب من أحد الشواطىء الاسبانية. وبحث مونتاغو عن رجل ميت وأقنع عائلته بتسليمه جثته، لأمر خطير يتعلق «بانقاذ صاحبة الجلالة» وزود الجثة باسم، وأوجد لصاحبها خطيبة وحساباً في أحد المصارف، وشقة يسكنها أثناء عطلته... الخ. ولم يحمل الماجور مارتان ـ اسم الجثة ـ أوامر أو وثائق، بل رسائل بسيطة، محترماً بذلك قواعد التسميم التي تقضي باعطاء معلومات ناقصة غير محددة.

هل نجحت عملية التسمم تلك؟

في الواقع ليس باستطاعة أحد أن يثبت أو ينفي نجاح عملية أي تسميم عقول، ولا حتى أن يقيم نتائجها بالتحديد..

وهناك حادثة تسميم عقول حصلت منذ فترة ليست بالبعيدة، وتصلح كمثال سريع عن عمليات التسميم السياسي. فقد كان التنافس على البحر الكاريبي بين الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة قد بلغ ذروته في كوبا.

اعتمدت الاستخبارات السوفياتية خطة لمصلحة كاسترو وقسمتها إلى ثلاث مراحل. ونجحت المرحلة الاولى بسهولة، بفضل شغف الاميركي بالفولكلور، وبفضلها اكتشف الرأي العام الاميركي أن باتيستا ديكتاتور فاسد، واكتشف من ناحية ثانية أن فيدل كاسترو انسان شريف محبب متحمس لمبادىء سامية، بالاضافة إلى كونه وسيم. ويذكر المراقبون أن ميل الرأي العام إليه انطلق وقتئذ من النوادي النسائية في

الـولايات المتحـدة ومن المبشرين والمراهقـين. ومثل هـذه الانطلاقـة تصعب مقاومتهـا كثيراً.

وكان ان هرب باتيستا بعائلته وثروته بعد نجاح الثـورة. وتسلم فيديـل كاسـترو زمام الحكم في كوبا، وسط جو من الاعجاب والتمجيد من قبل الصحافـة الاميركيـة. الآن يمكننا التأكيد على ان الاستخبـارات السوفيـاتية نجحت نجـاحاً بـاهراً في اعـداد الرأي العام الاميركي لتحقيق ذلك.

ومعروف ان كاسترو بدأ باعادة المستثمرين الاميركيين إلى بلادهم، لاعتقاده بأن الأرباح الطائلة التي يجنونها تستعمل بشكل أفضل فيها لو استقرت في الخزائن الكوبية، وكانت ردة فعل الاميركيين دهشة بالغة، وقد ظنوا أنهم يستبدلون باتيستا بشبيه له.

ولا شك في أن الاستخبارات المركزيـة الاميركيـة، التي لا بد وأن تكـون عارفـة بمـاضي كاسـترو، كانت هي الأخـرى مسممـة لـدرجـة جعلتهـا تستخف بـه ولا تبلغ السلطات الاميركية بما لديها من معلومات!

في المرحلة الثانية كانت الاستخبارات الاميركية تعد العدة للأخذ بالثأر في عملية «خليـج الخنازيـر». وكانت لا تـزال تحت تأثير التسميم على مـا يبـدو، إذ أنها أبلغت رئيس جمهورية الولايات المتحـدة الاميركيـة أن كوبـا ستقع فـريسة سهلة، حـالما يـطل عليها «المحررون» الاميركيون. ومن قـواعد التسميم أن أسهـل وأنجح أسـاليبه يقضي بتثبيت اعتقاد العدو في مـا يريـد هو أن يعتقـده. وبالتـالي لم تكن مهمة الاستخبـارات السوفياتية جد صعبة هذه المرة!


مذكرات الجواسيس

مذكرات الجواسيس

القضايا الجاسوسية الشهيرة التي انتشرت قصصها، بعضها يثير الاهتمام لما له من مدلولات.

أو لها قصة غـريفيل وين التي نشرت في احـدى الصحف البريـطانيـة في أيلول ١٩٦٤.

غريفيل وين، بعد اعتقاله في بودابست في ٢ تشرين الثاني ١٩٦٢، وصف بأنـه رجل أعمال بريطاني ومدير شركة بريطاني ومدير شركة مـوبيل للمعـارض، وهي شركة معارض متنقلة كانت تنتقل آنذاك بين دول أوروبا الشرقية.

وين البـالغ من العمـر آنذاك ٤٣ سنـة كتب في مذكـراته في مـا بعد تلقي علوم الهندسة في جامعة نوتينغهام ثم الثانية.. بعد انتهاء الحرب اشتغل لدى شركة كهربائيـة ففي دائرة التسويق ثم بدأ عمله الحر عام ١٩٥٠ كمصدر لـلآلات الصناعيـة الثقيلة. ومنذ ذلك الحين وهو يكثر من السفر الى الخارج، بما في ذلك الاتحاد السوفياتي.

من أمور حياته الخاصة انه كان يقيم في احدى المدن البريطانية مـع زوجته شيـلا وابنه اندرو وان قضيباً فولاذياً كان مركباً في ساقه نتيجة عملية جراحية اجريت له بعـد حا. اصطدام سيارة وقع له في مدينة أوديسا السوفياتية عام ١٩٥٧.

في كـانون الأول ١٩٦٠ التقى وين للمـرة الأولى ضـابـطاً بـرتبـة كـولـونيـل في الاستخبارات العسكرية السوفياتية يدعي أوليغ بنكوفسكي كانت وظيفته العلنية موظفاً مدنياً في «اللجنة الحكومية للتنسيق في الأبحاث العلميـة». ومع الـزمن لاحظ وين أن بنكوفسكي يسعى جاهداً الى تحقيق الاتصال مع الاستخبارات الغـربية فقـال له ذات

مرة: «ان أكثر رجال الأعمال البريطانيين الذين لهم خبرتي يودون في العادة أن يحققوا لك رغبتك».

أوائل نيسان ١٩٦١ كان وين في موسكو من جديد. فلما عاد الى لندن، حمل معه رسالة من بنكوفسكي الى الاستخبارات البريطانية ثم ما لبث أن أصبح طوال الأشهر الستة عشر التالية رسول استخبارات يعمل لمصلحة بنكوفسكي.

خلال هذه الفترة باذات زار بنكوفسكي لندن مرتين كعضو في وفدين رسميين، المرة الأولى من ٢١ نيسان الى ٦ أيار ١٩٦١ والمرة الثانية من ١٨ تموز الى ٨ آب. وخلال الزيارتين اللتين يبلغ مجموع أ مهما ٣٧ يوماً ومن ثم خلال رحلة لاحقة الى باريس في أيلول ١٩٦١، كان بنكوفسكي عرضة لتحقيق واسع جداً أجرته معه الاستخبارات البريطانية والاستخبارات المركزية الأميركية.

بنكوفسكي اعتقل في موسكو قبيل اعتقال وين في بودابست، والاثنان اعترفا بجرمهما أثناء محاكمتهما التي جرت في موسكو من ٧ الى ١١ أيار ١٩٦٣.

خلال المحاكمة، وصف وين نفسه بأنه مهندس كهربائي وتاجر خدعته الاستخبارات البريطانية ووضع اللوم في مشكلته على عميلين بريطانيين قال انهما اقنعاه بأن ما يقوم به «لا علاقة له البتة بالتجسس».

بالنتيجة، حكم على وين بالسجن ثماني سنوات فيما حكم على بنكوفسكي بالاعدام. في ١٦ أيار قالت تاس: «لقد تم اعدام الجاسوس بنكوفسكي».

وبالنتيجة كذلك وردت أثناء المحاكمة أسماء ستة ديبلوماسيين بريطانيين من العاملين في السفارة البريطانية في موسكو وزوجة أحدهم كذلك، بالاضافة الى أسماء خمسة من الديبلوماسيين الاميركيين في العاصمة السوفياتية. وقد أخرج السوفيات من أراضيهم أثر ذلك خمسة ديبلوماسيين أميركيين وخمسة ديبلوماسيين بريطانيين.

لكن السجن للجاسوس في زمن ثورة الاستخبارات لا يطول. في نيسان ١٩٦٤ أجري تبادل بين وين وجاسوس سوفياتي، وعاد وين الى لندن لنشر مذكراته.

بعد ذلك كان نشر المذكرات عملاً من جانب السوفيات. قصة وين وبنكوفسكي كانت لها صيغتها في سلسلة من نوع آخر نشرتها صحيفة «الشعب» الناطقة بلسان الحزب الشيوعي البريطاني في آذار ١٩٦٥.

كذلك انطلقت الاشاعات تقول ان الجاسوس رودولف آبل يريد بدوره أن ينشر مقالتين صحافيتين وباعطاء حديث اذاعي عن الاستخبارات عام ١٩٦٦.

وانتقلت العدوى الى الولايات المتحدة. هناك استمر المسؤولون عن الاستخبارات المركزية في مناقشة نشر مذكرات بنكوفسكي بضعة أشهر. ذلك أن بنكوفسكيْ كان قد سلم الغرب عدة وثائق ومعلومات ومذكرات، بالأضافة الى ما اعترف به أثناء محاكمته من انه سلم الاستخبارات الأميركية والبريطانية خمسة آلاف فيلم مصور والى أن جهازي الاستخبارات كانا قد جمعا من اعترافاته لهما خلال زيارته للغرب عشرات الكيلومترات من أشرطة التسجيل.

على هذه الأسس كلها نشر في تشرين الثاني ١٩٦٥ كتاب خاص بهذا المعنى في الولايات المتحدة سمي «أوراق بنكوفسكي».

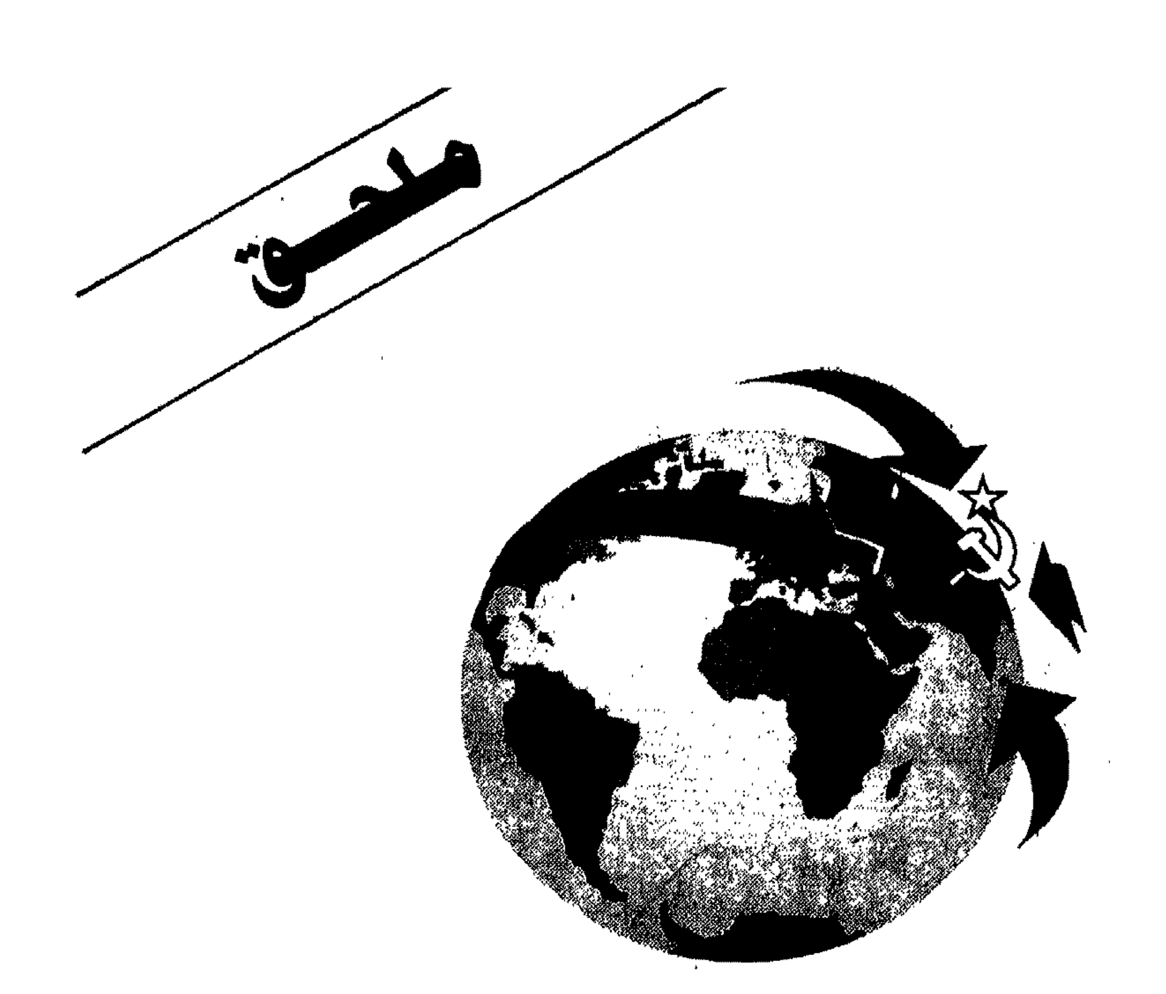
أمّا فكتور أوستروفسكي ضابط الموساد فقد كشف في كتابه «عن طريق الخداع» أساليب وأنشطة المخابرات الاسرائيلية على مدى العشرين عاماً التي قضاها في هذا الجهاز وفضح أسراراً مذهلة عن هذا الاخطبوط المدمّر.

ومع ذلك لم يخل نشر مذكرات الجواسيس في الغرب من الانتقاد. فالرأي السائد كان أن هذا التصرف جزء من الحرب الباردة ولم يخدم أي هدف.

مسؤولون أميركيون كثيرون شعروا بأن الضرر الحقيقي كامن في أن وجه وكالة الاستخبارات المركزية قد ظهر للجميع. نشر مذكرات بنكوفسكي، مثلاً، أثار الشكل حول ما يرمي اليه، خاصة بعدما ظهر الكتاب بالطريقة الملغومة التي ظهر فيها والتي لم تخف مراميها على كل قارىء لبيب.

ففي المحاولة الرامية الى خداع العدو تبين أن جهاز الاستخبارات يثير البلبلة لدى الجمهور في بلده بالذات. وعلى هذا، يبدو من المشكوك بنتيجته أن يكون نشر مذكرات الجواسيس ـ أو اختلاق المذكرات أساساً ـ يخدم المجتمعات القلقة على مصيرها في زمن التهديدات الذرية.

لكن وعلى صعيد آخر، يمكن الجزم بأن أجهزة الاستخبارات لا تفكر أو تتصرف على أسس انسانية لأن هدف كل منها هو في النهاية خدمة بلاده ولأن كلاً منها يقاوم الآخر على مستوى قاس معين.



انقلاب الـ كي.جي.بي. الفاشل:
٣ أيام هزّت العالم
غموض وأسرار وعشرات الأسئلة لما حدث!!

مقدمة:

الكثير من الغموض والأسرار ما يزال يحيط بمحاولة الانقلاب السوفياتي الذي شكّل حدثاً بارزاً في التاريخ مثلما شكّلت الثورة البلشفية (١٩١٧) الحدث الأضخم.

الغموض والخفايا والأسرار قد تبقى لأشهر أو لسنين مدفونة ومجهولة.

الأسئلة كثيرة ومخيفة بحجم الحدث بحدّ ذاته.

ما الذي حدث؟ ولماذا؟

كيف فشل الانقلاب؟ ولماذا؟

غورباتشوف أو يلتسين أو الاتحاد السوفياتي أيهم كان هدف الانقلاب؟

أي انقلاب هذا لا يتحقّق له من بدايته عزل وتقييد حرية الحركة لأعدائه المفترضين؟

أي حركة هذه لا تقدّم برنامجاً متكاملاً في بيانها الانقلابي الأول عمّا انتفضت من أجله؟

ما هو حقيقة الدور الأميركي وحلف الأطلسي فيما جرى وحدث في الأيام المفزعه وما نوع الاطمئنان وحدوده الذين قدم خلال الاتصالات المتعدِّدة مع رئيس روسيا قائد المعارضة بوريس يلتسين وبين الرئيس الأميركي جورج بوش ورئيس الوزراء الإنكليزي جون ميجور والألماني هيلموت كول؟

كيف تعامل الانقلابيون مع معارضيهم . . «ناموا الليلة مرتاحين فلن نهاجمكم . . اطمئنوا»(*) كيف؟؟

أسئلة كثيرة وكثيرة . . ويبقى الحدث حدثاً رغم البساطة المتناهية الظاهرة على الأقل لما جرى.

المهم ألاَّ يدفع الاتحاد السوفياتي من أرضه وكرامته واستقلاله ووحدته جزية «اللعبة» التي جرت أو التي جرّوا إليها قادة ما سُمِّي بالانقلاب.

الواضح حتى الآن أن الاتحاد السوفياتي ينهار قطعة بعد قطعة وكأنه لوح زجاج رشق بحجر.

عقائدياً: حل الحزب الشيوعي ، سياسياً : العودة إلى العلم والرموز القيصرية، المزيد من تحقيق المطالب الغربية، والأميركية تحديداً، تفكّك في الجمهوريات، والكل يتسابق على إعلان الاستقلال والانفصال).

لم يعد هناك شيء اسمه الاتحاد السوفياتي. ثلاثة أيام وتبعتها أربعة كانت كفيلة بمسح أربعة وسبعين عاماً من التجذير العقائدي والسياسي والايديولوجي والعسكري. هذا هو التاريخ . . لا يرحم.

(*) الحوار بين مسؤول الـ كي . جي . بي. وبين قيادة روسيا التي اتخذت من مبنى البرلمان الروسي المركز الرئيسي لمعارضة الانقلاب.



وزير الدفاع الماريشال ديمتري يازوف

الجيش والـ «كي.جي.بي.»
رأس الحربة للانقلاب

الماريشال ديمتري يازوف: الرأس الأول المدبِّر للانقلاب

الماريشال ديمتري يازوف (٦٧ سنة)، عضو «لجنة الدولة لحالة الطوارىء»، وزير الدفاع في الاتحاد السوفياتي منذ العام ١٩٨٧، التاريخ الذي بدأ فيه صعوده الحقيقي.

وفي تلك السنة، أصبح في الوقت نفسه، عضواً مناوباً في المكتب السياسي، وعضواً كامل حقوق العضوية في اللجنة المركزية، ثم عيّن عضواً في المجلس الرئاسي بقيادة غورباتشوف في آذار ١٩٩٠، قبل أن يصبح بعد شهر من ذلك، أول ماريشال يرفعه غورباتشوف.

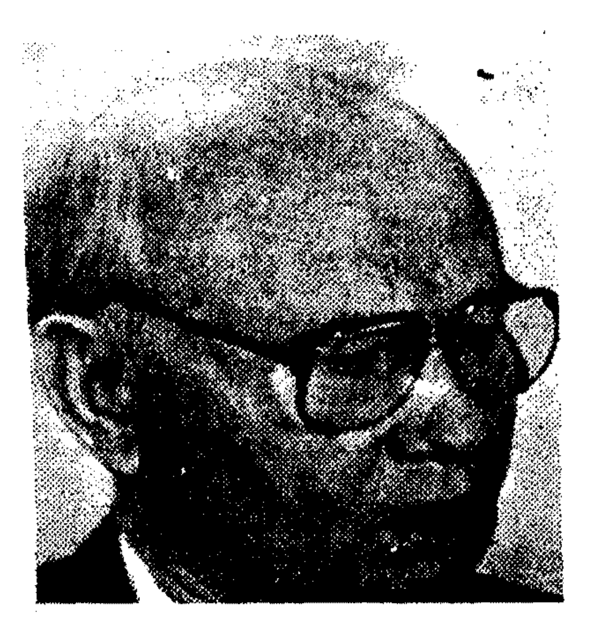
وكان يازوف نائباً لوزير الدفاع، عندما خلف في ٣٠ أيار ١٩٨٧، الماريشال سيرغي سوكولوف، الذي أقيل، إثر دخول طائرة سياحية بقيادة الألماني الغربي ماتياس راست المجال الجوي السوفياتي.

ولد يازوف في الثامن من تشرين الثاني ١٩٢٣ في منطقة أومسك في سيبيريا، ودخل الجيش في العام ١٩٤١، وشارك في الحرب العالمية الثانية. وخلال حياته في الجيش بدَّل مواقعه ٣٣ مرة حسب وكالة «تاس».

وهو عضو في الحزب الشيوعي منذ العام ١٩٤٤. تخرَّج من الأكاديمية العسكرية في فراونزي في العام ١٩٥٦، ثم من أكاديمية رئاسة أركان القوات المسلحة السوفياتية في العام ١٩٦٧، قبل أن يشغل مراكز مختلفة في القيادة، منها مركز مساعد أول لقائد المنطقة العسكرية في الشرق الأقصى بين عامي ١٩٧٦ و١٩٧٩.

وبعد أن أمضى عاماً على رأس «المجموعة المركزية» للقوات السوفياتية المتمركزة في تشيكوسلوفاكيا، عيّن في العام ١٩٨٠ قائداً للمنطقة العسكرية في آسيا الوسطى، ثم المنطقة العسكرية في الشرق الأقصى ابتداء من العام ١٩٨٤، بعد أن أسقطت مدفعية الطيران السوفياتي طائرة «بوينغ» مدنية كورية جنوبية، دخلت المجال الجوي السوفياتي ورُفّع إلى رتبة قائد عام للجيش في السنة نفسها.

وأثناء المؤتمر السادس والعشرين للحزب الشيوعي السوفياتي في العام ١٩٨١ (آخر عام لولاية ليونيد بريجنيف)، أصبح الجنرال يازوف عضواً مناوباً في اللجنة المركزية. اعتقل يوم ٢١ آب بعد فشل الانقلاب وأحيل إلى محكمة خاصة لمحاكمته بتهمة الخيانة.



رئيس جهاز أمن الدولة «كي . جي . بي .»
السيد فلاديمير كريوتشكوف

فلاديمير كريوتشكوف
رئيس الـ K.G.B.

(الرأس الثاني المدبِّر للانقلاب الفاشل)

مواليد ستالينغراد ١٩٢٤ .

عُيِّن رئيساً لأجهزة الاستخبارات السوفياتية في تشرين الأول ١٩٨٨ خلفاً لفيكتور تشيريكوف .

عضو كامل العضوية في المكتب السياسي . اختاره يوري أندروبوف عندما كان رئيساً لأجهزة أمن الدولة ليرئس قسم التجسس ، إلى جانب نشاطات أخرى في أجهزة الاستخبارات في الخارج بين ١٩٧٨ وتشرين الأول ١٩٨٨ .

تخرج من معهد الحقوق والمعهد الديبلوماسي التابع لوزارة الخارجية . عُيِّن في السفارة السوفياتية في المجر بين ١٩٥٤ و١٩٥٩ . عمل في بودابست حيث كان أندروبوف سفيراً لدى دخول الدبابات السوفياتية في ١٩٥٦ .

وبين ١٩٥٩ و١٩٦٥ عُيِّن في جهاز اللجنة المركزية قبل أن يصبح مساعداً لليونيد بريجنيف حتى ١٩٦٧ . وتسلَّق بعد ذلك هرمية أجهزة الاستخبارات لدى مجلس الوزراء حتى ١٩٧٨ عندما اختاره أندروبوف أحد أقرب مساعديه . وبحسب بعض الدبلوماسيين الغربيين عُيِّن لفترة (مطلع السَّبعينات) رئيساً لأجهزة الاستخبارات السوفياتية في نيويورك . رافق كريوتشكوف ، الذي يحمل رتبة فريق ، ميخائيل غورباتشوف إلى واشنطن في كانون الأول ١٩٨٧ ، ثم حلَّ محل فيكتور تشيريكوف على رأس الـ «K.G.B.» في تشرين الأول ١٩٨٨ .

وصلت أعـداد الـ .K.G.B في عصره إلى نحـو ٢٣٠,٠٠٠ عنصر مسلَّحـين بـأسلحة خفيفـة وثقيلة ومدرَّبـين أحـدث تـدريب عـلى عمليـات التجسس والتنصّت الداخلي والخارجي والملاحقات لأعداء النظام.

شارك مع لجنة الدولة لحال الطوارىء الثمانية في الانقلاب عـلى سلطة ميخائيـل غورباتشوف وشكّل مـع لجنة الـدولة القيـادة الجديـدة للاتحـاد السوفيـاتي والتي لم يدم انقلابها الفاشل أكثر من ثلاثة أيام.

اعتقـل مع مجمـوعة لجنـة الدولـة لحال الـطوارىء الثمانيـة يـوم ١٩٩١/٨/٢١ وأحيل إلى محكمة خاصة لمحاكمته بتهمة الخيانة.

موسكو: يوم التغيير

١٩ آب ١٩٩١ : قبل فشل الانقلاب

الحدث الأضخم وقع، والزلزال العالمي الذي كان العالم يخشاه قد حدث. ميخائيل غورباتشوف عُزل عن القيادة والعالم كله يجذبه الحدث ويتساءل: ماذا بعد غورباتشوف، واستطراداً ماذا عن النظام العالمي الجديد؟.

العسكر الأحمر (الجيش والمخابرات) كانا رأس الحربة في التحرك لاستلام الحكم وإعلان حال الطوارىء وتشكيل القيادة الجديدة. وكأن هذا الثنائي الجبّار قد ملّ أو عجز عن الأمل بعودة بريقه الأخّاذ والمسلوب منه بفعل عجز قيادته عن اللمعان بكل الهيبة والإجلال والقوة مرة أخرى.

وكأن العسكر أيضاً يعنيهم، وهذا حقهم، استناداً للتاريخ الطويل، أن يبقى الاتحاد السوفياتي القوة الضخمة التي تهابها كل أمم العالم وأن يعاد لهم «حق» الهيبة والقوة التي فرط بها من أجل حفنة من المساعدات المشروطة والمكبّلة بألف شرط وشرط.

انتفاضة العسكر، إذا جازت التسمية، آخر الدواء قبل النوم الطويل المليء بشتى أنواع الكوابيس والأحلام المزعجة والقاتلة. فبعد الانسحاب الطوعي من كل مواطىء أقدام الامبراطورية الروسية في أوروبا وآسيا وافريقيا وتجييرها للآخرين، بعد هذا التراجع الخطير كان لا بد للمجابهة من أن تحدث في خط الدفاع الأخير بعد أن تحولت الامبراطورية الروسية إلى دولة منهوكة القوى تهدّدها في كل لحظة انفصال جمهورياتها للحصول على الأغذية والمؤن والقروض والمساعدات معتبرة أي «فتات» يلقى إليها مكسباً وكأن هذه الامبراطورية العملاقة لم تكن لعشر سنين خلت الوعاء

الذي لا ينضب في دعم عشرات الدول الحديثة الاستقلال ومد يد العون والمساندة المادية والمعنوية لأكثر حركات التحرر الوطني في شتى قارات العالم.

وكأن المطلوب اليوم هو إنهاء الاتحاد السوفياتي كدولة من دول العالم عبر تجزئته وتفكيكه، ولم يعد يكتفى بإلغاء دوره كدولة عظمى على هذه القارة يملك الترسانات النووية الضخمة والتطور الصناعي العملاق.

كل هذه العوامل، مضافاً إليها معاملة «الذل والمهانة» من قبل العدو اللدود أميركا (الشريك في النظام العالمي الجديد!!) وحلفائها الأوروبيين والآسيويين لاحتياجاته الاقتصادية الملحّة التي سبّبتها نظرية البيروسترويكا والانفتاح، هل انتفض العسكر من أجل كل هذا؟؟

مقدمات الانقلاب وأسبابه

سيناريو انقلاب:

الكثير من التوقعات والتحليلات أجمعت جميعها وعبر وسائل الإعلام العالمية إلى قرب وقوع الانقلاب الروسي وكل هذه المعلومات أشارت إلى الجيش والـ كي. جي. بي. كرأس حربة في قيادة هذا الانقلاب إنقاذاً لوحدة الوطن والتراب وصيانة للاستقلال الوطني. حتى إن مراسلاً لإحدى وكالات الأنباء العالمية ومن موسكو طرح السيناريو الكامل لتفاصيل تنفيذ هذا الانقلاب مع تقديم الأسباب والمبررات والمؤشرات لوقوعه وذلك نقلاً عن مصادر متعدِّدة المشارب والمصادر والأهداف داخل التجمعات السوفياتية نفسها.

السيناريو كما ورد يوم ١٩٩١/٢/٤ مع مقدمة له:

■ قبل مغادرتي موسكو سألني مسؤول عن انطباعاتي فقلت له إنني التقيت العشرات وكلما زادت لقاءاتي ومناقشاتي ازددت ارتباكاً وعدم فهم.

وضحك الرجل وهو يقول: تريد أن تفهم في عشرة أيام، وأنا أقيم هنا منذ أكثر من خمسين عاماً ولا أفهم شيئاً.

وكنت قد أمضيت أياماً في حوارات مع مسؤولين في الحزب الشيوعي ومسؤولين في الاقتصاد ومسؤولين في الأحزاب الجديدة ومسؤولين في الجمهوريات التي أعلنت استقلالها. ولم يكن لأي واحد منهم رأي يتفق مع رأي الآخر، حتى أعضاء الحزب الواحد، لا يتفقون حول تحديد أي رؤية مستقبلية ولا حول تشخيص الماضي وربما كان الشيء الوحيد المتفق عليه هو أن الاتحاد السوفياتي يعيش في أزمة وأنه تحوَّل إلى دولة تقبل المعونات من دول العالم الثالث، وأن جميع «العواميل» التي تربط المجتمع قد تفكَّكت.

الفلتان

جمهوريات تعلن الانفصال، ومدن تعلن أنها جمهوريات، ومناطق في قلب العاصمة تعلن نفسها مناطق حرة، ومحلات تجارية خالية من البضائع العادية، وعصابات شبه رسمية مسلَّحة تحمي رجال الأعمال الجدد الذين ظهروا حتى الآن في صورة التعاونيات. ورئيس جمهورية روسيا ـ أكبر الجمهوريات ـ يعلن أنه لن يطبِّق القوانين الاتحادية ويصدر قوانين جديدة، فيأتي مدير بلدية موسكو ليقول إنه لن ينفذها ويصدر قوانينه الخاصة، والموظفون لا يطبِّقون لا هذه ولا تلك ويتصرَّفون وفقاً لمصالحهم وأهوائهم.

وانتشرت الرشوة والاتجارَ في السوق السوداء، والدعارة والمخدرات، وشهدت البلاد نمواً في الثروات غير المشروعة حتى أن شوارع موسكو تجري فيها سيارات يملكها سوفيات، ثمن الواحدة أكثر من مليون روبل، في حين أن متوسط الأجر الشهري لا يزيد على مائتي روبل بعد كل التعديلات الأخيرة في الأجور والمرتبات.

الارتداد المتعدِّد

وفي الاتحاد السوفياتي الآن الذين يدافعون عن الاشتراكية يطلق عليهم اسم اليمين، والذين يريدون هدمها هم اليسار. وهنا يمين متطرِّف يعادي كل ما قام به غورباتشوف ويعمل للعودة إلى صورة الاشتراكية كما نادى بها لينين وطبَّقها ستالين، ويسار متطرِّف يريد الانقضاض على كل ما قامت به «الثورة الاشتراكية» بل ويطالب بعودة القيصر.

وهنـاك حفيد لأحـد أشقاء القيصر يعيش في أوروبـا الغربيـة يرشّحـونه ليكـون قيصـراً جديـداً أو ملكاً عـلى الاتحاد السـوفياتي. وهؤلاء لهم حـزبان ويـرفعون صـور القيصر في كل مكان ويقومون بتظاهرات تحت صور وشعارات عودة القيصرية والظلم الذي حاق بالقياصرة والدموية التي عوملت بهـا أسرهم، ويرون أنـه لو لم تقم الثـورة البلشفية لما وصلت البلاد إلى الأزمات التي تعانيها الآن.

أبرز المنظمات التي تـطالب بعودة القيصر منـظمة «ذكـرى» وتشترك معهـا القوى الوطنية الأرثوذكسية. وقـد عقدوا مؤتمـراً رأى المشاركـون فيه أن السلطة الشرعيـة غير موجودة في روسيا منذ عام ١٩١٧، ولا يعترفـون بالـرئيس أو الحكومـة السوفيـاتية ولا بـالسلطة الكافـرة والملحدة. ويلتزمـون بعـودة القسم الأكـبر من الشعب الـروسي إلى الأرثوذكسية وانتخـاب ملك مطلق السلطة. وأعلن الخـطباء أن الحـزب الشيوعي هـو حزب الشيطان وعلى الشيوعيين التوبة والرجوع إلى الأرثوذكسية، وعند ذلك يستطيـع الملكيون أن يتعاملوا معهم.

وكانت أبرز قرارات المؤتمر تمجيد نيكولاي الثاني وجميع الشهـداء الروس الجـدد على ايدي البلاشفة وهم الأغلبية التي ناصرت لينـين، وإنشاء مؤتمـر استشاري يعمـل بصفة دائمة تكون مهمته حشد القوى الملكية الأرثوذكسية، والإعداد لمجـالس تنتخب الملك المطلق «القيصر» من أسرة رومانوف.

وهكذا فإنه بعد أن يزيد على سبعين عـاما عـلى الثورة الاشـتراكية، يـرتفع من الاتحـاد السـوفيـاتي شعـار «في انتـظار جـلالتكم». . . أي أن النـاس ينتـظرون عـودة القيصر، الملك المطلق «القيصر» من أسرة رومانوف.

وهو أمر يبـدو شديـد الغرابـة، لأن الذين يـرفعون هـذه الشعارات، يـرفضون الحكم المـطلق، والسلطة المطلقـة للحزب الشيـوعي. . ويـريـدون استبـدالهـا بسلطة أخرى مطلقة أيضاً. . . فروسيا لم تعرف الديمقراطية من قبـل لا في زمن القيصر، ولا بعده. . .

وعنـدما منحت إرهـاصات ديمقـراطية مختلفـة، تحوّلت إلى المـطالبة بـالعودة إلى الديكتاتورية القيصرية، التي يرى البعض أنها حققت ـ في زمنهـا ـ إنجازات مـا زالت باقية حتى اليوم على الرغم من تحويلها إلى متاحف ومزارات سياحية.

أنصار القيصر أنصار غورباتشوف

وفي مقابل هؤلاء يقف الحرس القديم، وهو أشد قوة، وربما أكثر تنظيماً، ويعبر عن نفسه أيضاً، ويصدر صحفاً تطالب بالعودة إلى الماضي القريب لإعادة الاتحاد السوفياتي كدولة عظمى تحمل راية الاشتراكية في العالم كله.

وهؤلاء رحَّبوا بغورباتشوف وأفكاره الجديدة على أساس أنها دعم للاشتراكية. وتجديد لشبابها. وسرعان ما اتضح لهم أن الأمور تفلت من أيديهم، حتى إن غورباتشوف نفسه تقدَّم إلى مؤتمر نواب الشعب باقتراح، بحذف كلمة الاشتراكية من اسم الدولة، على أساس أن الدولة الرأسمالية لا تعلن عن ايديولوجيتها في اسمها، ولكن اقتراحه رفض من برلمان لا يملك الحزب الشيوعي المغلوب على أمره، والمنقسم على نفسه أغلبية فيه.

الانقلاب العسكري، أعلى مراحل تمزق الامبراطورية الاشتراكية!

يقف غورباتشوف في الوسط بين اليمين المحافظ واليسار التقدمي بمعناهما السوفياتي الجديد المختلف عمَّا ألفناه من مصطلحات، ولكنه فتح الباب لهذا الإعصار المدمِّر فتمَّ القضاء ـ ولو نظرياً ـ على كل النظم القديمة، دون ترتيب أو إعداد مسبق، ومن دون وضع أسس واضحة للبناء الجديد، فأحدث تمزقات في كيان المجتمع والدولة على كل المستويات. ولم يعد أمامه ليحكم قبضته، وينفذ ما يريد إلَّا أن يضع في يده مزيداً من السلطات. وهو ما حصل عليه أخيراً. حتى أصبحت في يده صلاحيات مطلقة لم ينلها حاكم قبله في تاريخ الاتحاد السوفياتي كله.

وفي ظل هذا التمزق تلوح فكرة الانقلاب العسكري لحسم الأمور، في أي من الاتجاهات، مع اليمين أو مع اليسار، مع الاشتراكية أو ضدها، مع وحدة الدولة أو تمزيقها. . . .

انقلاب معلن. . . ويبقى التنفيذ!

والاتحاد السوفياتي هو البلد الوحيد في العالم الذي تناقش فيه علناً، وعلى صفحات الصحف، احتمال القيام بانقلاب عسكري من اليمين أو من اليسار، وهي

مناقشات واسعة يشترك فيها جنرالات من الجيش وبعض الضباط يدلون برأيهم فيها، بل إن بعضهم يضع «سيناريو» الانقلاب، المحتمل.

ووفقاً لما نشرته إحدى الصحف أنه تتوفر لدى اتحاد الدرع معلومات تفيد أن قيادة القوات المسلَّحة تملك خطة دقيقة للسيطرة على الوضع في البلاد، ولن يجري هذا فوراً وفق الجدول الذي أعد، بل وفقاً للمناطق بدءاً من الشرق الأقصى، ففي يوم الانقلاب تنتقل السلطة من الساعة ٦ ـ ٨ صباحاً إلى العسكريين في أقصى الشرق عندما تكون الساعة في موسكو ١٠ ـ ١٢ مساء، وسيستولي على استديوهات التلفزيون ووسائل الإعلام، وستشغل أجهزة التشويش على الإذاعات الأجنبية، وستستعمل وسائل الاتصال العسكرية لبث الأوامر العاجلة. وهكذا سيجري الانتقال من منطقة إلى أخرى باتجاه الغرب، وكلما كانت المنطقة بعيدة عن موسكو كان الوضع الاجتماعي السياسي أهدأ. سيعلنون حالة الطوارىء في الشرق الأقصى، ويراقبون رد فعل العساكر والبحارة. وعندما يصلون إلى «فوفو كوزنيستك» يراقبون رد فعل عمال المناجم، وهكذا تمتد الموجة بوصلة عكسية، ويمكن أن يعلنوا أن تدريباً عسكرياً يجري.

ويوجه مندوب الصحيفة سؤالاً إلى الجنرال الذي تحدث عن خطة الانقلاب، عما إذا كانت الاستعدادات للانقلاب يمكن آن تبقى سراً، ولا تعرف بها قيادة البلاد.. فيقول إن الخطر الأساسي يكمن في أن هذه الاستعدادات شرعية ولا تنطوي على شيء تآمري. إنها مجرَّد إعداد لجدول أعمال إعلان حالة الطوارىء التي ينص عليها الدستور، وما دام هناك حالة طوارىء وأحكام عرفية فيجب أن توجد اجراءات لتطبيقها. وإذا كان العسكريون يعدون الاجراءات وتطبيقها بأنفسهم، فإنهم يصبحون أسياد الموقف.

ضد البرلمانية

ويقول أحد العسكريين إن كل القيادات العليا لوزارة الدفاع والأركان العامة والتوجيه السياسي، ولجنة أمن الدولة ووزراة الداخلية والنيابة العامة لا يزالون يعتبرون أن قرارات الحزب أعلى قانون بالنسبة لهم، وتحلم أغلبيتهم بالنظام القديم، والقضاء على النظام البرلماني كما يبينّ تاريخنا لا يحتاج إلاّ سرية من الجنود..

وفي حالة الانقلاب لن يعلن أحد بالطبع «لتسقط البيروسترويكا» بل على العكس سيدور الحديث عن أنها في خطر، وأن المغامر غورباتشوف قاد البلاد نحو الانهيار والاقتصاد إلى الانحطاط، وخان مثل الاشتراكية، وسيؤلّفون لجنة الإنقاذ الاجتماعي وسيعلنون في البلاد حالة الطوارىء والأحكام العرفية.

والسؤال هو عن جنرالات الجيش، وبينهم وبين الضباط المتوسطين والصغار كثير من أنصار الاصلاحات الراديكالية.

والإجابة من داخل القوت المسلحة أنهم كلهم تحت الرقابة فثمة مخبر من كل فصيلة أو جماعة، وجيشنا لا يتعطّش إلى الدماء، والمزاج العام للضباط حتى رتبة عقيد ضد الحزب الشيوعي بشكل معتدل، وينتظر الجميع عدا الموجّهين السياسيين الآن على التصدي للأطروحات الايديولوجية.

لا حاجة للموعد

وتمنع في الجيش صحافة البيروسترويكا التقدمية، وتستمر الأحاديث وفق المقولات والكتابات التي أقرّت قبل عشرات السنين. وتصور المنظمات الجديدة أنها هدَّامة، ونحن نعرف في تجربتنا ماذا يعني هذا... وقد جرى أخيراً تطهير في الجيش من العناصر الديمقراطية تحت شعار تقليص الجيش....

والانقلاب ـ حسب الصحيفة السوفياتية ـ لا يتطلّب أي موعد سري للقيام به، فإننا نغامر أكثر فأكثر بشكل غير ملحوظ في الوصول إلى حالة الطوارىء التي أصبحت جزءاً من حياتنا اليومية العادية، ولا يستبعد في المستقبل الخراب الاقتصادي ووقف تزويد المدن والمناطق بالمواد الغذائية والوقود، وزيادة الإضرابات والاصطدامات بين القوميات وظهور ملايين اللاجئين، وقد يطلب الشعب نفسه حالة الطوارىء حتى يخيّل أحياناً أن يداً ماهرة تدفعنا إلى طريق الانقلاب بالذات ويوحون للشعب بأنه عندها سيجد الهدوء والنظام، ونحن في حاجة اليهما».

وهكذا فإن قضية الانقلاب العسكري، تدور على كل الألسنة، وتناقش بصراحة، وهي تتهم المحافظين، والقوى الرجعية ـ (الاشتراكية السابقة) ـ داخل الجيش بأنها هي التي تدفع في هذا الاتجاه للعودة إلى القبضة الحديد.

أنصار الماضي الاشتراكي، «وهم الرجعيون الآن» ـ يرون أنه إذا وقع انقلاب عسكري فإن الذي سيقوده هو غورباتشوف نفسه ليحصل على مزيد من السيطرة حتى يمكنه أن ينفِّذ برنامجه الذي يجد عوائق من قوى كثيرة من اليمين ومن اليسار، فهو لم يستطيع إرضاء طموحات هؤلاء، ولا أولئك، لذلك فإنه وفقاً لاستطلاعات الرأي فقد انخفضت شعبيته ووصلت إلى مستوى متدنٍّ جداً، حتى داخل الحزب الشيوعي الذي يقوده مما دفع بعض الصحف إلى أن تتساءل على أي قوى يعتمد غورباتشوف وأي كيانات يستند إليها.

الـ .K.G.B: بين المطرقة والسندان

التحذير من تدخل قوى خارجية

يوماً بعد يوم، ومع تفاقم الصراع السياسي بين الاتحادات والتيارات المتناحرة في الاتحاد السوفياتي، يتقلّص مفهوم «البيروسترويكا» و«الغلاسنوست» لمصلحة العودة إلى الأساليب التقليدية في إدارة الصراع، وتعاظم دور جهاز الاستخبارات السوفياتية المعروف بـ «الكي. جي. بي.» فيه، بل وربما استعمل «الكي. جي. بي.» كأداة أساسية في ممارسة الضغوط على الخصم بين الأطراف المتنازعة، وفي التدخل بشكل سافر في الشؤون الاقتصادية والسياسية.

وقد تجلّت العودة مؤخراً من قبل الزعيم السوفياتي ميخائيل غورباتشوف في الاتكال على هذا الجهاز بشكل أساسي بعد كلام كثير على تقليص دوره في إطار تجديد الهيكلية السياسية والإدارية السوفياتية، نتيجة تفاقم الصراع السياسي بين التيارات المتشدِّدة على الساحة الداخلية، هذا الصراع الذي أشار غورباتشوف إلى أنه على وشك تفتيت البلاد وشرذمتها وإدخالها في أتون الحرب الأهلية، وتحويلها من قوة عظمى إلى مرتبة أدنى بكثير من ذلك، بسبب تزايد النزعات الانفصالية والتوترات القومية والعرقية.

وكانت أولى بوادر عودة الـ «كي. جي. بي.» إلى الساحة علانية قيام رئيس الاستخبارات السوفياتية فلاديمير كريوشكوف (راجع تفاصيل أخرى في آخر الكتاب) قبل أسابيع قليلة من بداية العام الحالي باتهام حركات المعارضة السوفياتية خصوصاً الراديكاليين، بأنها تتلقّى دعماً من قوى خارجية وقد أشار غورباتشوف في حديث للتلفزيون السوفياتي حينئذ بأن «الديمقراطية والغلاسنوست (المكاشفة)تصبحان كلمات جميلة إذا كان هناك قانون ونظام في المجتمع». وأضاف: «إن تضخم بعض الحركات

الراديكالية ليس نتيجة للمصادفة وإنما هو أمر مخطط، وبعضها يحظى بمساعدة مادية من الخارج».

كذلك أوضح رئيس الـ «كي . جي . بي . » في مجال آخر بأن «جهات متعدِّدة تشن حرباً خفية على السلطات السوفياتية». وأشار إلى أن المهمة الرئيسية لجهازه هي تطبيق قرار البرلمان في شأن مكافحة التخريب الاقتصادي والرقابة على استخدام المنتجات المستوردة عبر القنوات الشرعية.

الصلاحيات الواسعة.

وعندما أطلق الزعيم السوفياتي غورباتشوف بعدئذ أيدي أجهزة الاستخبارات والشرطة، بإعطائها صلاحيات واسعة عبر مرسوم رئاسي سمح لهم بدخول الدوائر والمكاتب والمؤسسات العامة والخاصة (باستثناء البعثات الدبلوماسية)، وتفتيشها ووضع اليد على أموالها حتى في غياب مالكيها، كما سمح بالحصول على معلومات من المصارف في شأن العمليات النقدية والنشاط الاقتصادي الخارجي، ومنع التصرف بالأموال والوثائق في حيازة المؤسسات بما فيها المختلطة التي يساهم فيها الرأسمال الأجنبي. عندما فعل غورباتشوف ذلك في اتجاه إلى سياسة التشدّد، لاقت تدابير الزعيم السوفياتي ردود فعل رافضة ومستنكرة ومنتقدة من قبل الراديكاليين والليبراليين على السواء. فالليبراليون الذين يسيطرون على مجلس مدينة موسكو، اعتبروا هذه التدابير بمثابة إعلان لحال الطوارىء وتطاولاً على صلاحيات الهيئات المنتخبة شرعياً في الجمهوريات والمدن المتعدِّدة، ورفضوا القرار وطالبوا البرلمان الروسي بإلغائه. فيما علّق أحد أبرز الراديكاليين وهو الجنرال «كوميساروف» وهو الصديق المقرَّب لبوريس يلتسين ومدير شرطة موسكو، بأن الرئيس غورباتشوف فشل في التغلب على الأزمة الحالية التي تمر بها البلاد والتي يتحمَّل مسؤوليتها الحزب الشيوعي وكل عضو فيه، وأعلن «كوميساروف» أنه سيجري إصلاحات جذرية في مديرية شرطة العاصمة السوفياتية من بينها تعليق عضوية عناصرها في الأحزاب، بما فيها الحزب الشيوعي، وحل كل منظماته في دوائر الشرطة في العاصمة.

الحرب ـ الواسطة.

ولكن ربما كان أبرز رد فعل في روسيا الاتحادية التي يرئسها يلتسين على تدابير

غورباتشوف في إطلاق يد الاستخبارات، اتخاذ البرلمان الروسي لقرار يقضي بتشكيل لجنة لأمن الدولة خاصة، أي جهاز استخبارات خاص بروسيا، حيث وجه عدد كبير من النواب الروس نقداً شديداً لخطاب رئيس الاستخبارات السوفياتية «كريوشكوف» الذي سبق وألقاه عبر التلفزيون السوفياتي، واعتبروه تجاوزاً لصلاحيات الـ «كي . جي . بي . ».

ويبدو أن «حرباً استخباراتية» تدور بين الأجنحة المختلفة في الـ «كي . جي . بي . » وتعبر عن الصراع السياسي بين الرئيس غورباتشوف والتيارات المناوئة له. ويستخدم جهاز الـ «كي . جي . بي . » من قبل القوى المتصارعة لإرهاب خصومهم وهذا ما ساهم مباشرة في تفتيت هذا الجهاز وإبعاده عن أهدافه الأساسية في ضبط الأوضاع الداخلية ومنع التجاوزات وانتشار الفساد.

على أية حال، إنه الصراع السياسي في الاتحاد السوفياتي وقد تحوَّل إلى صراع مفتوح وفضائحي. وقد أطلقت فيه أيدي الاستخبارات بأجنحتها المختلفة المتواجهة كأدوات، في دراما قديمة اسمها... السلطة.

العراف الأميركي يتنبأ!!

تقرير أميركي خطير: العالم بعد غورباتشوف.

واشنطن: ١/٤/١٩٩١.

بدأ التفكير في واشنطن - بعد انتهاء الحرب في الخليج مباشرة - في مسألة «العالم بعد غورباتشوف».

يبدو أن الكلمة للاقتصاديين قبل غيرهم هذه الأيام في الولايات المتحدة حيث المسألة الاقتصادية عادت موضوعاً أشدّ سخونة وخطورة من موضوع حرب الخليج، وعليها يتوقّف شكل «النظام العالمي الجديد» الذي كثر حديث الرئيس بوش عنه طوال فترة الحرب وبعد أيام قليلة من نهايتها ولم يلبث أن اختفى التعبير من خطبه ومؤتمراته الصحافية. وتقول القاعدة السائدة الجديدة خذوا الحكمة من أفواه الاقتصاديين.

الاقتصاديون الأميركيون هم اليوم الأكثر نشاطاً وحركة... تتسلّط عليهم الأضواء بحثاً عن حلول للمشكلات. لا للمشكلات الاقتصادية وحدها، بل للمشكلات الاستراتيجية والعسكرية والسياسية... وحتى الفكرية، وتستمد إدارة بوش أفكارها عن النظام العالمي الجديد من الاقتصاديين قبل غيرهم. وقد عهدت إلى مؤسسة أميركية - عالمية تسمّى «الاستثمار الاستراتيجي» بمهمة استطلاع مستقبل الاتحاد السوفياتي. وجاءت إليها المؤسسة بتقرير - بعد دراسة مستفيضة - ينطق كل سطر فيه بتوقعات خطيرة للغاية.

حقائق عن المؤسسة

بداية تعد هذه المؤسسة - من وجهة نظر اليسار الأميركي واليسار في أوروبا الغربية - بمثابة «واجهة» لوكالة الاستخبارات المركزية الأميركية. تتمثّل تقاريرها

وأفكارها وتبثها في تقاريرها، وهي بدورها تقارير سرية توضع فقط لحساب من كا
المؤسسة بها ودفع ـ مبالغ ضخمة ـ مقابل الدراسات التي تفضي إليها.

وبالطبع فإن المؤسسة المذكورة تنفي هذا الاتهام المسلَّط عليها بأنها أداة من أدوات الحرب الباردة منذ أن بدأت.

كانت المؤسسة نفسها هي الوحيدة التي تنبَّأت باختيار اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي لميخائيل غورباتشوف لزعامة الحزب في أثناء مرض الأمين العام تشيرنينكو في عام ١٩٨٥. وكان غورباتشوف لا يزال عضواً «شاباً» في المكتب السياسي للحزب. وقد تعرَّف عليه رجال مؤسسة «الاستثمار الاستراتيجي» في لندن عن طريق عضو في البرلمان البريطاني كان يعرفه جيِّداً.

في ذلك الوقت وصفت المؤسسة غورباتشوف في تقرير لها بأنه «سيكون جون كيندي وروبرت كيندي في شخص واحد» بالنسبة للاتحاد السوفياتي، وتوقعت أن يلعب الدور الرئيسي طوعاً في سحب القوات السوفياتية من كل أماكن وجودها في خارج الاتحاد السوفياتي، وسيسعى لإقامة علاقات تعاون لا مواجهة مع الغرب. قيل هذا كله قبل أن يصعد غورباتشوف إلى منصب الأمين العام للحزب الشيوعي السوفياتي بعد وفاة تشيرنينكو، وعزت المؤسسة المعلومات التي أسست عليها هذه التوقعات إلى عضو فيها هو في الحقيقة نائب في مجلس العموم البريطاني يعد « أخبر البريطانيين بالشؤون السوفياتية»، اسمه جون براون. . . وقد اختير ليرافق غورباتشوف وزوجته رايسا في أثناء زيارة للندن في أوائل عام ١٩٨٥.

تملك المؤسسة شبكة اتصالات على مستوى عال وتغطي جميع أنحاء العالم. وتجمع المعلومات عن طريق هذه الشبكة لتكون أساساً تستند إليه عمليات الاستثمار الدولية الكبيرة. . الأميركية وغير الأميركية، و«لحماية أموال الاستثمار الضخمة الموظفة في الخارج». هذا عن «الأستثمار الاستراتيجي».

تنبؤات المؤسسة

أما عن التقرير الأخير للمؤسسة إلى إدارة الرئيس بوش فإنه يتنبَّأ، بثقة مفرطة يستمدها واضعو التقرير من صحة توقعاتهم بشأن الاتحاد السوفياتي طوال أكثر من ربع قرن بوقوع الأحداث التالية:

□ سيسقط غورباتشوف وفي وقت قريب للغاية. «لقد تدهورت الأوضاع في ظل زعامته التي استغرقت أكثر قليلاً من خمس سنوات، من سيّىء إلى أسوأ. ولقد حاول أن يلقي اللوم خلال السنوات الأولى من توليه السلطة على الذين سبقوه، لكن الناس يريدون نتائج عملية وقد أثبت عجزه عن الإتيان بها».

ويقول التقرير إن الأحرى أن يكون واضحاً أن غورباتشوف لا بد أن يسقط. من الضروري أن يبتعد عن السلطة. لقد كانت الشيوعية هي «اللاصق» الذي يجمع أطراف الاتحاد السوفياتي معاً في دولة كبرى واحدة. . «أما بدون هذه الايديولوجية فإن من المستحيل حكم الاتحاد السوفياتي. وهو بالفعل يتفكّك بسرعة تفوق كل التوقعات». ويوجه اللوم الآن إلى غورباتشوف بالنسبة لتقويض أركان الامبراطورية الروسية التي استطاعت أن توحد هذه البلاد زمناً طويلاً. ولن يستطيع أن يصمد لأكثر من شهور.

□ بعد رحيل غورباتشوف ستقع «الثورة الروسية الثانية».

«وعلينا أن ندرك أنه لا توجد فرصة حقيقية لتحول الاتحاد السوفياتي نحو الديمقراطية سلمياً. هناك عدة شروط ومؤسسات لا بد من أن تقوم على أساسها حكومة ديمقراطية. وهذه الشروط ليست متوافرة الآن في الاتحاد السوفياتي. وسيستغرق إقامتها عدة سنوات. وخلال هذه السنوات نتوقّع حدوث اضطرابات كثيرة».

ويذهب التقرير إلى أنه «توجد في الاتحاد السوفياتي كمية من الأسلحة النارية غير المرخصة بأيدي السكان تعد أضخم ما في أيدي السكان في أي بلد آخر في العالم. . . بينما يوجد أكثر من ٣٠ ألف سلاح نووي منتشرة في جميع أرجاء الاتحاد السوفياتي». ونظراً لوجود نحو مئة قومية مختلفة يضمر معظمها عداوات قديمة يمكن أن تتحوّل إلى حروب أهلية على درجات مختلفة من الشدّة والخطورة، تفوق لبنان وإيرلندا الشمالية وسري لانكا.

ولقد كان دور الجيش الروسي القيصري، وبعده دور الجيش الأحمر السوفياتي منع انفلات الأوضاع من سيطرة السلطة المركزية. وسيعني انهيار السلطة السوفياتية

حدوث «حمامات دم» في كثير من المناطق، واضطرابات في مناطق أخرى، وفي بعض الأحيان حروب أهلية.

□ «إننا نوشك على أن نكتشف أن روسيا بعد انهيار الشيوعية فيها ستكون أخطر على السلام والأمن الدوليين وعلى الرخاء الاقتصادي مما كانت الشيوعية في ذروتها»(. . .).

عصر الاضطراب

وبينما يتحدث كثيرون ـ يقول التقرير ـ عن نهاية الحرب الباردة بانتصار الولايات المتحدة والغرب فإن ما يلوح في الأفق هو عصر من الاضطراب. «كان السوفيات ـ قبل انهيار الشيوعية ـ قوة يعتمد عليها. كانوا محافظين وحذرين. وقد تمكنوا منذ نهاية الحرب العالمية الثانية من أن يقمعوا كثيراً من الصراعات المحلية. وقدموا خلال ذلك خدمات إضافية لأميركا. لكن هذه الخدمات التي كانت لمصلحة الأميركيين وتمتَّعوا بها طويلاً توشك أن تنتهي . . . وبصراحة تامة فإننا نتوقع أن تفلت الأمور من السيطرة بدرجة خطيرة خلال السنوات القليلة المقْبلة.

□ إن السنوات الخمسين منذ نهاية الحرب العالمية الثانية كانت أطول فترة للحدود المستقرة في تاريخ أوروبا. وقد انتهت هذه الفترة كما يعرف أي قارىء للصحف هذه الأيام.

«توقعوا صراعات على الحدود تصبح مصدراً جديداً للتوتر وحتى للحرب في أوروبا خلال السنوات المقبلة. وربما يؤدي بعضها إلى نتائج بحجم الكوارث، ها هي ألمانيا تنازع بولندا على مناطق محدّدة من وسط أوروبا. وهنغاريا تقترب من حرب مع رومانيا حول معاملة الهنغاريين الذين يعيشون في إقليم الترانسفال الروماني. والأذربيجانيون يستخدمون الصواريخ التي تطلق من فوق الكتف ضد القطارات الأرمنية».

«عليكم أن تتوقَّعوا المزيد من نزاعات الحدود هذه في المستقبل القريب، وبناء على ذلك فإن الاستثمار في شركات للصناعات الدفاعية الأوروبية لن يكون فكرة سيِّئة»(. . .).

«من الأمور التي تثير الاضطراب لدى كثيرين في الغرب أن الإسلام في صعود. . . السكان المسلمون في الاتحاد السوفياتي يتزايدون بمعدل ضعف الزيادة بين باقي السكان. . . وهؤلاء الناس لديهم أفكار في الحكم وحقوق الأفراد تختلف كثيراً عن أفكارنا في العالم الغربي. وكثيرون من الأصوليين الإسلاميين يعتبرون أن الغرب ضعيف وآخذ بالإنحلال. . . ولهذا فإن الشركات التي تأخذ بجدية عنصر مكافحة الارهاب في الاعتبار في إنتاجها ـ وهي قليلة في وقت تميل فيه الحكومة (الأميركية) لخفض الميزانية الدفاعية ـ مرسخة لتحقيق أرباح كبيرة».

إن الشعوب السوفياتية الإسلامية توثق علاقاتها بالفعل ـ على أساس من قضايامشتركة ـ مع إيران وأفغانستان ودول إسلامية أخرى. وقد يكون «بداية لأكبر تهديد للسلام العالمي خلال العقدين المقبلين». . . إن الإسلام قد يؤدي سريعاً دوره في توحيد منطقة بضخامة مساحة الاتحاد السوفياتي ويسكنها ملايين أكثر. «ولن تكون هذه أول مرة في التاريخ يخوض فيها العالم الإسلامي حرباً مع الغرب. وقد لا يكون لدى هذا الاتحاد الفيدرالي الجديد لعموم المسلمين احترام كبير للمؤسسات الغربية. ولكن من المؤكَّد أنه ستكون لديه أسلحة نووية. هذا ما سيرثه عن السوفيات»(. . .).

□ لن يكون الاتحاد السوفياتي وحده الدولة المعرَّضة للتفكّك في السنوات القليلة المقبلة. إن ثمة تياراً جديداً مذهلاً، إنه تيار انحدار الدولة القومية. ستتفكَّك دول أخرى. نتوقع أن تفقد الهند العنصر الذي يلمّ شتاتها. كذلك الصين، وأندونيسيا، وبعض البلدان الافريقية. حتى تلك التي لن تتفكَّك تماماً ستجبر على أن تمنح قدراً أكبر من الحكم الذاتي للأقليات الاقليمية فيها. . . بما في ذلك كندا.

معركة البقاء كقوة عظمى

□ وسط كل تلك البلبلة الجارية في الاتحاد السوفياتي في المرحلة الراهنة، والمتمثلة بالنزعات الانفصالية في الداخل من قبل معظم الجمهوريات السوفياتية التي يتشكل منها الاتحاد وعلى رأسها جمهوريات البلطيق الثلاث، وحيث تقترن هذه النزعات الانفصالية بضغوط خارجية أميركية وبدرجة أدنى أوروبية تجلّت بتجميد ١,٥ بليون دولار من المساعدات، يتفق معظم المحللين السياسيين على الهدف الذي يكمن وراء كل هذه البلبلة السياسية والشرذمة المدعومة بمحاولة مفاقمة الوضع الاقتصادي المتدهور أساساً، هو دفع الاتحاد إلى منزلة أدنى بكثير، وذلك في إطار التنافس الذي بدأ يستعر بين القوى العظمى والكبرى في هذا العالم على عتبة مرحلة التحول إلى نسق جديد في العلاقات الدولية، وتشكيل نظام عالمي جديد.

وهذا الكلام لا يأتي من فراغ، لأن الدلائل على محاولة دفع الاتحاد السوفياتي إلى الهاوية، سواء بتفكيكه أو بتحطيمه اقتصادياً واجتماعياً، أشار إليها تقرير لـ «فلاديمير إيفاشكو» نائب الرئيس ميخائيل غورباتشوف في الأمانة العامة للحزب الشيوعي السوفياتي، تمَّ عرضه أمام اجتماع مهم للجنة المركزية للحزب في الأسبوع الماضي وجاء فيه: إن «الحزب الشيوعي يتحمل المسؤولية التاريخية عن مصير الإصلاحات لأن الاتحاد السوفياتي يجب أن يبقى دولة عظمى».

وفي الإطار نفسه توالت التصريحات والتعليقات حول ما يدور في الاتحاد السوفياتي من قبل عدد من المسؤولين السوفيات في مناصب بارزة.

ياناييف: نرفض أوامر الغير.

فقد أشار «غينادي ياناييف» نائب رئيس الدولة، الذي تفرَّغ للعمل الحكومي

بعدما أعفى من مهماته كعضو في المكتب السياسي للحزب في الدورة الأخيرة، إلى تهديدات الغرب بوقف المساعدات الاقتصادية في حال عدم إظهار موسكو لليونة إزاء موضوع جمهوريات البلطيق، وقال: «إن الاتحاد السوفياتي دولة عظمى ولن تثمر أي محاولة لمخاطبته بلغة الأمر!».

أما «إيفان بولوزكوف» الأمين الأول للحزب الشيوعي الروسي، فقد اتهم أدعياء الديمقراطية بممارسة «نشاط تخريبي متعمد»، وقال في هجوم واضح على المعارضة الراديكالية إن الحركة المناوئة للشيوعية في الاتحاد السوفياتي مدعومة من الرأسمالية العالمية». فيما أشار «يوري بروكوفييف» عضو المكتب السياسي وزعيم منظمة الحزب الشيوعي في موسكو إلى أن المجتمع السوفياتي انقسم إلى نصفين، يطالب أحدهما بإصلاح الاشتراكية، بينما يدعو الآخر لإحياء الرأسمالية، ودعا إلى «صراع سياسي طبيعي» وعدم خوض «معركة إبادة» بين الطرفين.

ولكن إذا كان «بولوزكوف» ما زال يطرح الأسلوب السياسي للتعامل مع المتغيرات الداخلية في البلاد، فإن عدداً كبيراً من المسؤولين السوفيات الآخرين، وربما كان من بينهم الزعيم السوفياتي غورباتشوف، باتوا لا يشاركونه تماماً هذا الرأي، حتى وإن كان موقفهم هذا يخالف جزئياً أسلوب «البيروسترويكا» و«الغلاسنوست». وذلك لأن الأزمة الاجتماعية في البلاد قد بلغت، برأيهم، حدّاً خطيراً «يحتمل أن تبدأ بعده هزّات مدمرة» حسب ما أوضح بيان صدر عن اجتماع استثنائي للجنة المركزية للحزب الشيوعي في الأسبوع الماضي، وحيث اتهم البيان، القوى المناوئة للحزب الشيوعي بأنها تريد إبعاده عن الساحة السياسية وتغيير النظام الاجتماعي، ودافع عن الجيش وأجهزة الاستخبارات ووزارة الداخلية وجهودهم للحفاظ على وحدة وأمن البلاد.

لهجة مختلفة!

هنا يلفت إلى أن اللهجة التي استعملها مسؤولون سوفيات، لإيضاح السلوك الذي ستعتمده موسكو في المرحلة المقبلة في التعامل مع القوى المناوئة للحزب الشيوعي، لا توحي بالليونة إطلاقاً، بل على العكس من ذلك تشير إلى أن التشدد القريب من ذلك الذي كان يسود العهود السابقة لغورباتشوف، قد يكون اللغة السائدة. فقد أوضح نائب الزعيم السوفياتي غورباتشوف في الأمانة العامة للحزب

الشيوعي «فلاديمير إيفاشكو»، أن الجاهل أو المنحاز فقط يرى أنه توجد في الاتحاد السوفياتي قوة سياسية أخرى غير الحزب الشيوعي،، قادرة على الاطلاع بمهمة قيادة البلاد في هذه الفترة الحرجة من الإصلاح وإبقائها قوة عظمى. وأضاف: «إننا مستعدون للعمل مع من يريد أن يكون معنا(!!). لكن النجاح رهن بجهودنا في المقام الأول».

هذه اللهجة التي استبعدت كلمة «التعاون»، يرى بعض المراقبين السياسيين ان الحزب الشيوعي السوفياتي اعتمدها ليوضح أنه قرر إنهاء فترة التراجع التي طالما ركن إليها منذ بداية «البيروسترويكا» و«الغلاسنوست» في عهد غورباتشوف، والتي وصفها «إيفاشكو» بأنها كانت «ضبطاً للنفس فُسِّر كضعف»، وحيث قرر الحزب الانتقال إلى المواجهة الفعلية السياسية أو غير السياسية. وقد عبَّر نائب غورباتشوف في الأمانة العامة للحزب الشيوعي عن هذا الأمر بشنِّه هجوماً عنيفاً على من وصفها بـ «أدعياء الديمقراطية» الذين قال إنهم يشكِّلون حالياً كتلة من الأحزاب والتيارات اليمينية الهادفة إلى تغيير النظام الاجتماعي وإبعاد الحزب الشيوعي عن الساحة السياسية، وحيث أشار إيفاشكو إلى أن «الحزب الشيوعي الذي لم يكن الردع من جانبه كافياً حتى الآن؛ سيتبع أساليب جديدة».

والواقع أن خيار العودة إلى التشدّد أو إلى «الصيغة المتشدِّدة ـ المعتدلة»، حسب ما أشار مقربون للزعيم السوفياتي غورباتشوف، باتت الخيار الوحيد أمام الزعيم السوفياتي للحفاظ على تماسك الاتحاد السوفياتي وموقعه كقوة عظمى، وهو الأمر الذي يقلق الأميركيين للمرحلة المقبلة. وقد عبَّر عن ذلك وزير الدفاع الأميركي «ديك تشيني» في مؤتمر صحافي عقده في الأسبوع الماضي وتحدَّث فيه عن الاستراتيجية الأميركية الجديدة والميزانية المخصصة لها للسنوات الخمس الآتية، فقال: «وضع الاتحاد السوفياتي لا يزال مصدر الخطر الأول الذي نواجهه فيما يتعلق بالتخطيط الاستراتيجي على المدى الطويل. أعتقد أنه لا يزال من السابق لأوانه الحكم على اتجاه السياسة العسكرية السوفياتية على المدى البعيد. فنحن نشعر بقلق من أن التحركات السوفياتية باتجاه الديمقراطية والليبرالية وإجراء تخفيضات كبيرة في الإنفاق العسكري، قد لا تستمر».

وأضاف وزير الدفاع الأميركي: «إن خطط الولايات المتحدة لخفض الإنفاق العسكري خلال الأعوام الخمسة المقبلة مرهونة بالسياسة السوفياتية لا بحرب الخليج أو غيرها».

والواقع أن مجمل الصراعات السياسية التي تتفاعل داخل الاتحاد السوفياتي باتت تتركز حول المؤسسة العسكرية باعتبارها «العمود الفقري» للبلاد الذي يمكن أن يؤدي إلى تماسكها. في حال وجوده بحال سليمة عنوانها التضامن، أو إلى تفكّكها إذا أصيب بالاهتراء المترتِّب على النزاعات والمطامع السياسية للتيارات المختلفة على الساحة السوفياتية

اتهام يلتسين بإضعاف الجيش.

في هذا الإطار، يلفت إلى أن المواجهة تصاعدت في المدة الأخيرة بين قادة الجيش وبرلمان روسيا بعدما اتهموا رئيسه «بوريس يلتسين» بالعمل على شق القوات المسلحة وضرب القدرة الدفاعية للاتحاد السوفياتي. وكان عدد من الماريشالات والجنرالات السوفيات قد نشروا مؤخراً مقالات في صحيفة «روسيا السوفياتية» المقرّبة من المحافظين، اعتبروا فيها تصريحات أدلى بها «يلتسين» دعوة إلى الضباط والجنود الروس التمرد على رئيس الدولة ومجلس السوفيات الأعلى، وقالوا إن القوى التى وصفوها بـ«الهدَّامة» تريد الوقيعة بين الجنرالات والضباط وشق الجيش من الداخل. كما ذكروا أن حديث رئيس روسيا «يلتسين» عن تأسيس جيش روسي هو محاولة لضرب القدرة الدفاعية للاتحاد السوفياتي ومكانته كقوة عظمى، وطالبوا البرلمانين السوفياتي والروسي «بالنظر في موقف «يلتسين» البالغ الخطورة واتخاذ القرار المناسب»

الصيغة المعتدلة - المتشدِّدة!!.

هنا يشير المراقبون السياسيون إلى أن الزعيم السوفياتي غورباتشوف قد يكون اتجه لوضع يده في يد المحافظين لإطاحة خصمه «بوريس يلتسين» وتياره، خصوصاً في ضوء عودة اسم «إيغور ليغاتشيف» زعيم المحافظين وهو الشخص الثاني في الحزب الشيوعي السوفياتي إلى المواجهة، حيث دعا ليغاتشيف في الأسبوع الماضي خلال مقابلة أجرتها معه صحيفة «روسيا السوفياتية» إلى «إنشاء تشكيلات اجتماعية جديدة

لحماية السلطة السوفياتية(. . .) والملكية العامة في المؤسسات الصناعية وغيرها»، وحيث أكد ليغاتشيف أيضاً على أن الرئيس السوفياتي يتعرّض لهجوم «أدعياء الديمقراطية» بسبب خطواته الأخيرة التي يريد بها انتشال البلاد من الفوض، وانتقد غورباتشوف لأنه «ليبرالي ولا يبدي صلابة كافية».

وفي دلالة لا يخفي معناها، يلفت هنا إلى أن كلام ليغاتشيف جاء متزامناً مع حديث لعضو المكتب السياسي للحزب الشيوعي السوفياتي «ألكسندر دزاسوخوف» أشار فيه إلى «أجواء عاصفة» سادت اجتماع اللجنة المركزية للحزب الشيوعي بسبب توتر الوضع الاقتصادي والسياسي وتأزّم العلاقات بين المركز والجمهوريات، وحيث أشار «أندريه أرولف» المعلّق المعروف في وكالة «تاس» الرسمية إلى أن القيادة السوفياتية حسمت خيارها لمصلحة الصيغة المحافظة ـ المعتدلة في الإصلاح الاقتصادي والسياسي، فيما يجمع المراقبون السياسيون هنا على أن هذا التحوّل سيعيد إلى الحزب الشيوعي، وهو أكبر قوة سياسية منظمة، دوره في صنع القرار.

الانقلاب: ٣ أيام هزّت العالم

في خطوة فاجأت العالم عشية توقيع معاهدة الاتحاد الجديدة في موسكو، أعلنت «لجنة الدولة لحال الطوارىء» إطاحة الرئيس السوفياتي ميخائيل غورباتشوف الذي كان يمضي إجازة في شبه جزيرة القرم لأنه«عاجز عن الاضطلاع بمهماته لأسباب صحية»، وعهدت في صلاحياته إلى نائبه السيد ياناييف وفرضت حال الطوارىء لمدة ستة أشهر.

وترافق إعلان «مرسوم» إطاحة غورباتشوف الذي أكد الرئيس الروسي بوريس يلتسين أنه محتجز في مكان إقامته في القرم مع سلسلة بيانات نقلت بموجبها كل الصلاحيات على الأراضي السوفياتية إلى «لجنة الدولة» التي، وإن تكن أكّدت الاستمرار في سياسة الإصلاحات وطمأنت الخارج إلى التزام التعهدات السابقة والاتفاقات والمعاهدات، شدّدت على الحفاظ على وحدة الاتحاد وفرض النظام ولو بالقوة، في إشارة إلى الجمهوريات المتمرِّدة التي تطالب بالانفصال عن السلطة المركزية في موسكو.

وأصدر يلتسين مرسومين رفض بموجبها«شرعية»القيادة الجديدة أو التزام أوامرها ووجه دعوة إلى الإضراب المفتوح والعصيان المدني انضمّت إليها جمهوريتا ليتوانيا ولاتفيا، فيما أعلنت أذربيجان تأييدها «الأحداث الجارية في موسكو»، وتجنّبت أوكرانيا الإضراب أو إعلان عدم شرعية «لجنة الدولة».

«مرسوم الإعفاء».

ونقلت وكالة «تاس» السوفياتية الرسمية «المرسوم» الذي أعلن إعفاء الرئيس غورباتشوف وهنا نصه:

«نظراً إلى عجز ميخائيل غورباتشوف لأسباب صحية عن الاضطلاع بمهماته رئيساً لاتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية، أتولّى مهمات رئيس اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية اعتباراً من التاسع عشر من آب ١٩٩١ استناداً إلى الفقرة السابعة من المادة ١٢٧ من الدستور».

غينادي ياناييف

«نائب رئيس
اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية
١٨ آب ١٩٩١».

إعلان القيادة الجديدة

وبعد وقت قصير، بثت إذاعة موسكو وأوردت« تاس» إعلاناً للقيادة السوفياتية الجديدة فسَّر أسباب إعفاء ميخائيل غورباتشوف وأعلن إنشاء« لجنة الدولة لحال الطوارىء» التي كلفت قيادة البلاد وتطبيق نظام حال الطوارىء. وهنا نص الإعلان:

«نتيجة عجز ميخائيل سيرغييفيتش غورباتشوف لأسباب صحية عن تولي مهمته رئيساً لاتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية،

ونتيجة انتقال سلطات رئيس اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية طبقاً للفقرة ٧ من المادة ١٢٧ من الدستور السوفياتي إلى نائب رئيس اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية غينادي إيفانوفيتش ياناييف،

ومن أجل تخطي الأزمة العميقة والواسعة والفوضى التي تهدِّد حياة مواطني الاتحاد السوفياتي وأمنهم وسيادة وطننا وسلامة أراضيه واستقلاله،

ونظراً إلى نتيجة الاستفتاء الوطني على بقاء اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية،

وبدافع الحرص على المصالح الحيوية لجميع الاتنيات التي تعيش في وطننا وعلى الشعب السوفياتي،

نقرر:

١ ـ طبقاً للفقرة الثالثة من المادة ١٢٧ من دستور اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية وللمادة الثانية من القانون السوفياتي في شأن «النظام القانوني لحال الطوارىء»، وتلبية لمطالب الجماهير الشعبية الواسعة باتخاذ أكثر الاجراءات حزماً لمنع انزلاق المجتمع نحو كارثة وطنية ولتأمين الأمن والنظام، نعلن حال الطوارىء في بعض أنحاء الاتحاد السوفياتي لمدة ستة أشهر اعتباراً من ١٩ آب عند الساعة ٤,٠٠ بتوقيت موسكو.

٢ ـ إن لدستور الاتحاد السوفياتي وقوانينه أولوية غير مشروطة على جميع أراضي الاتحاد السوفياتي.

٣ ـ إنشاء لجنة دولة لحال الطوارىء في الاتحاد السوفياتي مكلفة قيادة البلاد وتطبيق نظام حال الطوارىء بطريقة فاعلة. وهي تضم:

- أوليغ باكلانوف النائب الأول لرئيس مجلس الدفاع في الاتحاد السوفياتي.
- فلاديمير كريوتشكوف رئيس (جهاز أمن الدولة) الـ «كي. جي. بي.».
- فالنتين بافلوف رئيس وزراء الاتحاد السوفياتي.
- بوريس بوغو وزير الداخلية في الاتحاد السوفياتي.
- فاسيلي ستارودوبتسيف رئيس اتحاد الفلاحين في الاتحاد السوفياتي.
- الكسندر تيزياكوف رئيس رابطة مؤسسات الدولة والمنشآت الصناعية ومنشآت البناء والنقل والاتصالات في الاتحاد السوفياتي.
- ديميري يازوف وزير الدفاع في الاتحاد السوفياتي.
- غينادي ياناييف الرئيس الحالي للاتحاد السوفياتي.

٤ ـ إن قرارات لجنة الدولة لحال الطوارىء يجب أن تطبقها إلزامياً بحرفيتها هيئات السلطة والإدارات والمسؤولين والمواطنين في جميع أراضي الاتحاد السوفياتي.

التوقيع:

غينادي ياناييف

فالنتين بافلوف

أوليغ باكلانوف

نداء «لجنة الدولة»

وتلا الإعلان «نداء من لجنة الدولة لحال الطوارئ» موجّه إلى «مواطنينا. . . مواطني الاتحاد السوفياتي»، هنا نصه:

«إننا نتوجّه إليكم في هذه الساعة الحرجة والخطيرة بالنسبة إلى مصائر وطننا وشعوبنا. هناك خطر كبير يهدّد وطننا الكبير.

إن سياسة الإصلاحات التي أطلقت بمبادرة من ميخائيل س. غورباتشوف(. . .) وصلت إلى طريق مسدود. فالجمود واليأس حلاً محل الآمال وحماسة البداية. السلطات على كل المستويات فقدت ثقة الشعب.

إن قوات متطرفة أفادت من الحريات التي منحت فاستولت على أول أغصان الديمقراطية وانكبّت على تصفية الاتحاد السوفياتي وعلى التسبّب في إفلاس الدولة وعلى السيطرة على السلطة بأي ثمن كان.

إن الرهانات الباردة على العواطف القومية ليست سوى ستائر لإشباع الطموحات.

اليوم يطلب من الذين يعملون في الواقع على قلب النظام الدستوري تقديم حسابات إلى الأمهات والآباء لمئات الضحايا التي سقطت في الصراعات الاتنية.

إنهم يتحمّلون مسؤولية مصير أكثر من نصف مليون لاجىء. إنهم يتحمّلون أيضاً اللوم لأنهم حرموا مئات الملايين من السوفيات الطمأنينة وبهجة العيش. هؤلاء السوفيات الذين كانوا يعيشون في إطار عائلة كبيرة وباتوا اليوم مثل منبوذين داخل بيتهم.

كان للأزمة في السلطة انعكاسات كارثية على الاقتصاد. فالتحرك الفوضوي والعفوي نحو اقتصاد السوق تسبّب في تفجّر الأنانيات الإقليمية والمحلية ولدى المجموعات والأفراد.

وأدّت حرب القوانين وتشجيع اتجاهات الابتعاد عن المركز إلى تدمير آلية الاقتصاد المخطط على المستوى الوطني والذي طبق طوال عقود. وكانت النتيجة

انخفاضاً مفاجئاً في مستوى معيشة غالبية الشعب السوفياتي ونمو الاقتصاد الموازي والمستفيدين.

ولا مرة في التاريخ الوطني وصل انتشار الجنس وتفشّي العنف إلى هذا المستوى مما يهدِّد صحة الأجيال المقبلة ووجودها. هناك ملايين من الأشخاص الذين يطالبون باتخاذ تدابير لمكافحة أخطبوط الجريمة وانعدام الأخلاق.

إن عدم الاستقرار المتزايد للوضع الاقتصادي والسياسي في الاتحاد السوفياتي يقوِّض مواقعنا في العالم.

نريد إعادة الأمن والنظام على الفور ووقف نزف الدماء وإعلان حرب من دون رحمة على المجرمين والقضاء على الظواهر المعيبة التي تسيء إلى سمعة مجتمعنا وتفسد المواطن السوفياتي. سننظف شوارع مدننا من العناصر المجرمة وسنضع حداً للممارسات التعسفية للذين ينهبون الثروة الوطنية.

حرصنا الأول هو على تسوية مشكلات الإسكان والتموين. وستكرس كل القوى الضرورية لذلك، إذ أن الأمر يتعلَّق بالاحتياجات الأساسية للشعب.

إننا نعلن بحزم أننا لن نسمح لأحد بالتعرض لسيادتنا واستقلالنا على كل أراضينا. وسيتم إفناء أي محاولة من أي جهة أتت ليملي على بلدنا سلوكه».

«القرار رقم ١»

وألحقت اللجنة بياناتها السابقة بـ «القرار الرقم ١» الذي حظَّر الإضرابات والتظاهرات وفرض الرقابة على الصحف ووضع كل السلطات والإدارات السوفياتية تحت الرقابة وأحال من يخالف على القضاء بعد توقيفه. وهنا نص القرار كما أوردته نشرة «ساب» الرسمية:

«بهدف حماية المصالح الحيوية لشعوب الاتحاد السوفياتي ومواطنيه واستقلال البلاد ووحدة أراضيها، وبسط القانون والنظام، واستقرار الوضع، وإزالة الأزمة الصعبة، وقطع الطريق على الفوضى والاضطرابات والحرب الأهلية بين الأخوة، تقرِّر لجنة الدولة لحال الطوارىء ما يلي:

١ ـ يطلب من كل أجهزة السلطة والإدارة للاتحاد السوفياتي والجمهوريات ذات

الحكم الذاتي والمقاطعات والأقاليم والمدن والمناطق والبلدات والقرى تأمين المراعاة الصارمة لنظام حال الطوارىء بموجب قانون الاتحاد السوفياتي الخاص بحال الطوارىء، وقرارات لجنة الدولة لحال الطوارىء في الاتحاد السوفياتي.

وفي حال عجز السلطة والإدارة المعنية عن تنفيذ هذا النظام تتوقف صلاحيات هذه الأجهزة ويعهد في تنفيذ وظائفها إلى شخصيات مكلفة خصيصاً في لجنة الدولة لحال الطوارىء في الاتحاد السوفياتي.

٢ ـ تحل فوراً بنى السلطة والإدارة والتنظيمات العسكرية العاملة خلافاً لدستور الاتحاد السوفياتي والقوانين السوفياتية.

٣ ـ تعتبر لاغية القوانين والقرارات التي اتخذتها أجهزة السلطة والإدارة والتي تتعارض ودستور الاتحاد السوفياتي والقوانين السوفياتية.

٤ ـ وقف نشاطات الأحزاب السياسية والمنظمات الاجتماعية والحركات الجماهيرية التي تعرقل تطبيع الوضع.

٥ ـ بما أن لجنة الدولة لحال الطوارىء في الاتحاد السوفياتي تتولى مؤقتاً وظائف مجلس الأمن في الاتحاد السوفياتي، يتوقَّف نشاط الأخير.

٦ ـ يطلب من المواطنين والمؤسسات والمنظمات أن تسلِّم فوراً كل أنواع الأسلحة النارية والذخائر والمتفجرات والتقنية والتجهيزات الحربية التي في حوزتهم. ويطلب من وزارة الداخلية والـ «كي . جي . بي . » ووزارة الدفاع في الاتحاد السوفياتي تطبيق هذا الأمر، بصرامة. وفي حال رفض الامتثال للأوامر تصادر الأسلحة المشار إليها بصورة إلزامية ويتحمل المخالفون المسؤولية الجنائية والإدارية.

٧ ـ يطلب من النيابة العامة ووزارة الداخلية والـ « كي . جي . بي . » ووزارة الدفاع في الاتحاد السوفياتي تنظيم أعمال أجهزة الأمن والقوات المسلحة وتنسيقها في تأمين حماية النظام الاجتماعي وأمن الدولة والمجتمع والمواطنين بموجب قانون الاتحاد السوفياتي الخاص بحال الطوارىء وقرارات لجنة الدولة لحال الطوارىء في الاتحاد السوفياتي.

تمنع الاجتماعات والمسيرات والتظاهرات في الشوارع وكذلك الإضرابات.

عند الضرورة يفرض نظام منع التجول وتسيير الدوريات والتفتيش، وتتخذ التدابير اللازمة لتعزيز نظام مراقبة الحدود ونقاط الجمارك.

وضع الرقابة، وإقامة الحراسة عند الضرورة على المنشآت الحكومية والاقتصادية الرئيسية، وكذلك المرافق الحياتية.

العمل بحزم في قطع الطريق على بثّ الإشاعات والممارسات التحريضية والمخالفات الاستفزازية للقانون، وإذكاء النعرات القومية، والتمرد على المعنيين بتطبيق نظام حال الطوارىء.

٨ - فرض الرقابة على وسائل الإعلام وتكلف تطبيقها هيئة خاصة تشكل لدى لجنة الدولة لحال الطوارىء في الاتحاد السوفياتي.

٩ - يطلب من أجهزة السلطة والإدارة ورؤساء المؤسسات والإدارات اتخاذ الاجراءات اللازمة لرفع مستوى الانتظام واستتباب النظام والانضباط في كل مجالات حياة المجتمع، وتأمين ظروف العمل الطبيعي للمؤسسات في كل فروع الاقتصاد الوطني والتنفيذ الصارم لتدابير حماية العلاقات العمودية والأفقية وتعزيزها خلال مرحلة التطبيع بين الجهات الاقتصادية على جميع الأراضي السوفياتية، والتنفيذ الصارم للأحجام المقرّرة من الإنتاج ومشتقات المواد الخام والمواد التي تكمل المصنوعات.

إقرار نظام الاقتصاد الصارم في الموارد المادية والتقنية والعملة الصعبة وتطبيقه.

صوغ تدابير مكافحة التخريب الاقتصادي وتبديد خيرات الشعب وتطبيقه.

التشدّد في مكافحة اقتصاد الظل وفرض المسؤولية الجنائية والإدارية في حال الرشوة والفساد والاختلاس والتهريب وإخفاء السلع عن المواطنين والتخريب الاقتصادي وغيرها من المخالفات في مجال الاقتصاد.

توفير الظروف الملائمة لزيادة المساهمة الفعلية لكل أصناف النشاطات العملية التي تمارس بموجب قوانين الاتحاد السوفياتي في قدرة البلاد الاقتصادية وتلبية حاجات السكان الملحة.

١٠ - يمنع الجمع بين العمل في بنى السلطة والإدارة بصورة دائمة ومزاولة عمل حر.

١١ ـ يطلب من مجلس وزراء الاتحاد السوفياتي القيام في مهلة أسبوع واحد بجردة شاملة لكل موارد المواد الغذائية والسلع الصناعية الاستهلاكية الضرورية وإطلاع الشعب على ما تملك البلاد وفرض الرقابة الشديدة على حمايتها وتوزيعها.

إلغاء كل القيود التي تعرقل انتقال المواد الغذائية والسلع الاستهلاكية في أراضي الاتحاد السوفياتي وكذلك الموارد المادية الخاصة بإنتاجها وتطبيق هذا النظام بصرامة.

إيلاء تجهيز المؤسسات ما قبل المدرسية ودور الأطفال والمدارس والمؤسسات المهنية المتوسطة والدراسية العليا والمستشفيات وكذلك المتقاعدين والعجزة بالتجهيزات الأساسية الضرورية، اهتماماً خاصاً.

العمل خلال مهلة أسبوع واحد على صوغ مقترحات في شأن تنظيم أسعار بعض السلع الصناعية والغذائية، وتجميدها وخفضها، ولا سيما منها المخصّصة للأطفال، وخدمات المواطنين والتغذية الاجتماعية، وكذلك رفع الأجور ومعاش التقاعد والإعانات والتعويضات لمختلف فئات السكان.

العمل في مهلة أسبوعين على اتخاذ التدابير الخاصة بتنظيم أحجام أجور رؤساء مؤسسات الدولة والمؤسسات الاجتماعية والتعاونية والمنظمات الأخرى على مختلف مستوياتها.

١٢ ـ نظراً إلى الوضع الصعب في شأن جمع المحاصيل، وخطر المجاعة، تتخذ اجراءات استثنائية لتنظيم جمع المحاصيل الزراعية وحفظها ومعالجتها.

تقديم أقصى مساعدة ممكنة إلى العمال الزراعيين في الآليات وقطع الغيار والوقود والشحوم وغيرها.

العمل فوراً على تنظيم إرسال عمال المؤسسات والمنظمات ومستخدميها والعسكريين والطلاب بالأعداد الضرورية إلى الريف لإنقاذ المحاصيل.

١٣ ـ يطلب من مجلس وزراء الاتحاد السوفياتي العمل في غضون مهلة أسبوع واحد على اتخاذ قرار يلحظ تأمين قطعة أرض مساحتها ١٥ في المئة من الهكتار لكل راغب من سكان المدينة خلال سنتي ١٩٩١ ـ ١٩٩٢ لاستخدامها بستاناً أو حديقة.

١٤ ـ يطلب من مجلس وزراء الاتحاد السوفياتي الانتهاء في غضون أسبوعين من صوغ تدابير عاجلة خاصة بإخراج مجمع الطاقة والوقود في البلاد من الأزمـة والتحضير لفصل الشتاء.

١٥ ـ إعداد التدابير الفعلية في غضون شهر واحد في شأن تحسين البناء السكني وتأمين السكان بالمسكن خلال سنة ١٩٩٢ وإطلاع الشعب عليها.

وضع برنامج محدَّد خلال نصف سنة في شأن تعجيل تطوير البناء السكني خلال مهلة خمس سنوات وذلك على مستوى الدولة والتعاونيات والأفراد.

١٦ ـ إلـزام(أجهزة السلطة والإدارة) في المـركز ومحليـاً إيلاء حـاجات السكـان الاجتماعية وإيجاد إمكانات تحسين الخـدمات الـطبية المجـانية والتعليم الشعبي المجـاني تحسيناً جذرياً، الاهتمام الأولى».

موسكو: يوم العودة

٢١ آب: فشل انقلاب الجيش والـ K.G.B. وعودة غورباتشوف إلى السلطة.

من السابق لأوانه حالياً تسليط الأضواء على كامل الأسباب لفشل الانقلاب، فقد يكون الكثير منها مخفياً قد يظهر أو قد يختفي إلى الأبد في المستقبل وخصوصاً ما يتعلق بمجموعة الانقلاب أنفسهم ومدى قدرة القوى الخارجية على التدخل الداخلي والاطمئنان الحار الذي أغدقوه على معارضي الداخل لعملية الانقلاب(*).

لكن هناك حقائق اتضحت من خلال مسار عملية الانقلاب اليومية ومن خلال كل المواقف الداخلية والخارجية، أمكنت ولو بشكل حذر أيضاً من تسليط الأضواء على بعض جوانب الفشل للانقلاب التي تندرج معظمها ضمن عوامل داخلية تتعلّق بسرعة التحرك العسكري للانقضاض على السلطة دون تخطيط مسبق وبقاء المعارضين للانقلاب أحراراً في تحركاتهم ومعارضتهم، بقاء وسائل الإعلام باستلام القوى المعارضة للانقلاب، عدم الحسم في اتخاذ القرارات السياسية لضرورات السيطرة، العجز عن تقديم البديل لسياسة البيروسترويكا، مخاطبة غورباتشوف بأنه الرئيس العائد ولا عداء معه أو مع سياسته الانفتاحية نحو الغرب، التعهد باحترام كل المعاهدات والمواثيق السابقة ومنها اتفاقية ستارت المذلّة بشروطها لدولة عظمى كالاتحاد السوفياتي، عدم التجانس بين قادة الانقلاب (أستقالة وزير الدفاع ومسؤول الـ «كي.جي.بي.» وتوعك رئيس الوزراء ثاني يوم الانقلاب)، فضلاً عن غياب برنامج الحركة الاقتصادي والسياسي والاجتهادات كثيرة في هذا المجال بتعداد الأسباب.

(*) اتصال جورج بوش وجون ميجور وهيلموت كول وفرانسوا ميتران ببوريس يلتسين رئيس روسيا والمعارض الأول للانقلاب داخليا.

أمَّا العوامل الخارجية فلا شك كان لها تأثير كبير في عزل الانقلاب تمهيداً للانقضاض عليه من الداخل وتمثَّلت هذه العوامل المعلنة على الأقل بمواقف كل الدول الغربية بوقف المساعدات الاقتصادية وعدم الاعتراف بالنظام الجديد، فضلاً عن التحريض على مقاومته وتقديم أقصى المساعدات لذلك.

وقد تكشف الأيام المقبلة أدواراً حاسمة وهامة لعبتها قوى المعارضة سواء الداخلية أو الخارجية في الإجهاض على الانقلاب.

ومما يلفت النظر هنا أن من بين القتلى العشرة في أولى الصدامات الدامية لاحتلال مبنى البرلمان الروسي كان واحد يحمل الجنسية الأميركية مما يطرح سؤالاً شرعياً هنا: ماذا كان يفعل هناك؟ ثم أعيد القول إنهم ثلاثة قتلى فقط دون ذكر البقية.

المطلوب: رأس الـ K.G.B. والجيش والحزب

أول الأجهزة التي ستدفع ثمن فشل الانقلاب هو بالتأكيد الجهاز العسكري (كي. جي. بي. والجيش النظامي) اللذان شكّلا رأس الحربة في قيادة قوات الانقلاب.

فالـ (كي. جي. بي.) الذي تكفّل بإلقاء القبض على الرئيس غورباتشوف ومساعديه في القرم والذي تعامل مع معارضي انقلابه بنعومة ولطافة زائدتين غير مألوفة ومستغربة قياساً على تاريخه القمعي الطويل وطبيعة تكوينه سيكون بلا شك أول ضحايا عودة غورباتشوف إلى السلطة.

من هنا بدأت الصيحات الأولى اليوم تنادي بتقليم أظافر هذا الجهاز والحد من صلاحياته ومهامه الواسعة وردعه من أن يكون دولة ضمن الدولة وجهاز مرعب لكل مؤسسات الشرعية الدستورية.

وسط كل هذا الاستنكار والشجب المصطنع يخشى أن يفقد هذا الجهاز التاريخي دوره وقوته في داخل الاتحاد السوفياتي وخارجه تحت حجج ضبطه وتصفية العناصر المشكوك الولاء بها للشرعية وللإصلاحات، وهذا بالتأكيد ليس فقط مطلب الإصلاحيين الروس وحدهم، بل هو بالأساس المطلب الملح والهم الدائم للولايات المتحدة الأميركية وللحلف الأطلسي للانتهاء من هذا الكابوس الخطير الذي لم يذقهم طعم الراحة طوال عشرات السنين السابقة، كل ذلك من أجل استكمال الترويض والخنوع للدب الروسي.

أما الجيش والحزب الشيوعي فألف سبب وسبب يدعو الإصلاحيين الروس ليتكلّموا اللغة الأميركية ولغة حلف الأطلسي في الدعوة إلى تحجيم الدور العملاق للجيش السوفياتي الضارب وإنهاء أي دور للحزب الشيوعي في الحياة السياسية والاجتماعية للاتحاد السوفياتي.

الرئيس الجديد للـ «كي.جي.بي.»

ليونيد شيبارشين:

يغياب أية معلومات تفصيلية عنه، إلَّا أنه يعتبر من المتشدِّدين المحافظين، وهذا ما أثار ردة فعل أولية لدى الدوائر الأميركية التي قابلت هذا التعيين بشيء من الاستياء وعدم الرضى.

شغل عام ١٩٧٩ رئاسة الـ «كي . جي . بي . » في إيران وله نشاطات ملحوظة وهامة في تلك الحقبة.



إعدام مؤسس الـ «كي . جي . بي . » فيليكس دزرجينسكي



بعد إعدام لينين . . .

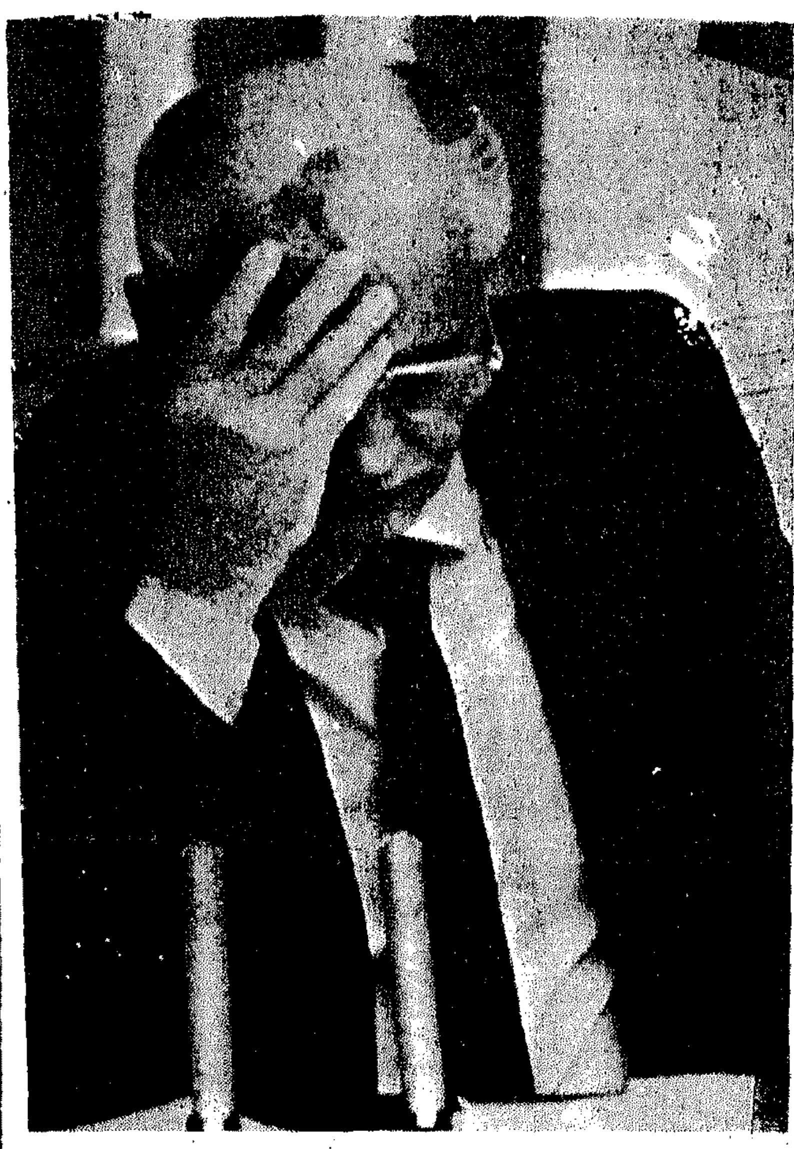


دبابات الانقلاب تحاصر البرلمان الروسي.

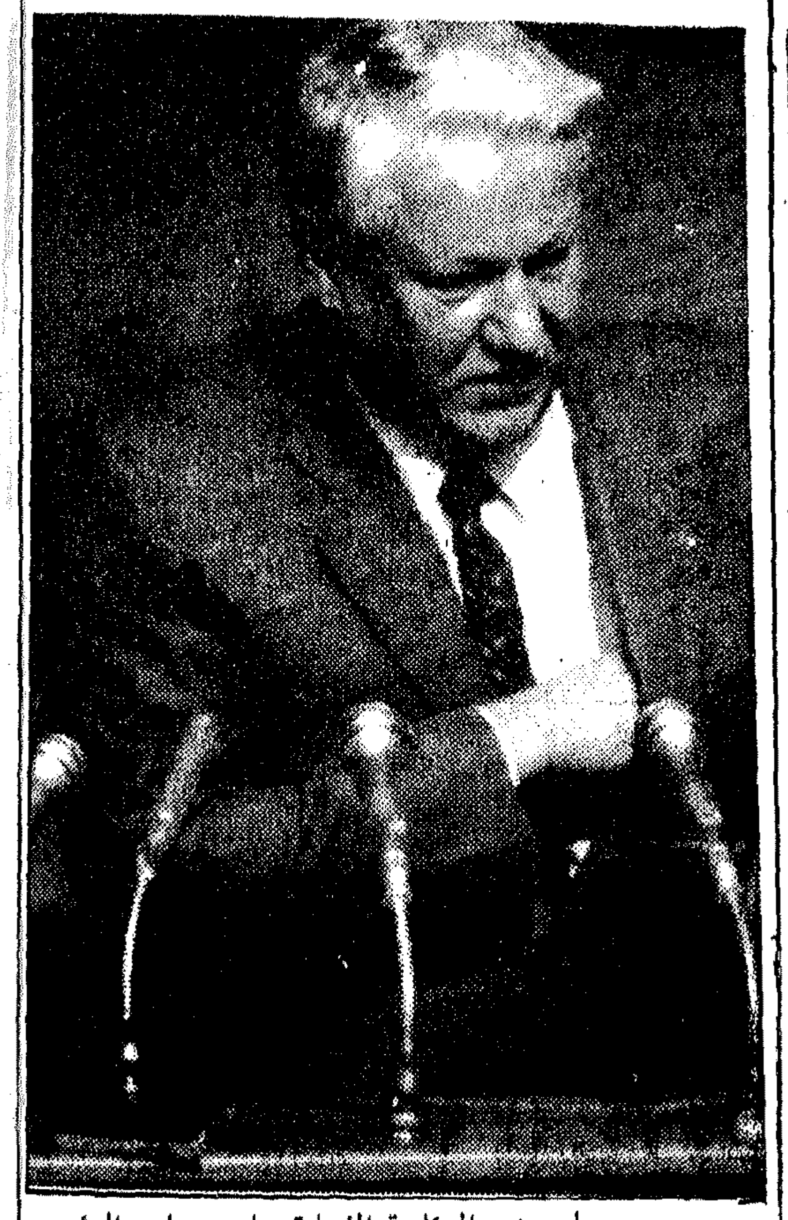
قيادة الانقلاب الفاشل



التصدي للانقلاب.



غورباتشوف: الاعتقال لثلاثة أيام.. رئيس بلا رئاسة



بوريس يلتسين: الرئاسة الفعلية على حساب الرئيس.

في هذا الكتـاب

- ثورة الاستخبارات
- ثورة في المهنة
- من يتحكّم بمن: الدولة أم الاستخبارات؟
- الحصول على المعلومات الاستخبارية
- فوشيه: أبو المخابرات الحديثة
- الاستخبارات الألمانية
- الاستخبارات الفرنسية
- الاستخبارات البريطانية
- الاستخبارات الصينية الشيوعية
- الاستخبارات المركزية الأميركية .C.I.A
- الاستخبارات السوفياتية .K.G.B
- الشاباك ○ الموساد
- ملف التجسس العربي في اسرائيل
- رأفت الهجّان: عشرون عاما جاسوسا لمصر في اسرائيل
- عملية الحفّار: الصراع المرير بين المخابرات المصرية والاسرائيلية
- أسلحة الجواسيس ○ مذكرات الجواسيس
- التجسس الاسرائيلي لا يزعج البيت الأبيض.

الـ .K.G.B: الانقلاب الفاشل على غورباتشوف اب ١٩٩١

دار الحسام
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان